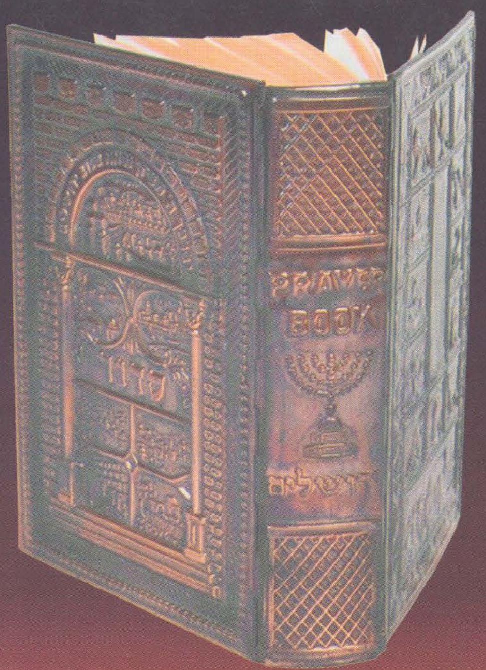
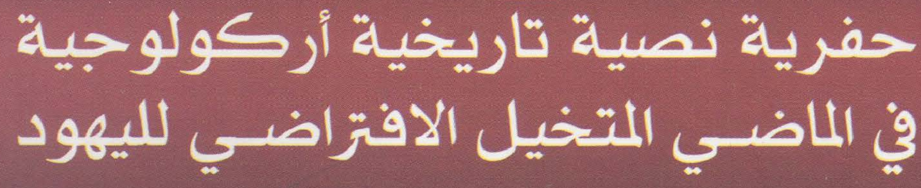
د. إسماعيل ناصر الصمادي

التأريخ التاريخي مابين السبي البابلي وإسرائيل الصهيونية

التأريخ التوراتي المزيف

بين
إسرائيل الكنعانية
وإسرائيل العبرية
وإسرائيل الصهيونية







التأريخ التاريخي ما بين
السبي البابلي
و إسرائيل الصهيونية

الكتاب الثالث

د. إسماعيل ناصر الصمادي

التأريخ التاريخي ما بين السبي البابلي و إسرائيل الصهيونية

التأريخ التوراتي المزيف

بين

إسرائيل الكنعانية

وإسرائيل العبرية

وإسرائيل الصهيونية

حفرية نصية تاريخية أركولوجية

في الماضي المتخيل الافتراضي لليهود

الكتاب الثالث

رقم

منشورات دار علاء الدين

- **التأريخ التاريخي ما بين السبي البابلي وإسرائيل الصهيونية**

الكتاب الثالث

- **تأليف: د. إسماعيل ناصر الصمادي.**
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- **هيئة التحرير في دار علاء الدين:**

- الإدارة والإشراف العام: **م. زويا ميخائيلينكو.**
- التدقيق اللغوي: **صالح جاد الله شقير.**
- المتابعة الفنية والإخراج:

أسامة راشد رحمــة.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

الباب الأول

ما بين السبي والشتات

الفصل الأول

السبي البابلي
بين العهدين الكلداني والفارسي

العهد الكلداني

كان الآشوريون قد استطاعوا في عهد عاهلهم أسرحدون أن يمتدوا بإمبرطوريتهم على القارات القديمة الثلاث، فقد كانوا يسيطرون على كامل الشرق الأدنى القديم، كما أنهم وصلوا إلى شواطئ اليونان في القارة الأوربية، كما أخضعوا مصر كاملة، وبعض المناطق المتاخمة لها من شمال أفريقية، ولكن هذه الإمبراطورية التي لم يكن قد شهد لها التاريخ مثيلا من قبل، سرعان ما بدأت بالتفكك في عهد الملك آشور بني بعل (٦٦٩ - ٦٢٩ق.م)، وبدأت الأقاليم المترامية الأطراف تعلن تمردها، وقد قام البابليون الذين كانوا يستوطنون في جنوب بلاد الرافدين باستغلال الفرصة، حيث أعلن قائدهم نابوبولاصر (٦٢٥ - ٦٠٦ق.م) تمرده على الآشوريين، وفي سنة ٦١٤ قبل الميلاد استطاع، بالتحالف مع الميديين، تدمير العاصمة آشور، ثم وبعد سنتين احتل العاصمة الآشورية الثانية نينوى، ثم استطاع أن يشتت ما تبقى من الجيش الآشوري الذي كان قد تحصن في مدينة حران، كما أن قائد الجيش نبوخذ نصر استطاع نحو سنة ٦٠٦ قبل الميلاد دحر القوات المصرية في معركة كركميش، والتي كانت قد قدمت من مصر بقيادة نخو لنصرة حلفائهم الآشوريين، وهكذا سيطر البابليون على بلاد الرافدين، وفي قفزة نوعية استطاع الملك الكلداني نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ق.م) أن يمضي بقواته متجها نحو مصر، وفي طريقه أخضع الممالك السورية، ومنها مملكة يهوذا.

كان نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ق.م) قد قام بعدة حملات عسكرية، قبل، وبعد تربعه على العرش الملكي، منها ما نفذه على مملكة يهوذا التي سباها أربع مرات متوالية في

غضون عشرين عاما، كان آخرها الدمار الكبير والأخير لتلك المملكة سنة ٥٨٦ قبل الميلاد، وكان قد ابتدأها سنة ٦٠٦ قبل الميلاد - حين كان يشارك والده الحكم - بحملة على مملكة يهوذا، والتي كان يحكمها حين ذاك يهوياكين (٥٩٨ - ٥٩٧ق.م)، حيث استولى من خلالها على كنوز الهيكل المقدس في أورشليم، كما أنه قام باقتياد عدد من الأسرى، كان من بينهم عائلة النبي دانيال الذي كان عمره قرابة الخمس سنوات، حسب ما يذهب إليه بعض المؤرخين التوراتيين، وفي سنة ٥٩٧ قبل الميلاد أعاد نبوخذ نصر الكرة ثانية، وأخذ يهوياكين أسيرا ومعه قرابة عشرة آلاف من الأسرى، وقام بتعيين صدقيا (٥٩٧ - ٥٨٦ق.م) ملكا بدلا عن يهوياكين، ولكن الملك الموالي لآشور صدقيا كان أسير خلافات سياسية تمثل تيارين، أو حزبين: الأول، يمكن تسميته بالمصري، وكان يحرّض، ويضغط على صدقيا من أجل التمرد على بابل والتحالف مع مصر، والتيار الثاني، يمكن تسميته بالبابلي، والذي كان يمثله النبي إرميا، الذي كان يرى أن خلاص محنة مملكة يهوذا لن يتحقق إلا بالخضوع والطاعة لملك بابل، وقد خضع صدقيا، بعد صراعات سياسية بين الحزبين، للتيار الموالي لمصر، فتآمر مع ملك مصر وتمرد على بابل، فما كان من نبوخذ ناصر إلا أن بعث بجيشه بقيادة نبوزردان إلى يهوذا وحاصرها، فهب فرعون مصر لنجدة حلفائه، فاضطر الكلدانيون إلى رفع الحصار عن أورشليم لمقابلته، ولكن الفرعون نكص عائدا دون الدخول في معركة خاسرة مع البابليين، فعاد نبوزردان إلى حصار يهوذا ثانية، وفي هذه الأثناء تم حبس النبي إرميا بتهمة الخيانة، وفي سنة ٥٨٦ قبل الميلاد سقطت أورشليم، وقام الجيش البابلي بتدميرها نهائيا في الرابع عشر من تموز سنة ٥٨٦ قبل الميلاد، وأُسر صدقيا الذي كان قد استطاع أن يتسلل من ثغرة في سور أورشليم، بعد أن انفض قادته من حوله، وقبض عليه في أريحا، واقتيد إلى ربلة في أرض حماة حيث يقيم نبوخذ ناصر، وبعد أن تم قتل أبناء صدقيا على مرأى من نظر صدقيا، سُملت عيناه بحضور ملك بابل نبوخذ ناصر، والذي أخذ معه ٨٣٢ أسيرا، وقد عين نبوخذ ناصر جدليا بن أخيقام والياً على من تبقى من الشعب في مملكة يهوذا، وجعل مقره في المصفاة، بعد أن أفرز له حامية بابلية، وهناك انضم النبي إرميا إلى جدليا، بعد أن قام كان البابليون قد فكوا أسره، وقد قام إسماعيل بن نثنيا من النسل الملكي بقتل جدليا، ثم التجأ ومن معه إلى بني عمون، ومن هناك وخوفا من الانتقام البابلي فر الجميع نحو مصر، وقد أخذوا معهم النبي إرميا، دون رضاه.

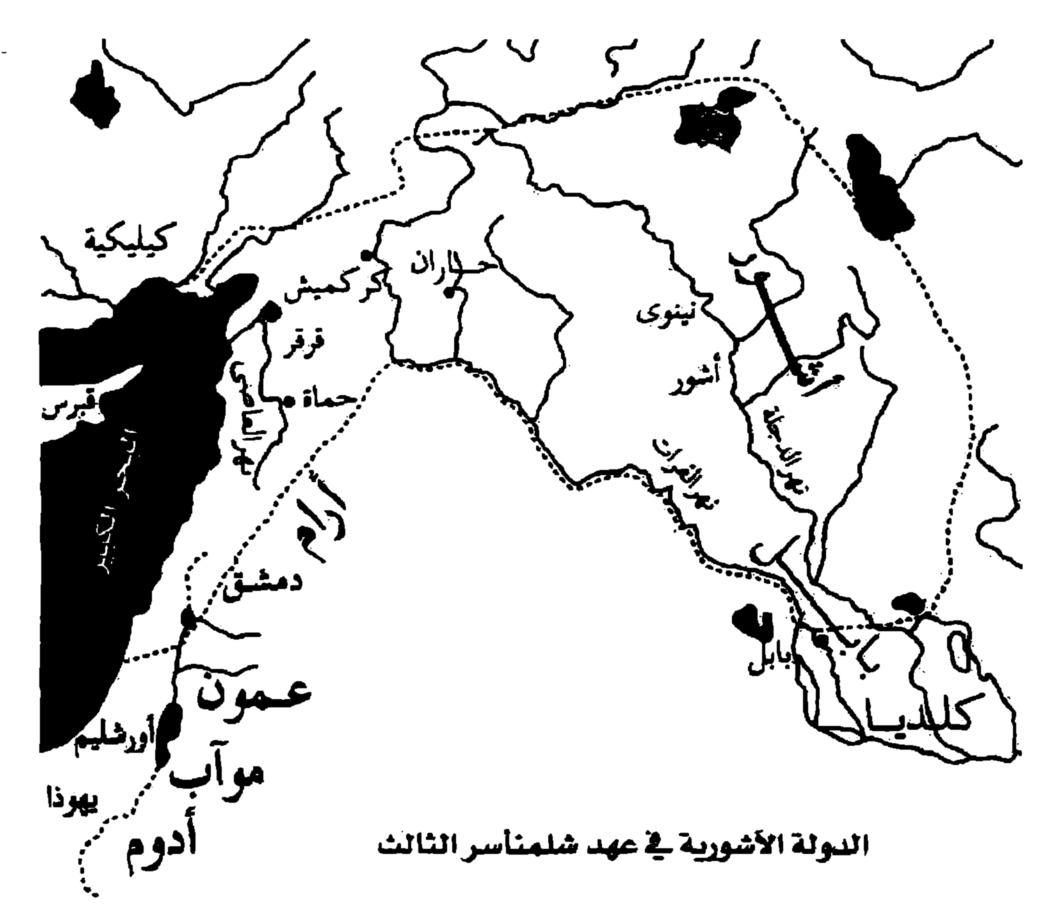
وفي سنة ٥٨١ قبل الميلاد عاد نبوزردان قائد جيش نبوخذ ناصر للمرة الرابعة على خرائب مملكة يهوذا، وأخذ منها ٧٤٥ أسيرا، وحسب سفر إرميا فإن الأسر تم على ثلاث دفعات:

الأولـــى	كانت في سنة ٥٩٧ قبل الميلاد،	وكان عدد المسبيين	٣٠٢٣
والثانيـــة	كانت في سنة ٥٨٩ قبل الميلاد،	وتم ســــــــــبي	٨٣٢ نفساً
والثالثـــة	كانت في سنة ٥٨١ قبل الميلاد،	وتم ســــــــــبي	٧٤٥ نفساً

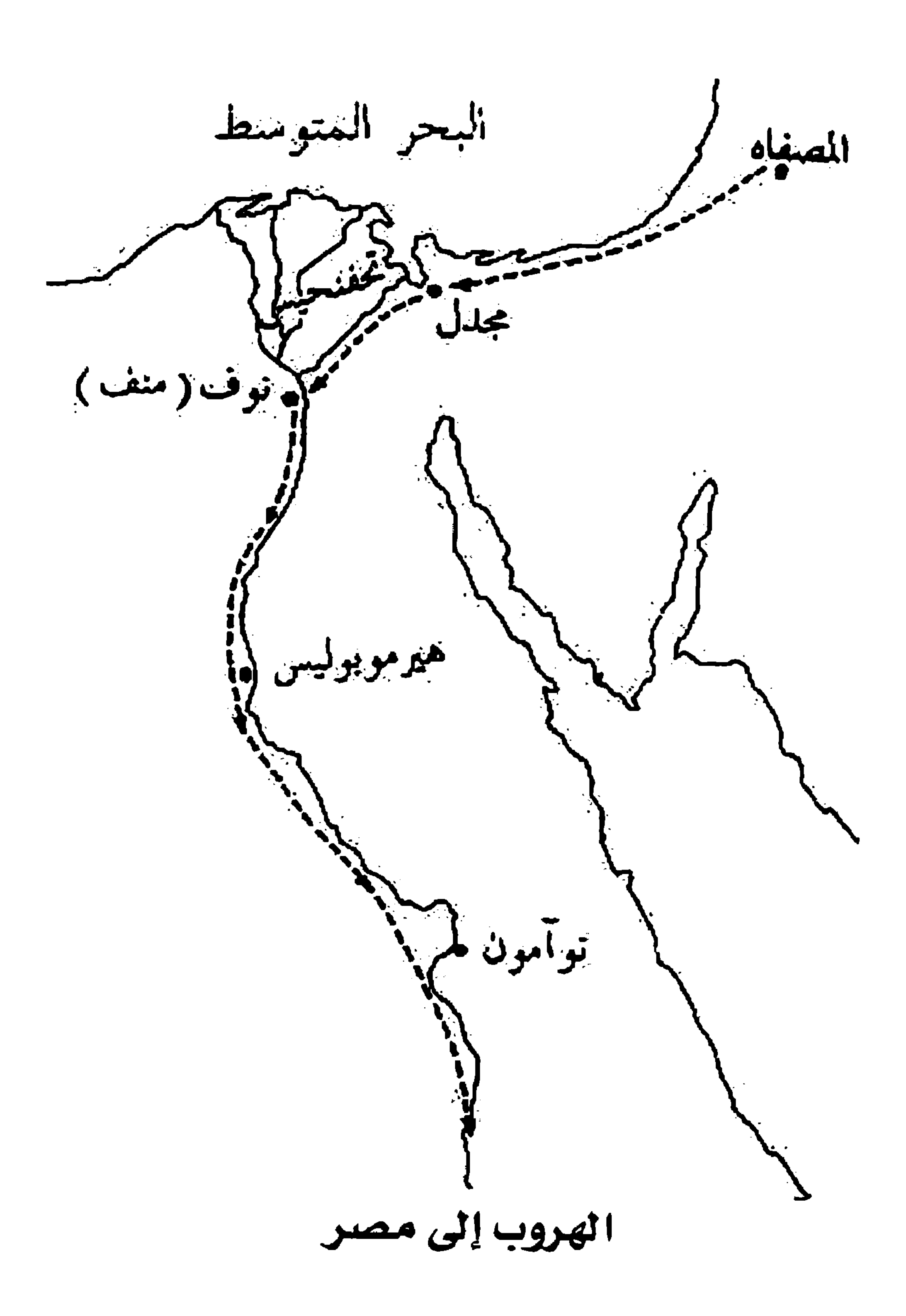
ويـــــذلك يكـــــون جملـــــة النفـــــوس: أربعـــة آلاف وســـت مئـــة

ولكن سفر الملوك الثاني يذكر أن نبوخذ ناصر كان قد سبى في سنة ٥٩٧ قبل الميلاد ثمانية آلاف إنسان من مملكة يهوذا.

وحكم بعد نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ق.م)، الذي كان العمود الفقاري للملكة البابلية الجديدة، خمسة ملوك تدرجت خلالها المملكة البابلية بالضعف والوهن، وكان أولهم أويل مردوخ ابن نبوخذ ناصر، وآخرهم بلشاصر الذي كان يحكم باسم أبيه نبونيدس الذي ترك قصره في بابل، وذهب ليتعبد للقمر في مدينة تيماء، وفي النهاية سقطت الإمبراطورية مركزيا بسقوط بابل بيد الفرس بقيادة قورش في سنة ٥٣٩ قبل الميلاد.



الدولة الأشورية في عهد شلمناسر الثالث



الهروب إلى مصر

العهد الفارسي

كان الميديون الإيرانيون الذين يعيشون على الضفة الشرقية من نهر دجلة، قد استطاعوا في سياق تلاشي الإمبراطورية الآشورية، أن يأخذوا استقلالهم، وأن يؤسسوا في حدود القرن السادس قبل الميلاد مملكتهم التي سريعا ما استطاع قورش (٥٣٩-٥٣٠ق.م) من ضمها إلى مملكة الفرس، وبدأ بأعماله العسكرية التوسعية، فاحتل أرمينيا، ثم اجتاح ليديا، وأخضع أسيا الصغرى، وبعد تلك الفورة التوسعية تفرغ لبلاد النهرين، وسريعا ما سقطت بيده بابل سنة ٥٣٩ قبل الميلاد، والتي كانت حينذاك تعاني من انهيارها الداخلي، ولذا لم تقاوم بابل، ولا ولايات بابل الجيش الفارسي الذي قوبل بالترحيب، والتهليل، لا سيما وأن الكثير من الجماعات في بابل كانت لهم مصالح في سقوطها بيد الفرس، ومنهم الكهنة التقليديون الذي كانوا قد هُمّشوا في نهاية العهد البابلي، وأيضا التجار الذين كانوا يبحثون عن إمبراطورية أوسع مما هي عليه لتوسيع سطوتهم التجارية، وكذلك الجاليات الأجنبية، ومنهم اليهود الذين إلى جانب أنهم جاليات مسبية كانوا أيضا تجارا لهم مصالحهم المادية في سقوط بابل، والذي كان قد وعدهم سنة ٥٣٧ق.م بعودتهم إلى بلادهم الأصلية.

ومن بعدها مضى قورش ليفتح آسيا الوسطى وهناك قتل سنة ٥٢٩ق.م في أحد المعارك، في الوقت الذي كانت فيه الأقاليم التي فتحتها القوات الفارسية تقوم بتمرد واسع، بتحريض من أخي قمبيز، ومن الكهنة المجوس الميديين.

وتولى الحكم من بعده قمبيز (٥٢٩ - ٥٢٢ق.م) الذي استطاع ان يحتل مصر سنة ٥٢٥ق.م، ولكنه اضطر للعودة نحو بلاد فارس لقمع التمرد في ميديا، وفي الطريق مات بشكل غامض، فأعلن برديا الميدي نفسه ملكا على فارس والذي قُتل سريعا في تمرد عليه، وتولى الحكم مباشرة داريوس الأول بن قمبيز (٥٢٢ - ٤٨٥ق.م) والذي عانى من تمرد مباشر عليه، إلا أنه استطاع قمعه بيد حديدية، ومباشرة، وفي عهد قصير، ومن خلال جيش منظم استطاع داريوس أن يصل بتلك الإمبراطورية إلى أقوى وأوسع إمبراطورية في العالم في ذلك الزمان، حيث امتدت حدود إمبراطوريته من بحر إيجة غربا إلى الهند شرقا، ومن مصر جنوبا

حتى البحر الأسود وجبال القوقاز شمالا، ولم يكن من الفراغ أن لقب داريوس نفسه بـ (شاهنشاه) أي ملك الملوك، الأمر الذي قاد أعداءه من أبناء الجزر المتوسطية والشاطئ الشمالي أن يتوحدوا تحت قيادة واحدة هي قيادة أثينا، والذين انتصروا في البداية على الفرس في معركة مارثون سنة ٤٩٠ قبل الميلاد، كما استطاعوا، بعد موت داريوس بمدة، وفي معركة سلاميس سنة ٤٧٩ قبل الميلاد، أن يحرروا اليونان من حكم الفرس، وظل الصراع مستمرا مع تقدم بطيء لمصلحة الإيجيين عبر آسيا الصغرى، إلا أن مجيء الإسكندر المقدوني أحدث انعطافا حادا في الصراع الفارسي اليوناني، فقد استطاع الإسكندر المقدوني خلال فترة قصيرة أن يتقدم على حساب الإمبراطورية الفارسية، وأن يجتاح المنطقة، ويحتل فلسطين سنة ٣٣٢ قبل الميلاد، وقد استطاعت قوات الاسكندر أن تستولي على بلاد الفرس نفسها، وأن تقتل داريوس الثالث سنة ٣٣٠ قبل الميلاد.

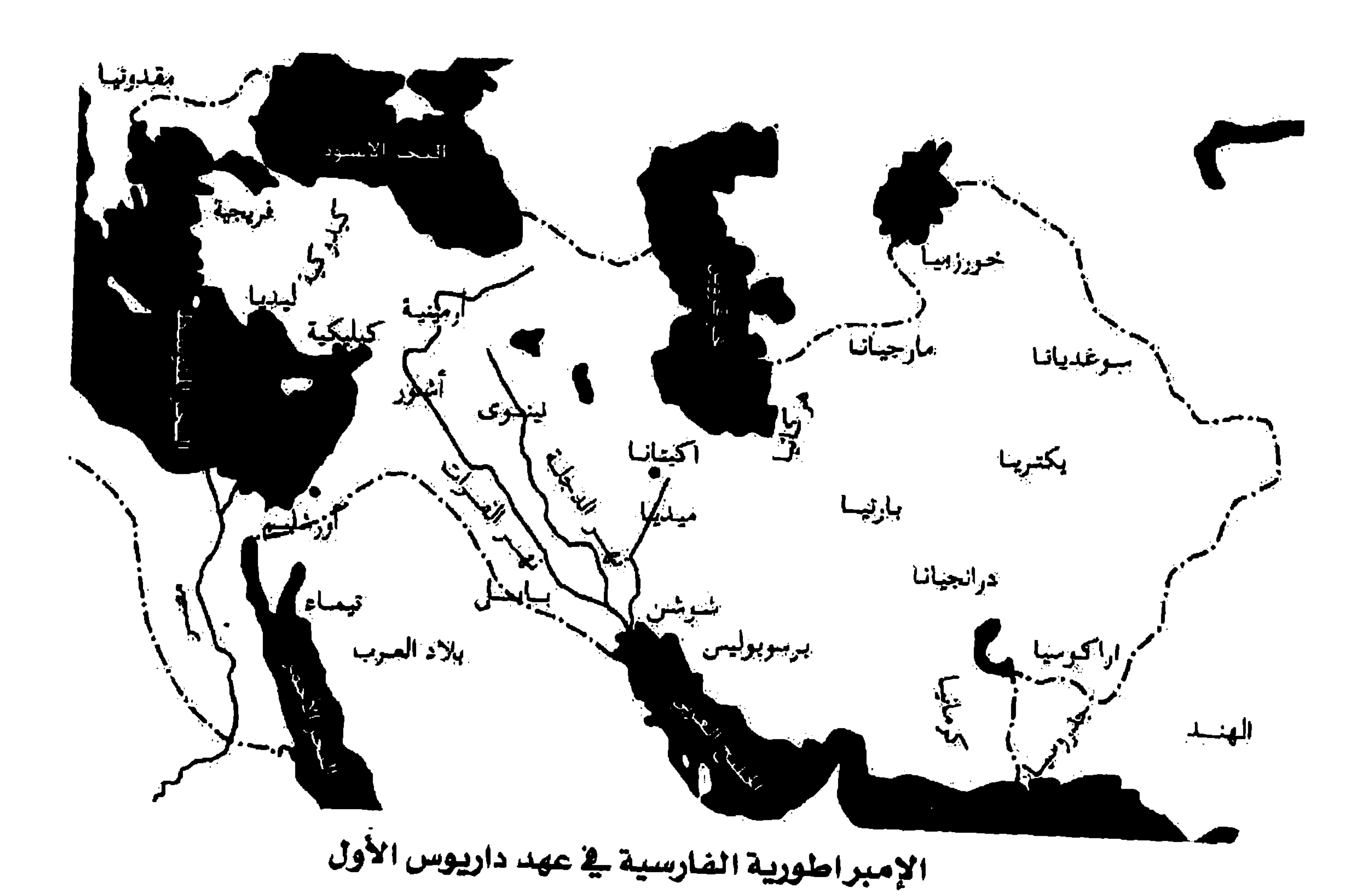
كان الفرس قد استطاعوا أن يصلوا بحدود إمبراطوريتهم إلى أقصى حدودها خلال مدة قصيرة جدا، وكان أحد أهم أسباب نجاحهم في هذا، هو نجاحهم في سياسة استيعاب المناطق التي يخضعونها لسيادتهم، بخاصة وأنهم لم يمارسوا العنف، والقسوة، والتدمير للأقاليم التي كانوا يقومون باحتلالها، وكانت إدارة الفرس ناجحة في إدارتها للأقاليم المحتلة، لأنها كانت تعطي هامشا واسعا للشعوب كي تمارس سيادة سياسية على أراضيها، كما أنهم لم يتدخلوا مطلقا في فرض العقائد الدينية، والتراثية على الشعوب.

وقد جعل الفرس من سورية وحدة إدارية مقرها في دمشق، كما قاموا بتقسيم بلاد كنعان إلى خمس مقاطعات هي: الجليل وعاصمتها حاصور، وسماريا وعاصمتها السامرة، ويهودا وعاصمتها أورشليم، وأدوميا (أدوم) وعاصمتها لخيش، وفينيقيا ولها عاصمتان هما مدينة صور، ومدينة وصيدا، وقد أعطوا ولاية فينيقيا استقلالا كاملا، أما عكا، وغزة، وأشدود، وعسقلان فقد بقيت تتمتع بحكم ذاتي.

وكانت سوريا قد خضعت للحكم الفارسي دون الدخول في أعمال عسكرية تدميرية، وقد أعلنت الأقاليم طاعتها للإمبراطورية الفارسية قبل أن يطلب منها ذلك بشكل عام، بسبب سقوط بابل مركزيا، وبذلك لم تتحقق نبوءات النبي إشعيا، والنبي إرميا بسقوط بابل والأقاليم السورية وتهديمها عن بكرة أبيها، أما بالنسبة لمدينة بابل تحديدا، فبدل أن يقوم الفرس بتهديمها، طوروا في بنائها وزادوا على معابدها، بل إن الفرس جعلوا منها عاصمة سياسية وتجارية ثانية لهم، كما أنهم أعطوا البلاد التي افتتحوها هامشا كبيرا من الاستقلالية الإدارية.

وبالمقابل، فإن الفرس لم يولوا المنطقة كبير اهتمام من حيث العمران والتحصينات المهمة، كما أن المنطقة عاشت بحالة من الفقر حالت دون تطوير بنيتها المعمارية الخاصة، كما أنهم لم يولوها اهتماما إداريا، ولم يتدخلوا كثيرا في الصراعات الشعوبية المحلية، بسبب انشغالهم بالصراعات الخارجية، بخاصة مع الشعوب الإيجية، وقد ترك الفرس البلاد الكنعانية لشؤونها المحلية، ولم يقوموا بالتدخل إلا إذا استدعت الضرورة، حيث اضطر الفرس للتدخل في الصراع الذي دار بين اليهود الذين عادوا من السبي إلى (الفردوس المفقود) على أجنحة ذكرياتهم الوهمية وأحلامهم المخملية، والشعوب والجماعات غير اليهودية، إضافة إلى الجماعات الأخرى من اليهود الذين لم يذهبوا مع السبي البابلي، وقد نشب هذا الخلاف إثر قيام اليهود بأعمال البناء والتحصينات الدفاعية في أورشليم، والسبب الرئيسي في نشوب هذا الصراع هو القيادات العنصرية اليهودية التي كانت في بابل، وعلى رأسهم عزرا، ونحميا، الذين جن جنونهم عندما قدموا إلى أورشليم، ووجدوا اليهود الذين لم يتم سبيهم، والذين عادوا من السبي أيضا قد امتزجوا مع شعوب وجماعات المنطقة في البوتقة الكنعانية، وقد طالب عزرا، ونحميا، وبحزم، أن يطلّق الرجال اليهود زوجاتهم غير اليهوديات، كما أنهما قاما بطرد الفئة السامرية (الإسرائيلية) التي رفضت المشاركة ببناء هيكل الرب، وما زالت هذه الفئة الصغيرة تعيش في السامرة إلى يومنا هذا، مرفوضة من قبل المجتمع اليهودي، وهي الطائفة التي لا تعترف إلا بالأسفار الخمسة الأولى (التوراة)، التي يمتلكون نسخة قديمة منها يدّعون أنها أقدم نسخة في العالم.

وبشكل عام كانت الأقاليم السورية، في العهد الفارسي، تنعم بشيء ما من الهدوء، والانشغال بالمحليات، ولم تنشب صراعات عسكرية بين الأقاليم، كما لم تقم الأقاليم بتمردات على السلطة المركزية، باستثناء التمرد الفينيقي (٣٩٩ - ٣٩٣ق.م) الذي قامت بقيادته مدينة صيدا، وردا على ذلك قامت القوات الفارسية بمهاجمة المنطقة الفينيقية، وقد تحصّن أهل صيدا في مدينتهم، ولما أدركوا بأن المدينة ساقطة لا محالة، قاموا بانتحار جماعي بإشعال النار في المدينة بكل ما فيها، ة وقد مات حينها قرابة أربعين ألف شخص، حسب بعض المراجع.



الإمبراطورية الفارسية في عهد داريوس الأول

السبي بين بابل، وأورشليم

كان الكلدانيون قد قاموا بتوطين اليهود الذي سبوهم من أورشليم، ومحيطها، في مدينة بابل، ونيبور ومحيطهما، وفي أماكن شديدة الخصوبة، وهي منطقة الدلتا الواقعة ما بين نهري دجلة والفرات قبيل اتحادهما، والتي تمر عبرها المسالك المائية التي تربط بين الفرات ودجلة بطريقة عرْضية (من الفرات إلى دجلة)، وكان أكبر تجمع للمسبيين من اليهود خارج بابل في مدينة (نهر دعة) الواقعة على المسلك المائي (نهر الملك) الثالث الذي يخرج من الفرات ويصب في دجلة.

وقد سمح البابليون لليهود أن يمارسوا طقوسهم وشعائرهم الدينية التي طوروها في السبي، كما أنهم انخرطوا في ممارسة كل النشاطات الحياتية، وبخاصة منها الزراعية، والتجارية المحلية والعالمية، ولهذا فقد عاش اليهود في الأسر البابلي حياة رغد على عكس المتوقع، وأثروا ثراء كبيرا، وقد تبوأ البعض منهم مناصب مهمة في نظام الحكم في بابل التي كانت تعج بالأثنيات المختلفة، والتي تنعم بحرية ممارسة نشاطاتهم المتوعة، بخاصة وأن اليهود سريعا ما استطاعوا أن يتعايشوا مع حاضرهم الجديد، وأن يستفيدوا من التطور الحضاري في بابل، من ثقافة وآداب، ومن تطور في فنون الزراعة والري، كما استفاد الكلدانيون أيضا من خبرات اليهود الذين كان أغلبهم من النخبة، لا سيما وأن الكلدانيين أحسنوا معاملة اليهود لأنهم ما عادوا يخشون منهم، ومن تآمراتهم مع أعدائهم المصريين.

إلا أن اليهود، على ما يبدو، قد عانوا من نظرة الشعوب العنصرية لهم، على اعتبارهم من الجماعات العبرية المكروهة، وعلى اعتبارهم شعوباً مهزومة تاريخيا، وهو الأمر الذي جعل البعض من اليهود يتزمّت بانتمائه إلى يهوديته، كما ساهمت أيضا بتحريض، كردة فعل، العنصرية اليهودية على اعتبار أنه شعب الله المختار، حسب تصوره، وهو الأمر الذي ساهم في النهاية بتبلور الديانة اليهودية، التي حمّلت بالتأريخ اليهودي الذي أرادوا منه أن يكون ردا على من كان يتهمهم بوضاعة أصولهم العبرية.

أما من جانب آخر، فقد جعلت، تلك التهمة بعض اليهود، وفي محاولة للتخلص من تلك التهمة التي تلاحقهم، أن يندمجوا في المجتمع البابلي، الأمر الذي أدى إلى أزمة دينية يهودية، لا سيما بعد أن بدأت الجماعات اليهودية تتنكر ليهوه، وتشرك مع عبادته عبادة الرب البابلي

مردوخ، وهذا ما جعل الكهنة اليهود يشعرون بقلق شديد تجاه ذوبان الذات والأنا اليهودية في بوتقة الحضارة البابلية الرافدية، وبدأ الكهنة اليهود ببث الروح الأثنية في بابل، بل إنهم أصبحوا أكثر تمسكا بيهوديتهم وأثنيتهم من أولئك الفقراء الذين بقوا في قرى يهوذا الفقيرة، لا سيما وأن الكلدانيين وطّنوا المسبيين من اليهود في منطقة، أو إقليم واحد، الأمر الذي ساهم في تشكيل مجتمع يهودي متماسك، على عكس ما فعل الآشوريون الذين قاموا بإسكان الإسرائيليين واليهود في مناطق متفرقة من جبال إقليم كردستان المعزولة نسبيا، ولأن الكهنة لا يمكن لهم أن يتخلوا عن فكرة الهيكل (بيت الرب الأبدي في أورشليم)، فقد التفوا حول هذا المطلق بابتكار بناء الكنيس في بابل مكانا للتعبد، وعاصمة مؤقتة بديلة (عاصمة السبي)، كما جعلوا من سفر الشريعة (وهو النواة الأولى لسفر التثنية) دستورا لتلك العاصمة، وبذلك حلّوا معضلة مركزية بيت الرب في أورشليم، كمكان وحيد للتعبد، وهو الأمر الذي ساهم في زرع الشقاق، والأفكار العنصرية، والبغضاء بين اليهود المسبيين، وبين باقي الأثنيات في بابل.

لم يكن للكهنة دور حقيقي في قيادة المجتمع لمرحلة ما قبل السبي، فبعد موت هارون وابنيه، انتهى، أو شحب بشكل عام دور الكهنة، إلى أن استطاعوا في عهد الملك يوآش عندما كان صغيرا أن يتسلموا السلطة بقيادة الكاهن يهوياداع، والذي تم دفنه في مقبرة الملوك الأمر الذي يشير إلى الأهمية التي وصلوا إليها في تلك الفترة، كما كان لهم دور قيادي بقيادة الكاهن حلقيا في زمن الملك الشهير يوشيا أيضا، ولكن الدور الحقيقي للكهنة كان في زمن السبي وما بعده، باستثناء فترة حكم الملك الأشهر هيرودوس الذي قام بتهميش دورهم القيادي، ولكنهم عادوا مرّة أخرى ليكونوا قادة اليهودية في مرحلة الشتات، واستمرت قيادتهم حتى تسلمت الصهيونية السياسية تلك القيادة في بداية القرن المنصرم.

والكهنة هم الذين قاموا بتأسيس، وبلورة الدين اليهودي بعد سبيهم إلى بابل، ويمكن القول أن الأسر البابلي هو المرحلة المفصلية الحقيقية في تشكّل اليهودية من العبرانية الإسرائيلية، فبعد أن تعرضت جماعات السبي بشكل مفاجئ لحضارات وديانات وقوميات مختلفة، نظرت بشيء من الازدراء إلى الجالية اليهودية، الأمر الذي قاد الجالية اليهودية إلى التقوقع على نفسها وعلى معتقداتها.

ومن خلال شعور اليهود بالكره العميق للشعوب التي اضطهدتهم نفسيا، فقد حاولوا التصدي لذلك نفسيا من خلال اعتزازهم بمعتقداتهم وتراثهم، وبدؤوا يؤسسون هوية أثنية خاصة ومتميزة بهم، وقد قام بهذا الدور أنبياؤهم حزقيال في الأسر البابلي، وإرميا قبل، وبعد ذهابه إلى مصر، وسواهم من الأنبياء اليهود، الذين قاموا بتسيس ماضيهم، وتنظيم

حاضرهم، وإشاعة أحلامهم وأمانيهم بالعودة إلى فردوسهم المفقود في أرض الميعاد على يد المسيح المنتظر الذي سيوقع العهد أو العقد الجديد بين شعب الله المختار وبين الرب يهوه، بعد أن مزق الرب يهوه نسخته الخاصة من العقد، أو العهد القديم، وصار في حل منه، وأرسل لهم نبوخذ ناصر ليمزق نسخة عقد زوجة الرب (إسرائيل) الذي رمى عليها الرب الطلقات الثلاث لأنها لم تتقيد، ولم تلتزم بواجبات الزوجية.

من أجل توقيع عهد جديد مع الرب، وإعادة عقد القران بين الرب، وبين زوجته التائبة إسرائيل، كان لا بد من مراجعة الأسباب التي جعلت الرب يحزم أمره، بعد تردد، وأن يسرّح زوجته الخائنة إسرائيل، وبعد تلك المراجعة، والوقوف، والاعتراف بالأخطاء، والذنوب التي اقترفتها إسرائيل، ستعلن توبتها، وبذلك سيقوم الرب بعقد قرانه ثانية عليها، وسيكون شاهد، وعراب العقد، أو العهد الجديد هو المسيح الذي قام أنبياؤهم بالتبشير بمجيئه، وكان اليهود قد تعرفوا على عقيدته من الديانة الزارادشتية، كما أنهم اطلعوا على جميع الثقافات، والعقائد، والتصورات التي كانت منتشرة بين شعوب الشرق الأدنى القديم، والتي كانت بابل تمثل عاصمة لها، وقاموا باستقراض، وتهويد الكثير من الأدبيات، والتصورات الدينية التي كانت منتشرة في بابل.

ولكن الدولة الكلدانية لم تستطع أن تعمر طويلا، فقد بدأت بالتحلل والتفكك بسرعة كبيرة، وهي في ريعان شبابها، وفي تلك الفترة كان قورش (٥٥٠ - ٥٢٩ق.م) قد استطاع توحيد بلاد فارس تحت إمرته من خلال توحيده للميدين والفرس في أمة واحدة، وبدأ بمشاريعه التوسعية، فزحف نحو بابل التي سقطت، بيد قورش الذي قدّم نفسه على أساس أنه فاتح، ومحرر للشعوب سنة ٥٣٩ قبل الميلاد، ولذا فلم يقوم البابليون بمقاومته، بل إنهم استقبلوه بالترحيب والمباركة لا سيما من قبل الكهنة التقليديين، وأيضا من قبل الجاليات الأجنبية.

ومنذ دخول قورش إلى بابل قام بإطلاق وعوده بإعادة الشعوب التي كان الآشوريون والبابليون قد هجّروهم من بلدانهم، ومنهم اليهود، الذين سجلوا وعد قورش في التوراة «هكذا قال كورش ملك فارس جميع ممالك الأرض دفعها لي الرب إله السماء وهو أوصاني أن أبني له بيتا في أورشليم التي في يهوذا. من منكم من كل شعبه ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم التي في يهوذا فيبني بيت الرب إله إسرائيل. هو الإله. الذي في أورشليم. وكل من بقي في أحد الأماكن حيث هو متغرب فلينجده أهل مكانه بفضة وبذهب وبأمتعة وببهائم مع التبرع لبيت الرب الذي في أورشليم» عزرا ١ : ٢-٣-٤.

وقد اعتقد أو افترض البعض وجود اتفاق سري بين قورش وبين اليهود المسبيين لإسقاط بابل، وهم يذهبون إلى أن هذا الوعد الذي أطلقه قورش كان مقابل خدمات معينة يقدمها

اليهود في بابل لإسقاطها بيد قورش، والبعض، ومنهم جورجي كنعان، يذهب إلى أن كورش هو ابن أستير اليهودية صاحبة السفر المسمى باسمها، كما يعتقد أيضا أن النبي أشعا كان يعمل كجاسوس، وعميل لكورش في بابل.

وقد بر قورش بوعده، وسمح لليهود بالعودة إلى أورشليم في سنة ٥٣٦ قبل الميلاد، كما فعل مع الشعوب المتعددة التي كانت قد هجّرت أثناء الحكم الآشوري والكلداني.

وقد ترك هذا الوعد الحرية لليهود في العودة إلى أورشليم، أو البقاء في بابل، كما أن هذا الوعد أسس أو شكل مفهومين للعودة إلى (الأرض المقدسة):

الأول توطيني يقوم على حث المسبيين إلى العودة إلى الأرض المقدسة، والعيش فيها.

والثاني استيطاني يحث الذين لا يرغبون، أو لا يستطيعون العودة لأسباب معينة، من اليهود بدفع تبرعات مالية، وعينية، للذين قرروا العودة، وهو ما تبنته أيضا الصهيونية في الوقت الحالي (الصهيونية التوطينية، والصهيونية الاستيطانية).

وتنفيذا لهذا الوعد قامت السلطة الفارسية بإعادة محتويات بيت الرب إلى قادة اليهود ليرجعوا بها، ويضعونها في الهيكل بعد أن يعيدوا بناء هيكله المدمر، وكانت الدفعة الأولى التي عادت بقيادة شيشبصر ابن ملك يهوذا يهوياقين والذي شغل منصب الوالي، وكانت بحدود سنة ٥٣٦ قبل الميلاد، ولم تذكر التوراة عدد من عادوا معه، وعلى ما يبدو كان العدد قليلاً إلى درجة أن هذه الدفعة يهملها الكثيرون، ويُعتقد أن شيشبصر قد بدأ بوضع أساسات الهيكل قبل أن يختفي ذكره، ولكن البعض يعتقد أن شيشبصر هو اسم فارسي لزربابل اليهودي، أو لقبا له.

أما الدفعة أو الكتلة البشرية الأولى (الدفعة الثانية) فكانت في السنوات الأولى لحكم داريوس ابن قمبيز (٥٢٢ - ٤٨٥ق.م)، وكان عدد من عاد من السبي في هذه الدفعة ٤٢٣٦٠ يهوديا، و٧٣٣٧ خادما، و٢٠٠ من المغنين، إضافة إلى الممتلكات التي كان نبوخذ ناصر قد أخذها من أورشليم، وقد سلكوا في عودتهم، حسب رأي البعض، الطريق الذي كان إبراهيم قد سلكها من قبل، والذي ينطلق صعودا نحو حاران أولا، ثم من هناك عبر وسط سوريا إلى دمشق، فبحيرة طبريا، ثم أورشليم، وكانوا تحت قيادة الكاهن يشوع بن يهوصاداق، وزربابل سليل آل داود، والجد الأكبر ليوسف النجار، وزربابل يعني المولود في بابل، وكان قد عُيّن من قِبل السلطة الفارسية واليا على مقاطعة يهودا، وكان يرى فيه اليهود أنه المسيح المنتظر، ولكن سرعان ما بهت نجمه لمصلحة الكهنوت اليهودي وتحوُّل القيادة السياسية إلى قيادة دينية فحسب، وعلى الرغم من أن اليهود المعتاشة البسيطة التي

كانت قد بقيت في فلسطين - والتي لم يتم سبيها إلى بابل - عاشت في بيوت بسيطة وفقيرة، وقد رفضت أو امتعضت - بسبب فقرها - من بناء بيت الرب، ولكن الوجهاء العائدين أقنعوهم بأن بناء بيت الرب سيجلب لهم الخير والبركة، ولما انتهوا من بناء الهيكل المعماري لبيت الرب، وبعض الأبنية الدفاعية البسيطة، ومنها بناء السور، نحو سنة ٥١٨ قبل الميلاد، قدّم أبناء الشعوب الأخرى، الذين كانوا يعيشون في المنطقة قبل عودة المسبيين، شكوى إلى الملك الفارسي يطلبون منه التدخل لإيقاف أعمال البناء خاصة الدفاعية منها، وقد وافق الملك الفارسي على مطلبهم، وأمر بإيقافها، لكن العاهل الفارسي داريوس أمر في مرحلة لاحقة بإتمام البناء من الجزية التي يدفعها أبناء المنطقة لخزينة الملك.

وفي عهد الملك أرتحشستا (٤٦٥ - ٤٢٤ق.م) (ارتاكسيركس الأول)، قرر عزرا (وهو كاتب سفر عزرا، وأحد زعماء اليهود في بابل)، أن يذهب إلى أورشليم بعد أن سمع أخبارا سيئة عن حال من عادوا، وكان قد أخذ من الملك أرتحشستا أمرا بإرجاع من يريد من اليهود في بابل إلى أورشليم وأعطاه نفائس من بابل، وأمراً إلى الخزينة التي في عبر الأردن لإمداد عزرا بما يحتاج لإعادة بناء بيت الرب.

ولما وصل عزرا إلى أورشليم (ككاهن) في الدفعة الثالثة نحو سنة ٤٥٧ قبل الميلاد، ومعه ١٧٥٤ من الرجال، وجد هناك سوء الأوضاع العامة للشعب اليهودي الذي بدأ ينحلّ في الشعوب المتنوعة، بعد أن اكتشف الشعب اليهودي أن الفردوس المفقود، الذي ظل طوال فترة السبي يحلم بالعودة إليه، عبارة عن مجموعة من الخرائب، التي كانت تعاني من القحط والجفاف، إي هو أقرب إلى الجحيم منه إلى النعيم، وهذا دعاهم إلى نبذ اليهودية، والعقلية اليهودية، وراح يتقرب، ويندخل، ويتزاوج مع الشعوب الأخرى، وهذا ما جعل عزرا يغضب كثيرا عندما اكتشف ذلك، وخاصة على المتزوجين من نساء غير يهوديات، وكان الكثير من اليهود بعد العودة من السبي قد تزوجوا من نساء غير يهوديات بسبب قلة النساء اليهوديات اللواتي رجعن من السبي، ويبدو أن النظام الديني المتشدد لم يُرضِ العامة من الشعب، كما ساهم بإفقارهم بسبب الضرائب التي كان عليهم أن يدفعوها، وبسبب أعمال السخرة التي كان يجب أن يقوموا بها من أجل إعادة إعمار بيت الرب، وسور المدينة، وهذا ما ساهم أيضا بانتشار الفساد الأخلاقي فيما بينهم أيضا، وقد عقد عزرا اجتماعا، بعد أن قَدم نحميا من بابل كوالي على إقليم اليهودية سنة ٤٤٤ قبل الميلاد، قرأ فيه سفر موسى على الشعب، وأفتى أمرا جماعيا بتطليق كل النساء الأجنبيات، وقد شدّد نحميا على الالتزام والتزمت بتطبيق الشريعة «وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك فليقض عليه عاجلا إما بالموت أو بالنفي أو بغرامة المال والحبس) عزرا ٧.

لقد جاء نحميا بشريعة كانت قد كتبت بالتعاون والتزاوج ما بين الأعراف والتقاليد اليهودية، والقوانين والأنظمة الإدارية والسياسية للسلطة الفارسية، وكانت تلك الشريعة جديدة على الشعب، لأن عزرا قام بشرحها وتوضيحها من خلال الكهنة واللاويين، وقد رُفضت هذه الشريعة من قبل الذين بقوا في البلاد (خاصة السامريين) الذين لم يذهبوا مع السبي، لأن هذه الشريعة تختلف عن القوانين والأعراف التي كانت تنظمهم، بعد أن عُدّلت بما يتلاءم ونظم السلطة الحاكمة الفارسية، وادعى عزرا أنها شريعة يهوه.

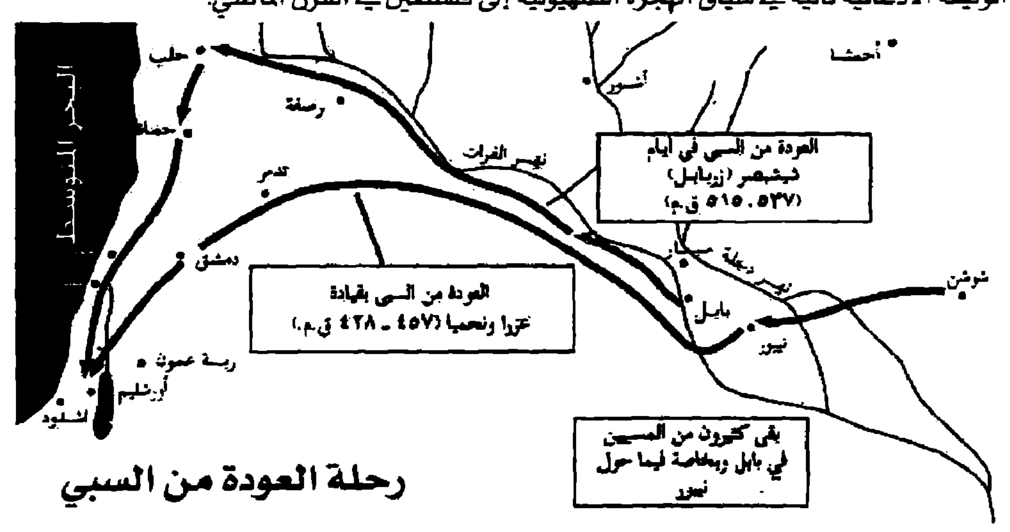
وجاء نحميا ومعه، إضافة إلى الشريعة اليهودية - الفارسية، أمرا من الملك إلى ولاة عبر الأردن لمساندته باعتباره واليا على يهود أورشليم، وقد بدأ نحميا أعمال ترميم واسعة، وخاصة في السور والأبواب بعد أن وجد أورشليم خرابا، وكان إلى جانبه عزرا الكاهن، وقد اعترضت الجماعات غير اليهودية على تلك الأعمال خاصة منها العسكرية «ولما سمع سنبلط وطوبيا والعرب والعمونيين والأشدوديين أن أسوار أورشليم قد رممت والثغر ابتدأت تسد غضبوا جدا. وتآمروا جميعهم معا أن يأتوا ويحاربوا أورشليم ويعملوا بها ضررا» نحميا ٤: ٧، ولكن اليهود، الذين علموا بذلك، استنفروا، وهذا ما حال دون ما بيت لهم أعداءهم، وقد استمرت أعمال إعادة البناء، على الرغم من التذمر الشعبي اليهودي الواسع على الضريبة التي يدفعونها من أجل بناء بيت الرب، حيث أنهم اضطروا إلى أن يرهنوا أرضهم مقابل الحصول على القمح، كما أنهم كانوا يبيعون أبناءهم عبيدا، وكانوا في هذه النقطة تحديدا يرفعون أصوات تذمراتهم عاليا، ولكن نحميا، ردّ عليهم قائلا «نحن اشترينا أخوتنا اليهود الذين بيعوا للأمم حسب طاقتنا. وأنتم أيضا تبيعون أخوتكم فيباعون لنا. فسكتوا ولم يجدوا جوابا» نحميا: ٥، كما أن موجة من الجفاف كانت تعاني منها المنطقة، زادت الأمر سوءا، وزادت من فقر، وجوع اليهود البسطاء، والسذج الذين كانوا مخدوعين بما كانت تروجه القيادات اليهودية الدينية، والسياسية من أن بناء الهيكل سوف يكون إعلانا لبداية العهد الجديد (عصر الخلاص).

واستمرت أعمال إعادة الإعمار التي كانت شديدة الوضاعة، ولم يكن هناك إعادة إعمار بالمعنى الحقيقي، بسبب ضعف الإمكانات المتوفرة، مترافقة مع عدم قناعة المسخرين الفقراء بما يقومون به، إضافة إلى أن تلك الأعمال كانت متسرعة، وكان يشوبها الخوف والخشية والريبة والاضطراب بسبب مراقبة الشعوب غير اليهودية لتلك الأعمال «ولما سمع سنبلط وطوبيا وجشم العربي وبقية أعدائنا أني قد بنيت السور.. أرسل سنبلط وجشم إلي قائلين هلم نجتمع.. وكانا يفكران أن يعملا بي شرا» نحميا: ٦، لكنه لم يذهب خوفا من أن يتم قتله من قبلهم.

وبعد انتهاء أعمال البناء البسيطة، المتواضعة للهيكل، والسور نصّب نحميا أخوه حننيا رئيسا للقصر في أورشليم، «وفي اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر اجتمع بنو إسرائيل بالصوم وعليهم مسوح وتراب. وانفصل نسل إسرائيل من جميع بني الغرباء ووقفوا واعترفوا بخطاياهم وذنوب آبائهم» نحميا ٩، وفي النهاية قامت القيادة اليهودية بإجراء قرعة للشعب اليهودي، تم بمقتضاه إسكان ١٠٪ من الشعب في أورشليم، والباقي تم توزيع سكناهم على الأرياف، ويعتقد الكثيرون أن من عادوا من بابل إلى أورشليم لم يكونوا فقط ممن تم سبيهم على يد البابليين - والذين يقدر عددهم في أفضل الحالات بعشرة آلاف نسمة، وكان من عاد في الدفعة الثانية بقيادة زربابل ٤٢٠٠٠ نسمة - بل إن شعوباً أخرى عادت معهم، وربما كانوا قد تهودوا، أو بقوا على دياناتهم، لأن الفارق كان كبيرا بين عدد من تم سبيهم، وعدد من عادوا، على الرغم من أن الكثيرين ممن سبوا لم يعودوا، وهم الذين قاموا بدل عودتهم بدفع تبرعات لمن عادوا حسب ما طالب به وعد قورش، ويُعتقد أن من عادوا من اليهود كانوا الأكثر فقرا، والأكثر تشددا، وتمسكا بيهوديتهم، وهذا يتشابه مع حالة قدوم اليهود من الدول التي تفككت من الاتحاد السوفييتي.

والجدير ذكره هنا أن أسماء من عادوا من السبي ينتسبون، حسب ما جاء في سفري عزرا ونحميا، إلى سبعة عشر موقعا في جبال يهوذا، ولم يكن أحد منهم ينتسب إلى مدينة أورشليم، ثم أن سفري عزرا ونحميا يشيران إلى أن ما دعاهم بالأعداء، وهم سنبلط، وطوبيا، وجشم العربي، كانوا يعيشون على محيط مدينة أورشليم، أو على مقربة منها، أو حتى في حي من أحيائها، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن منطقة اليهودية لم تكن يهودية صرفة في مرحلة ما قبل السبي، وكذلك هو الأمر بالنسبة لأورشليم التي كانت مقسمة إلى قسمين أو حيين، أحدهما يهودي، والآخر كنعاني، وبعد أن تم سبي اليهود من سكان يهوذا، وبعض الكنعانيين من غير اليهود من أورشليم ومن سائر مدن وقرى يهوذا، قام أبناء المناطق المجاورة من العمونيين، والسامريين (بقايا الإسرائيليين)، والعرب، بالسكن في بعض مناطق يهوذا الخصبة، ولما عاد اليهود من السبي البابلي حصل صدام بين القيادات اليهودية، والسكان الذين كانوا يعيشون في بعض أحياء مدينة أورشليم، وفي بعض القرى المحيطة بها، وهو الذي يفسر كيف أن بعض الجماعات اليهودية التي كادت من بابل قد بدأت تندمج معهم، كما تفسر كيف أن الجماعات اليهودية التي عادت من السبي كانوا يعملون كأجراء، وعبيد عند الكنعانيين، والسامريين (الإسرائيليين) «ها نحن اليوم عبيد والأرض التي أعطيت لآبائنا ليأكلوا أثمارها وخيرها ها نحن عبيد فيها وغلاتها كثيرة للملوك الذين جعلتهم علينا لأجل خطايانا وهم يتسلطون على أجسادنا وعلى بهائمنا حسب إرادتهم ونحن في كرب عظيم» نحميا ٩.

أما بالنسبة للشعوب الكنعانية التي تم سبيها من مدينة أورشليم ومحيطها، في سياق السبي البابلي، والتي كانت تعيش في بابل، فحسب ما أعتقد، فقد نشب خلاف قانوني تاريخي بينها، وبين اليهود حول حق العودة إلى اليهودية، بعد أن أصدر قورش وعده الشهير، وقد عادت بعض العائلات الكنعانية إلى موطنها السابق، وسكنت في مدينة أورشليم، وهو ما أشير إليه في سفر زكريا «ويهوذا أيضا تحارب أورشليم وتجمع ثروة كل الأمم من حولها.. **في ذلك اليوم لا يكون بعد كنعاني في بيت رب الجنود**» زكريا ١٤، بل إن هذا النص يشير إلى أن أورشليم كانت مدينة كنعانية، أو ذات أغلبية كنعانية، وهو السبب الذي يسوغ إسكان نسبة العشرة بالمئة فقط من اليهود الذين عادوا من بابل، ويبدو أن هذه النسبة كان متفق عليها مع السلطة الفارسية، والجماعات الكنعانية التي عادت من السبي، وحسب اعتقادي فقد بقيت بعض الأحياء من مدينة أورشليم مأهولة بسكانها الكنعانيين، الذين لم يتم سبيهم إلى بابل، كما أعتقد أن حالة أورشليم في محيط السبي البابلي كانت أشبه ما يمكن بحال مدينة يثرب في سياق الهجرة الإسلامية إليها، أي أن اليهود في أورشليم كانوا يقطنون حيا مسورا يقع على جبل صهيون تحديدا، أي أنه كان غيتو يهودي على محيط مدينة أورشليم الكنعانية، وكان هناك صراع بين الكنعانيين، واليهود، وقد استمر هذا الصراع في بابل في سياق السبي البابلي، وقد حاول محررو التوراة طمس هذا الخلاف، من أجل طمس حقيقة كون مدينة أورشليم ذات أغلبية كنعانية، بل يمكن النظر، من هذه الزاوية فحسب، إلى التوراة على أنها ادعاء (أيديولوجي) للحق التاريخي الديني لليهود في منطقة اليهودية بشكل عام، ومدينة أورشليم بشكل خاص، وقد برز دور هذه الوثيقة الادعائية ثانية في سياق الهجرة الصهيونية إلى فلسطين في القرن الماضي.



رحلة العودة من السبي

المعطيات الآثارية في العهد الفارسي

لم يعثر على وثائق أو نصوص تتعلق أو تتقاطع مع مقولات التوراة في العهد الفارسي، ولم يعثر أيضا على وعد قورش، ولم يعثر على أي وثيقة تتحدث عن منطقة فلسطين لا فارسية، ولا مصرية في ظل الحكم الفارسي، ولكن عُثر على اسطوانة قورش، والتي يقول فيها إن الرب البابلي مردوخ {فتش في كل الأقطار بحثاً عن حاكم بار مستعد أن يتولى قيادة موكبه - موكب مردوخ - السنوي، فلم يجد سواي ملك أنشان، فنادى بي حاكماً لكل العالم.. ومن دون أي معارك جعلني أدخل مدينته - بابل - وبذلك أنقذ بابل من أي كارثة.. وقد أَعْدت للمدن المقدسة في الجانب الآخر من الدجلة - إلى مقادسها التي ظلت خراباً زمناً طويلاً- التماثيل التي كانت تقيم بها، وأقمت لها مقادس دائمة، كما جمعت كل سكانها السابقين وأعدت لهم مساكنهم}، وفي نص آخر يقول قورش {فيما يتعلق بالمنطقة من آشور وسوسه وأجاد واشنونا والمدن، فأنا قد أعدت إليهم المدن المقدسة التي ظلت مخربة لمدة طويلة، والصور التي كانت موجودة بها.. كما أني قد جمعت سكانها السابقين وأعدتهم إلى مساكنهم}، وهذا يوحي أو يعطي لوعد قورش التوراتي - والذي تمت إعادة صياغته على أيدي محرري التوراة - مصداقية عالية.

وقد عثر في بابل أيضا على وثائق مالية تعود إلى مؤسسة مالية ضخمة أصحابها من عائلة الموراشو، ولأن تلك العائلة، وعملائها، تكثر فيها الأسماء اليهودية، فقد اعتبر الباحثون التوراتيون تلك العائلة يهودية، وسموا تلك المؤسسة (البنك البابلي اليهودي)، وتعود هذه المؤسسة إلى عهد الملك ارتحششتا (٤٦٥ - ٤٢٥ق.م).

أما في بلاد كنعان فقد وجدت البعثات الأركيولوجية طبعات أختام على الجرار الفخارية، وقطعاً معدنية وجد عليها بالخط الآرامي نقش لمقاطعة يهودا، أما البينات المعمارية فهي تبين فقر المنطقة، وتراجع مساحات المدن والقرى في مقاطعة يهودا عما كانت عليها قبل تدميرها من قبل البابليين، شملت مدينة أورشليم التي انحصرت ابنيتها على هضبة أوفيل فقط، ويعتقد أن سكانها لم يتجاوزوا في أحسن الأحوال ثلاثة آلاف نسمة، ففي تلك الفترة، شحبت الحياة في منطقة أورشليم، ومحيطها لعدة أسباب منها الإهمال الإداري الفارسي

ليهودا، إضافة إلى الظروف البيئية الصعبة التي اجتاحت المنطقة وأدت إلى تدمير المزروعات وتراجع الخصوبة، وإصابة البلاد بآفات زراعية متعددة، بسبب الجفاف والصقيع والجراد أيضا حسب ما جاء في سفر حجي.

والجدير ذكره أن المؤرخ والرحالة الشهير هيرودوتس الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، والذي زار فلسطين في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، أي في الزمن المفترض لعزرا، وفي الوقت الذي كان فيه هيكل أورشليم في طور البناء، لم يأت هيرودتس على أي ذكر لليهود في فلسطين، بل لم يذكر مدينة أورشليم على الإطلاق، وهذا يجعلنا نعتقد أن الجماعات اليهودية في فلسطين كانوا من القلة، ومن الغياب الوجودي بحيث لم يأت هيرودوس على ذكرهم، وربما لم يسمع بهم أبدا.

ويمكن هنا أن نعطف قليلا، ونتحدث أيضا عن جزيرة أو مستعمرة ألفانتين (جزيرة الفيلة) التي تزامنت، وارتبطت جزئيا بالتاريخ الفارسي، وكذلك بالنسبة لإمارة حدياب، وإمارة بابل في العهد الفرثي.

جزيرة الفيلة:

تقع جزيرة الفيلة (إلفانت) في النيل بمنطقة أسوان على مقربة من الشلال الأول، وكانت هذه الجزيرة قديما محطة تجارية للبضائع الأفريقية وأهمها جلود وأنياب الفيلة (العاج)، وهو سبب تسميتها بهذا الاسم، وقد تم توطين جماعات يهودية فيها بعد سقوط مملكة يهوذا، فبعد أن تمردت يهوذا على الحكم البابلي بتحريض من مصر، وتم قتل جدليا الذي عُيّن من قبل البابليين، فر الكثير من الجماعات اليهودية، ومعهم النبي إرميا إلى مصر، وهناك منحتهم حليفتهم مصر مستعمرة إلفانتين (جزيرة الفيلة) في عهد بسماتيك الثاني، وتم توظيفهم كجنود مرتزقة يقفون على الحدود الجنوبية لمصر لحمايتها من النوبيين، ويعتقد البعض أنه كان في الجزيرة بعض الجماعات العبرية الإسرائيلية قبل قدوم الجماعات اليهودية، وما يسوغ ذلك هو نمطهم الديني الذي يعود إلى مرحلة لم يتبلور فيها بعد الدين اليهودي، وقد انقلبت هذه الحامية على المصريين لمصلحة الفرس سنة ٥٢٥ قبل الميلاد أثناء غزو الفرس لمصر، كما أن جنود تلك الحامية ساهموا بقمع التمرد المصري أثناء حكم أرتحشستا الأول (٤٦٥ - ٤٢٤ق.م)، وقد تم تدمير المعبد اليهودي الضخم بانتفاضة شعبية قادها كهنة الإله المصري خنوب سنة ٤١٠ قبل الميلاد، وكان المعبد ذو خمسة أبواب، بعدد الآلهة التي كانت الحامية اليهودية تتعبد لها، هي: ياهو (يهوه) وزوجته عناة ياهو (عشيرة)،

وإيشوم، وبيت إيل (وهو إله إسرائيلي من السامرة)، وعناة بيت إيل، وحيريم بيت إيل، وقد حافظ أعضاء الجالية على يهودية ما قبل السبي، كما أنهم كانوا على اتصال برجال الدين في أورشليم، وتركوا بعض الوثائق والمخطوطات، وانتهى وجودهم سنة ٣٩٤ قبل الميلاد بعد تحرر مصر من الحكم الفارسي.

إمارة حدياب:

تشكلت إمارة حدياب في أربيل في المنطقة الحدودية بين الإمبراطورية الرومانية والفرثية في منطقة آشور القديمة في شمالي العراق، في قضاء الموصل، وكانت عاصمتها أربيل، وهي تشكل تقريبا ما يسمى الآن بإقليم كردستان العراق.

كانت غالبية شعب الأمارة من المتهودين، ومن بعض اليهود الذين لم يعودا مع عودة السبي، ويعتقد أن بعض أفرادها كانوا من بني إسرائيل، ومن اليهود الذين تم تهجيرهم على يد الآشوريين من السامرة، ومن يهوذا، وقد تشكلت هذه الإمارة في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، وبلغت ذروة اتساعها ونشاطها في القرن الميلادي الأول، وكانت تابعة للإمبراطورية الفرثية (٢٤٧ق.م - ٢٢٦م)، التي منحت تلك الإمارة قسطا كبيرا من الاستقلالية في عهد حاكمها الوثني آفراهاط الثاني (٦٩ - ٥٧ق.م)، وفي عهد ابنه ورود الثاني (٥٧ - ٣١ق.م)، وفي بداية القرن الأول بعد الميلاد حكم عليها الوثني مونوبازوس، والذي تزوّج من أخته هيلانة، ويعتقد البعض أنهما كانا آراميين، وقد بعث مونوبازوس بابنه إيزاط وأمه هيلانة إلى مدينة كاراس سباسينو (والتي يعتقد أنها مدينة المحمرة الحالية) على شط العرب، وهناك تهود إيزاط وأمه على يد تجار يهود، وبعد موت مونوباس تولى الحكم بعد زمن ابنه المتهود إيزاط الثالث (٣٦ - ٦٠م)، والذي عاصر الملك الفرثي أرطبان الثالث (١٢ - ٣٨م)، كما عاصر الصراع على العرش الفرثي بعد موت أرطبان الثالث، وقد بلغت الإمارة قمة استقلالها في عهده، ولعبت دورا مهما في النزاع الروماني الفرثي، والرماني اليهودي في فلسطين، وتولى الحكم بعد إيزاط الثالث أخوه مونوبازوس الثاني، وفي تلك الفترة ساهمت هذه الإمارة بثورة اليهود على الرومان بين سنتي ٦٦ - ٧٣ للميلاد، وقدمت عونا لولاية اليهودية، ومن الجدير ذكره أن هيلانة قد زارت أورشليم وأمرت بحفر قبر لها ولأولادها في الصخر في المدينة المقدسة (أورشليم)، وبقيت هذه السلالة المتهودة تحكم الإمارة حتى سقطت سنة ١١٥ للميلاد بيد الروم في عهد الإمبراطور تراجان.

وبعد أن بلغ التبشير بالمسيحية ذروته في القرنين الثاني والثالث الميلادي، وصل هذا التبشير إلى إمارة حدياب، ويعتقد أن شعب هذه الإمارة قد تمسحوا واعتقوا المذهب النسطوري (نسبة إلى نسطوريوس) في القرن الخامس الميلادي، وهو أول انشقاق للكنيسة المسيحية، وهو المعتقد الذي يذهب إلى أن للمسيح طبيعتين (أقنومين) إنسانية، وإلهية، وهما مثل الماء والزيت لا يختلطان، وكانت عاصمة هذا المذهب في مدينة الرها، وقد عرف النساطرة في إقليم كردستان بالآشوريين، أو الآثوريين (النساطرة الآشوريين) الآن، وحسب رأي د. أحمد سوسة فإن هؤلاء النساطرة الآثوريين لا ينحدرون من العرق الآشوري، وإن تسميتهم بالآشوريين التي أطلقها عليهم الإنكليز منذ قرنين من الزمان فقط، هي بدعة استعمارية، ويذهب أحمد سوسة أيضا، إلى أنهم ينحدرون من الأسباط الضائعة العشرة من بني إسرائيل، وقد بقي البعض منهم على يهوديته.

وبعد مجيء الإسلام دخل البعض منهم في الإسلام، وبذلك أصبح أحفاد أمارة حدياب يهوداً، ومسيحيين نساطرة، وإسلاماً، وقد انضم إلى نساطرة إقليم كردستان، بعض النساطرة الذين فروا من اضطهاد المغول لهم، والتجؤوا إلى إخوانهم في المذهب في جبال إقليم كردستان المعزول والحصين نسبيا.

وأحمد سوسة في ما ذهب إليه تبنى مقولة الدكتور والمبشر الأمريكي غرانت، الذي يرى أن النساطرة هم أحفاد اليهود (وهو يُعَدّ الإسرائيليين هم من اليهود) الذين تم سبيهم على يد الآشوريين (وهم الأسباط العشرة الضائعة من بني إسرائيل).

وعلى ما يبدو كانت إمارة حدياب قد تشكلت من مزيج شعوب متعددة، فهم يتشكلون من الميديين الفرس (أسلاف الأكراد)، مع جزء من الشعوب التي كانت آشور قد قهرتهم وأسكنتهم في منطقة آشور، ومنهم الجماعات الآرامية، والجماعات الإسرائيلية الكنعانية، والجماعات اليهوذية التي كان سنحاريب قد أسرهم سنة ٧٠١ قبل الميلاد، والذي جاء في أحد حولياته أن عددهم بلغ ٢٠٠١٥٠ إنسان، إضافة إلى من سباهم أسلافه (تغلات فلاسر الثالث، شلمنصر الخامس، سرجون الثاني) من مملكة السامرة، كما أضيف إليهم بعض الآشوريين بعد اندحار دولتهم على يد البابليين، وقد تهود أغلبية سكان الإمارة بعد تهود أميرهم إيزاط الثالث، والغريب أن التوراة اليهودية لم تأت على ذكر عدد اليهود الضخم (٢٠٠١٥٠)، الذين تم سبيهم على يد الآشوريين، ولا عدد الإسرائيليين الذين من المفترض أن يكون عددهم أعلى من عدد اليهوذيين، كما أن الأسفار التي أرخت لمرحلة السبي البابلي لم تأت على ذكرهم مطلقا، كما لو أنهم اختفوا من التاريخ.

إمارة بابل:

على هامش إمارة حدياب الفرثية الفيدرالية، قام يهوديان هما أسناي وأنيلاي اللذان كانا يرأسان عصابة من العصاة والمنبوذين والمتشردين والمطلوبين قضائيا، وتمردا على الحكم الفرثي في عهد العاهل أرطبان الثالث (١٦ - ٣٨ق.م) وأنشأا قلعة في تخوم إمارة بابل الفرثية، وكانا يأخذان الأتاوات من البدو رعاة الأغنام، مقابل تأمين الحماية لهم، وقد ازداد نفوذهما واستقلالهما، الأمر الذي جعل العاهل الفرثي أرطبان الثالث أن يطلب من حاكم إمارة بابل أن يقوم بتجهيز حملة لإخضاعهما، ولكن الأخوين استطاعا من خلال المفاجأة أن يقضيا على الحملة، الأمر الذي جعل أرطبان الثالث يعترف بهما، وينصب أسيناي حاكما على منطقة بابل، كما عين أخاه أنيلاي مساعدا له، وكان أنيلاي قد أحب امرأة فرثية كانت زوجة لأحد القادة الفرثيين، وتزوج بها بعد أن قتل زوجها في إحدى المعارك، ولأن هذه الزوجة كانت تمارس طقوسها الوثنية، فقد قدّم اليهود شكوى إلى الحاكم أسناي، الذي طلب من أخيه أنيلاي (حسب طلب الشعب) أن يطلق امرأته، فما كان من زوجة أنيلاي سوى أن تآمرت على أسناي، ودسّت له السم وقتلته، وبذلك أصبح زوجها أنيلاي هو الحاكم، وقد قام هذا الأخير، برعونة، باجتياح إمارة ميثريدات الذي كان من أشراف الفرثيين، كما كانت زوجته بنت الملك الفرثي أرطبان الثالث، ولما حاول ميثريدات استرداد الأرض التي اغتصبها منه أنيلاي، من خلال تجنيد حملة عسكرية، لكن أنيلاي استطاع على حين غفلة أن يغزو معسكر ميثريدات وأن يدمر جيشه ويأسره شخصيا، وقام أنيلاي بتعرية ميثريدات وجلده على مرأى من الشعب، وقام بوضعه على ظهر حمار ليدور به وهو عار متألم، ثم بعد هذه الإهانة قام بإطلاق سراحه، وقد قام ميثريدات بتجهيز جيش كبير استطاع أن ينتصر على جيش (عصابة) أنيلاي الذي كان قد ذهب ليلاقي جيش ميثريدات، ولما عاد أنيلاي منهزما حاول الانتقام من أهل بابل، وقد قام البابليون (من غير اليهود) ليلا بمباغتة عصابة أنيلاي وقتلوهم جميعا، وخوفا من أن ينتقم الشعب البابلي من اليهود فقد هاجر اليهود نحو مدينة سلوقية على نهر دجلة، وهناك، وبعد خمس سنوات من إقامتهم، وبسبب انكشاف مؤامرات يهودية لدق إسفين الشقاق بين سكان سلوقية اليونانيين، وبين السريان، فقد اتفق الطرفان المتنازعان على استئصال المهاجرين اليهود، فقاموا بمهاجمتهم وقتلوا منهم خمسين ألف إنسان، أما من استطاع من اليهود أن ينجو بروحه، فقد التجأ إلى مدينة

طيفسون عاصمة الفرثيين، وهي المدينة المقابلة لسلوقية على العدوة الأخرى من نهر دجلة، وقد بقي وضعهم قلقا، ولما استطاع إمبراطور روما تراجان أن يخضع المنطقة له، وأن يتابع فتوحاته نحو الخليج العربي، وفي تلك الأثناء حصل تمرد على الحكم الروماني، وقد شارك فيه اليهود، فعادت قوات روما بالتنكيل بالجميع بما فيهم الطائفة اليهودية.

تواريخ مرحلة السبي البابلي حسب دائرة المعارف الكتابية:

٦٠٦ ق.م نبوخذ ناصر يغزو فلسطين - السبي الأول وكان يضم دانيال ورفاقه الثلاثة

٦٠٤ ق.م موت نبوبولاسار وارتقاء نبوخذ ناصر العرش.

٥٩٨ ق.م تمرد يهوياقيم، وغزوة نبوخذ ناصر ليهوذا.

الحكم القصير للملك يهوياكين وأسره إلى بابل

٥٩٧ ق.م السبي الثاني إلى بابل وبه حزقيال.

٥٩٧ ق.م ارتقاء صدقيا لعرش يهوذا كآخر ملوك يهوذا.

٥٩٢ ق.م بداية خدمة حزقيال النبي.

٥٨٦ ق.م سقوط أورشليم والسبي الثالث.

٥٨٥ ق.م مقتل جدليا، وهروب بعض اليهود إلى مصر.

٥٧٢ ق.م آخر نبوءة لحزقيال.

٥٦١ ق.م إطلاق سراح يهوياكين من السجن.

٥٦١ ق.م موت نبوخذ ناصر وتولي أويل مردوخ عرش بابل.

٥٥٥ ق.م تولي نبونيداس العرش وهو أبو بيلشاصر.

٥٤٢ ق.م بيلشاصر يشارك أباه حكم البلاد.

٥٣٨ ق.م سقوط بابل وموت بيلشاصر.

تواريخ المرحلة الفارسية حسب دائرة المعارف الكتابية:

٦٠٠ ق.م ولادة قورش على الأرجح.

٥٥٦ ق.م سيادة قورش على عيلام وفارس.

نحو ٥٥٠ اتحاد فارس ومادي.

٥٤٥ ق.م انتصار قورش على كروسيوس ملك ليديا.

٥٣٨ ق.م استيلاء الفرس على بابل.

٥٣٦ ق.م رجوع اليهود إلى أورشليم بأمر قورش.

٥٢٧ ق.م موت، أو مقتل قورش واعتلاء قمبيز العرش.

٥٢٥ ق.م قمبيز يفتح مصر.

٥٢١ ق.م داريوس هستاسبيس يعتلي عرش فارس.

٥٢٠ ق.م خدمة حجي وزكريا النبيين.

٥١٦ ق.م الانتهاء من بناء الهيكل (السنة السادسة لداريوس).

٤٩٠ ق.م هزيمة داريوس علي يد اليونان في ماراثون.

٤٨٦ ق.م اعتلاء احشويروش العرش.

نحو ٤٨٠ أحداث سفر أستير.

٤٦٥ ق.م ارتقاء ارتحشستا الأول للعرش.

٤٥٨ ق.م عودة عزرا وجماعته من بابل.

نحو ٤٥٠ تاريخ كتابة سفر ملاخي على الأرجح.

٤٤٥ ق.م عودة نحميا لأول مرة إلي أورشليم وإصلاح أسوار المدينة.

٤٣٣ ق.م رجوع نحميا إلي بلاد فارس.

٤٣٢ ق.م عودة نحميا مرة ثانية إلى أورشليم.

٤٢٤ ق.م موت ارتحشستا الأول.

نحو ٤٠٠ق.م موت نحميا.

أحداث في أورشليم	التاريخ ق.م	ملوك فارس	التاريخ ق.م
المحاولات الأولى لبناء الهيكل	٥٣٧	كورش	٥٣٩-٥٣٠
		قمبيز	٥٣٠-٥٢٢
إعادة بناء الهيكل	٥٢٠-٥١٦	داريوس الأول (هستابس)	٥٢٢-٤٨٦
		أحشويروش الأول	٤٦٨-٤٦٥
ارتحشستا يرسل عزرا إلى أورشليم	٤٥٨	أرتحشستا الأول (لونجمانوس)	٤٦٥-٤٢٤
نحميا يعين واليا على يهوذا	٤٤٥-٤٣٣		

أحداث في أورشليم	التاريخ ق.م	ملوك فارس	التاريخ ق.م
رسائل اليهود في جزيرة الفنتين إلى يوحنان رئيس الكهنة في أورشليم، وإلى بغواس حاكم اليهودية.	٤١٠، ٤٠٧	داريوس الثاني (نوش)	٤٢٣-٤٠٤
		ارتحشستا الثاني (منيمون)	٤٠٤-٣٥٩
		ارتحشستا الثالث (أوكس)	٣٥٩-٣٣٨
		ارسيزر	٣٣٨-٣٣٦
		داريوس الثالث (كودومانوس)	٣٣٦-٣٣١

شخصيات السبي

النبي حزقيال:

يُعَدّ النبي حزقيال بن بوزي (ذو الكفل) من الأنبياء الأربعة الكبار، وكان النبي والكاهن والرسول حزقيال، وحسب ما يذهب إليه الجميع، قد ذهب مع أول سبي إلى بابل في سنة ٥٩٧ قبل الميلاد أثناء حكم الملك يهوياكين (٥٩٨ - ٥٩٧)، وهو بعمر نحو ٢٥ سنة، وسكن على ضفة نهر الخابور (وهو غير نهر الخابور في شمال وادي الرافدين) في منطقة اسمها تل أبيب = تل السنابل، والذي يعتقد أنه تل أبان الحالي بالقرب من نيبور، وكان حزقيال يتابع أخبار أورشليم بحسرة وهو في تل أبيب قبل أن يتم تدميرها النهائي، حيث كان اليهود يمرون بأسوأ حالاتهم، بعد أن تركوا عبادة يهوه، وراحوا يعبدون آلهة متعددة «تمثال الغيرة هذا في المدخل وقال لي يا ابن آدم هل رأيت ما هم عاملون. الرجاسات العظيمة التي بيت إسرائيل عاملها هنا لإبعادي عن مقدسي.. أرأيت يا ابن آدم ما تفعله شيوخ بيت إسرائيل في الظلام كل واحد في مخادع تصاويره.. هناك نسوة جالسات يبكين.. وهم ساجدون للشمس نحو الشرق».

وقد تنبأ بسقوط ودمار أورشليم، وكل ممالك الشرق القديم على يد البابليين، وهي نفس النبوءات التي أتى بها كل من إشعيا، وإرميا، اللذين عاصرا حزقيال وجميعهم عاصر وتنبأ في محيط السبي البابلي، وكانوا السند الروحي للشعب اليهودي من خلال تبشيرهم بالخلاص على يد المسيح، ولكن، وبينما كان إرميا وإشعيا قد جعلا من بني إسرائيل زوجة للرب، فإن حزقيال قد جعل من أورشليم زوجة زانية للرب الذي كان شديد الغيرة عليها، ولذا حقت عليها العقوبة.

وقد أوّل الكثير من أنبياء السبي سبب هزيمة اليهود التاريخية إلى أن زوجتي الرب يهوه (إسرائيل ويهوذا) قد خانتاه مع آشور ومصر وبابل، ولذا حل عليهما غضب الرب لا لأنهما الأسوأ بين الشعوب بل لأنهما الأفضل بين الشعوب، ولكنه، ومن أجل عودة رضى الرب، فما على المسبيين سوى التوبة إلى الرب، والذي بدوره سيتقبل هذه التوبة، ويغفر لأبنائه أخطاءهم، ومن الطريف ذكره أن حزقيال كان يأكل خبزا مخبوزاً على وقود مصنوع من البراز

الإنساني، كما سيأكل بنو إسرائيل خبزهم في الشتات بين الأمم، ولما رفض حزقيال ذلك استبدل له الرب البراز البشري بروث البقر.

وقد كان لحزقيال الأثر الكبير في لم وجهاء اليهود حوله بما يمتلكه من قوة الخطابة، وقام بتنظيم المسبيين، وتهيئتهم، وزرع أساسات العودة إلى الأرض الموعودة، وساهم بتشكيل نحن جمعية يهودية، وزرع الأمل في شعب الله المختار الذي سيعود إلى فردوسه المفقود بعد أن يتوب إلى ربه يهوه.

ويُعَدّ سفر حزقيال مصدر خامس مستقل من مصادر التشريع التوراتي ذو عقلية كهنوتية إسرائيلية، ويبدو أن حزقيال لم يكن مطلعا على المصدر الكهنوتي اليهودي في أسفار التوراة، أو، وبدقة أكبر، كُتب سفر حزقيال في مرحلة سابقة على تحرير أسفار التوراة الخمسة الأولى، ولذا فقد جاء حزقيال بديانة يهودية كهنوتية جديدة، والغريب أنه كان يرى أن أهم ثلاثة أنبياء هم نوح، ودانيال، وأيوب «وكانت إليّ كلمة الرب قائلة. يا ابن آدم إن أخطأت إلي أرض وخانت خيانة فمددت يدي عليها وكسرت لها قوام الخبز وأرسلت عليها الجوع وقطعت منها الإنسان والحيوان وكان فيها هؤلاء الرجال الثلاثة نوح ودانيال وأيوب فإنهم إنما يخلصون أنفسهم ببرهم» حزقيال ١٤.

ويُعَدّ حزقيال موسى السبي التشريعي، بل يمكن النظر إليه على أنه قاد انقلابا، أو قام بحركة تصحيحية على الديانة اليهودية «وأعطيتهم أيضا فرائض غير صالحة وأحكاما لا يحيون بها ونجستهم بعطاياهم إذ جازوا في النار كل فاتح رحم لأبيدهم حتى يعلموا أني أنا الرب» حزقيال ٢٠.

كما يمكن اعتبار سفر حزقيال هو المصدر الإسرائيلي الذي تم تهويده بعد أن كان قد تم تدوينه بالقلم الإسرائيلي، وهو يقابل سفر اللاويين ذا المصدر اليهوي، ومن المعروف أن هناك قرابة شديدة بين سفر حزقيال وسفر اللاويين وهما يعكسان بيئة واحدة، وأنا اعتقد أن النبي حزقيال كان إسرائيليا، ولم يكن يهوديا، ولذا نجد أنه يلقب نفسه بابن آدم، وليس ابن يعقوب، وكان على غرار باقي أنبياء السبي يذكر الله باسم إله إسرائيل، كما أن خطابه كان يوجهه إلى بيت إسرائيل، وليس بيت يهوذا، كما أن اسمه ذو مصدر إسرائيلي، وسفره من الأسفار الأصيلة التي لم تعبث أيدي المحررين بها كثيرا، سوى أعمال التهويد، ومن هنا فقد كان سفر حزقيال من الأسفار المتماسكة من حيث بنيته النصية، كما أن نبوءاته عن مصر التي لم تتحقق تؤكد بأن سفره لم يعبث به المحررون، ولو فعلوا ذلك لكانوا حذفوا، أو عدلوا في نبوءاته بما ينساق مع ما حدث تاريخيا.

وقد وضع حزقيال أسسا جديدة لبناء مملكة إسرائيل الدينية الكهنوتية، حيث ستعود مملكة إسرائيل إلى الوجود بقيادة المسيح، وقد منح الكهنة الدور القيادي فيها، ووضعهم على أعلى سلم القيادة، وأكد على ضرورة القيام بالشعائر الكهنوتية، على اعتبار أنه سليل الكهنة، «افتح فمك وكل ما أنا معطيكه. فنظرت وإذا بيد ممدودة إلي وإذا بدرج سفر فيها. فنشره أمامي وهو مكتوب من داخل ومن قفاه وكتب فيه مراث ونحيب وويل.. ففتحت فمي فأطعمني ذلك الدرج الذي أنا معطيكه. فأكلته فصار في فمي كالعسل».

وكان حزقيال قد أظهر الرب بشكل أكثر سموا مما أتى في أسفار توراة موسى، فكان يصفه بأنه السيد المطلق على كل الخليقة، وإن كان له اهتمام خاص بشعبه المختار تمثّل في سكنه بين ظهرانيهم، وبذلك فقد حجّم في هذا الموقع عالمية الرب يهوه، وأعاده إلى عنصريته القبلية، بعد أن كان الأنبياء السابقون وعلى رأسهم إرميا، وإشعيا قد وسعوا حدود مملكة يهوه نحو العالمية، وحسب ما اعتقد فإن كل مظاهر العنصرية في سفر حزقيال قد أُدخل إلى السفر بعد أن تم تهويده على يد الكهنوت اليهودي من التراث الإسرائيلي.

قد حاول حزقيال في السبي البابلي أن يقوم بنفس ما قام به موسى في متاهة سيناء، فجاء بشريعة جديدة، أو بالأحرى قام بتعديلات على شريعة موسى وأتى بإضافات جديدة، وقد اهتم وأكد على أهمية القيام بالشعائر والطقوس الدينية الكهنوتية، كما أنه غيّر في مقاسات الهيكل المقدس، وعلى ما يبدو أن حزقيال هو الذي أدخل فكرة الكروبيم (الملاكين) الذي يغطي تابوت الرب، ثم تم تبنيه من قبل محرري التوراة ووضعوه في أسفار توراة موسى.

كما أن حزقيال أعاد تقسيم بلاد كنعان بين الأسباط الاثني عشر بشكل مغاير لما أتت به أسفار التوراة، كما أنه غيّر في خارطة الأرض الموعودة {وهي تطابق إلى درجة ما حدود الدولة الصهيونية الحالية} : «هكذا قال السيد الرب. هذا هو التخم الذي به تمتلكون الأرض بحسب أسباط إسرائيل الاثني عشر. يوسف قسمان وتمتلكونها أحدكم كصاحبه التي رفعت يدي لأعطي آباءكم إياها وهذه الأرض تقع لكم نصيبا. وهذا تخم الأرض نحو الشمال من البحر الكبير طريق حثلون إلى المجيء إلى صدد حماة وبيروثة وسبرائم التي بين تخم دمشق وتخم حماة وحصر الوسطى التي على تخم حوران. ويكون التخم من البحر حصر عينان تخم دمشق والشمال شمالا وتخم حماة وهذا جانب

الشمال. وجانب الشرق بين حوران ودمشق وجلعاد وأرض إسرائيل الأردن. من التخم إلى البحر الشرقي تقيسون. وهذا جانب المشرق وجانب الجنوب يمينا من ثامار إلى مياه مريبوت قادش النهر إلى البحر الكبير وهذا جانب اليمين جنوبا. وجانب الغرب البحر الكبير من التخم إلى مقابل مدخل حماة. وهذا جانب الغرب. فتقتسمون هذه الأرض لكم لأسباط إسرائيل. ويكون أنكم تقتسمونها بالقرعة لكم وللغرباء المتغربين في وسطكم الذين يلدون بنين في وسطكم فيكونون لكم كالوطنيين من بني إسرائيل» حزقيال ٤٧.

كما أنه خصص الكهانة من اللاويين لنسل الكاهن صادوق بن أخيطوب بالذات، وهو الذي شغل منصب الكاهن الرسمي في مرحلة المملكة المتحدة، وأهم ما أتى عليه من تغيّر ضمن التشريع الموسوي عبارة الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون أو «لأني أنا يهوه، إلهك، إله غيور أتفقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي» الخروج ٢.

أما في سفر حزقيال فقد جاء «وكان إلي كلام الرب قائلا. ما لكم أنتم تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل قائلين الآباء يأكلون الحصرم وأسنان الأبناء ضرست. حي أنا يقول السيد الرب لا يكون لكم من بعد أن تضربوا هذا المثل في إسرائيل. ها كل النفوس هي لي. نفس الأب كنفس الابن. كلاهما لي. النفس التي تخطئ هي تموت.. الابن لا يحمل من إثم الأب والأب لا يحمل من إثم الابن. بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون» حزقيال ١٨.

ولكن إذا ما عدنا إلى سفر التثنية فإننا نقرأ «لا يُقتل الآباء عن الأبناء، ولا يُقتل الأبناء عن الآباء. كل إنسان بخطيئته يُقتل» التثنية ٢٤.

وسفر التثنية يُعَدّ النواة الأولى للتوراة، ومن هنا، فيمكن لنا أن نفترض أن حزقيال لم يكن مطلعا على سفر التثنية، بحيث كان حزقيال يعتقد أنه أوجد تشريعا جديدا حول توريث إثم الخطيئة، أو أن هذه الفقرة قد تم دسها في سفر التثنية بعد تحرير سفر حزقيال، وهذا التشريع، أو هذا النهج التشريعي يتماثل مع ما جاء به كل من إرميا وإشعيا، ومن هنا فإن حزقيال يقول «ما لكم أنتم تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل قائلين الآباء يأكلون الحصرم وأسنان الأبناء ضرست»، فحسب حزقيال فإن هذه المقولة ذكرها على أنها كانت مثلا يتدحرج على ألسنة الشعب، ولم يتحدث على أنه كلام الرب، أو يشير إلى أنه مدون في سفر توراتي، وهذا ما يزيد من الحجج التي

تدعم المقولة التي تذهب إلى أن التوراة قد تم تجميعها من الأساطير، والخرافات، والقصص، والحكايات الشعبية، والأمثال من على الألسن، وتم تدوينها في مرحلة السبي وما بعدها.

أما بالنسبة للعقائد الرئيوية المسيحية، ببعدها السياسي القومي، والتي بشر بها أنبياء السبي (عاموس، هوشع، إشعيا، إرميا، حزقيال، زكريا)، لتدعيم المشاعر القومية، فقد تباين الأنبياء في تحديد مفهوم وشخصية المسيح وانتمائه، فبينما كان يتحدث بعض الأنبياء عن المسيح على أنه سيجيء ليخلص البشرية جمعاء، حصر البعض وظيفته بتخليص الشعب اليهودي فحسب، والأغلبية جعلوه مخلصا للبشرية ككل مع اعتبار اليهود حالة خاصة، وكان حزقيال من أوائل الأنبياء الذين بشروا به، ووصفه بالملك، والذي لن يكون مخلصا لإسرائيل فحسب، بل سيكون خلاصا لكل العالم، والجدير ذكره أن عقيدة المسيح في سفر حزقيال لم تكن متبلورة بشكل واضح، بل كانت في تشكيلاتها الأولى، الأمر الذي يشير إلى أن سفر حزقيال كتب في مراحل سابقة على كتابة باقي الأسفار التوراتية، وتحديدا منها الأسفار الرئيوية، «هكذا قال السيد الرب وآخذ أنا من فرع الأرز العالي وأغرسه وأقطف من رأس خراعيبه غصنا وأغرسه على جبل عال وشامخ. في جبل إسرائيل العالي أغرسه فينبت أغصانا ويحمل ثمرا ويكون أرزا واسعا فيسكن تحته كل طائر كل ذي جناح يسكن في ظل أسكانه. فتعلم جميع أشجار الحقل أني أنا الرب وضعت الشجرة الرفيعة ورفعت الشجرة الوضيعة ويبست الشجرة الخضراء وأفرخت الشجرة اليابسة أنا الرب تكلمت وفعلت.» حزقيال ١٧.

والجدير ذكره أيضا أن حزقيال كان يلقب المخلص بـ (داود)، «ها أنذا آخذ عصا يوسف التي في يد أفرايم وأسباط إسرائيل رفقاءه وأضم إليها عصا يهوذا وأجعلهم عصا واحدة.. أخلصهم من كل مساكنهم التي فيها أخطأوا وأطهرهم فيكونون لي شعبا وأنا أكون لهم إلها. وداود عبدي يكون ملكا عليهم ويكون لجميعهم راع واحد فيسلكون في أحكامي ويحفظون فرائضي ويعملون بها. ويسكنون في الأرض التي أعطيت عبدي يعقوب إياها التي سكنها آباؤكم بها ويسكنون فيها هم وبنوهم وبنو بنيهم إلى الأبد وعبدي داود رئيس عليهم إلى الأبد» حزقيال ٣٧، وهذا ربما يعيدنا إلى شخصية داود ملك المملكة المتحدة، حيث كنا قد ذكرنا أن داود هو صفة وتعني المحبوب، وليس اسما، وقد تم نسج قصته التوراتية من عدد من الخيوط المتنوعة، وقد جعلوا منه مخلصا لبني إسرائيل، ومجمعا لشملهم المتفرق الذي عانوا منه في عهد القضاة، وداود هذا سوف يعود

ثانية ليعيد تجميع بني إسرائيل ثانية من الأماكن التي سيتشتتون بها، ويعيدهم إلى الأرض المقدسة، وسيحدث بعد المعركة الكونية التي سينتصر بها ياجوج وماجوج في يوم الرب، الذي جاء له حزقيال بمفاهيم جديدة، بل وضع له عقيدة على غاية من الأهمية وهي عقيدة القيامة (قيامة الأموات) «أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب. هكذا قال السيد الرب لهذه العظام. ها أنذا أدخل فيكم روحا فتحيون. وأضع عليكم عصبا وأكسبكم لحما وأبسط عليكم جلدا وأجعل فيكم روحا فتحيون وتعملون أني أنا الرب.. ها أنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي وآتي بكم إلى أرض إسرائيل» حزقيال ٣٧.

كما أنه ساهم في بلورة عقيدة العقاب والثواب اليهودية «وأنت يا ابن آدم فكلّم بيت إسرائيل وقل. أنتم تتكلمون هكذا قائلين. إن معاصينا وخطايانا علينا وبها نحن فانون فكيف نحيا. قل لهم. حي أنا يقول السيد الرب إني لا أُسرّ بموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا. ارجعوا ارجعوا عن طرقكم الرديئة. فلماذا تموتون يا بيت إسرائيل. وأنت يا ابن آدم فقل لبني شعبك. إن بر البار لا ينجيه في يوم معصيته والشرير لا يعثر بشرّه في يوم رجوعه عن شره ولا يستطيع البار أن يحيا ببره وأَثِمَ فبره كله لا يذكر بل بإثمه الذي فعله يموت. وإذا قلت للبار حياة تحيا. فاتكل هو على بره وأَثِمَ فبره كله لا يُذكر بل بإثمه الذي فعله يموت. وإذا قلت للشرير موتا تموت. فإن رجع عن خطيته وعمل بالعدل والحق. إن رد الشرير الرهن وعوّض عن المغتصب وسلك في فرائض الحياة بلا عمل إثم فإنه حياة يحيا» حزقيال ٣٣.

وأخيرا فقد عرف أن كل نبي من الأنبياء اليهود قد وجه أحقاده على شعب من شعوب الشرق الأدنى القديم، وقد وجه حزقيال أحقاده على مصر، التي وصفها بـ (عكاز قصب لبيت إسرائيل)، وقد وقف إلى جانب البابليين ضد المصريين «وأشتت المصريين بين الأمم وأذريهم في الأراضي. وأشدد ذراعي ملك بابل وأجعل سيفي في يده. وأكسر ذراعي فرعون فيئن قدامه أنين الجريح. وأشدد ذراعي ملك بابل. أما ذراعا فرعون فتسقطان أني أنا الرب حين أجعل سيفي في يد ملك بابل فيمده على أرض مصر. وأشتت المصريين بين الأمم وأذريهم في الأراضي فيعلمون أنا الرب» حزقيال ٣٠.

«يا ابن آدم ارفع مرثاة على فرعون ملك مصر وقل له. أشبهت شبل الأمم وأنت نظير تمساح في البحار. اندفقت بأنهارك وكدرت الماء برجليك وعكّرت أنهارهم. هكذا قال

السيد الرب.. سيف ملك بابل يأتي عليك. بسيوف الجبابرة أسقط جمهورك. كلهم عتاة الأمم فيسلبون كبرياء مصر ويهلك كل جمهورها» حزقيال ٣٢.

لا يعرف كيف، ومتى مات النبي حزقيال، الذي دفن في قبره المهيب في قرية الكفل على نهر الفرات، ويرى البعض أنه لقب بـ (ذو الكفل) لأنه كَفِل الشعب اليهودي في مرحلة السبي البابلي.

دانيال:

يُعَدّ دانيال أحد الأنبياء الأربعة الكبار، وحسب أحمد سوسة فقد تم استقدام عائلته إلى بابل في السنة الأولى لحكم نبوخذ ناصر سنة ٦٠٥ قبل الميلاد، أي قبل السبي الأول بثماني سنوات، وكان عمر دانيال آنذاك خمس سنوات فقط، وقصته غالبا هي أسطورة مهودة متناصة مع قصة يوسف، ففي بابل، وفي مرحلة يفاعة دانيال تم اختياره ليكون أحد غلمان قصر الملك نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ق.م)، إضافة إلى غلامين يهوديين هما حنانيا وميشائيل، واللذين غيرت أسماؤهم اليهودية إلى أسماء بابلية، فكان اسم دانيال هو بلطشاصر، وكان رئيس الخصيان يدير شؤونهم، خاصة بالنسبة لتغذيتهم التي كانت تتم بأفضل وأغنى أنواع الطعام التي تساعد على تكوين أجساد ملائمة لهم، وقد لمع من بين الغلمان دانيال من خلال معرفته وتفسيره لأحد أحلام نبوخذ نصر (كما حصل مع يوسف وفرعون مصر)، وقد عينه نبوخذ ناصر رئيس الولاة على جميع حكماء مدينة بابل، وقد تكررت نفس القصة مع بلشاصر بن نبونيدس، حيث فسر له كتابات ظهرت على جدار القصر، الأمر الذي زاد من منصبه السابق، وجعله رئيس حكماء المملكة كاملة، وفي نفس الليلة، وحسب تفسيره للطلاسم التي ظهرت على الجدار، قُتل بلشاصر بن نبونيدس، وسقطت المملكة بيد قورش الفارسي، وقد رفّع داريوس المادي (٥٢٢ - ٤٨٥ق.م) من منصب دانيال حيث عينه وزيرا من بين ثلاثة وزراء مهمتهم مراقبة ميزانية المملكة، وقد استطاع دانيال أن يتجاوز مكائد زميليه بعد أن أظهر تفوقه عليهما، ولكنه وبعد أن ضُبط يصلي لربه يهوه، وطبقا لأحكام فارس فقد حُكم عليه بأن يلقى في جب للأسود، والتي بسبب إيمانه لم تقم بإيذائه، ومن أجل ذلك أمر الملك بإلقاء أعدائه الذين وشوا به في نفس الجب.

قصة النبي دانيال لا تقدم أي شيء بالنسبة إلى التاريخ التوراتي في السبي بشكل مباشر، بل إن محررها كان جاهلا شيئا ما بالحيثيات التاريخية لتلك الفترة، والذي ذكر بيلشاصر على أنه ابن نبوخذ ناصر، كما جاء في سفره أن بابل سقطت على يد

داريوس المادي بدل قورش الفارسي، ويعتقد سبينوزا، ونيوتن، وسواهم أن الجزء الأول من سفر دانيال مقتبس من الآداب الرافدية، وتحديدا من التراث البابلي، أما القسم الثاني فقد كتب في عهد أنتيجونس أيفانس (١٧٥ - ١٦٤ق.م)، وحسب رأي سيد القمني وغيره من الباحثين، فقد تم تحرير سفر دانيال تحديدا بين سنة ١٦٨، وسنة ١٦٤ قبل الميلاد، وقد أعتمد الباحثون في تحديد تاريخ كتابة السفر، من خلال رصد الخلفية التاريخية، وهواجس محرر السفر، وأيضا على لغته، حيث دوّن السفر باللغتين العبرية والآرامية وهي من ميزات القرن الثاني قبل الميلاد، كما ورد فيه ذكر آلات موسيقية بأسمائها اليونانية، وحسب اعتقادي فإن أسطورة دانيال التوراتية، أسطورة قديمة تم تأريخها، وتهويدها في العهد اليوناني من قبل محررين ليس لديهم دراية تاريخية جيدة بالمرحلة الكلدانية الفارسية، وكان النبي حزقيال قد اعتبر دانيال أحد أهم الأنبياء إلى جانب نوح، وأيوب.

وسفر دانيال، كسفر حزقيال ساهم ببلورة عقيدة الثواب والعقاب في اليهودية، وهو الذي فتح أبوابا أولية لدخول مفهوم القيامة الذي ستحدث بشكل واقعي، تاريخي ضمن الزمكان الإنساني، كما وتحدث السفر أيضا عن آخر الأيام، بل وأنه يُعَدّ من الأسفار الرئيوية المهمة «في ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك ويكون زمان ضيق لم تكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت وفي ذلك الوقت ينجّي شعبك كل من يوجد في السفر. وكثير من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي. والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور» دانيال ١٢.

زربابل:

بعد أن كان قورش قد استصدر مرسوما سنة ٥٣٨ قبل الميلاد ينص على السماح لليهود بالعودة إلى أورشليم، قام ملك فارس داريوس ابن قمبيز (٥٢٢ - ٤٨٥ق.م) بتعين زربابل واليا على أورشليم، وزربابل هو ابن شلائيل بن يهوياكين ملك يهوذا (من نسل الملك داود) وكان اليهود يعتقدون أنه المسيح المنتظر، والذي من نسله جاء يوسف النجار الذي نسب إليه المسيح ابن مريم، ويرى البعض أن زربابل هو اسم آخر لشيشبصر، وكان للكثير من شخصيات السبي، وبخاصة منهم الشخصيات التي تبوأت مناصب مهمة في الدولة البابلية، اسمان أحدهما يهودي، والآخر بابلي مثل: (هاداسا - أستير) (زر بابل - شيشبصر) (دانيل -

بلطشاصر)، وقد ذكر المؤرخ اليهودي يوسفوس أن زربابل كان صديقا للملك داريوس الذي عينه واليا على أورشليم.

وقد عاد زربابل إلى أورشليم ومعه يشوع الكاهن، ومعه مقتنيات الهيكل التي كان البابليون قد أخذوها، ومعه ٤٢٣٦٠ يهوديا، و٧٣٣٧ خادما، و٢٠٠ من المغنين، وفي أورشليم وضع زربابل أساسات الهيكل في حدود سنة ٥١٦ قبل الميلاد، ويبدو أن أعمال البناء قد توقفت بعد اعتراض الجماعات غير اليهودية، واليهودية الفقيرة على أعمال البناء، كما انضم السامريون إلى أعداء اليهود الذين كانوا يرفضون إعادة بناء المدينة، والذين رفعوا شكوى إلى الملك داريوس الذي أمر بإيقاف أعمال البناء في بيت الرب، وبعد ذلك توقفت التوراة عن ذكر زربابل، ويبدو أن طبقة الكهنة والأنبياء قد سيطروا على القيادة، وهمشّوا دور زربابل السياسي، وعلى رأسهم الكاهن يهوشع بن يهوصادق، والنبي حجي، والنبي زكريا الذي قام بإلباس يهوشع بدل زربابل التاج الذهبي الذي كان يهود بابل قد بعثوا به إلى أورشليم، وهو الذي، حسب رأي البعض، قاد زربابل إلى اتخاذه قرار العودة إلى بابل، ولكن كمال الصليبي يعتقد أن الكهنة الصدوقيين، الذين قاموا بتأريخ تلك المرحلة، هم من قاموا بإخفاء نهاية زربابل، ممثل السلطة السياسية اليهودية، بحيث احتل الكهنة (السلطة الدينية اليهودية) دور قيادة اليهود في مرحلة ما بعد العودة من السبي البابلي.

عزرا:

إذا كان حزقيال هو مشرّع مرحلة السبي، فإن عزرا الكاتب والكاهن الأكبر في بابل (وهو من أحفاد فينحاس بن ألعازر بن هارون)، والذي كان مستشارا في شؤون الطائفة اليهودية في قصر أرتحشستا الأول، قد أخذ الدور القيادي السياسي الأبرز في مرحلة السبي، وقد استطاع عزرا الكاتب أو الكاهن - الذين قالوا فيه إن الله لو لم يعط الألواح لموسى لأعطاها لعزرا - أن يؤسس الأمة اليهودية في مرحلة السبي البابلي، كما فعل موسى في عبودية مصر، كما ويُعَدّ عزرا مؤسس اليهودية المتأخرة، وهو الذي قام بجمع وكتابة الشفويات اليهودية، وتحرير ما كان قد أنجزه اليهود من كتابات، ومدونات، ويقال أنه هو من استخدم الأحرف الآرامية المربعة (الخط الآشوري) والتي تطورت إلى ما يسمى بالأبجدية العبرية، وهو من أدخل أو أوجد فكرة أرض الميعاد، ويرى المختصون أن عزرا هو من كتب سفري أخبار الأيام الأول والثاني، وسفري عزرا ونحميا وجعل منها كتابا مقدسا، وكان له

دور كبير في استنهاض الروح اليهودية عند المسبيين، ويُعَدّه الكثيرون أنه المؤسس الحقيقي للدين اليهودي ولليهودية.

وعزرا (والذي ورد اسمه في القرآن باسم عُزَيـر)، إضافة لما سبق، هو الذي أنشأ الكنيس كمكان للتعبد في بابل بدل الهيكل في أورشليم، وأسس جيل العودة، والذي أوكل بقيادة الدفعة الأولى لزربابل، أما عزرا فقد قام بقيادة دفعة أخرى إلى أورشليم سنة ٤٥٧ قبل الميلاد، بعد أن أخذ أذنا من الملك أرتحشستا الأول (٤٦٥ - ٤٢٤ق.م)، كما أخذ منه أذنا بالسماح لمن يرغب من أبناء جلدته بالذهاب معه إلى أورشليم، وقد أعطاه الملك كمية من الفضة والذهب ليعيد بناء الهيكل، إضافة إلى تبرعات أعضاء الجالية اليهودية الذين لا يرغبون بالعودة، كما منحه سلطة تعيين قضاة للشعب الذين عليهم أن يقضوا للشعب حسب الشريعة اليهودية والأنظمة الفارسية.

وفي أورشليم تابع عزرا أعمال بناء بيت الرب، كما أنه أسس الكنيس هناك أيضا، كما كان قد فعل من قَبْل في بابل، كما أنه وضع أسس قيادة جديدة تحت اسم السنهدرين، وأكد على تطبيق الشريعة بحذافيرها، وبسبب تعصبه الشديد وعنصريته وتزمته ليهوديته ووضعه القيادي، حرّم على اليهود اختلاطهم مع سواهم من الأمم والشعوب، وبخاصة منها تحريم الزواج المختلط، وعلى وجه التحديد حرّم على اليهود الزواج من غير اليهوديات، وهو على ما يبدو، من دسّ في الشريعة التوراتية تحريم هذا الزواج، فمن المعروف أن يوسف، ومن بعده موسى، ومن بعده ملوك إسرائيل الأوائل، ومن بعدهم ملوك المملكة المنقسمة قد تزوّجوا بنساء غير يهوديات، ولم تذكر التوراة اعتراض الكهنة، أو الأنبياء على هذه الزيجات.

وكان إلى جانب عزرا في مسيرته نحميا في بابل، ومن ثم في أورشليم أيضا، وقد كان نحميا ساقيا للملك ارتحشستا الأول (٤٦٥ - ٤٢٥ق.م) والذي استطاع أن يأخذ منه صكا، نحو سنة ٤٤٥ قبل الميلاد، بالعودة إلى أورشليم كوالٍ ومعه الأخشاب والمواد اللازمة لإعادة بناء الهيكل، وهناك، ومع عزرا اصطدم نحميا بالسامريين بقيادة سنبلط الحوروني، وطوبيا قائد العمونيين، والبعض يُعَدّه قائد بني عمون في شرقي الأردن، أما أنا فأعتقد أنه كان زعيم العمونيين الذين كانوا يعيشون في غربي الأردن على محيط مدينة أورشليم، أو على الأقل كان كذلك عندما عاد عزرا ونحميا من بابل إلى أورشليم، وجشم العربي حاكم القبائل العربية (إلى الجنوب من أورشليم)، ويبدو أن جبال يهوذا كانت قد وزّعت فيما بينهم في بعد السبي الكلداني ليهوذا، وعلى الرغم من مضايقات السامريين، والعمونيين، والعرب

لليهود العائدين من السبي، وعلى الرغم من تذمرات اليهود من حياة التقشف، والتي ترافقت مع موجة من الجفاف زادت الأمر سوءا، فقد تابع نحميا وعزرا أعمال البناء في ظروف شديدة القسوة.

كما أن عزرا قام بإجراء إحصاء عام للعائدين من السبي بالدفعة الأولى مع زربابل، والدفعة الثانية معه، وقام عزرا بجمع اليهود في ساحة عامة ليتلوا عليهم خطابه المتزمت، ومن ثم وزّع سكناهم بحيث سكن ١٠٪ من اليهود في مدينة أورشليم، والباقي وزّعهم على الريف المحيط، وبعد أربع عشرة سنة قام فيها ببناء السور، ونظّم حياة العائدين من السبي، عاد إلى بابل سنة ٤٣٣ قبل الميلاد، وبعد مدة سمع، وهو في بابل، بعودة الأمور إلى سابق عهدها في أورشليم، فعاد إلى هناك ثانية ليعيد تنظيمها، وبقي مدة أربع عشرة سنة لمرة ثانية، أحلّ فيها شيئا من الاستقرار، ثم رجع ثانية إلى بابل.

وكان أهم ما قام به عزرا (الكاتب) هو كتابة وجمع وتحرير كتابات يهود السبي، وهذا العمل، وإن كان قد ساهم فيه جميع الغيورين على اليهودية في السبي البابلي، إلا أن عزرا على وجه التحديد يُعَدّ من أهم رموز تلك المرحلة الحرجة من التاريخ اليهودي، حيث في بابل تعرض اليهود إلى أزمة نفسية شديدة شابها عدة مشاعر متناقضة، أدت إلى مجموعة من الأفعال، وردود الأفعال، وانفرز عنها مجموعة من المعتقدات، والتصورات، والأفكار، والأحاسيس المتنوعة، وجميعها قادت اليهود إلى أن يقوموا بتدوين تراثهم الشفوي خشية من ضياعه في مرحلة السبي من جهة، ومن جهة ثانية لتوظيفه في عدة خدمات منها، وعلى رأسها دعم الشخصية اليهودية الجمعية التي كانت تعاني من مظاهر الانهيار، والتحلل في بابل، كما أنهم وظفوه أيضا في المرحلة الفارسية كوثيقة تاريخية، قانونية تترافع عن ادعاءاتهم التاريخية بأنهم هم أصحاب مدينة أورشليم الوحيدون.

فبعد أن احتك اليهود بالديانات السائدة في بابل، وبسبب شعورهم بالخزي من هزيمتهم، وتحت هيمنة هذيانات العظمة، والهذيانات الزورية الاضطهادية، ولمزيد من إيجاد تماسك بينهم كأقلية، كتبوا ما لديهم، وما اطلعوا عليه من قصص وحكايات وأساطير بعد أن قاموا بتهويدها، وقد ادعوا من خلال ذلك أن أورشليم الكنعانية والتي لم يكن لهم فيها سوى حصن صهيون (مدينة داود)، ويبدو أن صراعا قانونيا قد نشب على ملكية أورشليم التاريخية، بين الجماعات المسبية اليهودية، وغير اليهودية (الكنعانية على وجه الخصوص)، بعد أن سمح قورش بعودة المسبيين إلى بلادهم، وقد حاول اليهود بقيادة عزرا أن يقدموا التوراة كوثيقة تمليك تاريخية تثبت ادعاءهم بحقهم التاريخي في أورشليم،

للحصول على صك العودة على اعتبار أنها كانت مدينة يهودية، كما أنهم قاموا بتطوير معتقداتهم الدينية العقيدية والتشريعية (والتي زاوجوا بينها وبين الأنظمة والقوانين الفارسية)، وبينما أخذوا من البابليين أساطير الخلق والتكوين، فقد أخذوا عن الفرس عقيدة المخلص الفارسية الزراداشتية الذي سيجيء في آخر الزمان ليخلصهم من ذلهم، ومن تفرق شملهم، وسيعيدهم من منافيهم، ومن حاضرهم المذل، إلى ممالكهم الوهمية وإلى أمجادهم المزعومة في عهد داود وسليمان.

والمسيح في اليهودية هو كل رجل يقوم الكهنة بمسحه بالزيت أو الدهن بحيث يصبح مكرسا لخدمة الرب يهوه، وقد تداخلت عقيدة المخلص الفارسية، مع عقيدة الخصب البعلية القمرية، ومع عقيدة أتون الشمسية التي كانت قد اندخلت في الديانة اليهودية في مراحل سابقة، كما أن اليهود، وبتأثرهم بالعقيدة الإثمية، ومع ناي الحنين إلى مرابع الذكريات، كتب شعراؤهم وكهنتهم مراثيهم، ودوّنوا كما شاؤوا ماضيهم، وهزيمتهم التي برروها بأنها كانت انتقاما إلهيا بسبب ارتكابهم الآثام وابتعادهم عن تعاليم يهوه الذي تخلى عنهم بعد أن تخلوا هم عنه في البداية.

في تلك الفترة الفارسية وبجهود من عزرا، مع امتداد إلى المرحلة الهيلينية (ما بين القرن السادس والثاني قبل الميلاد) تم تشكيل مفهوم اليهودية كدين، واليهود كشعب مع اكتمال تحرير أسفار التوراة.

كما أن عزرا وبمساعدة نحميا، قام بتأسيس المجمع الأكبر المؤلف من مئة وعشرين عضوا نحو سنة ٤١٠ قبل الميلاد، وكان المجمع الأكبر يقوم بتنظيم أمور الدين والدنيا بعد انتهاء السبي، كما أنه قام بدور مهم في تنظيم وترتيب أسفار التوراة، واستمر المجلس بعمله حتى سنة ٢٧٥ قبل الميلاد، حيث تم تشكيل السنهدرين فيما بعد سنة ١٤١ قبل الميلاد، واستمر حتى سنة ٧٠ للميلاد، وقد قام السنهدرين بدور القيادة الدينية والاجتماعية للشعب، وهو الذي قام بمحاكمة السيد المسيح (عيسى ابن مريم)، وتم اعتباره من قبل السنهدرين أنه المسيح الدجال، وتم تسليمه إلى بيلاطس لصلبه، حسب التصور المسيحي لتاريخ المسيح، ويتألف السنهدرين من ٧٠ عضوا من الكهنة وأعيان الأسباط، والصدوقيين وبعض الفريسيين وهما من المذاهب التي برزت في المرحلة اليونانية، والرومانية، وقد فقد السنهدرين هيبته بعد خراب القدس سنة ٧٠ للميلاد، وكان قد أُلغي من قبل الرومان سنة ٥٧م للميلاد كما جاء على لسان المؤرخ اليهودي يوسيفوس، ولكنه استمر بممارسة نشاطاته بشكل سري، وبأسماء وأشكال متعددة، مع تغير الزمان، والسنهدرين كلمة من أصل يوناني يعني (المجمع

العظيم) ويقابله بالعبرية الكنيست، ويُعَدّ اليهود أن أول سنهدرين قد تشكل في سيناء حسب طلب من الرب يهوه لموسى من أجل مساعدته في تنظيم قوم موسى (الحكومة اليهودية الدينية التشريعية والتنفيذية والقضائية).

وبشكل عام يُعَدّ عزرا هو مؤسس الديانة اليهودية، ويعتقد اليهود - دون تأكيد على ذلك - أن عزرا قد مات ودفن في الموقع المسمى بالعزير على بعد ٣٢ كم من مدينة القرنة.

نحميا ابن حلكيا:

أحد شخصيات السبي البارزة، كان يعمل سقّايا للملك أرتحشستا الأول في العاصمة الفارسية شوشن، وهي وظيفة لها أهميتها الخاصة في التاريخ القديم، وقد استطاع نحميا من خلال هذه الوظيفة أن يأخذ من الملك الفارسي أذنا بالعودة إلى أورشليم، وقد عيّنه أرتحشستا حاكما على مقاطعة يهودا (٤٤٤ - ٤٣٢ق.م)، وبعث معه حامية عسكرية، وكمية من الأخشاب من أجل أعمال البناء، وما أن وصل نحميا إلى أورشليم حتى بدأ ببناء السور بالتعاون مع عزرا، وقد اعترض على ذلك كل من سنبلط الحوروني وطوبيا العبد العموني، وجشم بن شهر العربي الذي يعتقد البعض أنه كان رئيس قبيلة قيدار التي كانت تنتشر في سيناء، بعد أن تم اكتشاف نقش آرامي في وادي المسخوطة بوادي الطليمات قرب الإسماعيلية يقول {نذر إلى هاب إيلات من قينو بن جشم ملك قيدار} ، والقيداريون هم سكان سالع (البتراء)، ويعتقد البعض أنه كان من أهل السامرة، وأنا أعتقد أنه كان زعيم قبيلة عربية بدوية كانت منتشرة في أورشليم، ومحيطها.

وعلى الرغم من هذه الاعتراضات التي كان يتقدم بها غير اليهود من سكان البلاد، وعلى الرغم من تخوفاته من هذه الاعتراضات، فقد تابع أعمال الترميم ولكن قوى المعارضة استطاعت، ومن خلال القانون الفارسي، بعد أن قدمت شكوى إلى السلطة الفارسية، أن توقف أعمال البناء بأمر من الملك أرتحشستا إلى حين.

كما قام نحميا بالتعاون مع عزرا بتنظيم المجتمع اليهودي، حسب شريعة زاوجت بين الشريعة اليهودية، وأنظمة الإمبراطورية الفارسية، كما أنه ساهم في إقامة الشعائر الدينية بعد أن قام ببناء بيت الرب بشكل أولي، وبعد اثنتي عشرة سنة عاد نحميا إلى العاصمة الفارسية شوشن نحو سنة ٤٣٢ قبل الميلاد، وقضى هناك قرابة ثماني سنوات، ثم رجع ثانية إلى أورشليم سنة ٤٢٤ قبل الميلاد، وأعاد تنظيم الأمور ثانية، وبقي فيها إلى أن مات نحو سنة ٤٠٠ قبل الميلاد.

أستير:

أستير هو الاسم الفارسي للفتاة اليهودية المسماة هاداسا، وقد جاء في التوراة سفر باسمها، ويحكي السفر قصتها التي تقول إنه في زمان السبي، وفي شوشن العاصمة الفارسية آنذاك، وفي عهد الملك أحشيورش، حيث قام هذا الأخير بدعوة أشراف، وأعيان، وقادة مملكته، على وليمة، ولما دارت الخمرة برأس الملك بعث برسله لتحضر زوجته الملكة (وشتي) ليرى العالم جمالها، فرفضت الملكة طلبه، الأمر الذي سبب حرجا للملك، فقرر حسب نصيحة مستشاره أن يطلّقها، ومن ثم بعد مدة نصحه مستشاروه أن يجلب كل الفتيات الجميلات في المملكة لينتقي منهن زوجة له، وكان هناك شخص يهودي من الذين لم يعودوا من السبي البابلي إلى أورشليم، يدعى مردخاي، والذي كان يشغل منصب وزير للملك الفارسي أحشيورش (٤٨٥ - ٤٦٦ق.م)، ولم يكن معروفا من قِبل الملك أنه يهودي، وكان مردخاي قد ربّى ابنة عمه اليتيمة أستير في شوشن، وكانت فائقة الجمال، فدفع بها مردخاي إلى الملك أحشيورش دون أن يبين له يهوديتها، والذي أعجب بجمالها وذكائها وأصبحت الزوجة الأولى له، بعد أن كان قد طلّق زوجته الفارسية الأولى.

وبسبب خلافات بين هامان الذي كان يشكّل أحد أركان الحكم الفارسي (والذي يقال أنه من أصل عربي تدمري)، وبين مردخاي (حيث كان الجميع يسجد لهامان إلا مردخاي كان لا يسجد)، استطاع هامان أن يستصدر قرارا بتحليل دم اليهود لمن شاء من أعدائهم أينما وجدوا في أنحاء الإمبراطورية الفارسية، والتي كانت تمتد من بلاد الهند حتى نهر النيل، بما فيها آسيا الصغرى، في اليوم الثالث عشر من الشهر الثاني عشر (وهو شهر آذار حسب التقويم الفارسي).

ولكن أستير الزوجة الأولى للملك أحشيورش استطاعت أن تأخذ من زوجها الملك وعدا بأن ينفذ لها كل ما تطلبه، فدعته هو وهامان إلى وليمة تعدّها في جناحها في القصر الملكي، وحينها ستقول ما هو طلبها، وفي الوليمة خرج الملك أحشيورش بعد أن ثمل من شرب الخمرة إلى الشرفة، ولما عرف هامان بنوايا أستير الانتقامية، وكان يدرك أنه وعائلته سيكونون المستهدفين، أخذ يتوسل إليها في غرفة نومها (حيث تقام الوليمة)، ولما دخل الملك، رأى هامان وهو منكب على سرير زوجته في حالة ترجي، فظن الملك أن هامان يراودها على نفسها، فغضب غضبا شديدا، ولما سأل الملك أحشيورش من أستير ما هو طلبها حسب وعده السابق لها، كشفت أستير له عن حقيقة كونها يهودية، وأخذت منه

فرمانا بتحليل دم أي شعب يناصب اليهود الكراهية في الثالث عشر من الشهر الثاني عشر (آذار) في كل البلاد التي تحت حكمه، وهو يعاكس تماما الفرمان الذي كان قد أخذه هامان من قَبل.

ولما وصل الفرمان إلى كل الأقاليم التي تخضع للحكم الفارسي «كثيرون من شعوب الأرض تهودوا لأن رعب اليهود وقع عليهم».

ولما حل اليوم الموعود قام اليهود و «قتلوا من مبغضيه خمسة وسبعين ألفا. ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى النهب»، وقد استطاعت أستير أن تقنع الملك أحشيورش بتمديد الفرصة ليوم ثانٍ في مدينة شوشن ومحيطها، وكانت شوشن العاصمة الفارسية آنذاك (والتي تقع في منطقة الأهواز أي عربستان شرقي البصرة) وذلك للقضاء على أبناء هامان العشرة الباقين، وهو ما قام به اليهود.

تُعَدّ أستير بطلة قومية، ورمزا من الرموز اليهودية، على الرغم من أن السفر لا يذكر فيه اسم الرب مطلقا، أو وجود أي دور له في تلك القصة، ويذهب سملر إلى أن السفر هو نتاج خيال محض، كذلك الأمر بالنسبة لنولدكه، وكذلك درايفر الذي يستشهد بأن زوجة الملك أحشيورش كان اسمها أمسترس، كما أن أستير كانت متزامنة مع عزرا، ونحميا، ولكن لا شيء في السفرين يدل على أن أحداث سفر أستير، كانت متزامنة مع أحداث سفري عزرا ونحميا.

أما زمن كتابة السفر فيذهب بعض التوراتيين إلى أن مردخاي هو كاتب السفر، وبعضهم يعيدون كتابته إلى سنة ٤٠٠ قبل الميلاد، لكن أغلبية الباحثين يعيدون كتابته إلى محيط القرن الأول قبل الميلاد.

أستير، وأسطورة البطل:

إن قراءة سفر أستير، ودون جهد ذهني يوضح أن قصة بطلته أستير، هي نمط من أنماط أسطورة البطل بكل رموزها النموذجية الأصلية، ولكن، وبدل أن يكون البطل ذكرا، كما هو شائع، نجدها هنا أنثى، فأستير يتيمة، لم يأت السفر على ذكر أبويها مطلقا، وقد تكفل ابن عمها مردخاي بتربيتها، وكذلك الأمر بالنسبة لمردخاي، فهو مجهول الهوية اجتماعيا، وتحيط به عدة أسئلة، هل هو متزوج؟، أم عازب؟، هل كان مردخاي، وأستير يعيشان وحيدين في بيت واحد؟

وبذلك فهي ككل قصص الأبطال (شاروكين - موسى - أوديب - المسيح) تتربى البطلة أستير عند غير عائلتها.

وأستير، وبمصادفة، وبشكل مفاجئ تتحول من فتاة يتيمة، إلى ملكة في قصر يحكم العالم القديم بشكل شبه كامل، وهذا ما نجده أيضا في أسطورة البطل الذي ينتقل من حياة، إلى حياة أخرى.

وفي القصر استطاعت أن تحبط مؤامرة كان من شأنها أن تودي بحياة أبناء جلدتها في كل أماكن تواجدهم، وهو الدور الأهم الذي يقوم به البطل النموذجي، حيث ينقذ قومه، ويصبح رمزا قوميا لهم.

أما بالنسبة لأسماء أبطال الأسطورة، فأستير، هي لفظ فارسي للإلهة البابلية أشتير، أو أشتار، (عشتار، عشتاروت، عشتر، عناة، فينوس، أفروديت)، وهي تعني كوكب الزهرة، أما اسمها العبري هداسا، فيعني شجرة الآس دائمة الخضرة، وهي الشجرة التي ترمز للآلهة عشتار في الشرق القديم، وما زالت بلاد الشام تضع على شواهد القبور في الأعياد (الأضحى، والفطر)، وعيد المظال عند اليهود أغصان شجرة الآس، لأن أحباب الميت لم ينسوه، وهم يقيمون ذكراه دائما، وهي عادة قديمة تعود إلى أسطورة من أساطير الخصب، حيث يقوم أحباب الميت باسترجاعه من قبور النسيان، كما تقوم عشتار باسترجاع حبيبها بعل من بين الأموات.

أما بالنسبة لمردخاي، فهو لفظ عبري لمردوخ حبيب عشتار، أما بالنسبة لعيد البوريم الذي فيه يحيي اليهود ذكرى أستير، فما هو سوى عيد الربيع البابلي في ديانة الخصب، والذي كانوا يحتفلون فيه بعودة الإله مردوخ إلى الحياة حسب ما يذهب إليه جيمس فريزر.

وأسطورة أستير هي التصريف الأمومي الأنثوي لأسطورة الملك الأكادي شاروكين (٢٣٧١ - ٢٣١٦ق.م) {شاروكين الملك القوي ملك أكّاد هو أنا. كانت أمي كاهنة إله ولم أعرف أبي. سكن عمي في الجبال. مدينتي هي أوزوبرانو التي تقع على ضفة الفرات. أمي الكاهنة حملت بي وولدتني سرا ووضعتني في صندوق من القصب أغلقت بابه بالإسفلت ورمتني في النهر الذي حملني إلى أكي الساقي (الفلاح) الذي انتشلني. أكي البستاني جعلني ولده ورباني. أكي الساقي جعلني بستانه. عندما كنت بستانيا أحبتني عشتار. سدت وحكمت ذوي الرؤوس السوداء. خربت جبالا قوية بواسطة بلطات برونزية. صعدت الجبال العليا وعبرت الجبال السفلى. حاصرت بلاد البحر ثلاث مرات. فتحت يدي دلمون..} ، لقد قامت الآلهة عشتار بمساعدة شاروكين وأدخلته إلى القصر الملكي لمدينة كيش، ثم استطاع أن يحكم على مدينة أكد القريبة من كيش، وأخيرا أصبح شاروكين ملك الملوك، وحكم على كل العالم القديم تقريبا.

وهكذا في أسطورة الملك شاروكين نجد الطفل مجهول الاسم، والأهل، والذي حمل لاحقا الاسم الرمزي شاروكين (الملك العظيم)، وبمساعدة عشتار، ومن خلال جهوده الشخصية الفذة، استطاع أن يصبح ملك الملوك، وأن يسيّد شعبه على العالم.

أما في أسطورة الملكة أستير، فنجد أستير الطفلة مجهولة الاسم، والأهل، والتي حملت لاحقا الاسم الرمزي (أستير، أو عشتار)، وبمساعدة مردخاي (مردوخ)، ومن خلال شخصيتها الآسرة، أصبحت ملكة الملكات، واستطاعت أن تنقذ شعبها من فناء محتم.

إن اليهودية كما ذكرنا، قد اعتمدت على الأسطورة لتعليل بعض الظواهر، والعادات، والطقوس والشعائر الدينية التي كانت قد اكتبستها الجماعات العبرية أثناء تجوالها، وتنقلها في أقاليم الشرق الأدنى القديم، وكي تعيد تلك الأعياد، والمناسبات، والمدن، وبعض الأسماء، إلى تاريخها، وتراثها الخاص، فقد قامت بتدبيج أساطير تبريرية، تعليلية، تأصل، وتوطد، وتأكد من خلالها على أصالة اليهودية، وعلى مركزية اليهود في التاريخ.

وكانت بعض الجماعات العبرية قد اعتنقت الديانة البعلية الكنعانية، والأتونية المصرية، والذين تهود قسم منهم، وقد أبقت تلك الجماعات على احتفالاتهم بأعيادهم البعلية، والأتونية، كما اقتبسوا بعض الأعياد من الشعوب التي كانوا يعيشون بين ظهرانيهم، ومن هذه الأعياد عيد المظال، وعيد الفوريم (عيد الربيع في الديانات البعلية على اختلاف أسمائها) التي يلعب فيها الآس دورا مهما، كرمز لانتصار الحياة على الموت «وكتب مردخاي هذه الأمور وأرسل رسائل إلى جميع اليهود في كل بلدان الملك أحشيورش القريبين والبعيدين ليوجب عليهم أن يعيدوا في اليوم الرابع عشر من شهر آذار واليوم الخامس عشر منه في كل سنة حسب الأيام التي استراح فيها اليهود من أعدائهم والشهر الذي تحول عندهم من حزن إلى فرح ومن نوح إلى طيب ليجعلوها أيام شرب وفرح» أستير ٩، وهو عيد الفوريم عند اليهود، ففي اليوم الثالث عشر من آذار، وبينما كان يجب أن يباد اليهود على يد أعدائهم، قام اليهود، وبنفس اليوم، وبواسطة أستير بإبادة هؤلاء الأعداء.

وتمثل أسطورة أستير تهويداً لأسطورة بعل وعشتار التي تستطيع أن تعيد حبيبها (البعل) من الموت إلى الحياة، أي أن أسطورة أستير هي أسطورة رافدية بكل عناصرها، وهذا ما يفسر عدم ورود ذكر اسم الرب اليهودي يهوه في سفر أستير، لأنه كان متمثلا أصلا بكل

من أستير، ومردخاي (عشتار، ومردوخ)، أما سرديتها، وحبكتها فقد تم استقراضها من أسطورة الملك شاروكين الأكادي (سرجون).

حجي:

عاش النبي حجي في مرحلة العودة من السبي، ولا يوجد أي إشارة توضح هل كان مع السبي، أم أنه انحدر من الذين بقوا في بلاد كنعان، ويرز دوره في محيط سنة ٥٢٠ قبل الميلاد، وقد عاصر زربابل والي يهوذا، ويهوشع بن يهوصادق الكاهن، وبناء الهيكل الثاني، وكان إلى جانب النبي حجي النبي زكريا، وكان دورهما الديني والسياسي شاحبا، وقد ناصر وأيد ووقف حجي إلى جانب أنصار بناء البيت، ووقف ضد الذين عارضوا أعمال البناء، ووعد الشعب بأن بناء البيت هو الذي سيجلب لهم الخير والبركة، وسيفك كربة الشعب الذي كان يعاني من سوء الحال، كما أن المسيح لن يأتي قبل أن يبنى البيت له ليكون ملكا على العالم، وقد أتت إشارات في سفر حجي إلى اعتبار زربابل هو المسيح الذي اختاره الرب، وأنا اعتقد أن حجي كان يشير في ذلك إلى الملك الفارسي ممثل الرب على الأرض، والذي قام باختيار زربابل ليكون واليا على أورشليم.

زكريا:

زامن النبي زكريا النبي حجي، وتنبأ كلاهما في نفس السنوات، وقد وقف زكريا إلى جانب زربابل ويهوشع في الجدل الذي كان دائرا حول ضرورة بناء بيت الرب في الوقت الذي يعاني فيه الشعب من حالة فقر شديد، كما أن زكريا حرض الشعب على التضامن الاجتماعي مع العائدين من السبي، وكان، ككل الأنبياء الكهنة، يؤكد على أن مملكة إسرائيل هي مملكة دينية كهنوتية لا مدنية سياسية، لذلك كان وراء صناعة تاج من الذهب في بابل، وقد كان إلى جانب وضعه على رأس يهوشع الكاهن، بدل وضعه على رأس زربابل صاحب السلطة المدنية، الأمر الذي تشارك مع عوامل أخرى في اتخاذ زربابل قرارا بالعودة إلى بابل حيث هناك اختفى ذكره، وبذلك انتهى حضور النسل الملكي على الساحة السياسية حتى مجيء السيد المسيح، وهذا ما قوى من موقف الكهنة في السيطرة على الشعب اليهودي.

أما إضافات زكريا الدينية فبرزت من خلال حديثه بصورة أكثر وضوحا عن ملائكة الرب، الذين ينتقلون أو يَصلون بين السماء والأرض، ويبلغون رسائل الرب إلى

الناس عن طريق الأنبياء والرسل، كما، ككل أنبياء تلك المرحلة، تنبأ بمجيء المسيح المنتظر، كما أنه تحدث عن يوم الرب بشيء من التفصيل «فيخرج الرب ويحارب تلك الأمم كما في يوم حربه يوم القتال. وتقف قدماه في ذلك اليوم على جبل الزيتون الذي قدام أورشليم من الشرق فينشق جبل الزيتون من وسطه نحو الشرق ونحو الغرب واديا عظيما جدا وينتقل نصف الجبل نحو الشمال ونصفه نحو الجنوب. وتهربون في جواء جبالي لأن جواء الجبال يصل إلى آصل وتهربون كما هربتم من الزلزلة في أيام عزيا ملك يهوذا ويأتي الرب إلهي وجميع القديسين معك

ويكون في ذلك اليوم أنه لا يكون نور. الدراري تنقبض. ويكون يوم واحد معروف للرب. لا نهار ولا ليل بل يحدث أنه في وقت المساء يكون نور. ويكون في ذلك اليوم أن مياها حية تخرج من أورشليم نصفها إلى البحر الشرقي ونصفها إلى البحر الغربي.. ويكون الرب ملكا على كل الأرض» زكريا ١٤.

عوبيديا:

على الرغم من أن عوبيديا كان من الأنبياء الصغار، وسفره من أصغر أسفار التوراة، فهو يتألف من إصحاح واحد فقط، إلى أن الباحثين اختلفوا كثيرا، حول تزمين عوبيديا، وحول تزمين كتابة السفر، والذي على ما يبدو تم تدوينه من قبل عدة محررين، يعودون إلى أزمان متعاقبة، وكان عوبيديا قد عاصر المراحل الأخيرة من عودة المسبيين، كما أنه مع النبي المعاصر له يوئيل، حاول أن يشد على أيدي العائدين اليائسين الذين بدل أن يعودوا إلى فردوسهم المفقود، وجدوا الخرائب التي تسكنها الثعالب، وكان يرى أن هذه المعاناة هي ضرورية لمجيء يوم الرب القادم، ولكن أبرز ما في سفر عوبيديا هو توبيخه لأدوم لأنها تكبرت على يهوذا، وشمتت بسقوطها، كما تنبأ لها بالدمار «وسبي هذا الجيش من بني إسرائيل يرثون الذين هم من الكنعانيين إلى صرفة. وسبي أورشليم الذين في صفارد يرثون مدن الجنوب» عوبيديا.

ملاخي:

ظهر ملاخي، صاحب السفر الأخير في التوراة، في فترة ما بعد السبي، وحسب البعض فقد برز بعد عودة نحميا إلى أورشليم مباشرة، وكان دوره، ككل الأنبياء في تلك المرحلة، شاحبا ثانويا، ولا يتعدى إسناد ودعم الحكم الكهنوتي، ويبدو أن ملاخي

كان لاويا ، وكان يحرّض اليهود على دفع العشور (الزكاة) والعطايا إلى بيت الرب كي يفرجها الرب عليهم، وبدا الرب في سفر ملاخي كما لو أنه يسأل، أو حتى يتوسل من الشعب العطايا ، ويطالبهم من خلال الترغيب والترهيب بحقوقه، بعد أن كانت منطقة السامرة (إسرائيل) لا تدفع إلى خزينة الرب في أورشليم، بل كانت تدفع الضرائب والعطايا والهبات إلى المعابد الكنعانية «هاتوا جميع العشور إلى الخزينة ليكون في بيتي طعام وجربوني.. إن كنت لا أفتح لكم كوى السموات وأفيض عليكم بركة» ملاخي ٣.

عقيدة العقاب.. والثواب
والمسيح، ونهاية التاريخ في اليهودية

لقد وجد الإنسان أن كل ما يحيط به يشكل خطرا على حياته ووجوده، وقد حاول الإنسان أن يجد وسيلة لتهدئة مخاوفه حتى لو كان ذلك من باب الوهم والتوهم، وقد استطاع التعامل مع المخاوف التي تعود إلى أشياء عينية مدركة كحيوانات البرية، فقام بقتلها حينا، والاختباء عنها حينا، وتجنبها حينا آخر، ولكن الأمر كان مختلفا بالنسبة لأشياء لم يستطع تشخيصها جيدا مثل البروق والرعود والزلازل والبراكين وغيرها، بخاصة تلك التي تتعلق بالسماء، وقد حاول في البداية أن يسيطر عليها، أو أن يؤثر فيها من خلال تقليدها، أو القيام بأعمال محاكاة، أو معاكسة، وهي المرحلة ما قبل الدينية (المرحلة السحرية)، والبعض يُعَدّونها المرحلة الأولى الدينية، ولما أدرك الإنسان أنه كثيرا ما كان يفشل في التأثير على تلك القوى، فقد حاول أن يتفاوض معها، وكان من أجل ذلك يقوم بتشخيصها من خلال أنسنتها وتشييئها وترميزها أو تمثيلها، وهو ما دعي بالديانة أو المرحلة الإرواحية، ومن ثم قام الإنسان بالتفاوض مع تلك القوى الرهيبة (الآلهة) ووصل معها إلى اتفاق، ونتيجة لذلك الاتفاق فقد فُرض على الإنسان أن يقدم الطاعة والخضوع - من خلال عدة شعائر وطقوس - لتلك القوى المتمثلة بالآلهة كي يحوز على رضاها، ويتجنب غضبها، كما عليه أيضا أن يقدم لها الطعام والشراب، وإلا فسيكون محط غضب من تلك القوى التي ربما تقوم بإغراقه في طوفانات عظيمة، أو ربما تبتلعه الزلازل، أو تدفنه البراكين.

وعندما تطورت البنية الاجتماعية للإنسان، بدأت تتشكل، وتتبلور لديه بعض المفاهيم الأخلاقية مثل الوجدان، والضمير (الأنا العليا)، والتي أفرزت مجموعة قيم، وسلوكيات، ونظم اجتماعية حددت، وميزت بين الفضيلة، والرذيلة، وبين المحمود، والمنبوذ، وبين ما هو مسموح، وما هو ممنوع، وهو الأمر الذي دعا إلى إفراز قيادة أو زعامة تحدد، وتحافظ، وبطريقة مباشرة، على تلك القيم، وهي المسؤولة عن تطبيق الشريعة الاجتماعية، وتنفيذها من خلال قوانين العقاب والثواب، وبما أن الزعيم أو السيد الحاضر في الأرض لا يمكنه مراقبة الجميع، ومعرفة تصرفاتهم، ومعرفة وضبط ما ينوون فعله، فقد أشرك في هذا الدور

أيضا السيد الغائب الذي في السماء، والذي من ارتفاعه يمكنه أن يراقب الجميع وبشكل دقيق، بل ويمكنه أن يعرف ما ينوي الإنسان فعله، بل وإنه يعرف ما سيحدث قبل حدوثه، وبينما أوكل إلى زعيم القبيلة أو المجتمع تنفيذ شريعة العقاب والثواب بشكل مباشر في الزمكان، فقد أوكل إلى السيد الذي في السماء أن ينفذ تلك الشريعة، وبطريقته الخاصة، بشكل مباشر، أو بشكل غير مباشر في يوم ما سيجيء في المستقبل، وتبلورت في هذا السياق مفاهيم الحياة الدنيا، والحياة الأخرى، أو عالم الأحياء، وعالم الأموات، ومفهوم يوم القيامة، والجنة والنار.

وكان هناك تباينات في تصورات العقاب، والثواب بين حضارة، وأخرى، وتُعَدّ أهم الحضارات التي عالجت عالم الأموات، ويوم العقاب والثواب هي الحضارة المصرية، والتي تُعَدّ بحق حضارة الأموات بامتياز، وليس هناك من حضارة اهتمت بالموت بقدر اهتمام الحضارة المصرية، فالديانة المصرية ليست سوى معتقدات حول مفهوم الموت، حيث كان المصريون، ومنذ بداية تاريخهم، يؤمنون بيوم القيامة، وهو اليوم الذي فيه سوف يقوم الإله بحساب الإنسان لا على أفعاله في الحياة الدنيا فحسب، بل وعلى نواياه وطهارة قلبه، وهو ما يدعو الإنسان لتبني أخلاقيات نبيلة في الحياة الدنيا، والابتعاد عن الشر، والانتصار على الشيطان الذي لم يكن ذا ملامح واضحة في ذلك الزمن، والذي كان يمثله الإله سيت الذي كان يرمز له بالحمار، وأحيانا الأفعى، وأحيانا الخنزير، وأحيانا التمساح، وكان سيد الفوضى، وإفساد النظام، وهو، وإن كان شريرا لكنه لا يمثل رمزا حصريا للشر، وهو أول تمثل بدائي للشيطان في التاريخ الديني، ولكن العقيدة الأتونية من دون العقائد المصرية الأخرى لم تهتم كثيرا بعالم الأموات.

أما السومريون فكانوا من الشعوب الذين لم يولوا اهتماما لعالم الأموات، وتحديد معالمه، فقد تصوّروه عبارة عن عالم أسود مجهول، كذلك الأمر بالنسبة للديانة الأتونية التي همشّت التصورات الأخروية.

أما في اليهودية، ولأنها تحوي في طبقاتها العميقة تصورات دينية ثقافية ورثتها عن السومريين، وتصورات دينية ثقافية اكتسبتها من العقيدة الأتونية، فقد كانت تصوراتها عن عالم الأموات غامضة، وحسب التصور الديني اليهودي التقليدي التوراتي فإن الإنسان حين يموت يذهب إلى عالم الظلمات المجهول (الهاوية) الذي لا يوجد له أي ملامح ثابتة، وهذا العالم ليس مجهولا بالنسبة لليهود فحسب، بل للرب يهوه أيضا، وهذا الأمر يدعو للغرابة من عقيدة تُعَدّ ديانة سماوية تاريخية، ولم يحاول المعتقد اليهودي البحث في مسألة الموت إلا في

مراحل متأخرة، بدأها في مرحلة السبي البابلي متأثرا بالعقيدة الزرادشتية، بعد أن كانت كل الأديان والمعتقدات الشرقية قد أمضت شوطا تطوريا كبيرا في بحثها عن ماهية (الحياة الأخرى)، ويعود ذلك إلى أن الدين اليهودي دين مادي لم يكن ليهتم كثيرا بعالم الروح الميتافيزيقي، فجل اهتمامه كان حسياً مادياً زمكانياً لا روحياً، وبذلك فإن اليهودي الذي استطاع أن يفلت من العقاب الأراضي، لن يكون في موضع المساءلة في العالم الآخر، وبذلك فإن الآباء الأوائل لن يحاسبوا على ما اقترفوه من آثام في الحياة الدنيا لغياب مفهوم يوم الحساب اللاهوتي.

وتذهب اليهودية التوراتية إلى أن العقاب والثواب هما من أعمال الحياة الدنيا، وتقع ضمن الفضاء الزمكاني، بل وداخل التاريخ، وحسب التصور اليهودي، على الإنسان أن يعمل ما هو أخلاقي كي تطول أيامه على الأرض، وكي ينعم بحياة هانئة، وكي يكون صاحب مال، وجاه، وإلا فسوف يعيش فقيرا، وتحلّ عليه الأمراض، ويموت قبل أوانه، وخير مثال على عدمية ووجودية العقيدة اليهودية هو سفر الجامعة، إضافة إلى ما جاء به سفر أيوب، وكنت قد استعرضت هذا الموضوع في سياق نقاشي لسفر أيوب، والذي جاء فيه «ليته هلك اليوم الذي ولدت فيه والليل الذي قال قد حبل برجل. ليكن ذلك اليوم ظلاما. لا يَعْتَنِ به الله من فوق ولا يشرق عليه نهار. ليملكه الظلام وظل الموت. ليحل عليه سحاب. لترعبه كاسفات النهار. أما ذلك الليل فليمسكه الدجى ولا يفرح بين أيام السنة ولا يدخلن في عدد الشهور. هوذا ذلك الليل ليكن عاقرا لا يسمع فيه هتاف. ليعلنه لاعنو اليوم المستعدون لإيقاظ التنين لتظلم نجوم عشائه. لينتظر النور ولا يكن ولا ير هدب الصبح. لأنه لم يغلق أبواب بطن أمي ولم يستر الشقاوة عن عيني. لِمَ لَمْ أمت من الرحم. عندما خرجت من البطن لم لم أسلم الروح. لماذا أعانتني الركب ولِمَ الثدي حتى أرضع. لأني قد كنت مضطجعا ساكنا. حينئذ كنت نمت مستريحا مع ملوك ومشيري الأرض الذين بنوا أهراما لأنفسهم...» أيوب ٣.

«الهاوية بيتا لي وفي الظلام مهدت فراشي وقلت للقبر أنت أبي وللدود أنت أمي وأختي فأين إذا آمالي. من يعاينها. تهبط إلى مغاليق الهاوية إذ ترتاح معا في التراب» أيوب ١٧.

«لماذا تحيا الأشرار ويشيخون نعم ويتجبرون قوة. نسلهم قائم أمامهم معهم وذريتهم في أعينهم. بيوتهم آمنة من الخوف وليس عليهم عصا الله.. يقضون أيامهم بالخير في لحظة يهبطون إلى الهاوية.. من هو القدير حتى نعبده وماذا ننتفع إن التمسناه» أيوب ٢٢.

«لأن للشجرة رجاء. إن قطعت تخلف أيضا ولا تعدم خراعيبها. ولو قدم في الأرض أصلها ومات في التراب جذعها. فمن رائحة الماء تفرخ وتنبت فروعا كالغرس. أما الرجل فيموت

ويبلى. الإنسان يسلم الروح فأين هو. قد تنفد المياه من البحرة والنهر ينشف ويجف والإنسان يضجع ولا يقوم.» أيوب.

أما في سفر الجامعة، فقد جاء فيه «قلت في قلبي الله يدين الصديق والشرير. لأن لكل أمر ولكل عمل وقتا هناك. قلت في قلبي من جهة أمور البشر إن الله يمتحنهم ليريهم أنه كما البهيمة هكذا هم. لأن ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة وحادثة واحدة لهم. موت هذا كموت ذاك ونسمة واحدة للكل فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل. يذهب كلاهما إلى مكان واحد. كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما. من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد إلى فوق وروح البهيمة هل هي تنزل إلى أسفل إلى الأرض. فرأيت أنه لاشيء خير من أن يفرح الإنسان بأعماله لأن ذلك نصيبه. لأنه من يأتي به ليرى ما سيكون بعده.» جامعة ٣.

ومن هنا فقد تخيل اليهود أن الجحيم والنعيم عالمان فيزيائيان يقعان في الزمكان المادي، بل إنهم تخيلوا الجحيم في وادي هنوم بالقرب من مدينة أورشليم، أما الجنة التي يحلم اليهود أن يعيشوا فيها في آخر الزمان، وداخل التاريخ، فتقع في بلاد كنعان، أما بالنسبة لجنة الماضي، أو جنة بداية، أو قبل بداية التاريخ، أي الجنة التي كان يعيش فيها آدم (جنة عدن) فتقع عند منابع الأنهار الأربع (فيشون، وجيحون، ودجلة والفرات)، أي أنها تقع شمال الأناضول، وهي تتطابق، من حيث التوصيف، مع الجنة السومرية، ففي نص سومري جاء:

في تلك الأيام، لم يكن هناك حية ولا عقرب ولا ضبع.
لم يكن هناك أسد ولا كلب مسعور ولا ذئب.
لم يكن هناك خوف ولا رعب.
لم يكن للإنسان منافس.
في تلك الأيام كانت بلاد شوبور، أرض المشرق،
أرض الوفرة وشرائع العدل.
وسومر، أرض الجنوب، ذات اللسان الواحد، أرض الشرائع الملكية.
وأوري أرض الشمال، الأرض التي يجد فيها كل حاجته.
ومارتو، أرض الغرب، أرض الدعة والأمان.
وكان العالم أجمع يعيش في انسجام تام،
وبلسان واحد يسبح الكل بحمد الإله إنليل}

وفي توصيف آخر لجنة دلمون، والتي يعتقد أنها تقع في جزيرة البحرين:

{في دلمون لا ينعق الغراب الأسود

وطير العتيدو لا يصيح ولا يصرخ

الأسد لا يفترس

والذئب لا يخطف الحمل

لم يعرف الكلب المتوحش الذي يلتهم الجدي

ولم يعرفوا الكوارث التي تدمر الغلة

لم توجد الأرملة

والطير من الأعالي لا يسقط

والحمامة لا تحني رأسها

ما من أحد يقول عيني مريقة

ولا مصدوع يقول في رأسي صداع

عجوز دلمون لا تقول أنا عجوز

وشيخها لا يقول أنا طاعن في السن

العذراء ليست بحاجة إلى أن تغتسل

ولا يهدر الماء الرائق في المدينة

من يعبر نهر الموت لا يتفوه بالموت

والكهنة النائحون لا يدورون حوله

المنشد لا يعول بالرثاء

وفي طرف المدينة لا ينوح ولا يندب}

وهذا التوصيف يتماثل مع التوصيف التوراتي للجنة اليهودية التي سيصل إليها العالم في آخر الزمان، أي هي أرض الميعاد التي سوف «يسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسمن معا وصبي صغير يسوقها. والبقرة والدبة ترعيان. تربض أولادهما معا والأسد كالبقر يأكل تبنا. ويلعب الرضيع على سرب الصل ويمد الفطيم يده على حجر الأفعوان. لا يسوءون ولا يفسدون في كل جبل قدسي لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر. ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسى القائم راية للشعوب إياه تطلب الأمم ويكون محله مجدا» إشعيا ٣٢.

والجدير ذكره أن هذا المكان هو مكان داخل التاريخ، أي هو ليس بالجنة أو الفردوس المفقود بمعناه الميثولوجي، بل هو المكان بجغرافيته نفسها حسب ما كان في

الماضي، أي أنه (المكان هنا)، في أرض كنعان تحديدا، وهو يختلف عن الفردوس المفقود، أو أرض دلمون السومرية (التي كانت هناك في غابر الزمان)، وهذه الجنة اليهودية هي التي كانت محور اليهودية، والتي من أجلها قام اليهود بكتابة التوراة التي تُعَدّ المنطلقات الإيديولوجية للادعاءات اليهودية التاريخية ببلاد كنعان.

لقد قامت عقيدة العقاب والثواب، وعقيدة الفردوس المفقود، بتلبية بعض الاحتياجات الروحية للإنسان في سياق تطوره الاجتماعي، كما أنها ساهمت، إضافة إلى تصورات أخرى، في تسكين حمى الهواجس، والمخاوف، التي كانت تتولد، وتلد الكثير من الأسئلة الوجودية والتي، على الرغم من بساطتها، لم يستطع الإنسان أن يجد لها إجابات مقنعة، تستطيع أن تدفن شكوكه إلى الأبد:

مـــــــن أيــــــــن يــــــــأتي؟

لمــــــــــاذا يمـــــــــــوت؟

وإلى أيـــــــــن يـــــــــذهب؟

وهـــل يمكـــن لـــه الرجـــوع ثانيـــة؟

وإذا ما كان الإنسان في بداية وعيه للزمان، وللتاريخ قد أرجع موته إلى الحيوانات، أو النار، أو الطوفانات، وما سواها من العوامل الأخرى المشخصة، التي كانت سببا في نهايته ضمن سياق صراع البقاء، لكنه احتار في إرجاع موته الطبيعي، الأمر الذي جعله يفكر بوجود قوى خفية غير مشخصة مسؤولة عن موته، وراح الإنسان يبحث في تشخيص هذه القوى الخفية، ولأنه لا يستطيع أن يصارعها، فقد حاول التفاوض مع هذه القوى التي افترض أنها تسكن في السماء مركز الغموض، ولكن القوى (الآلهة) لم تشأ أن تكشف له عن كنه الموت، وعن سر الخلود، وبعد لأي وجهد ومفاوضات طويلة، تم الاتفاق على أن يقبل الإنسان الموت كمنحدر لا يمكن إلا السقوط فيه، مقابل وعود من الآلهة باسترجاع الإنسان من عالم الموت إلى عالم الخلود ولكنه، ومن حينها بدأ الإنسان يهتم بدفن موتاه، فكان يوسدهم في التراب بطريقة رمزية، ذات مقاصد تصورية، كما كان يضع في المدافن بعض الحاجيات التي افترض أن الميت سيحتاجها في حياته الأخرى، كما قام أيضا بتحنيط الأموات كي يبقى الجسد محتفضا بهيئته التي سيقوم بها (يوم القيامة).

ومن جهة أخرى، وبسبب إدراك الإنسان لحقيقة موته، بدأ يدرك معنى الزمان، والمكان، وتغيرهما، وقد نظر الإنسان إلى الزمان بعد خبرة طويلة، فاكتشف أن للزمان شكلا دائريا، متكررا، وإن المكان يتغير مع مرور الزمان، وبالتالي بدأ يدرك مفهوم التاريخ الذين ينتج عن

اقتران الزمان بالمكان، وبما أن الزمان له صفة دورية، فللتاريخ أيضا صفة التكرار أيضا، ولكنه ليس تكرارا ميكانيكا دوريا كما هو بالنسبة للزمان، بل تحكمه حيثيات متعددة، وتكراره يكون من خلال جوهره، لا من خلال مظهره، وهذا التكرار لا يمكن استنباطه إلا من قبل بعض الأشخاص الذين يمتازون بحالة عالية من الوعي للتاريخ وقوانينه وأنظمته، وهم الذين كانوا يدعون بالكهنة، والأنبياء فيما سبق، وكانت معرفتهم بالمستقبل منوطة بعلاقتهم بالآلهة، الذين وحدهم يعرفون دورات التاريخ كما نحن نعرف دورات الزمان.

لكل بداية نهاية، ولكل نهاية بداية جديدة، هكذا تصور الإنسان جوهر التاريخ، وهكذا حاول الإنسان ثقافيا أن يعالج قلقه، ومخاوفه من الموت القادم، فهو وإن كان سيموت كفرد، فإنه سيبعث ثانية، وكذلك الأمر بالنسبة للجماعة، فقد اعتقد بوجود نهاية للتاريخ الجمعي، ولا بد من اندثار الجماعة، وقد تصور أن رجلا في المستقبل سيجيء، وهذا الرجل هو حالة تناص مع أحد الآباء الأوائل، أو هو انعكاس في مرآة المستقبل للأب الأول الذي كان قد أسس الجماعة في الماضي، وسيقوم هذا المخلص بجمع، من على هامش التاريخ، ما تشتت، وتفكك من الجماعة، ويقودهم ليتبوءوا مركز التاريخ، ويرجعهم من الغياب إلى الحضور، ويعيد تشكيل ماضيهم في الحاضر، وقد ذهبت الحضارات، والأديان مذاهب شتى، في مقاربتها للتاريخ، وفي تخيّلها للمخلص.

فمعتقدات الخصب البعلية اللاتاريخية، والتي تبني تصوراتها الدينية على الزمن، وليس على التاريخ، تذهب إلى أن الأرض، بعد مواتها السنوي في الخريف، ستنهض ثانية، وتنطلق فيها الحياة بعد انبعاث الإله بعل من عالم الأموات السفلي، الذي يقع في الظلمات السحيقة للأرض، إلى عالم الأحياء، والذي سيعود ثانية إلى عالم الأموات بعد صراعه الخاسر مع إله الموت، وهكذا سيستمر هذا الصراع، وسيتكرر بشكل سنوي، وهذا حال أكثر المعتقدات القديمة في الشرق الأدنى القديم، والتي كان تصورها بسيطا وأوليا عن التاريخ، أما الديانات الكبرى التاريخية، أي التي بنت تصوراتها الدينية على التاريخ، لا على الزمان الدوري، فقد كان لديها تصورات معقدة، ومكتملة، عن التاريخ، وبشكل عام فقد قَسّمت الأديان الكبرى، على تعددها، التاريخ إلى عدة مراحل:

المرحلة الأولى وهي المرحلة السرمدية، أو الطور السكوني ما قبل الوجودي حيث لا زمان، ولا مكان، ليس هناك سوى الإله المطلق فقط.

والمرحلة الثانية هي المرحلة الكوزموغونية (الزمكانية) وهي المرحلة التي جرى فيها خلق الوجود، وكان أول ما خلق الله هم الملائكة، ومنهم الشيطان، ومن ثم بدأ الله بخلق

الوجود، فخلق في اليوم الأول النور، وفي اليوم الثاني خلق السماء، وفي اليوم الثالث خلق الأرض، وفي اليوم الرابع خلق الكواكب والنجوم، وفي اليوم الخامس خلق الطيور وحيوانات البحر، وفي اليوم السادس خلق حيوانات البر، والإنسان الذي قام بطرده من الجنة بسبب عصيانه الأوامر الإلهية.

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الأصول والتنظيم (التاريخ).

أما المرحلة الرابعة فهي المرحلة الأبدية، وبالتالي العودة ثانية إلى بداية الدورة (السرمدية)، وإغلاق الدورة الزمنية الكونية الوجودية.

أما التاريخ حسب تصور كل ديانة على حدة، فالزارادشتية تتصور أن التاريخ يمر عبر ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة الخير الكامل.

والمرحلة الثانية: مرحلة امتزاج (وصراع) الخير بالشر، وهنا تقع على الإنسان مسؤولية الوقوف مع الخير في صراعه ضد الشر، ويمثل الوعي الإنساني، والأخلاقية الطيبة السلاح الإنساني في هذا الصراع.

والمرحلة الثالثة هي مرحلة انتصار الخير على الشر، والتي تبتدئ بميلاد زارادشت، وستنتهي على يد المخلص (شاو شنياط)، الذي سيولد من امرأة عذراء بعد استحمامها في إحدى البحيرات، حيث سيدخل إلى رحمها نطاف زرادشت (مخلص يولد بشكل عجائبي ولكن يبقى من جنس بشري)، والذي سيقوم بقيادة المعركة الكونية الوجودية ضد الشيطان، وحينها سوف تقوم القيامة، ويقوم الأموات من سباتهم وتهبط عليهم من السماء أرواحهم، ويقدّمون إلى يوم الحساب، حيث يقوم الملائكة بتسليط نار على الأرض تذيب المعادن وتحيلها إلى نهر من المعادن السائلة، ويُدفع البشر للمرور في هذا النهر، فمن كان من الأشرار فيأخذه التيار إلى الجحيم، ومن كان من الأخيار فيعبره الإنسان كما لو أنه نهر من الحليب، ويصل إلى عالم النعيم الخالد الأبدي، وهناك تصور زارادشتي أكثر وضوحا يذهب إلى أن البشر حين يموتون فإنهم يمرون فوق الصراط المستقيم، فمن كان شريرا يضيق به الصراط فيسقط إلى الجحيم، ومن كان من الأخيار فيمر فوق الصراط المستقيم نحو النعيم، وينتظر الجميع يوم الحشر العظيم، وهو اليوم الذي ينفتح فيه التاريخ على الأبد.

وحسب الزرادشتية التثنوية، فإن قوتين ستتنازعان على التسيد على التاريخ هما قوتا الخير والشر، حيث تذهب الزرادشتية إلى أن ثلاثة آلاف عام ستمضي، وستكون السيطرة فيها لإله الخير، والنور أهورامزدا (هرمز)، ومن ثم يعقبها ثلاثة آلاف عام أخرى تخضع فيها

الأرض لإرادة مشتركة، أو تحت قيادة موزعة بين إله الخير والنور أهورامزدا، وإله الشر والظلام أهريمان، ومن ثم يعقبها ثلاثة آلاف عام سوف يفقد فيها أهريمان قدرته المدمرة، وتخضع الحياة لإرادة إله الخير والنور أهورامزدا فحسب.

أما بالنسبة للديانة اليهودية، فبعد أن تعرض اليهود إلى أزمة تاريخية مريرة في مرحلة السبي البابلي، وبعد أن احتكوا بالتصورات الدينية في بابل، فقد تأثرت اليهودية بالتصور الزارادشتي للتاريخ، وبخاصة بعد أن هودّت اليهودية المخلّص الزارادشتي، إلا أن التصور اليهودي للزمكان، وللتاريخ، اختلف عن التصور الزارادشتي، في المرحلة الأخيرة من التاريخ، فالتصور الزارادشتي يقوم على فكرة نهاية التاريخ، مع انفتاح الزمن المادي على الأبد، أما التصور اليهودي فيقوم على فكرة أن التاريخ سينتهي عندما يتسيد شعب الله المختار على البشرية، وهو ما دعاه الباحث فراس سواح بالتاريخ الدينامي المنقوص، كما أن فراس سواح يذهب أيضا إلى أن الإيديولوجيا الدينية اليهودية، بشكل عام، هي زارادشتية تقف بالمقلوب، فالرب العالمي في الديانة الزارادشتية، يصبح الرب يهوه المتخصص بشعبه المختار فقط في الديانة اليهودية، والتاريخ الزارادشتي الذي ينتهي بانتصار قوى النور على قوى الظلام، ويحل السلام الشامل العادل العالمي، ينتهي في اليهودية بانتصار اليهود على كل الشعوب الأخرى.

ولكن الزرادشتية برزت بشكل أقوى، وأكثر وضوحا في العقيدة الألفية المسيحية البروتستانتية، بعد أن قامت بتهويد التصور الزارادشتي، ثم مسّحته، بحيث أن التصور المسيحي للتاريخ أصبح يتألف أيضا من ثلاث مراحل، كما هو الأمر بالنسبة للزارادشتية، مع بعض الفوارق البسيطة:

المرحلة الأولى هي مرحلة سرمدية.

ثم تأتي مرحلة الخلق الكوزموغونية.

ثم تأتي فترة فاصلة أو وسيطة ما بين مرحلة الخلق، ومرحلة نهاية التاريخ، وهي تمتد منذ سقوط آدم من الجنة، ومن ثم مجيء المسيح الأول، وفي تلك الفترة يتسيد فيها الشيطان، ولكن في نهاية تلك الفترة يأتي ابن الله ثانية (المجيء الثاني للمسيح) ويقود معركة (هارمجدون) التي ستنشب بين أبناء النور، أو الخير، وبين أبناء الظلام أو الشر، والتي ستنتهي بانتصار أبناء النور، وستؤدي إلى تسيّد اليهود على العالمين، وإحلال السلام العالمي الذي يكون قادته السياسيين، والدينيين هم اليهود.

ثم يبدأ التاريخ مرحلته الثالثة المنفتحة على الأبد (نهاية التاريخ)، وحينها سيدخل الرب يهوه إلى أورشليم السماوية، ولكن هذا لن يتم ما لم يدخل الرب يهوه أولا أورشليم الأرضية، أي لا يمكن أن ينتهي التاريخ دون أن تتشكل دولة إسرائيل التي ستقوم ببناء الهيكل الثالث.

وحسب ما سبق، فإن جميع التصورات الدينية للتاريخ ترتبط بالمخلّص، أو المفرّج، الذي سيجيء في آخر الأيام فيعيد التوازن، والنظام الذي أفسده الشيطان، ومن تبعه من أبناء، وعناصر الشر، وقد تواردت النبوءة بمجيء المخلص في أكثر من حضارة، وفي أكثر من مكان، وكانت حماها تتعالى كلما مرت الجماعة (أو حتى الفرد) بواقع مرّ نسبة لما كان، وكانت أبسط تصورات المخلّص في عقائد الشرق الأدنى القديم، هي تصورات العقائد البعثية البعلية، كما انتشرت عقيدة المخلص في مصر في عهد مبكر، وقد جاء في بردية لايدن الشهيرة {.. لقد أصبح حكام البلاد يأتون أمورا ما كان ينبغي حدوثها. وخربت الأرض وليس من يأسى عليها.. يتحدث الجميع عن الحب.. لكن الخير اختفى. تناقصت الأرض لكن الموظفين تزايدوا. جفت الأرض لكن الضرائب تضخمت. قلت المحاصيل لكن المكيال اتسع. واقتحم القبليون أرض مصر. وما من مدافع ليسمع أو يجيب. تباعد (رع) عن الناس وأصبح الكليل صاحب سلاح. وصار القوم يبجلون من كان يبجلهم... لكن سيأتي ملك من الجنوب اسمه أميني. ابن سيدة من تاستي. طفل خن نخن. سوف يتسلم التاج الأبيض. ويلبس الأحمر. والناس في زمنه. سيكونون سعداء. إن ابن أحدهم. سيخلد اسمه إلى أبد الآبدين. أما الذين تآمروا على الشر ودبروا الفتنة. فقد أخرسوا أفواههم خوفا منه. والآسيويون سيقتلون بسيفه. واللوبيون سيحرقون بلهيبه. والثوار سيستسلمون لنصائحه. والعصاة لبطشه. سيخضع المتمردون للصل الذي على جبينه. وسيقيم أسوار الحاكم. حتى لا يتمكن الآسيويون من غزو مصر. وسيستجدون الماء حسب طريقتهم المعروفة. حتى ترده أنعامهم. وستعود العدالة إلى مكانها. وينفي. الظلم من الأرض. فليبتهج من سيراها. من سيكون من نصيبه التعاون مع ذلك الآتي}.

وقد عرف من المخلصين كرشنا، وبوذا (٦٢٤ - ٥٤٤ق.م) في الهند، ومثرا وزارادشت وشاوشنياط عند الفرس، وأوزريس عند الفراعنة، وكويرينيوس عند الرومان، وبروموثيوس عند القوقاز، وباخوس عند اليونان.

وقد تبنت الديانة اليهودية فكرة نهاية التاريخ، وفكرة مجيء المخلص، وقد برز هذا المفهوم لدى اليهود في الوقت الذي كانت الآفاق تنبئ عن نهاية قريبة لتاريخهم في أورشليم في المرحلة الانتقالية ما بين القرن السابع، والسادس قبل الميلاد، ونهض أنبياء اليهود في محاولة يائسة لإنقاذ تاريخهم من التهدم على النهاية التي أصبحت قاب قوسين أو أدنى، ولما أدركوا استحالة إيقاف نهاية تاريخهم، فقد ذهبوا - كعزاء لهم - إلى أن المستقبل سيأتي لهم ببداية جديدة في يوم الرب على يد المسيح.

والمسيح بالنسبة لليهود هو تعبير مجازي عن الملك، أو على وجه التحديد تعبير مجازي يشير إلى المخلص، وقد كان الكهنة اليهود يمسحون رأس الملك بالزيت عند تبوئه العرش،

ويسمونه مسيح الرب، وكان أول مسيح يهودي هو الملك داود، ولكن عقيدة المخلص بشكل عام قد سبقت عقيدة المسيح، فاسم موسى، ومن بعده يشوع، يحملان دلالات خلاصية، ولكن لا يمكن اعتبارهما مسيحين، بل مخلصين، وكان أول مخلص ومسيح هو الملك داود.

وكان اليهود، بعد أن تم سبيهم، وانتهى مُلكهم، ومَلكهم، قد بدؤوا يحلمون بمجيء مسيح (أي ملك) يترأس عليهم، ويعيدهم إلى أورشليم ويملك عليهم هناك، وحسب اعتقادي فإن عقيدة المخلص اليهودية في مرحلة ما قبل السبي البابلي كانت تقوم على تصور عودة مسيح اليهودية الأول الملك داود، أي أن المسيح المنتظر هو المجيء الثاني للمسيح داود، وهذه العقيدة هي تهويد لعقيدة الخلاص في العقيدة الكنعانية، والتي يتجلى فيها فعل الخلاص بشكل دوري زمني لا تاريخي، ومن هنا فقد كان كل الملوك الذين أتوا بعد داود يُعَدّون مسحاء، وقد تطور المفهوم اليهودي للمخلص بعد السبي البابلي، حيث تأثر اليهود بالتصورات الدينية الزرادشتية، بحيث أصبح المسيح اليهودي تاريخي، أي بمعنى أنه يشكل جزءا مهما من التاريخ اليهودي، الذي يشكل حجر الزاوية في التاريخ الإنساني، وبذلك لا يمكن للتاريخ أن يتمسرح في الزمكان دون وجود المسيح، والذي سيجيء في نهاية التاريخ، ويحقق الخلاص الأبدي، وكانت اليهودية على لسان أنبيائها الذين أتوا في محيط مرحلة السبي البابلي قد خلطوا بين ثلاثة مفاهيم للمرحلة الثالثة من التاريخ، هي:

يوم الرب، وهو اليوم الذي يحقق فيه الرب عقابه الدنيوي، وهو جزء من (آخر الأيام).

وآخر الأيام، وهي الأيام التي تسبق مباشرة نهاية التاريخ.

ونهاية التاريخ وهو يوم الثواب بالنسبة لليهود، ويوم العقاب (أي يوم الرب) بالنسبة لباقي الشعوب من غير اليهود، حيث سيعيد الرب يهوه شعبه المختار إلى المركز التاريخي والجغرافي، وقد تمايزت تلك المفاهيم الثلاثة بعد أن تم سبي اليهود إلى بابل، أي بعد تحقّق نهاية التاريخ اليهودي في تلك الآونة.

ومن هنا فإن يوم الرب ليس له دلالة تاريخية، فهو يشير فقط إلى اليوم الذي سيفرض فيه الرب عقابه، وبذلك فإن يوم الرب بالنسبة لليهود هو اليوم الذي سيقوم فيه بنفيهم من مملكتهم، ومن تاريخهم، ويوم الرب هذا سوف يجيء أيضا على الأمم الأخرى في نهاية التاريخ، حيث سينتقم فيه الرب من كل أعداء اليهود، ومن كل من شَمت بهم من الشعوب عندما تم تدمير مملكتهم يهوذا، وتم سبيهم إلى بابل، وبذلك فإن يوم الرب هنا سيكون في مقدمة نهاية التاريخ، وهو الذي سيأتي في نهايته المسيح اليهودي الذي سيعيد اليهود من الشتات إلى الأرض المقدسة.

ولأن اليهود رفضوا هزيمتهم التاريخية المذلة على يد البابليين، فقد ذهبوا إلى أن التاريخ هو سيناريو كان قد كتبه الرب في السماء، وبطل، ومحور، ومركز هذا التاريخ هو شعب الله المختار، ولأن هذا الشعب لم يذعن لنص الاتفاق الذي كان قد أبرم بينه وبين الرب، فقد قرر الرب أن يعاقب شعبه المختار، كما كان قد فعل مع آدم من قبل، ومع قوم نوح أيضا، ولذا كان لا بد من تأديب هذا الشعب المختار بطرده، أو بنفيه، وبشكل مؤقت، من أرضه المقدسة إلى أرض الآخرين، ولا بد أيضا من نفيه المؤقت من تاريخه المقدس إلى الهامش التاريخي للشعوب الأخرى.

وكان الرب يهوه، قبل أن يقوم بنفي شعبه المختار من الجغرافيا، ومن التاريخ، قد انبرى لسانه وهو يهددهم، ويتوعدهم، ويؤنبهم على نكرانهم للعهد، ويتوعدهم بأن يوم الرب قريب «ويل للمستريحين في صهيون والمطمئنين في جبل السامرة نقباء أول الأمم.» عاموس ٦.

وفي يوم الرب «تمسك سبع نساء برجل واحد في ذلك اليوم قائلات نأكل خبزنا ونلبس ثيابنا. ليدع فقط اسمك علينا. انزع عارنا» إشعيا ٣.

«هكذا قال الرب.. أسلمهم للقلق والشر في جميع ممالك الأرض عارا ومثلا وهزأة ولعنة في جميع المواضع التي أطردهم إليها. وأرسل عليهم السيف والجوع والوبأ حتى يفنوا عن وجه الأرض التي أعطيتهم وآباءهم إياها» إرميا ٢٤.

ولكن تهديداته ذهبت دون أن تجد أذنا تسمعها، وعقلا يدركها:

«إلى فعل الرب لا ينظرون وعمل يديه لا يرون» إشعيا ٥.

«وقال لي: يا ابن آدم هل رأيت ما هم عاملون. الرجاسات العظيمة التي بيت إسرائيل عاملها هنا لإبعادي عن مقدسي.. أرأيت يا ابن آدم ما تفعله شيوخ بيت إسرائيل في الظلام كل واحد في مخادع تصاويره.. هناك نسوة جالسات يبكين.. وهم ساجدون للشمس نحو الشرق» حزقيال.

«هكذا قال رب الجنود. من أجل أنكم لم تسمعوا لكلامي هأنذا أرسل فآخذ كل عشائر الشمال يقول الرب وإلى نبوخذ راصر عبدي ملك بابل وآتي بهم على هذه الأرض وعلى كل سكانها وعلى كل هذه الشعوب حواليها فأحرمهم وأجعلهم دهشا وصفيرا وخربا أبدية» إرميا٢٥.

«ها غضبي وغيظي ينسكبان على هذا الموضع على الناس وعلى البهائم وعلى شجر الحقل وعلى ثمر الأرض فيتقدان ولا ينطفئان» إرميا ٧.

«هكذا أكسر هذا الشعب وهذه المدينة كما يكسر وعاء الفخاري بحيث لا يمكن جبره بعد» إرميا ١٩.

«مدن قدسك صارت برية. صهيون صارت برية أورشليم موحشة. بيت قدسنا وجمالنا حيث سبّحك آباؤنا قد صار حريق نار وكل مشتهياتنا صارت خرابا» إشعيا ٦٤.

ولكن الرب الذي عاقب شعبه المختار في (يوم الرب)، وبعد أن يخمد غيضه وغضبه عليه، وبعد أن يكون قد أخذ الشعب جزاءه، وبعد أن يكون قد أدرك شعب الله المختار ذنبه، وأعلن توبته، فإن الرب سيعقد مع شعبه المختار للمرة الثانية اتفاقا جديدا يكون وسيطه المسيح، حيث يتعهد فيه الشعب بالعودة إلى عبادة الرب دون سواه من الآلهة الأخرى، وحينها سيقوم الرب بإرسال مسيحه في آخر الأيام ليعيد الشعب من عتمة الجحيم في الغياب، إلى نور النعيم في الحضور، وسيجمعهم، وينقلهم من على هامش التاريخ، إلى مركزه في الفردوس المفقود:

«هكذا قال الرب صوت سمع في الرامة نوح بكاء مر. راحيل تبكي على أولادها وتأبى أن تتعزى عن أولادها لأنهم ليسوا بموجودين. هكذا قال الرب سمعا سمعت أفرايم ينتحب. أدبتني فتأدبت كعجل غير مروّض. توبتني فأتوب لأنك أنت الرب إلهي. لأني بعد رجوعي ندمت وبعد تعلمي صفقت على فخذي» إرميا ٣١.

«ها أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدا جديدا. ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدي فرفضتهم يقول الرب» إرميا.

«ثم صارت كلمة الرب إلى إرميا قائلة أما ترى ما تكلم به هذا الشعب قائلا إن العشيرتين اللتين اختارهما الرب قد رفضهما. فقد احتقروا شعبي حتى لا يكونوا بعد أمة أمامهم. هكذا قال الرب إن كنت لم أجعل عهدي مع النهار والليل فرائض السموات والأرض. فإني أرفض نسل يعقوب وداود عبدي فلا آخذ من نسله حكاما لنسل إبراهيم وإسحق ويعقوب لأني أرد سبيهم وأرحمهم» إرميا.

«ويكون في ذلك اليوم أن بقية إسرائيل والناجين من بيت يعقوب لا يعودون يتوكلون أيضا على ضاربهم بل يتوكلون على الرب» إرميا.

«هكذا أنظر إلى سبي يهوذا الذي أرسلته من هذا الموضع إلى أرض الكلدانيين للخير. وأجعل عينيّ عليهم للخير وأرجعهم إلى هذه الأرض وأبنيهم ولا أهدمهم وأغرسهم ولا أقلعهم. وأعطيهم قلبا ليعرفوني أني أنا الرب فيكونوا لي شعبا وأنا أكون لهم إلها لأنهم يرجعون بكل قلبهم وكالتين الرديء الذي لا يؤكل من رداءته.» إرميا ٢٤.

«ها أنذا آتي بهم من أرض الشمال وأجمعهم من أطراف الأرض. بينهم الأعمى والأعرج الحبلى والماخض معا. جمع عظيم يرجع إلى هنا. بالبكاء يأتون وبالتضرعات أقودهم. أسيرهم إلى أنهار ماء في طريق مستقيمة لا يعثرون فيها. لأني صرت لإسرائيل أبا وأفرايم هو بكري» إرميا ٣١.

وهكذا، وحسب التصور اليهودي، فإن غاية التاريخ، كما كان الرب يهوه قد وضع مساره منذ بداية التاريخ، هو وصول شعب الرب المقدس في نهاية التاريخ إلى مركز التاريخ، دون أن يكون للإنسان أي دور فاعل في صناعته، أما دور الإنسان، ودور الأمم والشعوب الأخرى على تعاقبها، فلا يتعدى كونها دور كومبارس في مسرحة شعب الله المختار في التاريخ، وليس من أحد يستطيع الخروج قيد أنملة عن النص المعد مسبقا، والذي سيتصاعد حتى يتم الوصول إلى يوم الرب (نهاية التاريخ) الذي سيجيء فيه المسيح الذي سيتربع على عرش العالم والتاريخ في قصره الأبدي (مملكة إسرائيل)، والذي سيكون فيه اليهود سدنة هذا القصر وكهنة العالم.

في آخر الأيام أو نهاية التاريخ، ستتلاشى كل أنواع الصراعات، بل وكل أنواع الثنائيات، وستُحل جميع المشكلات الإنسانية، وسيمسك الإنسان بزمام ظروفه، وبيئته، وتاريخه، أي بمعنى ما فإن الإنسان سيتحول إلى إله، وهذا التصور بخطوطه العريضة هو الذي تبنته المسيحية، إلا أن اليهودية تتصور أن يوم الرب هذا سيتحقق داخل التاريخ في (الحياة الدنيا)، وفيه سيصل الإنسان اليهودي تحديدا، إلى أرض صهيون المقدسة (الفردوس المفقود) فحسب، ويمثل هذا اليوم يوم السبت التاريخي، أي بمعنى أن هذا اليوم يمثل عودةً إلى يوم التكوين السابع (يوم السبت اللاهوتي) الذي استراح فيه الرب، بعد أن كان قد خلق الوجود في أيام التكوين الستة، والتصور اليهودي ليوم الرب، يختلف في كثير من تصوراته عن مثيله يوم القيامة حسب التصور الإسلامي التوحيدي والذي يقع خارج التاريخ (في الحياة الأخرى)، والذي يتم فيه تصفية الحسابات لجميع الشعوب والأمم دون استثناء، ومن ثم يعود التاريخ إلى حالته السكونية، بعودة الإنسان إلى الجنة التي كان قد طرد منها، ويعتقد رجال الدين اليهود أن التاريخ اليهودي كان قد توقف سنة ٧٠ للميلاد، كما توقف بالوقت نفسه تاريخ فلسطين أيضا، لأن التاريخ اللاهوتي لا يمكن له أن يتمسرح إلا من خلال اقتران الرب المقدس، مع الشعب المقدس، على أرض صهيون المقدسة، وبذلك، فحتى يعود التاريخ إلى حراكيته ثانية، لا بد من عودة اليهود (الشعب المقدس)، إلى فلسطين (الأرض المقدسة) وبذلك، وفي اللحظة التي يعود فيها التاريخ إلى حراكيته ثانية يصل إلى نهايته السبتية.

ويعتقد البعض من المسيحيين الأوربيين العلمانيين، وبعض رجال الدين المتنورين، أن التاريخ ابتدأ بالمرحلة اللاهوتية، ثم جاءت بعدها المرحلة الميتافيزيقية، ثم المرحلة العقلية العلمانية التي نعيش الآن فيها، وأن هذه العلمانية ستقوم، كما لو أنها المسيح المنتظر، بحل جميع المشكلات والمعاناة الإنسانية، وتحقق نهاية التاريخ على الأرض، أي بالعودة إلى بداية التاريخ ثانية، وانتهاء دورة من دورات التاريخ.

أما بالنسبة ليوم الرب الذي يشكل المقدمة، لآخر الأيام، التي ستنتهي بنهاية التاريخ، فإن الرب يهوه، وحسب التصور اليهودي، سيقوم أولا بتأديب شعبه المختار بهذا اليوم، ثم في نهاية التاريخ سيقوم بيوم آخر للرب بتأديب كل الممالك التي كانت قد تسلطت على شعبه المختار، ويسيّد عليها مختاره إسرائيل:

«اضربوا بالبوق في صهيون صوّتوا في جبل قدسي. ليرتعد جميع سكان الأرض لأن يوم الرب قادم لأنه قريب. يوم ظلام يوم غيم وضباب مثل الفجر ممتدا على الجبال» يوئيل ٢.

«ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه.. فيزول حسد أفرايم وينقرض المضايقون من يهوذا. أفرايم لا يحسد يهوذا ويهوذا لا يضايق أفرايم.. وينقضّان على أكتاف الفلسطينيين غربا وينهبون بني المشرق معا. يكون على أدوم وموآب امتداد يدهما وبنو عمون في طاعتهما. ويبيد الرب لسان بحر مصر ويهز يده على النهر بقوة ريحه ويضربه إلى سبع سواق ويجيز فيها بالأحذية. وتكون سكة لبقية شعبه التي بقيت من أشور كما كان لإسرائيل يوم صعوده من أرض مصر.

هوذا يوم الرب قادم قاسيا بسخط وحمو غضب ليجعل الأرض خرابا ويبيد منها خطاتها.. ويكونون كظبي طريد وكغنم بلا من يجمعها. يلتفتون كل واحد إلى شعبه ويهربون كل واحد إلى أرضه. كل من وجد يطعن وكل من انحاش يسقط بالسيف. وتحطم أطفالهم أمام عيونهم وتنهب بيوتهم وتفضح نساؤهم.

ها أنا أهيج عليهم الماديين. فتحطم القسي الفتيان ولا يرحمون ثمرة البطن. لا تشفق عيونهم على الأولاد. وتصير بابل بهاء الممالك وزينة فخر الكلدانيين كتقليب الله سدوم وعمورة» إشعيا.

«في ذلك اليوم أجعل أمراء يهوذا كمصباح نار بين الحطب وكمشعل نار بين الحزم فيأكلون كل الشعوب حولهم عن اليمين وعن اليسار فتثبت أورشليم أيضا في مكانها بأورشليم. ويخلص الرب خيام يهوذا أولا لكيلا يتعاظم افتخار بيت داود وافتخار سكان أورشليم على يهوذا» زكريا ١٢.

«قريب يوم الرب العظيم قريب وسريع جداً.. يا كنعانُ أرضَ الفلسطينيين أني أخربك بلا ساكن. ويكون ساحل البحر مرعى بآبار للرعاة وحظائر للغنم. ويكون الساحل لبقية بيت يهوذا عليه يرعون. في بيوت أشقلون عند المساء يربضون لأن الرب إلههم يتعهدهم ويرد سبيهم» صفنيا ٢.

«ويكون في ذلك اليوم يقول الرب صوت صراخ من باب السمك وولولة من القسم الثاني وكسرٌ عظيم من الآكام. ولولو يا سكان مكتيش لأن كل شعب كنعان باد» صفنيا.

«وحي من جهة بلاد العرب. في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الدادانيين. هاتوا ماء لملاقاة العشان يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه فإنهم من أمام السيوف قد هربوا. من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب. فإنه هكذا قال السيد في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار».

«لأن الرب سيرحم يعقوب ويختار أيضا إسرائيل ويريحهم في أرضهم فتقترن بهم الغرباء وينضمون إلى بيت يعقوب ويمتلكهم بيت إسرائيل في أرض الرب عبيدا وإماء ويسبون الذين سبوهم ويتسلطون على ظالميهم».

«في ذلك اليوم أجعل أمراء يهوذا كمصباح نار بين الحطب وكمشعل نار بين الحزم فيأكلون كل الشعوب حولهم عن اليمين وعن اليسار فتثبت أورشليم أيضا في مكانها بأورشليم» زكريا ١٢.

«فيخرج الرب ويحارب تلك الأمم كما في يوم حربه يوم القتال. وتقف قدماه في ذلك اليوم على جبل الزيتون الذي قدام أورشليم من الشرق فينشق جبل الزيتون من وسطه نحو الشرق ونحو الغرب واديا عظيما جدا وينتقل نصف الجبل نحو الشمال ونصفه نحو الجنوب.. ويكون في ذلك اليوم أنه لا يكون نور. الدراري تتقبض. ويكون يوم واحد معروف للرب. لا نهار ولا ليل بل يحدث أنه في وقت المساء يكون نور. ويكون في ذلك اليوم أن مياها حية تخرج من أورشليم نصفها إلى البحر الشرقي ونصفها إلى البحر الغربي.. ويكون الرب ملكا على كل الأرض» زكريا ١٤.

«عندما أرد سبي يهوذا وأورشليم أجمع كل الأمم وأنزلهم إلى وادي يهوشافاط وأحاكمهم هناك» يوئيل ٣.

«ويجمع بنو يهوذا وبنو إسرائيل معا ويجعلون لأنفسهم رأسا واحدا ويصعدون من الأرض لأن يوم يزرعيل عظيم» هوشع.

«ترنمي يا ابنة صهيون اهتف يا إسرائيل افرحي وابتهجي بكل قلبك يا ابنة أورشليم. قد نزع الرب الأقضية عليك أزال عدوّك. مَلِكُ إسرائيل الرب في وسطك» صفنيا ٣.

وفي ذلك اليوم، إضافة إلى أن الرب سوف يقوم بمحاسبة الشعوب حسب ما أساءت إلى شعبه المختار، فإنه سيقوم أيضا بتصفية حسابه القديم مع التنين الذي كان قد دخل معه في صراع في بداية الوجود، ولم يتم حسمه آنذاك، ولكن هذا الصراع الأعظم سينشب في معركة أخيرة ينتصر فيه الرب بشكل نهائي على التنين، وهو على ما يفهم منه يكون في مقدمة آخر الأيام، وهذا الانتصار سيتحقق على يد المسيح اليهودي، الذي اختلف الأنبياء في

نسبه، فالبعض نسبه إلى سلالة داود، والبعض نسبه إلى أفرايم، والبعض ادعى أن هناك مسيحين سيجيئان:

الأول مسيح من نسل أفرايم وهو الذي سيقود المعارك في يوم الرب، ويعيد اليهود من شتاتهم.

والثاني من نسل داود وهو الذي سيحقق السلام العالمي الذي سيكون فيه اليهود كهنة الشعوب، وأورشليم عاصمة العالم.

وبمعنى ما، وكما ذهبت سابقا، فإن هذين المسيحين ليسا سوى عودة للملك التوراتي داود الذي صنع مملكة إسرائيل من خلال حروبه، والملك سليمان الذي أحل السلام على كل الشعوب.

كما أن الأنبياء اليهود اختلفوا أيضا في شمولية مهمته الخلاصية، فالبعض جعل من المسيح مخلصا لبني إسرائيل دون سواهم من الشعوب، والبعض اعتبروه خلاصا للبشرية من معاناتها، والوصول إلى الفردوس المفقود:

«ويخرج قضيب من جذع يسى وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب. ولذته تكون في مخافة الرب فلا يقضي بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه. بل يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض ويضرب الأرض بقضيب فمه ويميت المنافق بنفخة شفتيه. ويكون البر منطقة متنيه والأمانة منطقة حقويه

فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسمن معا وصبي صغير يسوقها. والبقرة والدبة ترعيان. تربض أولادهما معا والأسد كالبقر يأكل تبنا. ويلعب الرضيع على سرب الصل ويمد الفطيم يده على حجر الأفعوان. لا يسوؤون ولا يفسدون في كل جبل قدسي لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر. ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسى القائم راية للشعوب إياه تطلب الأمم ويكون محله مجدا

ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه التي بقيت من أشور ومن مصر ومن فتروس ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن الجزائر. ويرفع راية للأمم ويجمع منفيي إسرائيل ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض.» إشعيا.

«فيسكن في البرية الحق والعدل في البستان يقيم. ويكون صنع العدل سلاما وعمل العدل سكونا وطمأنينة إلى الأبد. ويسكن شعبي في مسكن السلام وفي مساكن مطمئنة وفي محلات أمينة» إشعيا ٣٢.

«حينئذ تتفتح عيون العمي وآذان الصم تتفتح. حينئذ يقفز الأعرج كالأيل ويترنم لسان الأخرس لأنه قد انفجرت في البرية مياه وأنهار في القفر. ويصير السراب أجما والمعطشة ينابيع ماء. في مسكن الذئاب في مربضها دار للقصب والبردي. وتكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدسة. لا يعبر فيها نجس بل هي لهم. من سلك الطريق حتى الجهال لا يضل. لا يكون هناك أسد وحش مفترس لا يصعد إليها. لا يوجد هناك. بل يسلك المفديون فيها» إشعيا ٣٥.

«هوذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرّت به نفسي. وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم. لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة لا يُطفئ. إلى الأمان يخرج الحق. لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته».

«هكذا يقول الله الرب خالق السموات وناشرها باسط الأرض ونتائجها.. أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدا للشعب ونورا للأمم لتفتح عيون العمي لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة» إشعيا.

«يولد لنا ولد ونعطي ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبا مشيرا إلها قديرا أبا أبديا رئيس السلام. لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد» إشعيا ٩.

«ما أجمل على الجبال قدمي المبشر المخبر بالسلام المبشر بالخير المخبر بالخلاص القائل لصهيون قد ملك إلهك» إشعيا ٥٢

«هوذا ملكك يأتي إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان.. ويتكلم بالسلام للأمم وسلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض» زكريا ٩.

«وفي ذلك الزمان أنبت لداود غصن البر فيجري عدلا وبرا في الأرض. في تلك الأيام يخلص يهوذا وتسكن أورشليم آمنة وهذا ما تتسمى به الرب برنا» إرميا ٣٣.

«ها أيام تأتي يقول الرب ولا يقال حي هو الرب الذي أصعد بني إسرائيل من أرض مصر، بل حي هو الرب الذي أصعد بني إسرائيل من أرض الشمال ومن جميع الأراضي التي طردهم إليها. فأرجعهم إلى أرضهم التي أعطيت آباءهم إياها» إرميا ١٦.

«يسرعون كعصفور من مصر وكحمامة من أرض أشور فأسكنهم في بيوتهم يقول الرب» هوشع ١١.

«وأرد سبي شعبي إسرائيل فيبنون مدنا خربة ويسكنون ويغرسون كروما ويشربون خمرها ويصنعون جنات ويأكلون أثمارها. وأغرسهم في أرضهم ولن يقلعوا بعد من أرضهم التي أعطيتهم» عاموس ٩.

«هوذا على الجبال قدما مبشر مناد بالسلام عيّدي يا يهوذا أعيادك أوفِ نذورك فإنه لا يعود يعبر فيك أيضا المهلك» ناحوم ١.

«أما أنت يا بيت لحم أفراته وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطا على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل. لذلك يسلّمهم إلى حينما تكون قد ولدت والدة ثم ترجع بقية أخوته إلى بني إسرائيل. ويقف ويرعى بقدرة الرب بعظمة اسم الرب إلهه ويثبتون. لأنه الآن يتعظم إلى أقاصي الأرض. ويكون هذا سلاما» ميخا.

وهكذا سينزل الرب (المسيح) من السماء إلى الأرض، ويتحد مع شعبه المختار بحيث يشكلون، من خلال اتحادهم، كتلة واحدة لها تاريخ واحد، ويصبح اليهود جزءاً من الرب، كما هو الرب جزء تكويني في الجماعات اليهودية، وبذلك ينزل المطلق ويتحد مع المزمن، والثابت مع المتحول، وحينها لا يكون حاجة لوسطاء (أنبياء) بين الرب، والشعب، أو بين السماء، والأرض، لأن طرفي الحوار يتحدان في خطاب واحد أبدي، يتمثل في المسيح الذي يلد من زواج السماء بالأرض «ها عذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل» إشعيا.

وعلى الرغم من أن اليهود الذين كانوا قد تم سبيهم إلى بابل، رجعوا إلى الأرض المقدسة في العهد الفارسي، وعادوا إلى حظيرة التاريخ، إلى أن التحديات التي تعرّض لها تاريخهم في العهد اليوناني، ومن بعده الروماني، أعادت هواجسهم، ومخاوفهم التاريخية إلى ما كانت عليه في مرحلة ما قبل السبي، وعادوا يلهجون بأفكار الخلاص ثانية، وقد حصل تطور مفاهيمي على يوم الرب، واندخل مع مفاهيمهم السابقة في مرحلة السبي، وأدخلوا نبوءاتهم على نبوءات أنبياء السبي، واندخل مفهوم يوم الرب الجمعي، على يوم الرب الفردي.

وعلى الرغم من أن إحدى مراحل تطور اليهودية البدائية كانت في مصر، إلا أن الديانة اليهودية لم تأخذ من الديانة المصرية العقيدة الأخروية، فقد كان الموت بالنسبة لليهودية عبارة عن هبوط إلى عتمة أبدية ليس لها أي ماهية، إلا أن اليهود بعد احتكاكهم بالعقائد الرافدية، وبالفلسفات الهلينية وتشكل المذاهب الدينية (الفريسية - الصدوقية - الأسينية..) بدأ يتشكل لديهم مفاهيم غامضة عن العالم الآخر، والعقائد الرئيوية، حيث انتشرت في تلك الفترة، وتحديدا في سياق ثورة المكابي، وعلى يد الفريسيين تحديدا أفكار خلاصية فردية من خلال النشور (البعث)، ففي سياق التمردات الثورية اليهودية ضد سلطة روما، كان القتلى يتساقطون دفاعا عن اليهودية (أرضا، وعقيدة) وفي تلك الفترة بدأت تتبلور مجموعة تصورات عن ومصير من يسقط قتيلا وهو يدافع عن مملكة، وكلمة الرب، فلم يعد غموض عالم الأموات مقبولا أمام هذه المستجدات، واستجابة لضرورة إيجاد تصور واضح عن مصير من يسقط قتيلا في

المعركة، ومع تأثيرات فارسية كانت اليهودية قد اطلعت عليها، وتأثيرات فلسفية هلنستية، برزت فكرة قيامة الأموات من قبورهم، وعودتهم ليقفوا أمام الرب بكامل هيئتهم البشرية، فيحاسبهم الرب حسب عملهم، وقد اعتبر، وأعلن المكابي أن من يموت في الحرب سيكون شهيدا، وسيكون له الحياة الأبدية، وكان حزقيال في مرحلة السبي قد وضع تصورا بدائيا عن قيامة الأموات «أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب. هكذا قال السيد الرب لهذه العظام. ها أنذا أدخل فيكم روحا فتحيون. وأضع عليكم عصبا وأكسبكم لحما وأبسط عليكم جلدا وأجعل فيكم روحا فتحيون وتعلمون أني أنا الرب.. ها أنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي وآتي بكم إلى أرض إسرائيل» حزقيال ٣٧.

وكذلك جاء في سفر دانيال «في ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك ويكون زمان ضيق لم تكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت وفي ذلك الوقت ينجّي شعبك كل من يوجد في السفر. وكثير من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي. والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور» دانيال ١٢.

وإذا كان يوم الخلاص سوف يأتي ويتحقق في الزمان، وكي يصبح هذا اليوم تاريخيا، فلا بد من أن يكون له بعده المكاني بحيث يعود المسببون إلى الأرض المقدسة، أو إلى الفردوس المفقود الذي يمثل السرة لأبنائه الذين على الرغم من أنهم شردوا منه قسرا، فقد أبقوا على حبلهم السري مربوطا فيه، كي يبقى يمدهم بالروح الضرورية لاستمرار وجودهم الجسدي، كما يمثل قبلة، وشمالا لبوصلة التائهين، المتفككين، المشردين في بقاع الأرض، حيث سيسعون فرادى، وجماعات للعودة إلى هذا الفردوس، حيث سيجد كل فرد فيه كيانه وكينونته، وهذا المكان (المدينة - الهيكل)، هو الموقع الوحيد الذي من خلاله يستطيع فيه الإنسان أن يكون على اتصال مباشر مع السماء دون أي وسيط.

وقد حاولت اليهودية أن تصور أورشليم التي، وحسب التوراة، بنيت بالذهب والفضة، وكأنها قطع من عناصر سماوية (النجوم، والقمر)، وهذه المدينة السماوية (المقدسة) والتي تم تدميرها من قبل اليد الأرضية (المدنسة)، سوف يقوم الرب بإعادة بنائها على الأرض، أو سيقوم بإنزالها من السماء مبنية، ويضعها في نفس المكان المقدس الذي سيهبط إليه الرب ليسكن بين شعبه، وهو نفس المكان الذي يستطيع فيه الإنسان أن يصعد منه إلى السماء، أي أنه الممر الوحيد المفتوح بين السماء، والأرض، وهو بالوقت نفسه مكان مادي أرضي، كما أنه مكان روحي سماوي، أو هو الفردوس السماوي الذي سيكون على الأرض.

وقد حاول ملك اليهودية الشهير هيرودوس الكبير أن يبني الهيكل المقدس بطريقة أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، وأقرب إلى السماء منه إلى الأرض ببعده المادي، أما من حيث وظيفته الروحية فقد أصبح الهيكل المقدس أقرب إلى المؤسسة المالية، منه إلى بيت الرب، وأصبح هذا الهيكل رمزا، وهوية لمملكة يهودا، يقف جنبا إلى جنب مع خصوصية الديانة اليهودية في مملكة اليهودية، ولم يمض زمن طويل على موت هيرودوس حتى بدأت المملكة تتضخم بالاحتقانات الداخلية، منبئة بانفجار وشيك، كما تلبدت الأجواء ثانية بالأحداث، والتغيرات، وأخذت جيوش روما تبدوا على الآفاق منبئة بقرب نهاية التاريخ اليهودي الوشيكة، وفي سياق هذه الأجواء استعرت فكرة مجيء المسيح المخلص، وتعدد المسحاء، وتشكلت المسيحية بشكل هامشي في اليهودية، ومن ثم انتقلت من هناك لتجوب، وتنتشر في العالم القديم، دون أن يكون لها أثر واضح ومهم في مملكة اليهودية، بل إن اليهودية تعرفت على المسيحية في الأقاليم الرومانية المتعددة بعد دمار أورشليم والشتات اليهودي، ولم تعترف اليهودية بالديانة، أو المذهب المسيحي، لأن اليهودية كانت تنظر إلى المسيحية على أنها خروج عن الخصوصية اليهودية، إلى العمومية الإنسانية، وكان لموقف الكهنوت اليهودي تأثير كبير على رأي اليهود، وكان الكهنوت اليهودي قد رفض، وحارب انتشار المسيحية، خاصة عند اليهود، لأن المسيحية همّشت المسيحية دور الكهنة اليهود، كما حاولت تخليص الشعب اليهودي من اضطهاد الشعائر، والضرائب الثقيلة التي كان يجب أن يدفعها لرجال الدين، لأنها اعتمدت على الإيمان الروحي، على حساب التقيد بالطقوس والشعائر، ولأن المسيحية كانت تقوم باستراق، وتمسيح الكثير من اليهود الجدد، من الذين كانت الجماعات الفريسية، التي تشتت في العالم الروماني، قامت بتهويدهم، وكان هؤلاء المتهودون الجدد يتمسحون، على اعتبار أن المسيحية مذهب من اليهودية، وهو المذهب الأكثر مطاوعة على تقبّل الأثنيات والعروق والثقافات على اختلافها، وذات الطقوس والشعائر البسيطة، والمجانية، والتي تلائم الفقراء، والمضطهدين في العالم الروماني، وبالتالي أخذت المسيحية تنتشر بشكل متسارع، بينما اليهودية قبعت بانتظار مجيء مسيحها.

وقد مرت عدة أزمنة استعرت فيها الأفكار الخلاصية (ومجيء المسيح اليهودي)، بخاصة تلك التي تتميز بحالة من الاضطرابات الشعوبية، ونقص الأمن، وكان أول من أطلق اليهود عليه صفة المسيح هم الملوك اليهود، ويُعَدّ الملك التوراتي داود هو المسيح الأول، ومن بعده جاء ملوك يهوذا، وكان أول شخص أطلقوا عليه صفة المسيح من غير اليهود، هو العاهل الفارسي قورش الذي خلّص الشعب اليهودي من السبي البابلي، ثم أطلق اليهود لقب المسيح على زريابل، الذي ساهم في عودة اليهود من السبي إلى البلاد المقدسة.

أما أهم الفترات التاريخية، التي تمخضت وولدت عدداً كبيراً من المسحاء، فكانت في القرن الأول للميلاد حيث كانت الأحداث التاريخية في العالم الروماني ملتهبة، والأقاليم في حالة من الجيشان، وكانت ولاية اليهودية على وجه الخصوص كأتون يغلي، أو كامرأة في حالة مخاض مستعص، في الوقت التي كانت فيه القوات الرومانية تتكاثر كغيوم ثقيلة على الآفاق، وكان كل شيء ينبئ بالوصول إلى الخراب، وفي تلك الفترة تكاثرت الشائعات، والقصص الخرافية بشكل لم يكن له مثيل، وقد ظهر في تلك الفترة عدد من المسحاء، وكان أشهرهم المسيح عيسى الذي ظهر في فلسطين، وقام أتباعه بتأسيس العقيدة المسيحية في مرحلتها الشفوية، كما أن تاريخ ولادة المسيح الإنجيلي أصبح تاريخا عالميا، وحسب اعتقادي فإن العقيدة المسيحية الإنجيلية بدأت بالتشكل، والتبلور اعتبارا من سنة ٦٠ للميلاد على وجه التحديد، وفي سنة ٧٠ للميلاد، وفي الوقت التي كانت فيه أورشليم تدك على يد الرومان، خرج الرسل ليبشروا، كرد فعل، وكإفراز حضاري ديني نفسي ثقافي على الهزيمة، بأن المسيح قد جاء، وجميع هؤلاء المنهزمين على أرض مملكة يهوذا المنهارة، قد عوضهم الرب بملكوت السماء.

كما ادعى يسوع بن حنانيا انه المسيح، وان يوم الرب على وشك المجيء، كما ادعى شخص يدعى ثيوداس في سنة ٤٤ للميلاد بأنه المسيح وحاول أن يعبر مع مريديه نهر الأردن دون أن تبتل أقدامهم، إلا أن الحاكم الروماني قام بقتله، وشتت أتباعه.

ثم ظهر (المسيح) باركوخبا الذي قاد ثورة ١٣٥ للميلاد ضد الرومان، وفي القرن الخامس للميلاد ظهر في كريت شخصا ادعى أنه المسيح، وقد قاد أتباعه نحو البحر، بعد أن أقنعهم أنه سيعبر بهم البحر مشيا على الأقدام الحافية إلى الأرض المقدسة، وقد ألقوا بأنفسهم إلى الأمواج، ومات منهم الكثير.

وفي منطقة الدلتا في مصر في بداية القرن الثاني للميلاد ادعى معلم الغنوصية فالنتين أنه المسيح، كما أُعتبر باسيليدس معلم الغنوصية الثاني أنه المسيح أيضا، وكان يبشر بالله لا بالرب يهوه، كما ادعى ماني الذي ولد في منطقة ماني سنة ٢١٦ للميلاد أنه الفارقليط (المزّي) الذي بشّر به المسيح يسوع الناصري، كما ادعى أنه جاء ليتمم رسالة المسيح، وادعى أنه خاتم الأنبياء، والمانوية تذهب إلى أن الحرب الأخيرة بين الشر والخير تبدأ بحدوث كوارث متعددة على الأرض، ثم يظهر ميترا المزيف (المسيح الدجال)، وميترا الحقيقي والذي سيقود الحرب التي تنتهي بانتصار الخير على الشر، ويتحقق ملكوت الرب الذي يتربع عليه يسوع المسيح لمدة قصيرة، ومن ثم تقوم القيامة فتنطبق السماء، ويموت الجميع حيث تفرز أرواحهم حسب أعمالهم بين النعيم والجحيم.

كما ذهب مبشر يهودي مسيحي يدعى عاديا من أورشليم إلى أرمينيا وادعى أن المسيح هو كائن بشري من أم وأب بشريين، ولكن الله قام بتبنيه، واعتبره ابنا له.

أما في شبه الجزيرة العربية فقد حاول اليهود أن يجعلوا من الرسول محمد مسيحا، وهم على ما يبدو من أطلقوا عليه صفة (المصطفى)، كما حاولوا أن يجعلوا من علي بن أبي طالب أيضا مسيحا في سياق الصراع على خلافة المسلمين، ومن هنا فقد ساهمت اليهودية في تكوين عقيدة المهدي المنتظر عند المذهب الشيعي.

وفي القرن السابع الميلادي ادعى أحد اليهود في مدينة الفلوجة العراقية أنه المسيح المنتظر، وقد قام وأتباعه بالهجوم على الكنائس المسيحية، وقتلوا عمدة المدينة، وقد تم القبض عليه وأعدم.

وفي سوريا ادعى سيرينوس في سنة ٧٢٠ للميلاد أنه المسيح، ووعد اليهود بأنه سيعيدهم إلى بلادهم المقدسة بعد أن يطرد المسلمين منها، وقد التف حوله الكثير من الأتباع، كما التحق به الكثير من يهود الأندلس، وقد عدّل قليلا في الشعائر اليهودية لا سيما بالنسبة للطعام المقدس، وأوامر الزواج والطلاق، ولما مثل أمام الخليفة، ادعى أنه كان يمزح وهو غير جاد في طرحه، ولما سلّمه الخليفة للطائفة اليهودية قاموا بقتله.

وفي بلاد فارس في بداية القرن الثامن للميلاد ادعى أبو عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني في عهد مروان بن محمد (٧٤٤ - ٧٥٠م) آخر خليفة أموي، أنه أحد خمسة مبعوثين للمسيح، وأعلن التمرد على الخليفة، وقد التف حوله قرابة عشرة آلاف مقاتل، ولم يقدر الحكم الأموي على فرض سلطته عليهم، ولكن الخليفة العباسي (السفاح) استطاع أن يشتت جموعهم إلى غير رجعة، وقد قام أتباعه بتدبيج أساطير كثيرة عنه.

وفي القرن الثاني عشر الميلادي ظهر في أقصى شمال كردستان رجل خزري يدعى سليمان دوجي بعث بخطابات متعددة إلى يهود العالم دعاهم فيها إلى العودة إلى فلسطين، وبعد موته تابع ابنه مناحيم رسالة والده، بعد أن غير اسمه إلى (داود الروي)، وادعى أنه المسيح المنتظر، وأن والده كان النبي إيليا، ووعد اليهود بإعادتهم إلى فلسطين، وقد سرت شائعة حينها بأن من يريد العودة إلى الأرض المقدسة عليه أن يصعد إلى سطح المنزل، لأنه الملائكة ستجيء، وتحمل جوا إلى أورشليم كل من يريد العودة، وقد باع، من آمن به، منازلهم بأبخس الأثمان، وقد تبين فيما بعد أن وراء هذه الإشاعة كان هناك محتالان، وقد سرت شائعات أسطورية كثيرة بعد أن تم قتله على يد والد زوجته بطلب من الجماعات اليهودية.

أما أهم وأشهر من ادعى أنه المسيح فكان شبتاي زيفي (١٦٢٦ - ١٦٧٦م) في مدينة أزمير التركية، وكان من أتباع الطائفة القبالية، وكان يلقب نفسه ابن داود وسليمان، ولكن بتصادمه مع السلطة العثمانية تعرّض للملاحقة حيث تم القبض عليه، وأودع السجن، ولكن بدل أن يتناقص عدد أتباعه كانوا يزدادون، وكان شأنه يزداد عظمة، وقد استطاعت السلطة العثمانية من خلال وساطات متعددة أن تقنعه بالعدول عن نشر أفكاره، وتصوراته، بل وأقنعته باعتناق الإسلام، حيث سمّى نفسه (محمد أفندي)، ولكنه استمر يبشر بدعوته سرا، وقد تم نفيه إلى بولونيا حيث مات فيها سنة ١٦٧٦م، وكذلك الأمر بالنسبة لجاكوب فرانك (١٧٢٤ - ١٧٩٤م) الذي ظهر في بولونيا، وكان بذخه الشديد محط إعجاب ودهشة في تلك المرحلة، كما ظهر مسيح بين يهود الفلاشا أثناء حكم الإمبراطور تيودور الثاني، وقد قاد هذا المسيح من آمن به في سنة ١٨٦٢ للميلاد في رحلة ليعود بهم مشيا على الأقدام إلى أرض الميعاد، إلا أن أكثرهم مات على الطريق من الجوع، والعطش، والمرض.

كما ادعى ميرزا حسين علي الملقب بالبهاء (١٨١٧ - ١٨٩٢م) أنه المسيح المنتظر وهو الذي ولد في بلاد فارس ثم حطت به الرحال في عكا، كما ادعى أيضا الألوهية (رب الجنود)، وهو الأمر الذي جعل مناوئيه يربطون دعوته الدينية، بالديانة اليهودية، لا سيما وأنه دعا إلى عودة اليهود إلى فلسطين، وقد جاء في كتاب الأقداس {هذا يوم فاز فيه الكليم بأنوار القديم، وشرب زلال الوصل من هذا القدح الذي به سجرت البحور قل تالله الحق، إن الطور يطوف حول مطلع الظهور، والروح ينادي من في الملكوت، هلموا وتعالوا يا أبناء الغرور، هذا يوم أسرع كرم الله شوقا للقائه، وصاح لصهيون قد أتى الوعد، وظهر ما هو مكتوب في ألواح الله المتعالي العزيز المحبوب} وأعلن البهاء توحيد الأديان في العقيدة البهائية، كما أنه نادى بتوحيد اللغات، وتابع ابنه عباس أفندي الملقب بعبد البهاء (١٨٤٤ - ١٩٢١م) هذا النداء قائلا {فانتظروا الآن تأتي طوائف اليهود إلى الأرض المقدسة، ويمتلكون الأراضي والقرى، ويسكنون بها، ويزداد تدريجيا إلى أن تصير فلسطين جميعا وطنا لهم}.

أما آخر المسحاء الذين ظهروا في الوقت المعاصر فكان قد ظهر في سياق حرب الخليج الثانية، حيث ادعى أحد الحاخامات اليهود أنه المسيح القادم، وقد بدأ الإعلام ببث صوره، ولكن، وعلى ما يبدو، وتحاشيا لإيجاد حالة إرباك بين المسيحية واليهودية، تم إزاحة الموضوع إعلاميا، والجدير ذكره أن بعض الأحبار من المتدينين اليهود في فلسطين رفضوا استلام الكمامات الواقية من سمية الأسلحة الكيماوية التي قامت الحكومة الإسرائيلية بتوزيعها

على مواطنيها في حرب الخليج الثانية، تحسبا من إطلاق صواريخ عراقية ذات رؤوس كيمائية على إسرائيل، لأن هؤلاء الأحبار يعتقدون أن الله سيحمي اليهود من تأثير تلك الأسلحة، وأن تلك الحرب ستأتي بالمسيح الحقيقي أيضا.

أما حرب الخليج الثالثة، فإني أعتقد أن أحد حوامل هذه الحرب هو الحامل الديني العقيدي للمسيحية البروتستانتية، لا سيما منها العقيدة الألفية، وعقيدة نهاية التاريخ، ومجيء المسيح المنتظر.

وعلى الرغم من أن أكثر من ادعوا أنهم المسيح كانوا من اليهود، إلا أن اليهود التقليدين، وخاصة منهم الأحبار، رفضوا كل أشكال المسحاء الذين ظهروا على مر التاريخ، لأن عقيدة انتظار مجيء المخلص تشكّل ركنا أساسيا في العقيدة اليهودية، واستمرار تلك العقيدة قائم على استمرار انتظار مجيء المسيح، وهذا يعني أن مجيئه التاريخي هو إنهاء لعقيدته، وبالتالي يتهدم ركن أساسي في العقيدة اليهودية، أي بمعنى ما، إن اليهودية هي حالة انتظار للمسيح الذي لن يجيء، ولذا فهي لم تعترف بمسيحية المسيح عيسى ابن مريم، كما أنها لم تعترف بالعقيدة المسيحية الإنجيلية التي كانت قد خرجت من اليهودية، وذهبت بعيدا عنها، وأريد هنا التنويه إلى أن ما أقصده بالمسيحية الإنجيلية، أي العقيدة المسيحية كما أتت في الإنجيل، كتميز عن العقيدة المسيحية كما أتت في التوراة، ولا أقصد فيها المذهب الإنجيلي المسيحي بالذات.

والمسيحية الإنجيلية، كانت قد خرجت من المسيحية التوراتية، وقامت المسيحية الإنجيلية بإدخال تصورات زارادشتية رئيوية إلى معتقدها، بحيث طورت المسيحية الإنجيلية معتقد يوم الرب في المسيحية التوراتية، بتأثيرات زارادشتية، إلى العقيدة الألفية المسيحية الإنجيلية التي تتلخص بعودة المسيح الذي سيحل ملكا لمدة ألف عام، وسيحكم الأرض مع القديسين، وهي مرحلة انتقالية بين المرحلة التاريخية الأرضية، وحلول الملكوت السماوي الأبدي، ومن أهم التصورات التي كانت المسيحية قد بنت عليها عقيدتها الألفية، التصور الذي جاء في رؤيا يوحنا اللاهوتي، وما جاء في إنجيل يوحنا وهو يودع أتباعه ومريديه «أما الآن فإني منطلق إلى من أرسلني.. إن في انطلاقي لخيرا لكم، فإن لم أنطلق لا يأتكم المحامي، وأما إذا انطلقت فإني أرسله إليكم. ومتى جاء فإنه يفحم العالم بشأن الخطيئة والبر والدينونة».

أما في رؤيا يوحنا اللاهوتي فقد جاء «ورأيت ملاكا نازلا من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده. فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان وقيده

ألف سنة وطرحه في الهاوية وأغلق عليه وختم عليه لكي لا يضل الأمم في ما بعد حتى تتم الألف السنة وبعد ذلك لا بد أن يحل زمانا يسيرا.

ورأيت عروشا فجلسوا عليها وأعطوا حكما ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم وعلى أيديهم فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة. وأما بقية الأموات فلم تعش حتى تتم الألف سنة. هذه هي القيامة الأولى. هؤلاء ليس للموت الثاني سلطان عليهم بل سيكونون كهنة لله والمسيح وسيملكون معه ألف سنة.

ثم متى تمت الألف السنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض جوج وماجوج ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر. فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم. وإبليس الذي كان يضلهم طرح في بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والنبي الكذاب وسيعذبون نهارا وليلا إلى أبد الآبدين.

ثم رأيت عرشا عظيما أبيض والجالس عليه الذي من وجهه هربت الأرض والسماء ولم يوجد لهما موضع. ورأيت الأموات صغارا وكبارا واقفين أمام الله» رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢٠.

«رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها. وسمعت صوتا عظيما من السماء قائلا هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون شعبا والله نفسه يكون معهم إلها لهم. وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم والموت لا يكون في ما بعد ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع في ما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت.. أنا هو الألف والياء البداية والنهاية.. من يغلب يرث كل شيء وأكون له إلها وهو يكون لي ابنا. وأما الخائفون وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعبدة الأوثان وجميع الكذبة فنصيبهم في البحيرة المتقدة بنار وكبريت الذي هو الموت الثاني» رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢١.

وحسب لكتانتيوس (٢٥٠ - ٣٢٠م) فإن المسيح الدجال سوف يهبط، وسوف يقوم بمحاصرة الجبل الذي سيلتجئ إليه أبناء النور، وبعد أن يتضرعوا إلى الرب، سيبعث لهم المسيح المخلص من السماء مع جيش من الملائكة، وتكون حرب يُهزم فيها المسيح الدجال، وبذلك يحل السلام، ويقف في يوم الدينونة الأموات والأحياء أمام المسيح.

والعقيدة الألفية على الرغم من أنها تذهب إلى أن التاريخ سينتهي بالسلام، إلا أن هذا السلام، حسب تصورها، لن يتحقق إلا بالعبور فوق أنهار من الدماء، وجثث شعوب وأمم لن

يبقى لها أثر، حتى أن المسيح الدجال ذاته سيصاب بالرعب، ويهرب نحو الشمال، ولكنه يعود ثانية إلى المعركة فيُهزم علي يد جيش الرب المكون من الملائكة الذين سيلقون بالمسيح الدجال إلى الجحيم الأبدي، أما مريديه فسيكونون عبيدا لشعب الله الذين سيعيشون دون زمن إلى الأبد.

ولقد قاد استعار العقيدة الألفية في بداية الألف الثالثة للميلاد إلى أن يساهم بدرجة ما المذهب المسيحي البروتستانتي في دفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى أن تقوم بعمليات الإحماء من أجل صناعة التاريخ الديني، أو على وجه التحديد دفعت بالإدارة الأمريكية إلى أن تضع سينوغرافيا إخراجية للسيناريو التاريخي الديني الرئيوي البروتستانتي للوصول إلى معركة هارمجدون الكونية.

وقد بدأت الولايات المتحدة الأمريكية، واستنادا إلى عدة مصالح، وعدة حوامل، وفي عدة أماكن، وعلى شكل سلسلة مترابطة، حربها الكونية ضد الإسلام والمسلمين، أو المور حسب التعبير الصليبي، أو ضد الإرهاب، أو محور الشر، أو ضد أبناء الظلام، وقد ابتدأتها بغزو أفغانستان، ثم باحتلال العراق، أو بابل العاهرة، أو بلاد الغول حسب التعبير الصليبي، وهذه السلسلة من الحروب ستتمخض عن مجيء المسيح المنتظر، والذي سيكون قائدا لمعركة هارمجدون، ومن هنا نلاحظ أن خطابات جورج بوش كانت تكرّس بعض المصطلحات ذات الخلفية الدينية من مثل محور الشر، ومحور الخير، كما أن وسائل الإعلام الغربية حاولت أن تستفيد من بعض الصور، واللقطات التلفزيونية لجماعات تتدرب وهي تلبس الأردية السوداء، وتصورهم، إيحائيا، كما لو أنهم أبناء الظلام، كما أنها تحاول أن توحي ذهنيا بأن رئيس تنظيم القاعدة أسامة بن لادن، والرئيس العراقي السابق صدام حسين كما لو أنهما تشكيلات من شخصية المسيح الدجال.

والعقيدة الألفية تجلس الآن، مع عدد من القيادات المتنوعة الأغراض، والأهداف، في العربة الأولى من عربات قطار التاريخ الذي تحاول الولايات المتحدة الأمريكية الاستقرار بمقوده.

وهذه العقيدة الألفية تُعَدّ أن مدينة أورشليم (القدس) هي مركز الكرة الأرضية، بل ومركز الكون، فمن جبل الزيتون قام السيد المسيح، وإليه سيعود، وبمقتضى هذا التصور فإن هذه العقيدة كانت قد قادت، وجنّدت الأمم الأوربية في حروبها الصليبية الأولى في بداية الألفية الميلادية الثانية، على الرغم من أن المسلمين لم يكونوا يحرّمون على المسيحيين، ولا حتى على اليهود قط الحج إلى مدينة أورشليم، ولكن حسب رأي الأصولية الدينية المسيحية

فلا يجوز إبقاء القدس تحت حكم المسلمين (أبناء الظلام، أو المسحاء الدجالين) للوصول إلى الخلاص الأبدي، وقد قام سنة ١٠٩٥ للميلاد البابا أوربان الثاني بالدعوة إلى تحرير أورشليم: {إن الفرسان النبلاء يتكاسلون ويتشاجرون، في حين يحتل الوثنيون الأماكن المسيحية المقدسة ويتوطنون فيها}.

كما خطب إلى الجماهير قائلا {يا شعب الفرنجة، يا شعب شمال الألب أنتم بدلالة أعمالكم الكثيرة شعب الله المحبوب والمختار.. إن شعب إمبراطورية فارس، الغريب، الكافر، مهزوز الطباع الذي لا يركن بال له، احتل أراضي المسيحيين وإفراغها من أهلها بالموت والنهب والحرق}.

وقد أكدت الكنيسة أن أضمن طريق للخلاص هو الموت من أجل أورشليم، ومن أجل مجد المسيح، إنها (الحرب العادلة، أو الحرب المقدسة) لأنها ضد الوثنيين الذين يجب إخضاعهم لسلطة الكنيسة، وانطلقت الحملة الصليبية، وقد وصلت إلى أورشليم (القدس) سنة ١٠٩٩م، وبدل أن تأتي هذه القوات المسيحية بالسلام إلى المنطقة، فقد وصلوا إليها وهم يغوصون ببحيرات الدم، وفوق جثث من قاوم، ومن سالم، من (أبناء العاهرات، وأخلاف قايين، والوثنيين من أبناء الظلام).

والآن، ومع بداية الألفية الثالثة عادت نفس الشعارات للبروز ثانية، ولكن بطريقة مغلّفة بأسماء جديدة متخفية كي تبعد منها محمولها الديني، ومن أهم هذه الشعارات شعار محور الشر، ومحور الخير، وبدل أن كان حراس الهيكل هم الجماعات الأكثر شهرة في الحرب الصليبية الأولى، فإن جماعة شهود يهوه، وجماعة المبشرين باليوم السابع، والذين يعدّون قرابة ستة ملايين في الولايات المتحدة الأمريكية، وسواها من المذاهب الدينية البروتستانتية الجديدة هي التي تبث الآن الروح الدينية في الحرب الكونية الثالثة، وهذه الفرق البروتستانتية تذهب إلى أن نهاية التاريخ قادمة، ولا بد من حرب كونية ينتقم فيها الرب لشعبه المختار، من الشعوب والأمم الأخرى، والتي يجب أن يُسلِّم قادتهم إلى الملائكة لمعاقبتهم (أو إلى محكمة لاهاي)، وهذه الحرب تُعَدّ ضرورية من أجل الوصول إلى الفردوس الأرضي، ولذا، ومن أجل أن تتحقق الإرادة الإلهية، فلا ضير من أن يحيّد أبناء النور، وجنود حراس الهيكل، وشهود يهوه بعض القيم الأخلاقية في حربهم ضد أبناء الظلام.

الفصل الثاني

العهد اليوناني

بعد أن بدأت شعوب وجيوش بحر إيجة بالتوحد بقيادة أثينا، التي كانت قد استطاعت أن تتوسع في محيطها الأرخبيلي، ومن ثم في محيطها القاري الأوربي، ولم تعانِ في انتشارها هذا إلا من المقاومة الفينيقية في القرن الثامن قبل الميلاد، والتي استطاعت في النهاية من كسر شوكتها، وتابعت تمددها الذي وصل إلى ذروته في القرن الخامس قبل الميلاد، ويبدأ الصدام الفارسي اليوناني في عهد داريوس الأول عندما تقدمت القوات الفارسية سنة ٤٩٢ قبل الميلاد نحو اليونان، وقد حققت تلك الحملة بعض النجاح، وظهر التفوق المحدود الفارسي على القوة اليونانية، واستطاع الفرس أن يسيطروا على شمال اليونان، ولأن الفرس حاولوا أن يحصلوا على النصر، فقد بعث داريوس بحملة عسكرية ثانية، ولكن جيوش أثينا استطاعت أن تصمد أمام الهجوم الفارسي المباشر، ولكن الفرس في سنة ٤٩٠ قبل الميلاد استطاعوا تدمير اليونان الوسطى، ونهبوا معابد أثينا، وأحرقوها، ولكن، وفي النهاية، استطاعت الجيوش اليونانية، التي توحدت تحت قيادة واحدة، أن تضع حدا للهيمنة الفارسية عليها، وعلى المنطقة بعد معركة سلاميس سنة ٤٧٩ قبل الميلاد، وأخذت الجيوش اليونانية بقيادة أثينا تتقدم ببطء عبر آسيا الصغرى على حساب الإمبراطورية الفارسية، وفي سنة ٤٦٨ قبل الميلاد استطاعت القوات اليونانية بقيادة أثينا أن تكنّس الوجود الفارسي من مجالها الحيوي، بل إنها استطاعت أن تقدم دعما عسكريا مؤلفاً من أسطول بحري ضخم سنة ٤٥٤ قبل الميلاد إلى مصر التي أعلنت تمردها على السيطرة الفارسية، وقد تطورت السيادة السياسية والعسكرية اليونانية لا سيما في عهد فيليب الثاني (٣٥٩ - ٣٣٦ق.م) مؤسس الدولة المقدونية، وهو الذي جعل من مقدونيا الدولة الأعظم في زمانها، وهو الذي كان قد قرر وخطط للقيام بحملة عسكرية واسعة النطاق ضد الفرس، ولكن اغتياله سنة ٣٣٦ قبل الميلاد حال دون ذلك، وبعد تولي الحكم تلميذ الفلاسفة النجيب الاسكندر المقدوني (٣٣٦ - ٣٢٣ق.م)، والذي، استطاع على الرغم من صغر سنه، أن يسوي حساباته الداخلية، وأن يرسخ حكمه،

ومن حينها تسارعت حركة التوسع الإغريقي بشكل لم يكن له مثيل، ففي سنة ٣٣٤ قبل الميلاد تقدمت قوات الاسكندر المقدوني نحو آسيا الصغرى، وفي السنة التي تلتها تابع طريقه نحو جنوب البحر الأبيض المتوسط، واستطاع التغلب على القوات الفارسية، وتابع طريقه نحو مدن الشاطئ الفينيقية الحصينة التي سقطت تباعا بعد حصار استمر في مدينة جبيل قرابة ستة أشهر، ومنها تابع طريقه نحو مصر التي استقبلته كمحرر، وهذا ما ساهم أيضا في أغرقة مصر، وسواها من الأقاليم التي فتحها، وقد استطاع الاسكندر المقدوني من الاستيلاء على منطقة الشرق الأدنى، واحتل فلسطين سنة ٣٣٢ قبل الميلاد، وفي سنة ٣٣١ قبل الميلاد وصل نحو بلاد الرافدين، واستطاع أن يدخل مدينة بابل التي استقبلته أيضا كمحرر، ثم سقطت عواصم ومدن فارس تباعا، ومن ثم تابع الاسكندر المقدوني طريقه نحو الهند، وقد بدأ الإسكندر يُدخل إلى البلاد المفتوحة الحضارة اليونانية معتبرا نفسه رسول الحضارة الإنسانية إلى العالم، وبذلك كان افتتاحه للبلدان ذا مفهوم فلسفي فكري، أكثر من أن يكون اجتياحا، أو احتلالا عسكريا، وقام الاسكندر المقدوني بنشر الفكر الهليني الفلسفي، وكان هذا الفاتح الجديد يسعى إلى جعل البلاد التي يفتحها تنعم بوحدة ثقافية تسودها القيم والأخلاق الهلنستية، ولذا فقد شجّع على دعم كل ما من شأنه أن يمزج الشعوب في وحدة حضارية، ثقافية، أثنية واحدة، ولذا فقد شجع على الزواج المختلط بين الفرس واليونان لصهر الشعبين.

ولكن هذا الطريق الطويل الذي قطعه الاسكندر في فتح البلدان، جعل بعض عناصر جيشه الذي أنهكه التعب، يضيق ذرعا بالطموحات الكبيرة التي كان يحملها الاسكندر المقدوني، وبدأ بعض عناصر الجيش يحيكون المؤامرات ضده، وقد تصدى لها الاسكندر بحزم، ولكنه في الهند قرر التوقف عن متابعة الحملة والعودة نحو الشرق الأدنى، وبينما عادت بعض قواته بحرا، عاد هو عبر الطريق البري، ووصل إلى بابل سنة ٣٢٥ قبل الميلاد، وفي سنة ٣٢٤ قبل الميلاد نشب تمرد عسكري استطاع قمعه بقوة، ومن حينها بدأ سياسته بتغليب العنصر الفارسي في جيشه، على العنصر الإغريقي.

ولكن، وبموت الإسكندر المفاجئ والمبكر سنة ٣٢٣ق.م بعد إصابته بداء الملاريا (البرداء) انهار المشروع الفلسفي الهليني، بعد أن تولى الحكم قادة عسكريون لا فلاسفة، كما انقسمت إمبراطوريته بين قادته العسكريين، حيث أصبحت اليونان تحت حكم أنتيباتر، وأصبحت مكدونيا وفيريجيا الكبرى تحت سلطة أنتيجوس، أما منطقة سوريا والهلال الخصيب فأصبحت تحت حكم سلوقس والي بابل، ومصر تحت حكم بطليموس،

وفي سنة ٣٠١ قبل الميلاد، وبعد معركة حاسمة بينية تشكلت ثلاث دولة هلينية منفصلة هي: سوريا السلوقية، ومصر البطلمية، ومقدونيا الأنتيجونية.

أما بالنسبة لفلسطين فأصبحت تابعة للبطالمة في مصر حينا، وحينا آخر للسلوقيين في سورية، وقد دفعت منطقة فلسطين الحدودية ثمن الصراع بين البطالسة والسلوقيين، وعانت، بسبب ذلك، الكثير من الفقر والجوع وسوء الأحوال العامة، وكانت تنتقل فلسطين من هيمنة إلى أخرى، إلى أن انتهت أخيرا سنة ٣٠١ق.م إلى البطالسة، وفي سنة ٣٠٠ قبل الميلاد قام بطليموس الأول بحملة على أورشليم ونقل عدداً من اليهود إلى أفريقيا، وبقيت فلسطين تحت حكم البطالسة حتى سنة ١٩٨ قبل الميلاد.

اتسمت هذه المرحلة في ولاية يهودا بالهدوء على مستوى الأحداث العامة، مترافقة، على مستوى المجتمع، ببدء تمايز طبقي، مع بدء هلينة للطبقات العليا من المجتمع، أما دينيا فقد اتسم البطالمة بتسامحهم الديني الأمر الذي مكّن الكهنة من أن يجعلوا اليهود يلتفون حول العقيدة اليهودية، وقد ترافق ذلك باندخال الفلسفات الهيلينية ضمن العقيدة الدينية السياسية اليهودية، وبعد أن كانت بابل العاصمة اللاهوتية لليهود، والتي كانت تمثل المذهب الأرثوذكسي، أصبحت الإسكندرية عاصمة اللاهوت الليبرالي، حيث هناك بُدئ بترجمة التوراة (الترجمة السبعينية) إلى اليونانية حسب رغبة بطليموس فيلادلفوس (بطليموس الثاني) (٢٨٥ - ٢٤٧ق.م)، والذي كان مهتما بالمعارف والعلوم والآداب، أما يهود فلسطين فكانوا يشكلون الجناح الثوري ضد الكهنة الذين كانوا عملاء للإغريق، وقد تشكلت عدة مذاهب دينية في مقاطعة يهود في مراحل لاحقة.

كانت مقاطعة يهود في عهد البطالسة شبه مستقلة، دون أن تحصل على استقلالية سياسية شأنها شأن باقي الأقاليم، وكان اليهود يتمتعون بحريتهم الدينية، وكانوا يخضعون لحكم الكاهن الأكبر الذي يترأس مجلس الأعيان المسؤول أمام السلطة السياسية اليونانية، والتي كانت تتقاضى من الكاهن الأكبر الجزية التي كان يجمعها بدوره من شعبه، وهذا ما سمح لليهود بأن يحافظوا على كيانهم الديني التراثي.

وقد خضعت فلسطين للسلوقيين في سنة ١٩٨ قبل الميلاد بعد انتصارهم في معركة بانياس، وقد ساعدهم في ذلك الحزب اليهودي الموالي للسلوقين، ولذا فقد قدّر السلوقيون لليهود هذا الموقف، وقدموا لهم دعما اقتصاديا، وقد استفاد من هذا الدعم ذوو الشأن، الأمر الذي ساهم، إلى جانب تبني القيادات اليهودية الفكر والنمط الاجتماعي الهيليني، في تشكيل وتعميق التطبق الاجتماعي الاقتصادي، فبينما كان القادة والوجهاء يزدادون غنى،

كان العامة يزدادون فقرا ككل المقاطعات اليونانية، وبدت معاناة الشعب بالتصاعد، وفي تلك الفترة بدأت تشيع أفكار ونبوءات الخلاص، لا سيما تلك التي تم دسها، من قبل بعض رجال الدين الذين كانوا إلى جانب الفقراء، في أسفار الأنبياء السابقين مثل سفر النبي إشعيا، كما تغلغلت الفلسفة اليونانية الغنوصية في الفكر التوراتي خاصة بعد أن قام بعض اليونانيين بالاستيطان في فلسطين، الأمر الذي أدى إلى تغيّر بالتركيبة السكانية، وبالتالي الثقافية الفكرية، بخاصة وأن السلوقيين كانوا يُعَدّون أنفسهم ورثة الفكر الفلسفي للإسكندر المقدوني.

وقد نشب صراع يهودي بيني في بداية عهد السلوقيين، تمثل بين مؤيدي السلوقيين، ومؤيدي البطالسة، فكان الفريق المؤيد للسلوقيين بقيادة ياسون الممثل للطبقة البرجوازية اليهودية، أما الفريق المتمسك بيهوديته بقيادة الكاهن أونيا فقد وقف إلى جانب البطالسة، وقد عرض ياسون على السلوقي انطوخيوس الرابع (إبيفانس) (١٧٥ - ١٦٤ق.م) أن يهلين اليهودية إذا ما عينه كاهنا أعلى، وأن يعطيه الكثير من قناطير الفضة، ولما حصل ذلك، وبدأ ياسون بهلينة اليهودية، ومع زيادة الانقسام الطبقي، ثار الشعب وأعلنوا العصيان على ياسون، وبالتالي على أنطوخيوس الرابع، الأمر الذي قاد إلى ثورة شعبية، في الوقت الذي كان أنطيوخوس الرابع (أبفانس) يقود حملة على مصر سنة ١٦٧ قبل الميلاد، وأثناء عودته احتل أورشليم، وسحق حركة التمرد، واستباح ولاية يهود، وأباح أورشليم لجنوده لمدة ثلاثة أيام، ونهب الهيكل الذي حوّله إلى معبد للإله الكنعاني بعل، والذي يشكل وجها آخر للإله زيوس، كما سمح بتقديم الخنازير من بين القرابين على مذبح الهيكل، وأعلن أورشليم مدينة يونانية (بولس)، ومنع ممارسة الشعائر الدينية اليهودية فيها، وألغى تقديس يوم السبت، والاحتفال بالأعياد الدينية اليهودية، واعتبر الختان جريمة يعاقب عليها القانون، كما أمر بإحراق كتاب الشريعة، وعين منيلاوس المتهلين كاهنا أعلى من قبل السلوقيين، كما قام ببناء مستوطنة هيلينية لضمان السيطرة على مقاطعة يهود، وفرض المزيد من الضرائب، وبدأت بعض الطبقات الانخراط في الهلينة، وتعرضت اليهودية إلى أزمة وجودية حقيقية لم تشهد لها مثيلا من قبل، وفي هذا الوقت بدأت تظهر كتابات نبوئية رئيوية خلاصية، ومنها سفر دانيال، كما قام بعض الكتبة اليهود بدسّ بعض النبوءات الخلاصية في أسفار الأنبياء مثل إشعيا، وإرميا، وكان الأنبياء الجدد (المجهولون) يكتبون نبوءاتهم ويدسونها في أسفار الأنبياء المشهورين، ويدّعون أنها تنبؤات قديمة كتبت في الماضي، وبما أن هذه النبوءات كانت تتحدث عن المستقبل الذي أصبح جزء منه ماضيا، وهي من المؤكد قد حدثت، فقد

أخذت تلك النبوءات مصداقية عالية من قبل الشعب، وبالوقت نفسه، لم تؤد تلك النبوءات إلى ملاحقة كتابها من قبل السلطة.

وأمام هذه الأحداث الكبرى، والفوضى الدينية، قام الكاهن متتياهو الحشموني مع أبنائه الخمسة بحركة تمرد تحولت إلى ثورة عصابات، وكانت الشرارة التي أدت إلى ثورة الميكابيين هي وصول رسول سلوقي إلى قرية مودين اليهودية يأمرهم بعبادة الأوثان الإغريقية، وقد قام متتياهو بقتله، وأعلن التمرد على السلوقيين، وقد اتخذ متتياهو من الريف منطلقا له ضد اليهود المتهلينين، وحركة الهلينة بالدرجة الأولى، وضد الجيش السلوقي بالدرجة الثانية، وقد استفاد متتياهو من المغاور الحصينة، ومن الطرق الجبلية الملتوية في شن حملات كر وفر، وقد ألحق خسائر كبيرة بالجيش النظامي، وانتصر في معركتين (معركة بيت عور، معركة بيت حور)، الأمر الذي جعل الملك السلوقي يبعث بجيش كبير قام بالاستيلاء على أورشليم، ومنع العبادة في هيكلها، وبدأ يشن الحملات ضد الثوار الحشمونيين، وقد استغل الجيش السلوقي يوم السبت، وشن حملة واسعة على المغاور والكهوف وقام بإحراقها، وقد مات عدد كبير منهم، وكان منهم قائد الثورة متتياهو الذي مات أثناء محاولته الهروب.

وتولى القيادة من بعد موت متتياهو ابنه يهوذا الذي لقب نفسه مكابي (المطرقة)، والذي شرّع لجماعته الدفاع عن أنفسهم يوم السبت، كما صرّح أن من يموت في المعركة يكون شهيدا ويصبح خالدا، كما قام بتطوير نظامه العسكري، ووسّع من مكان هيمنته الريفية، وقد استطاع المكابي من خلال تكتيكات عسكرية تقوم على مبدأ الكر والفر من إلحاق هزائم متعددة بالحامية السلوقية التي كانت تحت إمرة القائد ليسياس، وقد حاول أن يسترضي المكابي، وأن يضعف التأييد الشعبي اليهودي للحركة الحشمونية من خلال منح الولاية الحرية الدينية، ولكن مكابي كان ينظر إلى أبعد من هذا، واستطاع أخيرا أن يحقق أهم أهدافه بالدخول إلى مدينة أورشليم في شهر كانون الأول من سنة ١٦٤ قبل الميلاد، وأزاح الطبقة اليهودية الهيلينية التي كانت تسيطر على اليهود، ولكن التوترات الشعبية بقيت مستمرة بين أنصار السلوقيين الوثنيين، واليهود المتهلينين.

ولم تستطع السلطة السياسية السلوقية أن تكبح لجام المكابي، فبعد أن أصبح ليسياس وليا للعهد، جنّد جيشا كبيرا على يهوذا، وبعد عدة صدامات كانت للمكابيين نصرة جزئية فيها، فاضطرت السلطة السلوقية إلى التفاوض، والاتفاق مع يهوذا المكابي، بعد أن تم إلغاء المراسيم التي استصدرها أنطيوخوس (أبيفانس)، وبذلك عادت أورشليم مدينة دينية يهودية، وقد قامت روما بدور العراب بين الطرفين، وانتهت المفاوضات إلى توقيع

الطرفين سنة ١٦١ قبل الميلاد على اتفاق تم من خلاله الاعتراف الرسمي بالوجود الحشموني، من قبل أثينا، وروما.

وقد أدرك يهوذا أن طموحاته لن تتحقق إلا إذا ضمن له دعم دولي، فبعث بوفد إلى روما، حيث تم عقد اتفاق يلزم الطرفين بتقديم العون العسكري المتبادل (اتفاقية دفاع مشترك)، وهذا ما جعل أو شجع الملك ديمتريوس الأول على التعامل بجدية أكبر مع السلطة الحشمونية، وتزامن هذا مع طلب المعارضة اليهودية للميكابيين من السلطة المركزية تقديم المساعدة ضد الحمشونيين، فبعث ديمتريوس بحملة صغيرة في البداية انتصر عليها ميكابي الذي كان يتطلع إلى استقلال سياسي مطلق، لكن الحملة الثانية الكبيرة هزمته وقامت بقتله مع أخوه يوحنا سنة ١٦٠ قبل الميلاد، ولكن أخويه يوناثان وشمعون (سمعان) فرا إلى شرقي الأردن.

وبسبب تعرض العرش السلوقي إلى المنافسة بين ديمتريوس والاسكندر، بعث الأخير برسالة إلى يوناثان يطلب منه الوقوف إلى جانبه في حربه على العرش، وقد عرف يوناثان استغلال هذه الخلافات السياسية، ولما نجح الاسكندر في توليه الحكم قام بتنصيب يونثان كاهنا أكبر، وحاكما أكبر على ولاية يهودا بحيث كان هو الوحيد المخوّل له دخول قدس الأقداس، وترك الاسكندر ليونثان هامشا من الاستقلال في تصريف أمور ولاية يهودا، ولكن، ولأن يونثان غيّر ولاءه، وقام بتجديد معاهدة الدعم المتبادل بين يهودا وروما، كما أنه تحالف مع إسبرطة، قامت السلطة السلوقية باعتقاله، أو بصورة أدق بأسره، ثم خلفه أخوه شمعون (سمعان) سنة ١٤٣ قبل الميلاد الذي قام بتوسيع حدود سلطته، وضم إليها جيزر ويافا التي جعلها ميناء له، الأمر الذي جعل السلطة السلوقية تنتقم منه بقتل أخيه يونثان الأسير لديها، ولكن شمعون المؤسس الحقيقي لدولة أورشليم المستقلة، لم يثن من عزيمته في الذهاب بعيدا في تحقيق طموحاته، فبعد أن حاصر قلعة الأكرا السلوقية، وبعد أن سقطت قام بتدميرها نهائيا، وفي سنة ١٤٢ قبل الميلاد أعلن الاستقلال عن سلوقيا التي خضعت للأمر الواقع، في الوقت الذي كانت تمر فيه في أضعف مرحلة من مراحل تاريخها، لا سيما بعد أن بدأت القوات الرومانية تسحب البساط من تحت أقدام السلوقيين، والتي استطاعت أن تسيطر على بلاد الإغريق، ثم توجهت نحو آسيا الصغرى مهددة السلوقيين الذين لم يعودوا قادرين على ضبط سيطرتهم على الأقاليم وبخاصة على مقاطعة يهودا.

وبعد استقلال ولاية يهودا قام شمعون بتهويد الحياة العامة في الولاية، ومحا الآثار الهيلينية بمساعدة طائفة الصدوقيين، ولكن الصراع داخل العائلة الحشمونية اشتعل في تلك الفترة، وكان أهم من نافس شمعون على السلطة هو تلمي (بطليموس) حاكم أريحا، وقد

حاول شمعون أن يسترضيه فزوجه بابنته، ولكن تلمي عاد إلى معارضته، وقام باغتيال شمعون واثنين من أبنائه سنة ١٣٥ قبل الميلاد، ولكن ابنه الثالث يوحنان هوركانوس والذي كان حاكما لجيزر استطاع أن يعود إلى أورشليم وأن يسيطر على الانقلاب، ومن هناك أعلن نفسه كأول ملك حشموني (١٣٥ - ١٠٤ق.م) سنة ١٣٥ قبل الميلاد، مما اضطر تلمي للهروب إلى شرقي الأردن، وفي تلك المرحلة الحرجة استطاع السلوقيون أن يهزموا هوركانوس، وأعادوا يهودا إلى حظيرة السلطة السلوقية مرة أخرى، وأجبر العاهل السلوقي أنطوخيوس السابع هيركانوس أن يشارك بقوة يهودية في حربه ضد الفرثيين، وقد سُحق السلوقيون وأُسر هيركانوس من قِبل الفرثيين ثم أُطلق سراحه، وعاد سنة ١٢٩ قبل الميلاد إلى ولاية يهودا التي أعلن استقلالها ثانية بعد الضعف الشديد الذي حل بالقوة السلوقية.

وقد استطاع هيركانوس الذي استفاد من الصراعات السياسية السلوقية المركزية، ومن الفراغ النسبي والعابر في المنطقة، وقام بتوسيع سلطته، فاحتل موآب بعاصمتها مأدبا، واحتل السامرة وعاصمتها شكيم (نابلس)، وأحتل أدوم وأجبر شعبها على التهود، ولكنه كان يترك المدن الهلينة كمستوطنات مستقلة، ولكن الحشمونيين في مرحلة لاحقة أخضعوا بعض المستوطنات الهلينية لهم وقاموا بتهويد مدينة صفورية (سبورس) مركز الجليل، وقد تولى الحكم بعد موت هيركانوس ابنه أرسطوبولس (١٠٤ - ١٠٣ق.م) الذي كان قد أوصاه والده قبل موته أن يصبح كاهنا أعظم، وأن يترك الإدارة المدنية لأمه، وبدل أن ينفذ أرسطوبولس وصية والده قام بسجن أمه حتى ماتت جوعا، كما أنه سجن أخوته أيضا، وقتل منهم أنتيجونوس، وقد مات أرسطوبولس بعد سنة تقريبا من توليه الحكم.

وبعد موت أرسطوبولس، تولى الحكم أخوه ألكسندر يناي (١٠٣ - ٧٦ق.م)، وكسبب لطغيانه الشديد ظهرت أو برزت المعارضة الفريسية، وقد استطاع ألكسندر يناي بقوته العسكرية أن يوسّع حدود الدولة الحشمونية إلى أكبر مساحة ممكنة بعد أن ضم الساحل إليها، كما أنه أجبر الأيطوريين العرب الذين كانوا يسكنون في الجليل على التهود.

وقد حاول الاستيلاء على غزة سنة ٩٦ قبل الميلاد، ولكن ملك الأنباط الحارث الثاني (أبروتيموس) (١١٠ - ٩٦ق.م) ناصر حاكم مدينة غزة، واستمرت المعارك الضارية حتى عهد عبادة الأول، الذي حقق انتصارا على الميكابيين، واستولى على حوران ومناطق أخرى في شرقي الأردن.

إن القسوة التي اتصف بها ألكسندر يناي، أدت داخليا إلى تنامي قوة المعارضة الفريسية، والتي استعانت بملك سوريا السلوقي ديمتريوس، الذي أتى بجيشه إلى المنطقة، ومعه الكثير من الجنود اليهود، والجدير ذكره أن السلوقيين بعد انتصارهم بقيادة سلوقس

على البطالمة سنة ١٩٨ قبل الميلاد، قاموا ببناء عاصمتهم سلوقية على بعد ٢٠ ميل جنوب شرق بغداد (تل عمر الحالي) على الضفة اليمنى من دجلة، وبقيت عاصمة لهم حتى استطاع الفرثيون من طردهم سنة ١٢٩ قبل الميلاد، فنقلوا عاصمتهم إلى سوريا (١٣٩ - ٦٤ق.م)، وقد قام الملك السلوقي أنطيوخس الثالث (الملك الكبير) (٢٢٣ - ١٨٧ م) بنقل ألفي أسرة يهودية من بلاد الرافدين إلى ليديا وفريجيا في آسيا الصغرى، وشكّل منهم حامية عسكرية سلوقية لقمع التمردات على الحكم السلوقي.

وفي هذه الفترة، وفي هذا السياق، وعلى ضوء متغيرات دولية، غزا ملك أرمينية تكران الكبير شمالي فلسطين في سنة ٨٣ قبل الميلاد، وقام بنقل مجموعة من اليهود الذين كانوا يعملون بالتجارة، ووطنهم في أرمينية للاستفادة من خبراتهم التجارية، ولكن بعد استيلاء الفرس على أرمينية تم نقلهم أو نقل قسم منهم لنفس السبب إلى أصفهان.

وقد قَدم مع الجيش السلوقي بعض الجنود اليهود لقمع التمرد في اليهودية، ومنذ البداية، انضم الجنود السلوقيون اليهود، إلى جيش ألكسندر يناي، الذي استطاع أن ينتصر على الجيش السلوقي في محيط مدينة شكيم (نابلس).

وبعد انتصار ألكسندر يناي المظفر على الجيش السلوقي، قام باضطهاد الفريسيين، وصلب أعدادا كبيرة انتقاما منهم على استنجادهم بالسلوقيين.

ولكن بعد موته، وتولي الحكم من قبل زوجته شلومتسيون (سالومي ألكسندرا) (٧٦ - ٦٧ق.م) تصالحت مع الفريسيين، ولكنهم، وبعد موتها، وبعد أن اندلع الصراع على الحكم بين ابنيها: هوركانوس الثاني الذي أيده الفريسيون، وأرسطوبولس الثاني الذي أيده الصدوقيون، دخلوا في الحرب الأهلية، والتي اشترك فيها أيضا أنتيباتر الأدومي، والحارث الثالث (أريتاس) (٨٧ - ٦٢ق.م) ملك الأنباط إلى جانب هوركانوس بعد أن فر إلى البتراء، وقد قام الحارث الثالث بقيادة خمسين ألف مقاتل بحملة عسكرية، وانتصر على السلوقيين في قانا الجليل، وقتل ملكهم انطوخيوس الثاني، واستولى على مملكة يهودا وحاصر أورشليم، وأثناء حصاره، وفي ذروة هذه الحرب الأهلية بدأت قوات روما بقيادة بومبي تقترب من المنطقة، وطلبت من الحارث أن ينهي حصاره لمدينة أورشليم والجلاء عن يهودا والعودة بقواته إلى البتراء، وقد أذعن الحارث لطلب بومبي، ولما وصل بومبي إلى محيط القدس، رفض أعيان أورشليم، بما فيهم الكهنة، ومعهم بعض العامة، تسليم المدينة إلى بومبي، ولكن سرعان ما قام أتباع هيركانوس الثاني بفتح الأبواب، وبينما سلّم أرسطوبولس الثاني نفسه طواعية إلى بومبي، بقي الكهنة معتصمين في مبنى الهيكل، وقد قام بومبي بمهاجمته، وقتل المعتصمين فيه، كما قام

يخلع أرسطوبولس الثاني من الحكم ونفاه إلى روما، وعيّن هوركانوس الثاني كاهنا أعظم وقائدا للشعب، ومنحه لقب ملك روماني (دوكس)، ومنحه بعض الصلاحيات السياسية المحددة، وبذلك تحولت اليهودية إلى مقاطعة رومانية بعد أن دام استقلالها لمدة ثمانية عقود.

اتسمت الحركة الحشمونية بطابع هيليني، وكان القائد الميكابي يسمّى في بداية الحركة بالزعيم، وقد تولى قيادتهم خمسة زعماء، ثم أتى بعدهم مرحلة الملوك السبعة وقد ابتدأهم يوحنان هوركانوس والذي أعلن نفسه كأول ملك حشموني (١٣٥ - ١٠٤ق.م)، وقد اعتمدت الحركة الحشمونية اقتصاديا على الزراعة، أما دينيا فقد استندت على الكهنة الصدوقيين، أما الفريسيون الذين كانوا يتمتعون بمستوى ثقافي أعلى فكانوا من أعضاء الطبقة الوسطى من التجار وكانوا يعارضون الطابع الهيليني لمقاطعة يهودا، والتي تبناها، إضافة للكهنة الصدوقيين، الطبقة العليا المشكلة من الإقطاعيين وكبار التجار وجامعي الضرائب، أما الطبقة الدنيا فكان تأثيرها هامشياً، وقد استفادت القيادة الحشمونية من فراغ القوى العالمية في تلك المرحلة.

كان الحشمونيون في بداية حركتهم الثورية قد حاربوا الهلينة بكل ما أوتوا من قوة، ولكن بعد أن اصبحوا ملوكا تراجعوا عن موقفهم السابق، فتسامحوا، بل وشجعوا على تفشي الثقافة الهلنستية في بنية المجتمع والسلطة اليهودية، وقد حمل حينها الفريسيون لواء مقاومة الهلينة، وبذلك أصبحوا أيضا معارضين للحشمونيين، لا سيما وأن الملوك الحشمونيين كانوا يعتمدون على تنسيب عناصر مرتزقة وثنية في جيشهم.

وكان التأثير الأكبر الذي خلفته المرحلة الهيلينية تأثيرا ثقافيا على بنية اليهودية، فقد تحولت عاصمة اليهودية الدينية التي كانت ذات طابع أرثوذكسي من بابل إلى الإسكندرية التي حملت لواء الليبرالية، حيث فيها تمت ترجمة التوراة إلى اليونانية، وقد احتاجت هذه الترجمة التي قام بها سبعون كاهناً مدة مئة عام تقريبا، وكانت أهم الفلسفات التي أثرت في اليهودية هما الفلسفة الأبيقورية، والفلسفة الرواقية.

الفلسفة الأبيقورية:

وهي التي تنسب إلى أحد أهم فلاسفتها أبيقور (٣٤١ - ٢٧٠ق.م)، وقد اتخذت هذه الفلسفة خطابا شعبيا قرويا بسيطا، وتوجهت، أو حاولت أن تنظم علاقة الفرد مع المجتمع بعيدا عن السلطة، والسياسة، والمناصب، والطموح، كما أن هذه الفلسفة وعلى الرغم من شعبيتها، دعت إلى التنور، والتخلص من الخرافات، والأساطير، والغيبيات، والخوف من

المستقبل، والموت، والحياة الأخرى التي نفت وجودها، وذهبت إلى أن الحياة الحقيقية التي يمكن أن يعيشها الإنسان هي الحياة الخيرة التي تجعل المرء قانعا، هادئا، مسالما، مطمئنا، راضيا بما تقدمه الحياة لإنسان من خصائص، ومزايا، وقدرة على التعامل مع ما تطرحه الحياة له، والتلذذ بتحقيق أفضل ما يمكن تحقيقه دون الاتكال على اليأس، أو على التمني، أو التوهم، أو على القوى الغيبية، أو الذهاب بعيدا بالطموحات والأحلام، وبشكل مختصر كان هذا المذهب يحاول الوصول إلى كل ما يمكن أن يؤدي إلى راحة الضمير، والتخلص من قلق، وخوف الإنسان، و لا سيما خوفه من الموت، ومن الآلهة، وكان هذا المذهب يرى أن الإله، إن كان له وجود، فهو ليس له أي علاقة أو تدخل في شؤون الحياة بتجلياتها كافة.

الفلسفة الرواقية:

وهي الفلسفة التي كان قد أسسها زينون بين نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث قبل الميلاد، وهي الفلسفة السياسية اليونانية التقليدية، ولذا فهي اتخذت من النظم، والأحكام نهجا لها، فذهبت إلى أن الكون يتحرك ضمن نظام دقيق، يتحكم به عقل لا يمكن أن يخطئ أبدا، وهذا العقل الكوني له علاقة خاصة، ومميزة مع الإنسان تحديدا، وأن لدى الإنسان عقلا صغيرا هو جزء من العقل الكبير، وهذا العقل يمكن له أن يتحكم بأحاسيس الإنسان، وعواطفه، وبذلك يستطيع الإنسان أن يصل إلى السعادة بمقدار ما يستطيع أن يسيطر على إرادته، وأحاسيسه، وعواطفه الهدامة المعادية للآخر، كما ذهبت هذه الفلسفة إلى أن السعادة هي الفضيلة، والفضيلة هي أن نكون كما يحبنا الآخرون أن نكون، وأن نخدم الآخرين كما نحب أن يخدمنا الآخرون، وعلى الإنسان أن يوازن بين ما يمليه علينا العقل المطلق، وبين ما هو ممكن، وهذا يمكن تحقيقه من خلال عمل الواجب، ومن هنا فقد أولت هذه الفلسفة الأخلاق الدور الأهم في الحياة، كما دعت الإنسان أن يدجن نفسه مع حكم الطبيعة، وأن يحاول البحث عن الحقيقة، بما يؤدي إلى راحة ضميره، وإلى وصوله إلى سلام داخلي، وهي الفضيلة التي يجب أن ينشدها الإنسان، وبذلك فإن الإنسان يمكن له أن يعيش غنيا على الرغم من فقره، وحرا على الرغم من قيوده، وسعيدا على الرغم من منغصات الحياة، وهذه الفلسفة تشابهت في كثير من تصوراتها مع الفلسفة الكلبية التي كانت ترى أن على الإنسان أن يحاول أن يعيش بسيطا في هذه الحياة، ودون تعقيدات الأنظمة، والقوانين، وحتى الأعراف الاجتماعية، ومن هنا فقد عاش ديوجين فيلسوف الكلبية الأول عاريا في برميل.

وكان فيلسوف الرواقية الأول زينون قد بشر بدولة أو مدينة العالم المتحد، مدينة العقل، والمؤاخاة، مدينة الله، المدينة الأكثر رحمة، واتساعا، وقد أحدثت الفلسفة الرواقية الأرستقراطية، الأخلاقية أثرا كبيرا في اليهودية، على الرغم من أن الرواقيين كانوا يكرهون اليهود لأن التبشير اليهودي كان يحول دون انتشار الأفكار الرواقية.

وقد تأثرت اليهودية بالفلسفات الهلنستية على تعدد مذاهبها، وعلى كافة الصعد الاجتماعية، والسياسية، والدينية، وهو الذي أدى إلى اندلاع عدة صراعات يهودية اجتماعية بينية، واجتماعية سلطوية، وتمردات متعددة، أتت في سياق حراكية اجتماعية واسعة في كل الأقاليم التي كانت تخضع لحكم الإغريق، ومنها ثورة العبيد في صقيلية سنة ١٣٦ قبل الميلاد بقيادة العبد السوري يونوس، كما حصل أيضا في اليهودية، في هذا السياق، تمرد، وعصيان على الحكم السلوقي، ولكن التأثير الأكبر الذي أحدثته الفلسفة الهلنستية في اليهودية، فهو تأثير فلسفي في بنية الدين اليهودي، حيث أدى اندخال الفكر الهليني (الفلسفي - العقائدي)، ضمن البنية السكانية، إلى أزمة حضارية فكرية، قادت إلى انقسام المجتمع اليهودي لاهوتيا إلى عدة مذاهب، وقد كان لتلك المذاهب التي تبلورت في سياق الثورة الميكابية بعدا سياسيا، وقياديا بالنسبة للمجتمع، وأهم هذه المذاهب ثلاثة هي:

- المذهب الفريسي (الأحبار أو الربانيين أو الحسيديم):

كان الصدوقيون من أطلق عليهم هذه التسمية (الفريسيون) والتي تعني المنعزلون أو المنفرزون، وحسب كمال الصليبي تعني المفسرين، وهي مشتقة من كلمة فرش العبرية التي تعني فسر، وهم معلمون وليسوا من الكهنة، ولكن الفريسيين كانوا يطلقون على أنفسهم تعبير الأحبار أو الربانيين.

تعود جذور الفريسيين إلى القرن الرابع قبل الميلاد، والبعض يُعَدّونهم من مريدي عزرا الكاهن، وقد ظهروا كرد فعل يهودي على اندخال الثقافة الهيلينية، وقد تبنوا الدفاع عن وحدة الدين ضد المؤثرات الخارجية لا سيما في زمن الميكابيين، وهم الذين قادوا الحراكية التاريخية اليهودية فيما يدعى بالهيكل الثاني، وكانوا وراء التمردات والثورات اليهودية في العهدين اليوناني، والروماني انتهاء بثورة باركوخبا، إلا أنهم لم يبرزوا على الساحة إلا من خلال الصراع الداخلي على السلطة، وقد بدؤوا بالظهور بعد ثورة المكابيين في حدود سنة ١٦٥ قبل الميلاد، وبرزوا في عهد يوحنا هيركانوس (١٣٥ - ١٠٤ق.م)، والذي كان فريسيا في البداية، وبعد خلاف معهم انضم إلى الصدوقيين، وفي عهد الطاغية ألكسندر يناي

(١٠٢- ٧٦ق.م) أصبح الفريسيون يشكلون حركة المعارضة الشعبية القوية، وقد قام ألكسندر يناي باضطهادهم بعد أن استنجدوا بالسلوقيين.

كان للفريسيين تأثير، وهيبة كبيرة على عامة الشعب، فأغلبهم ينتمي إلى الطبقة الوسطى الحرفية، والذين كانوا يمتازون بثقافة واسعة، ومعرفة عميقة بالشريعة، والأفكار الفلسفية والدينية للشعوب، على الرغم من أنهم لم يكونوا محبوبين كثيرا من قبل الشعب، إلى أنهم كانوا مرهوبي الجانب، حتى أن ألكسندر يناي - وعلى الرغم من عدائه الشديد لهم - أوصى زوجته شلومتسيون (سالومي ألكسندرا) (٧٦ - ٦٧ق.م) وهو يحتضر أن تتحالف مع الفريسيين، وقد أخذت سالومي بوصية زوجها، وبذلك أصبحوا هم القوة التي تقف وراء العرش الملكي، وبعد موتها وقف الفريسين إلى جانب ابنها هوركانوس الثاني، بينما وقف الصدوقيون إلى جانب ابنها أرسطوبولس الثاني، وأثناء الصراع على السلطة وصلت قوات روما، وأنهت هذه الصراعات.

وقد التزم الفريسيون السلم منذ دخول بومبي المنطقة، على الرغم من أنه انشق عنهم الجماعة الغيورية الثورية، ولكن الفريسيين في النهاية انظموا إلى حركة التمرد سنة ٦٦ للميلاد، وبعد سقوط أورشليم سنة ٧٠ للميلاد تولى الفريسيون القيادة الروحية للجماعات اليهودية، وساهموا بإعادة بناء اليهودية، كما كان الأمر في مرحلة السبي البابلي.

كان المذهب الفريسي، أكبر المذاهب، عددا، وحضورا، وله العدد الأكبر من المقاعد في السنهدرين، وعلى الرغم من أن هذا المذهب السياسي الديني ذو طابع شرقي آرامي دهري، فقد أدخل إلى اليهودية الأفلاطونية بما تحتويها من طهر ومحبة وخلود النفس وصلاح المجتمع، كما أخذ من الفيثاغورثية الزهد، ومن الرواقية عقيدة اللوغوس أو الكلمة، وبذلك اتسم هذا المذهب بالروحية والتي كانت أبعد ما يمكن عن المادية اليهودية الموسوية.

وأعضاء هذا المذهب، على عكس الصدوقيين، يؤمنون بالبعث واليوم الآخر والقضاء والقدر، إلى جانب إيمانهم بوجود الإرادة الإنسانية في الاختيار بين الخير والشر، كما أنهم كانوا يؤمنون بخلود النفس والروح من خلال التقمص أو الاستنساخ، ووجود الملائكة الذين يأتمرون بأمر الله، والجن والعفاريت والأبالسة الذين يأتمرون بأمر الشيطان (عزرائيل)، وعلى الرغم من أن هذا المذهب قد آمن، وبشّر بمجيء المسيح، بل وأن يوسف النجار حفيد زربابل، وسليل بيت داود، والرسول بولس كانا من أتباع هذا المذهب، إلا أن المذهب الفريسي، بحسب ما جاء في الإنجيل، كان أشد المذاهب عداء للمسيح عيس ابن مريم، والذي بدوره ناصبهم العداء الشديد، ووجه لهم توبيخات شديدة اللهجة، كما أن يوحنا وصفهم بأولاد الأفاعي،

كما وصفوا أيضا، من قبل المسيحية، بعميان يقودون عميان، وجاء في إنجيل متى {ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السماوات قدام الناس فلا تدخلون انتم ولا تدعون الداخلين يدخلون، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل، ولعلة تطيلون صلواتكم لذلك تأخذون دينونة أعظم، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلا واحدا ومتى حصل تضعونه ابنا لجهنم أكثر منكم ضعفا، ويل لكم أيها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشيء، ولكن، من حلف بذهب الهيكل يلتزم، أيها الجهال والعميان، أيهما أعظم الذهب أم الهيكل الذي يقدس الذهب؟ ومن حلف بالمذبح فليس بشيء، ولكن من حلف بالقربان الذي عليه يلتزم، أيها الجهال والعميان، أيهما أعظم القربان أم المذبح الذي يقدس القربان؟ فإن من حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما عليه، ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه، ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله والجالس عليه، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تعشرون النعنع والشبث والكمون وتركتم أثقل الناموس}.

ونلاحظ هنا أن إنجيل متى يتحدث عن الفريسيين كما لو أنهم كانوا كهنة، وجامعي ضرائب، وقيّمين على الهيكل، أي كما لو أنهم الصديقيون، فهل كان المسيح يجمع بينهما، أم أن كاتب السفر لم يكن مطلعا على الفارق بين الفريسيين والكهنة الصديقيين، وحسب التصور المسيحي فإن الفريسيين هم من أوصلوا المسيح إلى الصليب.

وقد طوّر هذا المذهب يهوه إلى إله واحد خالق سماوي شامل، موجود في كل مكان، ويمكن التعبد إليه في أي مكان، ولذا شجعوا على بناء المعبد اليهودي في أي مكان يتواجد فيه اليهود، كما أن أعضاء هذا المذهب يرون أن رسالة اليهود العالمية هي رسالة تبشيرية، وعلى عاتقهم تقع هداية الشعوب، ولذلك قاموا بأعمال تبشيرية خارج فلسطين، الأمر الذي أدى إلى تزايد في تعداد اليهود في الإمبراطورية الرومانية فيما بين القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد، وقد جاء في الإنجيل «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلا واحدا. ومتى حصل تصنعونه ابنا لجهنم أكثر منكم مضاعفا.» متى٢٣، ونلاحظ هنا أن إنجيل متّى يميز بين الكتبة والفريسيين، على الرغم من أن الكتبة كانوا، أو كان معظمهم من الفريسيين، وقد أطلق عليهم الإنجيل لقب النامسيين.

والفريسيون، وقبل أن يأخذوا اسمهم هذا، أي بمعنى أن النهج، أو التيار الفريسي في تشكيلاته الأولى، هو الذي قام بتدوين، وتحرير التوراة، بدءا بمرحلة السبي البابلي، وبالتالي يمكن اعتبار عزرا أول الفريسيين.

والفريسيون، بما فيهم الناموسيون، والكتبة، وغير ذلك، كانوا يقدسون النص، ويُعَدّون أن التوراة خُلقت كما هي منذ الأزل، ويذهب البعض إلى أن المصدر الكهنوتي في التوراة هو مصدر فريسي، كما أن هناك شبه إجماع على أن الفريسيين هم من قاموا بكتابة أسفار المزامير والأمثال والجامعة، في الفترة ما بين منتصف القرن الثاني ونهاية القرن الأول قبل الميلاد، وخير ما يمثل رؤية الفريسيين هو سفر مزامير سليمان، الذي تمت كتابته بعد سقوط يهودا بيد الرومان، وهذا الحدث الذي هزّ اليهودية بعمق شديد، كان له تأثير كبير على المذهب الفريسي على وجه التحديد، فبينما كان الفريسيون يشكلون حراس الشكل، وسياج الناموس في اليهودية، راحوا يميزون بين الثابت، والمتحول، وبين المطلق، والنسبي، وتحولوا من تقديس الشكل، إلى تقديس الروح، وذهبوا إلى أن الثابت في المطلق، يتجلى في الحاضر بأشكال متعددة حسب صروف الزمان، وعلى هذه الفلسفة كتبوا المشنا التي قاموا بجمعها من على ألسنة الأحبار، والتي تتألف من ٦٣ مقالة، وتُعَدّ هي الأساس في التلمودين الأورشليمي، والبابلي، والمشنا هي إعادة تحرير، أو تفسير لتوراة موسى، وقد قام علماء اليهود في فلسطين بتفسير المشنا وهذا التفسير دعي بالجمارا، وبذلك تشكل التلمود الأورشليمي، أو الفلسطيني، كما قام العلماء اليهود في العراق بتفسير المشنا وبذلك تشكل التلمود البابلي.

ويُعَدّ التلمود حالة وسيطة بين التوراة والحياة، أي هو الذي يمثل التوراة الراهنة التي يمكن لها أن تشرّع لما يستجد في الحياة ولم تنص عليه التوراة المدونة، وللتلمود من القدسية ما للتوراة، بل إن اليهود يُعَدّون التلمود هو التوراة الشفوية، والتي كان قد أملاها الرب يهوه على موسى، ومنه انتقلت شفويا إلى يشوع، ومنه إلى القضاة أو الشيوخ الذي كان آخرهم صموئيل، ومنه انتقلت التوراة الشفوية إلى الأنبياء في عهد المملكة المتحدة، ثم أنبياء المملكتين، والذين منهم تم نقل التوراة الشفوية إلى رجال الكنيس في السبي وما بعده، ومنهم إلى الكتبة (السفريم)، وهم يشكلون جزءاً من الفريسيين، الذين دونوها في كتاب التلمود، وتم توثيقه في القرن الثاني الميلادي، وهناك شبه إجماع على أن من كتب المشنا هو يهوذا الناسي، وهناك من يذهب إلى أن التلمود بدأ بكتابته عزرا في بابل، وقد شارك في كتابته نحو سبعة آلاف كاتب من الأحبار، والمثقفين، أما تاريخيا فتعود كتابة التلمود إلى ثلاث مراحل:

التلمود الأورشليمي أو الفلسطيني: وبدأ بكتابته يوحنا بن زكاي بالقرب من يافا بعد سقوط القدس في القرن الميلادي الأول، ويضم اثني عشر مجلدا.

التلمود البابلي: وهو التلمود الأساسي، وكتب في العراق نحو سنة ٢٢٠ للميلاد، ويضم ٦٣ مجلداً.

وقد انتهى اليهود من كتابة التلمود سنة ٥٥٠ للميلاد، وذلك بعد أن تم تحقيقه بما لا يتعارض مع تعاليم التوراة، ومن النقاط الملفتة للنظر في التلمود، هو إبراز احتقار اليهود للنساء، فهن «شرهات، ومتصنتات وكسولات وغيورات، وهن أيضا كثيرات الشكوى وثرثارات»، «أنزل الإله عشرة مكاييل من الكلام للعالم وأخذت النساء تسعة».

أما النقطة الثانية المميزة في التلمود فتتمثل في عودة اليهود ثانية إلى تجسيد الرب يهوه، على عكس ما كان الفريسيون عليه في البداية، وعلى عكس ما أتى به الأنبياء الكبار في التوراة الذين حاولوا أن يطوروا الرب نحو المطلق من خلال تجريده.

والنقطة الثالثة الملفتة للنظر في التلمود هي التعبير الصارخ عن العقلية العنصرية، والشوفينية، والحقد، والضغن، والعداء والاحتقار اليهودي لكل الشعوب (الأميين)، والحضارات، والأديان، وبخاصة ضد الدين المسيحي، وضد الشعب الكنعاني، فعلى الرغم من انتهاء الصراع اليهودي الكنعاني، فإن اليهود لم ينسوا أن يسجلوا أحقادهم التاريخية ضد الكنعانيين في التلمود، بحيث شرّع التلمود لليهودي أن يقتل كل إنسان غير يهودي لأنه ربما كان متحدّراً من القلة من الكنعانيين الذين لم يستطع الحقد اليهودي أن يبيدهم حسب ما جاء في التلمود، كما أن التلمود أباح لليهود ما لم تبحه التوراة من قتل وسرقة وربا وغش، وعمل جميع أنواع الفواحش في التجسين (غير اليهود - الغوييم - الأميين)، وهي من المفاهيم التي رسّخها التلمود عند اليهود، والغوييم، أو الأمي تعبير يشير إلى الجاهل، غير المتحضر، ثم استخدم هذا التعبير للدلالة على كل من لا يعرف القراءة والكتابة:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف: ١٥٧.

والجدير ذكره هنا أن العرب لم يكن لديهم أدنى فكرة عن التلمود حتى العصور الحديثة، فقد كان اليهود يحرصون على أن لا تطلع الأمم على هذا الكتاب لما فيه من عنصرية، وكره، وحقد على الشعوب جميعا، وبالأخص على المسيحيين منهم لما فيه من إساءات فظيعة للمسيح، والمسيحية، هذا من جهة، ومن جهة ثانية كان اليهود يذهبون - بعقلية عنصرية - إلى أنهم قدّموا للبشرية التوراة، وأن عليهم أن يحافظوا على التلمود لأنفسهم

فحسب، ولذا فقد كانوا يُعَدّون التلمود العاصمة الخاصة بهم، بعد أن أصبحت التوراة مرجعا يهوديا، ومسيحيا، ومن هنا فقد قام التلمود بالحفاظ على اليهودية في زمن الشتات، وهو الذي استطاع أن يعاكس التأثير السلبي للتهود من جهة، وخروج اليهود من الحظيرة اليهودية نحو الأديان الأخرى وبالتحديد المسيحية من جهة أخرى، وبذلك وعلى الرغم من أن اليهودية أصبحت دينا شعوبية فقد ساهم التلمود إلى درجة ما ببقاء الشعب اليهودي، أو الأمة، أو القومية اليهودية (مع التحفظ على كلمة الأمة، والقومية والتي لا أقصد من خلالها البعد الإرثي الأثني في هذه الكلمة) لها خصوصيتها ومميزاتها، بل إن التلمود هو من وطّد لدى اليهود مفهوم أنهم أمة واحدة ويجب الحفاظ على مقوماتها، وبذلك فعلى الرغم من شتات اليهود فقد حاولوا ما استطاعوا أن يبقوا كما لو أنهم كتلة واحدة.

- المذهب الصدوقي:

يُعَدّ المذهب الصدوقي ثاني أكبر الطوائف الدينية السياسية بعد المذهب الفريسي، والذي يعود إلى بيت صادوق (وهو الكاهن صادوق الذي عاصر الملك سليمان)، ويعود أغلب أتباعه إلى الجماعات الغنية الأرستقراطية، وأصحاب السلطان والنفوذ (الأشراف) من اليهود، وكان أعضاء هذا المذهب على وفاق مع السلطة الحاكمة، وكان نفوذهم السياسي أقوى من نفوذهم الديني.

تعود بدايات هذا المذهب إلى مرحلة ما بعد السبي، وتحديدا إلى المرحلة الميكابية، وقد تصدّر هذا المذهب الواجهة السياسية في عهد يونثان، وفي عهد رئيس الكهنة يوحنا هيركانوس (١٣٥ - ١٠٤ق.م) الذي كان ميالا ومواليا للفريسيين، وأصبح مواليا للصدوقيين وبذلك أصبح الكهنوت مرتبطا بالصدوقيين، وقد تحالف الحشمونيون سياسيا مع الصدوقيين الأرستقراطيين، ولم ينقطع هذا التحالف إلا على عهد سالومي ألكسندرا التي تحالفت مع الفريسيين حسب وصية زوجها، ولكن بعد موتها، وانفجار النزاع على السلطة بين ابنيها، وقف الصدوقيون مع ارسطوبولس الثاني ضد أخيه هيركانوس الثاني الذي وقف الفريسيون إلى جانبه، وانتهى هذا الصراع بوصول جيوش روما سنة ٦٣ قبل الميلاد، التي عينت أرسطوبولس الثاني رئيسا للكهنة، كما وقف الصدوقيون إلى جانب ابنه أنتيجونس ضد عمه هيركانوس الثاني سنة ٤٠ قبل الميلاد، وبعد استيلاء هيرودوس على السلطة قام بالانتقام من أنصار أنتجونس، وكان على رأسهم الصدوقيون، وقد قام هيرودوس بإضعاف سطوتهم، خاصة وأنه حجّم أيضا دور السنهدرين، ولكن بعد أن عادت يهودا ولاية رومانية

سنة ٦ للميلاد استرجع الصدوقيون شيئا من سطوتهم تحت رقابة الوالي الروماني، وفي النهاية انتهى وجودهم بتدمير الهيكل سنة ٧٠ للميلاد، في الوقت الذي استطاع المذهب الفريسي الاستمرار من خلال الحاخامات الربانيين.

كان المذهب الصدوقي أشد تعصبا ليهوديته، وكان يُعَدّ الحزب المحافظ في اليهودية، ومن هنا فقد قاوم الغزو الفكري للفلسفة اليونانية، ولكنه تأثر بعض الشيء بالفلسفة الهيلينية بشكل عام، والأبيوقورية بشكل خاص، وتمسّك بالشريعة الموسوية التوراتية فقط، على عكس المذهب الفريسي الذي تمسك بالشريعة الشفوية، والمذهب الصدّوقي ساهم بتشكيل جمع السنهدرين، وكان له ٢٠ عضوا تقريبا، وكانت رئاستهم من عائلة هليل لمدة ثلاثة قرون، والسنهدرين هو الذي قام باستصدار حكم الصلب على السيد المسيح عيسى ابن مريم سنة ٢٩ للميلاد حسب التأريخ المسيحي.

وقد أنكر المذهب الصدوقي وجود القضاء والقدر، واللوح المحفوظ، وذهب إلى أن الإنسان مسؤول بشكل كامل عن أفعاله، أي بمعنى أن الإنسان مخير، وله حرية التصرف، وبذلك فإن الخير والشر هما نتاج الإرادة الإنسانية الحرة، ومن هنا جاء تشديد هذا المذهب على تعزيز دور القيم الأخلاقية التي تدعوا إلى السلم، والمؤاخاة في العلاقات الإنسانية، كما أنه لم يتبن فكرة شعب الله المختار، وأنكر يوم القيامة والبعث والحياة الأبدية والعقاب والثواب، والنفس الخالدة، فالنفس تموت بموت الجسد، كما أنكر هذا المذهب وجود الملائكة والشياطين، وكان يذهب إلى أن الحياة مادية، ويجب أن تقوم العلاقات الاجتماعية على أساس ذلك، الأمر الذي جعل هذا المذهب يبدو وكأنه مذهبا إلحاديا، على الرغم من أنه قائم على الإيمان بوجود إله كوني شامل مجرد، وعلى الرغم من أن هذا المذهب لا يؤمن بفكرة المسيح المخلص، إلا أن أتباع هذا المذهب كانوا على علاقة طيبة مع المسيح، أو على الأقل لم يناصبوا السيد المسيح العداء كما كان الأمر بالنسبة للمذهب الفريسي، كما أن هذا المذهب لم يعترف بالتوراة الشفوية (التلمود)، ولم يعترف سوى بأسفار موسى الخمسة.

والصدوقيون على اعتبار أنهم كهنة فقد ارتبطوا بالهيكل، وكانوا ينعمون بالضرائب والنذور والهدايا، وهذا ما جعلهم طبقة ارستقراطية وراثية، وقد عملوا كطبقة وظيفية استغلت اليهود لمصلحة الإمبراطورية الحاكمة (الهيلينية، ثم الرومانية)، وقد اختفوا باختفاء الهيكل سنة ٧٠ للميلاد، ويذهب البعض إلى أن فرقة القرائين التي تشكلت في بغداد في العصر العباسي في أواخر القرن الثامن ميلادي (أحدث الفرق اليهودية وأقلها)، والتي اشتهرت في زمن الخليفة أبي جعفر المنصور، وكان أشهر قادتها هو الحبر عنان بن داود، ولذا فقد

كانت تعرف أيضا بالعنانية، هي إحياء للمذهب الصدوقي، والقراؤون لا يؤمنون إلا (بالمقرا) أي الكتاب المقدس (التوراة).

- المذهب الأسيني (المغتسلون أو الزاهدون أو المتنورون):

وهو المذهب الذي زوّج اليهودية بالمذهب أو الفلسفة الفيثاغورثية، والذي طعم اليهودية بالزهد، وأخذ من الفلسفة الغنوصية الحب والمحبة شعارا، متأثرا بالمذاهب الرواقية، والكلبية الهلنستية، كما وتأثر بالعقائد الهندية (البراهمة والبوذية)، وكان أتباعه يعتقدون أن الإنسان يخضع لقوتين متنافستين هما قوة الخير التي يمثلها (أمير النور)، وقوة الشر التي يمثلها (أمير الظلام)، وهذا المذهب يبدو من هذه الزاوية كما لو أنه من العقائد الثنوية، كما هو الأمر بالنسبة للديانة الزرادشتية، كما أن أتباع هذا المذهب كانوا يدعون إلى السلام وينبذون العنف، ويلتزمون بالفضيلة، كما أنهم كانوا شديدي الإيمان بالملائكة والأرواح، وبالقضاء والقدر، وأن الله هو المتصرف الكلي بالأمور، وهو فقط صاحب المشيئة التي تدير كبائر، وصغائر الأحداث، كما آمنوا بعقيدة الخلود.

ولأن هذا المذهب اهتم بروح الدين، لذا فلم يهتم، بل ورفض، أداء الطقوس، والشعائر الدينية الموسوية، ورفض القسم، وتقديم الذبائح والقرابين، كما أنه رفض الملكية الفردية، وحمل أفكارا اشتراكية، فكان على المريد أن يتخلى طواعية عن ممتلكاته لمصلحة الجماعة التي يتم اختيار قادتها بالانتخاب وبشكل تراتبي، ضمن تنظيم هيكلي دقيق، وكانوا يطلقون على رئيسهم لقب معلم العدالة.

وكان أعضاء الجماعة يعيشون، ويأكلون مما يزرعون، ومما يربونه من الماشية، بشكل جماعي، كما أنهم أقروا مبدأ المساواة بين الأمم والشعوب، وعارضوا نظام الرق والاستعباد بشدة، وبذلك رفضوا فكرة شعب الله المختار، وحرّموا على أنفسهم العمل بالتجارة لأنها تمتاز بالإثم والجشع، كما أنهم حرّموا صناعة السلاح، ودعا هذا المذهب إلى الزهد والتقشف واعتزال النساء وشرب الخمر وأكل اللحم، كما أنهم كانوا يمارسون الطب، وأعمال السحر والتنجيم، كما أنهم كانوا يهتمون كثيرا بالطهارة الجسدية الشخصية، وقد اشتهروا بلباسهم الأبيض الأنيق، واهتمامهم بتهذيب شعورهم، وكان لهم طقوسهم الخاصة في الوضوء، وكانوا يقومون بالصلاة ثلاث مرات في اليوم، أولها عند شروق الشمس (صلاة الأسلاف)، وهم الذين أوجدوا فكرة التعميد بالماء، وكان يوحنا المعمدان (النبي يحيى)، والذي كان يعيش حياة تقشف كما هو حال الطائفة الأسنية، يعمّد من يشاء

بمياه نهر الأردن، على اعتبار أنه النهر المقدس، ويُعتقد أن يوحنا المعمدان، ويسوع الناصري كانا من أتباع هذا المذهب الذي شكّل فراش، أو نواة المسيحية الأولى، والجدير ذكره أن النبي يوحنا كان قد ادعى في البداية أنه المسيح، ولكن خوفه من السلطة السياسية والدينية جعله يدعي أنه المبشر بمجيء المسيح.

وإلى المذهب الأسني، وحسب رأي الأكثرية من الباحثين، تعود مخطوطات البحر الميت التي تم اكتشافها في كهوف قمران بالقرب من البحر الميت في منتصف القرن المنصرم، ولكن ما جاء في تلك المخطوطات لا ينطبق تماما على ما جاء به من تعريف لهذه الجماعة من قبل المؤرخين مثل يوسفوس (٣٧ - ٩٦م) الذي عاصر وجودهم وانتشار مذهبهم، فقد أُكتشف أن من بين جماعة قمران كان هناك نساء وأطفال، كما أن نصوص قمران كانت تتحدث عن الأنظمة والقوانين التي تحكم الزواج والطلاق، وكانوا يقومون بصناعة السلاح، وأيضا كانوا يأكلون اللحم، ولذا فإن بعض الباحثين يعتقدون أن الأسينيين ليسوا هم جماعة قمران.

ومما جاء في قصاصة غير مكتملة من وثائق كهوف قمران أن على أعضاء الجماعة التقيد بشريعة موسى حتى «مجيء النبي ومسيح هارون وإسرائيل»، وهذا يشكل صدى لما جاء في سفر التثنية من حديث ليهوه إلى موسى «إني أقيم لهم نبيا من بني أخوتهم مثلك، وأجعل كلماتي في فمه، فيكلمهم بكل ما آمره به» التثنية ١٨ : ١٨-١٩، كما جاء في أعمال الرسل في العهد الجديد «فإن موسى قال للآباء إن نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من أخوتكم».

وأيضا هذا هو موسى الذي قال لبني إسرائيل: «نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من أخوتكم».

وهنا لي أن أطرح سؤلا مفتوحا على احتمالاته، ما المقصود، أو من هم أخوة بني إسرائيل الذي سيقيم الرب منهم نبيا مثل موسى..؟!

ويمكن للباحث أن يعتقد أنه فيما بين موت هيرودوس الكبير، وبين سقوط أورشليم على يد الرومان، قد ظهرت عدة شخصيات ادعت أنها المسيح، وكان أشهرهم هو يسوع الناصري، وقد تم تجميعهم أو توحيدهم في شخصية يسوع الناصري، وحسب اعتقادي فإن المسيح النصي الإنجيلي تم تحريره من قبل أعضاء هذه الطائفة بعد تفرق شملها، إثر سقوط مدينة أورشليم سنة ٧٠ للميلاد، وقد عرف أتباع هذا المذهب، بعد تدمير الهيكل، بالمسيحيين اليهود، أو الأبيونيين.

ويبدو أن مخطوطات كهوف قمران، والتي يعود أقدم نص فيها إلى القرن الثالث قبل الميلاد، لديها الكثير من الحقائق حول بدايات المسيحية، والتي تتعارض مع ما هو متعارف عليه من قبل الكنائس المسيحية، وأنا لا أستبعد أن تجيب، أو توضح تلك الوثائق ما جاء في القرآن الكريم حول صلب المسيح الذي (شبه لهم)، ومن أجل ذلك، وبعد مضي نصف قرن على اكتشاف تلك الوثائق، لم يتم نشر إلا القليل من الوثائق، كما أن ملابسات نشرها، توضح أن هناك حقائق في تلك الوثائق لا يمكن البوح بها، لأنها تتعلق بجوهر الإيمان المسيحي من جهة، وبتاريخية مراحل تدوين التوراة.

ويمكن أن نضيف إلى المذاهب السابقة:

- **الحسيديون (الأتقياء):** وهم الذين شكلوا فرقة شكلت النواة الأولى للفريسيين، وشاركت في التمرد اليهودي الحشموني على السلوقيين، وهم يشبهون إلى درجة ما الأسينيين، ويعتقد أنهم ذابوا فيهم بعد التمرد الحشموني، وبعد انشقاق الفريسيين عنهم، على الرغم من أنهم على خلاف الأسينيين لم يكونوا معتزلين، بل كانوا يشاركون في الحياة العامة، ولكنهم كانوا يشبهونهم من حيث طقوس الطهارة، وتقديم القرابين، ومن حيث النظرة الإنسانية الشمولية، والمساواة بين البشر، كما كانوا يدعون إلى السلم، والسلام في العالم، والمساوة بين البشر، وكان لديهم ميل لبث الروحانية في اليهودية التوراتية المادية، كما كان لديهم أفكار اشتراكية كما هو الأمر لدى الأسينيين.
- **الغيوريون:** أو المتحمسون لله، ويُعَدّهم البعض جناحاً سياسياً عسكرياً متطرفاً من المذهب الفريسي، وقد تشكلت هذه الفرقة على يد الجليلي يهوذا في السنة السادسة للميلاد، وكانوا يُعَدّون أنفسهم استمرارا للتراث المكابي، وأن هدفهم السياسي والعسكري هو التحرر من الوجود الروماني، وقد قاموا أو كان لهم اليد الطولى بالتمرد اليهودي سنة ٦٦ للميلاد بقيادة مناحم الجليلي زعيم عصبة الخناجر، وهو الجناح الأكثر تطرفا للغيوريين، وكانوا آخر من استسلموا في قلعة ماسادا سنة ٧٣ للميلاد بقيادة أليعازر بن جابر (أو بن يائير)، بقيامهم بانتحار جماعي على ذمة المؤرخ اليهودي يوسفوس.
- **الهيريديون:** (نسبة إلى هيرودوس ملك اليهود الأدومي في العهد الروماني) وهي فرقة سياسية تمثل تيار الاندماج مع الرومان.
- **الجليليون:** وهم أتباع يهوذا الجليلي الذي قال إن لا ملك لليهود سوى الله.

- السامريون:

يوجد شبه إجماع على أن السامريين يعودون إلى مزيج من الشعوب التي قام الآشوريون، في عهد سنحاريب باستقدامهم من بابل وسوريا وعيلام (أفغانستان)، وقاموا بتوطينهم في منطقة السامرة التي لم يتبق فيها من الشعب سوى القليل بعد أن قام الآشوريون بسبيهم، وتوطينهم بالتبادل مع شعوب أخرى، وقد اندمجت تلك الجماعات فيما بينها، واعتنقت اليهودية في تشكيلها الكنعاني، أو بالأحرى اعتنقوا العقيدة الإسرائيلية، أي قبل تطورها البابلي، والبعض يعتقد أن السامريين يعودون فقط إلى من تبقى من الشعب الإسرائيلي بعد السبي الآشوري سنة ٧٢١ قبل الميلاد، والبعض، ومنهم فيليب حتي، يعتقدون أن السامريين تشكلوا من مزيج، أو خليط ممن تم استقدامهم من أقاليم المملكة الآشورية، مع من تبقى من الإسرائيليين في منطقة السامرة.

وكان المؤرخ اليهودي يوسف فلافيوس، قد أنكر على السامريين يهوديتهم، كما روى يوسفوس أن من بين من عادوا في الدفعة الأولى من السبي البابلي مع زربابل كان من بينهم ٦٥٢ شخص ادعوا أنهم إسرائيليون، أي سامريون، ولكن، ولأنهم لم يستطيعوا أن يقدموا برهانا على ذلك فلم يعترف بهم على أنهم يهود، من قبل الكهنوت اليهودي، وقد أطلق عليهم اليهود لقب الكوشيم (الكوشيين) بعد العودة من السبي، كما أطلقوا هذا اللقب على المسيحيين أيضا، وكانت التوراة قد جعلت من الكوشيين من نسل كنعان بن حام، وهذا يعني أن السامريين، الذين هم بقايا بني إسرائيل، أو بقايا المملكة الشمالية التي كانت قد دمرت على يد الأشوريين، كانوا كنعانيين، وهذا يعني أن إسرائيل كانت كنعانية، وهو ما كنت قد ذهبت إليه.

وقد تمرد السامريون في العهد اليوناني، قبل الحكم الميكابي، على السلطة الدينية المهيمنة المتزمتة في أورشليم، ونقلوا مكان عبادتهم إلى عاصمتهم الدينية القديمة على جبل الجرزيم، وقاموا ببناء هيكل مقدس عليه، وقد دمرته الأسرة الحشمونية بعد رفض السامريين الانضمام إلى ثورة باركوخبا سنة ١٣٢ للميلاد، وعادوا مرة أخرى وبنوه بموافقة روما، وقد استمر السامريون في تواجدهم إلى أن تم طرد أكثرهم من مقرهم على جبل جرزيم حول هيكلهم المقدس الذي تم تهديمه بعد ثورتهم في عهد الإمبراطور الروماني زينو (٤٧٤ - ٤٩١م)، كما تعرضوا إلى الاضطهاد البيزنطي الأمر الذي قادهم إلى القيام بثورة ثانية في زمن جوستيان الذي نكّل بهم وأنهى وجودهم سنة ٥٢٩ للميلاد، واستطاع أن يهرب

ما تبقى منهم نحو إيران، وهناك اعتنق أكثرهم المسيحية، وحسب اعتقادي فقد هاجر البعض منهم إلى منطقة الحجاز، وقد كان لهم، إلى جانب الأسنيين، أثر كبير ومهم في التصور الإسلامي!، وقد عاد بعض السامريين إلى مدينة نابلس بعد الفتح العربي لفلسطين، وقد قاموا بمساعدة المسلمين في عمليات الفتح العربي للمنطقة، كما أنهم وقفوا إلى جانب المسلمين ضد الغزو الصليبي، والآن لم يبق منهم أكثر من ٢٠٠ شخص ما زال اليهود ينظرون إليهم بعين الريبة.

وأعضاء هذه الطائفة لا يؤمنون إلا بالأسفار الخمسة (التوراة)، وأيضا بسفري القضاة ويشوع، وما زال لديهم نسخة مخطوطة من التوراة يدّعون أنها تعود تاريخيا إلى ما قبل المسيح، وقد تم اكتشاف نص يتطابق مع التوراة السامرية في الكهف الرابع من كهوف قمران، والسامريون لا يؤمنون بأي نبي بعد موسى ويشوع، كما أنهم لا يؤمنون ولا يعترفون بداود وسليمان، ولا يكنّون لأورشليم ولجبل صهيون أي قدسية، والبعض منهم ينفي عن نفسه صفة اليهودية، وقد جعلوا من جبل الجرزيم - الذي حسب اعتقادهم هو المكان الذي حاول إبراهيم أن يقدم ابنه قربانا للرب - مكانا لسكنى الرب يهوه، وهم يدّعون أن جبل جرزيم هو بيت إيل المكان المقدس عند الآباء الأوائل، كما يذهبون إلى أن موسى كان يتوجه بصلاته إلى بيت إيل «على جبل الجرزيم»، وقد بقي كذلك حتى غيره داود، وهو المكان الذي سيعود إليه المسيح المنتظر، كما يرون أن أنبياء اليهود الذين جاؤوا بعد يشوع هم الذين غيروا في الدين اليهودي (الإسرائيلي) الحقيقي، كما أن السامريين يؤمنون بأن الله واحد، وقد تبنوا جزءاً من الشهادة الإسلامية (أشهد أن لا إله إلا الله)، كما أنهم يؤمنون أيضا بيوم القيامة، وبالملائكة، والمذهب السامري شديد القرب من المصدر التوراتي الألوهيمي.

- المذهب القبالي:

يعود هذا المذهب إلى مرحلة الشتات اليهودي، ولكن، ولأنه المذهب العقيدي التصوري الوحيد الذي برز في مرحلة الشتات، ولأن جذوره الأولى تعود إلى العهد اليوناني، فقد آثرت إدخاله في هذا الموقع.

تمثل القبالة المذهب أو العقيدة الغنوصية الصوفية لليهودية، واليهودية تُعَدّ آخر الأديان التي أدخلت الصوفية في تصوراتها الدينية، وقد بدأ هذا المذهب باندخاله في اليهودية بتأثير الديانة الزارادشتية، في العهد الفارسي، ثم تطور بتأثير من الفلسفة الغنوصية اليونانية في العهدين اليوناني، والروماني، ثم تطور في العهد العربي في الأندلس، ثم برز كتيار مستقل في

مرحلة الشتات اليهودي، وبالتزامن مع النهضة الأوروبية، إلى أن هذا التصور لم يندخل، ويمتزج في مسام اليهودية، بل شكّل طبقة مستقلة في العقيدة اليهودية الجغرافية، وقد وقف هذا التصور مقابل، ومعاكس للتصور الطقوسي التلمودي.

والقبالة اليهودية عبارة عن مجموعة من الأفكار والطقوس والسلوكيات التي يعتقد معتنقوها أنها، أو بواسطتها يمكن معرفة الأسرار الكونية من خلال اندماج الإنسان، واتحاده مع عناصر الوجود على اختلافها، ويعتقد أتباع هذا المذهب أن الرب كان قد علّم أسرار القبالة إلى الملائكة، والتي بدورها علمتها، دون إذن وعِلْم الرب، إلى آدم بعد طرده من الجنة على أمل تخفيف معاناة الحياة عن البشر، ومن آدم انتقلت هذه الأسرار إلى نوح، ومنه إلى إبراهيم والذي، ودون قصد منه، علّمها للمصريين أثناء رحلاته إلى مصر، ومنهم أخذها موسى، ومنه ما زالت تتسلسل إلى يومنا هذا، وشعار القبالة اليهودية هو مجن (نجم) داود السداسية، والتي كانت قد أخذتها القبالة اليهودية عن فرقة القرائين اليهودية التي اشتهرت في بغداد في بداية العهد العباسي، وهي النجمة التي رفعتها الصهيونية شعارا لها، والتي كانت قد تأثرت كثيرا بالتصور القبالي اليهودي.

برز مذهب القبالة اليهودية بعد تشتت يهود المارانو من إسبانيا على يد المحاكم الكاثوليكية، ويُعَدّ كتاب الزهار الذي وضعه موسى الليوني (١٢٥٠ - ١٣٠٥م) أهم مصادر، ومراجع القبالة الحلولية الصوفية اليهودية التقليدية، وهو المذهب الذي ساهم في عودة الحمّى إلى الأفكار والمعتقدات المسيحانية الخلاصية، وكان أهم أتباع هذا المذهب الحلولي الغنوصي شبتاي زيفي (١٦٢٦ - ١٦٧٦م) الذي ظهر في مدينة أزمير التركية، ثم تم نفيه إلى بولونيا، ومات فيها، وجاكوب فرانك (١٧٢٤ - ١٧٩٤م) الذي ظهر في بولونيا، والذي اعتبره أتباعه أنه المسيح اليهودي المنتظر، وهو الذي انقلب على التلمود، وعلى العقلية، والتصورات التلمودية، بل ويمكن القول أن القبالة اليهودية ككل هي محاولة يهودية للالتفاف على التلمود، والعقلية التلمودية، فبينما تكفّل التلمود بتنظيم الجانب الديني الشعائري الطقسي لليهود، قامت القبالة بتنظيم حياة اليهود الروحية، وقد حققت القبالة انتشارا واسعا في الأوساط اليهودية في سياق القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي، وبخاصة عند الفقراء البسطاء من اليهود، ككل الحركات التصوفية الدينية، وقد بدأت القبالة بالاضمحلال، بعد بروز التيار الصهيوني السياسي، ولم يبق من أتباعها سوى حركة غوش أيمونيم.

لقد أحدثت التحولات السياسية، والاجتماعية، والفكرية الكبيرة والعميقة التي شهدتها الدول الأوروبية في عصر النهضة، أثرا كبيرا على حراكية الجماعات اليهودية، ولا

سيما على تاريخ الغيتو، والذي كان ينهار في مكان، ويبنى في مكان آخر، وترافق ذلك مع عدة عمليات طرد للجماعات اليهودية من بلد، ودخولهم إلى بلد أوربي آخر، مع بعض عمليات الاضطهاد التي تعرضوا لها في أكثر الدول الأوربية، من قبل السلطة حينا، ومن قبل الشعوب حينا آخر، والتي ترافقت مع بداية تبلور بعض التيارات القومية، والطائفية الأوربية التي لم تخلُ من بعض الشوفينية، الأمر الذي مزّق الجماعات اليهودية بين الحدود السياسية، والقومية في القارة الأوربية، وأدى إلى مزيد من إرباك التطور التاريخي اللاهوتي اليهودي، وهو الأمر الذي جعل اليهودي اللامنتمي إلى الزمكان الأوربي، واللامنتمي إلى الزمكان اليهودي (الديني)، يتأرجح على رياح قلقة لا يعرف في أي لحظة سوف تغّير وجهتها، ولا يعرف إلى أي مجهول سوف تأخذه، خاصة بعد أن عانت الجماعات اليهودية من حالة الانفراط البنيوي الأثني القبلي العشائري العائلي الاجتماعي التي نتجت عن حالة الشتات، والتشتت بين شعوب، ودول، ولغات، ومجتمعات متعددة، والتي أدت إلى حدثية معقدة في الأنا الجماعية اليهودية، أهمها حالة القلق التي كانت نتاج تمزق اليهودي بين تمسكه بالقيم الرابضة في عمق الأنا الجماعية اليهودية لمدة قرون طويلة، وبين الاندماج ضمن المجتمعات الغربية الغريبة، وهو الأمر الذي كان يُغرق اليهودي بمشاعر الإثم نتيجة انسلاخه الأثني، والثقافي، والأنطولوجي التي تربى عليها اليهودي في الكنيس التوراتي التلمودي.

وقد استجابت الجماعات اليهودية إلى هذه التغيرات بأكثر من نمط، وطريقة، ولكن يمكننا أن نقسّم يهود الشتات حسب استجابتهم، وتكيفهم مع المجتمعات الأوربية في مرحلة عصر النهضة الأوربية إلى ثلاث فئات، أو ثلاثة تيارات:

- **التيار، أو الفئة الاندماجية، التوفيقية:** وهذه الفئة حاولت أن تتكيف مع المعطيات، والتطورات التاريخية التي تعيشها الجماعات اليهودية بين المجتمعات، والدول الأوربية، وغالبية هذه الفئة هم من اليهود السافارد الذين كان جلّهم ينتشرون في أوربا الغربية، والذين انخرطوا في النشاطات الاجتماعية في المجتمع الأوربي المسيحي، كما حافظوا على يهوديتهم، وتمسكوا بشعائرهم الدينية إرضاء، أو استرضاء، أو إلهاء، أو تخديرا للضمير الجمعي، أي بمعنى ما فقد تمسّك اليهودي الاندماجي بالطقوس والشعائر الدينية كي يوطّد هويته الأثنية الدينية خوفا من تماديه في الاندماج، وخوفا من انفراط هويته واندماجه في المجتمع المسيحي الأوربي، أي بتعبير ما إن ممارسة اليهودي الاندماجي للشعائر الدينية اليهودية بصيغته التوراتية التلمودية لم تكن تتأتى من قناعات دينية لاهوتية، بل كانت تمثل تمسكا بفلكلور جماعته الأثنية التي ينتمي إليها، وقد استطاعت هذه الفئة المتنورة من تحقيق عدة

نجاحات على كل الأطر السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، والفكرية، حيث برز منهم عدة علماء، ومفكرين، ومبدعين، وساسة، ورجال مال.

- **التيار، أو الفئة التلمودية الحاخامية المتطرفة:** وهذه الفئة كان لها اليد الرئيسية في بناء الغيتو في أوربا الغربية، والشرقية، وقد حاول هذا التيار، أو هذه الفئة أن تتمسك بالغيتو، وتحافظ على جدرانه عالية وسميكة في المدن الأوربية أيضا، وغالبية هذه الفئة هم من اليهود الأشكناز في أوربا الشرقية، والذين هاجروا إلى أوربا الغربية، وبأعداد مميزة، في نهاية القرن التاسع عشر للميلاد، وهم الذين كانوا وراء بروز ما سمّي (بالمسألة اليهودية).

وهذا التيار كان يقف وراءه رجال الدين الحاخاميين، لا سيما المستفيدين ماديا، ومعنويا من تطبيق الشريعة اليهودية، والتي تحتاج إلى أن يتكوثر اليهود في جماعات من أجل الوصول إلى النصاب الذي يتطلبه إقامة الكثير من الطقوس والشمائر الدينية اليهودية، كما أن أتباع هذا التيار كانوا حراس التوراة، والتلمود، والمعبد، و (النحن) اليهودية المهددة بالانفراط في وسط أغلبية أثنية، ودينية مختلفة، وهذا التيار هو الذي قاد الجماعات اليهودية منذ بداية الشتات، وازداد بروزا بعد تصاعد التصور القومي الديني الأوربي، الأمر الذي جعل اليهود يشعرون بمزيد من التمسك باليهودية الدينية والأثنية، وخوفا من تمادي بعض اليهود المتنورين من الانسلاخ عن اليهودية، والاندماج مع المجتمعات الأوربية المسيحية، وهو الذي ساهم، مع المذهب القبالي، بتشكيل الصهيونية اليهودية.

ولم يألوا أرباب هذا التيار الكثير من الجهود في مسعاهم الذي نجحوا فيه، فعلى الرغم مما عرف عن الشخصية اليهودية من سرعة انزراعها، في الطبقة الاقتصادية للمجتمعات على اختلافها، إلا أنها كانت شخصية صلبة متكلسة على تصوراتها، وعلى قيمها ومعتقداتها وفلكلورها الأثني الديني، لا سيما وأنها شخصية لا يمكن لها أن تتخلى عن عقيدة شعب الله المختار التي كانت تجعل من هذه الشخصية اليهودية شخصية صلبة، قليلة المطاوعة، سيئة التكيف في جانبها الاجتماعي.

- **التيار، أو الفئة القبالية:** وهو التيار، أو المذهب الوحيد، أو العقيدة الوحيدة الأهم التي انفرزت عن اليهودية في سياق مرحلة الشتات الطويلة، وهذه الفئة تمثّل الوجه الآخر، والنقيض للتيار التلمودي، وقد برزت الظاهرة الصوفية القبالية في اليهودية بعد بدء سقوط جدران الغيتو، وكما أن الخوف من الانسلاخ الديني، الأثني الثقافي، قد ساهم في بروز التيار التلمودي، فقد ساهم أيضا بتشكيل، وبروز التيار الصوفي القبالي اليهودي، لا سيما بعد أن بدأ اليهودي يتشكك بعقيدة شعب الله المختار، بل بدأ الشك يساوره بأنه ليس سوى نمط من

أنماط الدون كيشوتية، وهو الأمر الذي جعل بعض اليهود يرفضون العقلية التلمودية، ويلتجئون إلى القطب الآخر، وهو قطب الصوفية، الذي يمثل طريقة سلبية انسحابية انهزامية للتمركز حول الأنا الفردية، والجمعية التي انكفأت على ذاتها، وحاولت أن تجد حلولا خلاصية استسلامية في زمكانها.

وهذا التيار الصوفي القبالي برز، وتبلور عند الجماعات اليهودية السفاردية، وتحديدا في الأندلس في سياق العهد العربي، ولكن، وبعد أن طرد اليهود من شبه جزيرة أيبيريا من قبل محاكم التفتيش الكاثوليكية، وانتشروا في أوربا الغربية، وفي أقاليم الإمبراطورية العثمانية والتي كانت تضم إليها بعض الأقاليم التي تتواجد فيها جماعات يهودية أشكنازية، فقد انضم بعض اليهود الأشكناز أيضا إلى هذا المذهب.

وقد كان للأزمة النفسية التي تعرض لها يهود الأندلس (المارانو) بعد أن تم طردهم من (فردوسهم المفقود) في الأندلس، وانتشارهم، بل وتشتتهم في جغرافيا جديدة، أثر كبير في تبلور وانتشار هذا المذهب، حيث تعرضت تلك الجماعات إلى تجاذبات وتنافرات فيما بينهم، وبين المجتمع الغربي المسيحي، وهو الأمر الذي أدى إلى حالة قلق، وعدم استقرار استشعرت بها الأنا اليهودية، والتي لا ينقصها المزيد من التورمات التي تأتي من عقيدة شعب الله المختار، مما اضطر بعض اليهود إلى الانكماش، أو ما يمكن تسميته بالانعزال الدفاعي، وتشكيل جماعة صوفية يهودية.

وهكذا، فبينما استطاعت الأغلبية من تلك الجماعات اليهودية (المارانو) من الاندماج في المجتمع الغربي المسيحي، لم يجد بعض اليهود القباليين سيئوا التكيف سوى الانكفاء على ذاتهم، للوصول إلى حالة من التوازن في داخل الذات اليهودية، التي كانت تواجه حينها تغيرات النهضة الأوربية، والتبدلات الفكرية التي تمخّضت عنها، أي أن القبالة هي في جانب منها حالة استرضاء ما بين الذات اليهودية المهزومة، وما بين الموضوع الأوربي المستبد، أي هي حالة تجاوزت فيه تلك الجماعة الإقرار بالهزيمة الذاتية من أجل الحفاظ على المكونات النرجسية في الذات اليهودية، كما أنها تمثل حالة هروب من الإقرار بالهزيمة الزمكانية التاريخية أيضا، مع الحفاظ على الممكن من الكرامة، فبعد أن بلغ بعض اليهود مرحلة من اليأس في أن يأتي المستقبل لهم بمسيحهم المنتظر، ويخلصهم من معاناتهم الجديدة، التي تشكل حلقة في سلسة المعاناة والاضطهادات التي تعرض لها اليهود في مرحلة الشتات، وبعد أن عانى ما عاناه اليهودي نفسيا، وجسديا من عمليات الطرد المتلاحقة، في غير مكان، وغير زمان، قرر أن يجد حلا لهذا الرفض الزمكاني، بأن يدخل

في المطلق، متخليا دفعة واحدة عن كل ذكرياته للزمن الماضي التوراتي، بمعناه التاريخي، الذي عاش فيه الآباء الأوائل، وعن كل أحلامه في المستقبل التي سيوصله إليها المسيح اليهودي المنتظر بمعناه التاريخي.

وهكذا فقد حاول اليهودي القبالي من خلال طقوسه، وصلواته الصوفية فتح ممر مع المطلق، مكان من شأنه أن يقوم بتفريغ الشحنات النفسية من خلال الجهاز ما قبل الشعوري، وتصريف الانفعالات النفسية، التي تغص بها مسام روحه بسبب ما يتعرض له من اضطهادات جسدية، ونفسية من قبل الأوربي، وبذلك فإن اليهودي القبالي قام بالهروب من الحضور الشامت، ومن الماضي الجافر، ومن المستقبل الذابل، بخروجه، أو هروبه، أو عروجه من الزمكان المادي التاريخي المحدود إلى الزمكان المطلق اللامتناهي باتحاده بعناصر الوجود.

وقد جعل القباليون من طقوسهم الصوفية كنيسا روحيا ليهودية الشتات، كما أنهم شكلوا (العهد الحديث) مع الرب، في الوقت، وعلى الجانب المقابل، قام اليهود التلموديون بتغييب الحضور الشامت من خلال استحضار الغياب الذي تمثله الذكريات كما يتخيلونها، أو كما أتت في التوراة (الفردوس المفقود)، والتي هي نفسها تمثل الأحلام والأمنيات اليهودية، وقد حافظ التلموديون على هويتهم الدينية اليهودية من خلال الكنيس التوراتي التلمودي، على الرغم من شعورهم بالبون الشاسع ما بين الواقع الذي يعيشونه في شتاتهم، وما بين ذكرياتهم الدينية، وتطلعاتهم الدينية المسيحانية اليهودية الخلاصية التقليدية والتي لم تذبل على الرغم من مرور الزمان الطويل، وهذا الكنيس التلمودي الشتاتي قام بدور يماثل الدور الذي قام به كنيس عزرا في مرحلة السبي البابلي.

تُعَدّ العقيدة القبالية نمطاً خاصاً من أنماط العقيدة المسيحية الخلاصية، كما تشكل استجابة لحالة اليأس من مجيء المخلص، لا سيما بعد أن فشلت اليهودية التلمودية من استدراج المسيح التاريخي المخلص، على الرغم من كل تلك المعاناة اليهودية، ومن هذا اليأس والإحباط، ومعالجة له لجأ البعض من اليهود إلى العقيدة الصوفية هاربين من الحاضر المتحول (هنا - الآن)، إلى الغائب الثابت المطلق، جاعلين من الصوفية مسيحا من نمط خاص يقوم على إعادتهم روحيا، لا ماديا إلى الزمكان المطلق، واتحادهم مع الرب في السماء، أي أن الصوفي اليهودي قام باستبدال فردوسه المفقود الزمكاني (إرتس إسرائيل)، بفردوس يمكن الوصول إليه من خلال تقمصه أو تحوله لمسيحه الخاص، بينما يتحقق لهم الخلاص الزمكاني التاريخي.

ومن هنا يمكن لنا أن نرى في القبالة اليهودية قمة السلبية في العقيدة اليهودية، بل هي تمثل المسيح السلبي الهارب الذي قام بقيادة اليهود المشتتين من الزمكان المادي إلى الزمكان المطلق، أي أن اليهودي القبالي لم يجد سوى النكوص، أو (الانتحار)، أو التلاشي في المطلق، بعد إطباق اليأس على أفاق الجماعات اليهودية في الشتات، وتطلعاتهم المستقبلية، وهذا يعني أن اليهودية الصوفية برخاوتها، تشكل حالة تقاطبية مع اليهودية التلمودية الصلبة، والتقاطب فيما يعنيه هو وجود فكرتين أو تصورين، أو مذهبين متناقضين، داخل الذات الفردية، حيث يستطيع الفرد أن يتبنى أو يتصّر لإحدى الفكرتين، وأن يرفض، وينبذ، بل ويشن هجوما عنيفا على الفكرة الأخرى، إلا أن هذا الإنسان التقاطبي، في حال تغيرت الظروف التي جعلته يتبنى الفكرة الأولى، فإنه ينكص على ذاته، ويتبنى الفكرة الثانية المتناقضة مع الفكرة الأول، وبذلك فهو الشخص الذي يحمل فكرتين متناقضتين في آن واحد، والقادر على كبت فكرة لمصلحة الفكرة النقيضة، بعد اختيارها بما يتلاءم والمرحلة النفسية، والفيزيولوجية، لدى الفرد.

كما تمثل الصوفية اليهودية حالة تقاطبية مع اليهودية الثورية التي عرف اليهود بها تاريخيا، لا سيما في المرحلتين اليونانية، والرومانية، أما في مرحلة الشتات فقد واجهت الجماعات اليهودية واقعا متكلسا، صدئاً، متيبسا، محنطا، لم يستطع اليهودي أمامه الإتيان بأي حراكية تاريخية ذات شأن، الأمر الذي جعل بعض اليهود يعلنون استسلامهم الشامل أمام التاريخ، ويهربون نحو المطلق الأبدي من الزمكان بكل دلالاته التاريخية، والجغرافية، والنفسية.

ومن جانب آخر يمكن أن نرى أن الصوفية القبالية اليهودية أتت استجابة أيضا لتمزق اليهودي بين شعوره بالدونية، والاحتقار الذي كان الأوربي المسيحي في عصر النهضة الأوربية يعامل بها اليهودي الذي يُعَدّ نفسه (شعب الله المختار)، والذي كان يرى أن هذا المسيحي زنديقا، ضالا، وقد حاول اليهودي الفقير، المأمور، المسلوب الإرادة، أن يتساوى مع سيده الأوربي، ومن خلال العقيدة الصوفية التي تذهب إلى أن الوجود يشكل وحدة واحدة لا فرق بين أي عنصر من عناصرها، بحيث يمكن أن يتحول، أو يتساوى كل عنصر مع نقيضه، ويندمج معه في كتلة واحدة يستحيل الفصل بينهما، حيث تدمج، وتتساوى، وتتحول الثنائيات، وتصبح الأرض هي السماء، والأب هو الابن، والأمام هو الوراء، والمحيط هو المركز، والحاكم هو المحكوم، والأمير هو الفقير، والغريب هو القريب، والمعلوم هو المجهول، والنكرة هي المعرفة، والدال هو المدلول، والذات هي

الموضوع، والصفة هي الموصوف، والغياب هو الحضور، والثابت هو المتغير، والعقل هو الجسم، والفكرة هي الموضوع، وكل هذه الظواهر المتناقضة ليست أكثر من أمواج عابرة متحولة في المحيط الأبدي الثابت، وجميعها في لحظة الحقيقة، أو لحظة الإشراق الصوفية تعود إلى جوهر واحد في وحدة الوجود، كما تمحي الهويات والانتماءات والجنسيات والعروق، بل وتحلل فيها المخارم، ويصبح كل شيء مباحاً، حيث يتعرى الجميع، ويعرون ذواتهم، وأجسادهم من الملابس المختلفة المتوعة ويمتزجون في بنية واحدة.

ومن هنا فإن الصوفي، ومن خلال طقس جماعي، يستطيع أن يدعم أناه الفردية الهزيلة، التي تعاني من حالة من الضمور، والتشظي، وأن يعيد إليها وحدتها، ويجمع جزرها في يابسة واحدة، وجغرافية جديدة، كما أنه، ومن خلال طقسه الصوفي، يستطيع أن يضخ الروح في أناه الفردية، والجمعية، وأن يضخمها من خلال ذوبانها (أو اتحادها) في أنا جماعية كونية، وهكذا فإن اليهودي الذي لم يستطع أن يكون عضوا شرعيا في المجتمعات الأوربية، فإنه، ومن خلال مذهبه الصوفي يستطيع أن ينضوي، وأن يكون عضوا في المجتمع الكوني، وعلى ارتباط مباشر مع المقدس، بدل أن كان اليهودي ينقصه اعتراف الآخر بهويته، وشرعية وجوده في المكان والزمان الأوربيين.

والمذاهب الصوفية، على اختلافها، تنضوي على أسس واحدة تشترك فيها جميع الأديان، والمعتقدات، سماوية كانت، أم أرضية، وتوحيدية كانت، أم تفريدية، أم تعددية، ووثنية كانت، أم تجريدية، مع بعض الخلافات الشكلية السطحية التي تتأتى من تأثير التصور الديني التقليدي التي يعود إليها مريدوها، ومن تأثير المعطيات التاريخية والزمكانية، وقد برزت عدة دعوات أو تيارات أو مذاهب صوفية غنوصية، وخاصة في الآونة الأخيرة، وهي ما دعيت بالديانات الجديدة، التي لا يمكن تحديد الديانة التي بنيت عليها تلك التصورات، ومنها على سبيل المثال المذهب البهائي الذي دعى إليه الفارسي المسلم ميرزا حسين علي الملقب بالبهاء (١٨١٧ - ١٨٩٢م) الذي ادّعى أنه المسيح المنتظر، ودعا إلى عودة اليهود إلى الأرض المقدسة (فلسطين)، كما دعا إلى توحيد الديانات، وحتى اللغات، كما يمكن أن نرى في الماسونية نمطا من هذه الأنماط.

وجميع هذه العقائد التصوفية الحلولية الغنوصية تذهب إلى أن الإنسان (المتحول) يستطيع أن يتحرر من عالمه المادي، وأن يتوحد مع الرب (الثابت)، من خلال عبور الإنسان في لحظة الإشراق ضمن ممرات، ومقامات، تنتهي بعروجه من الأرض نحو السماء،

بواسطة اتباع الإنسان لطقوس محددة بعينها، يتجرد الإنسان عبر مراحل متعاقبة من طبيعته البشرية الغريزية، ثم من تطبعه الإنساني، وصولا إلى الصفاء والإشراق والتماهي مع إلوهيته.

كما يذهب التصور الصوفي إلى أن الإنسان هو جزء أو عنصر من عناصر الوجود، وليس له أي مميزات خاصة ترفعه عن باقي العناصر الوجودية على اختلافها، والتي يمكن للمريد، من خلال الطقس الصوفي، أن يتخاطب معها من خلال لغة حدسية، ذهنية، ومن ثم الاتحاد بها في لحظة الإشراق، وبذلك فإن الصوفية القبالية اليهودية في هذا الجانب تحديدا قامت بإلغاء عقيدة شعب الله المختار حسب التصور التوراتي التلمودي، وتذهب القبالة اليهودية إلى أن الإنسان في الأصل ذو مصدر إلهي، ولكن وبسبب خلل كوني سقط الإنسان في عالم الوجود المدنس الشرير، والطقس الصوفي هو السبيل الذي يمكنه أن يعيد إلى الإنسان صفته النورانية من خلال اتحاده بالإله، وهذا التصور الصوفي، في اليهودية على وجه الخصوص، يبدو كما لو أنه يريد أن يقول، أو يوحي، بأن اليهود كانوا شعب الله المختار، ولكن، وبسبب أخطاء تاريخية فقد اليهودي قدسيته، وأصبح شخصا دنسا، وليس هناك سوى الطقوس الصوفية القبالية التي يمكن لها أن تعيد له صفة القداسة من خلال اتحاده بالرب.

كما تذهب التصورات الصوفية القبالية إلى أن الإنسان عبارة عن حالة سلبية، وليس له أي فعالية أو تأثير في مجريات الأحداث التي تم وضع سيناريوهاتها من قبل المطلق، ومنذ الأزل، ولذا على الإنسان الخضوع التام للمشيئة الإلهية لأنه لا يستطيع أن يغيّر قيد أنملة فيها، وهذه النقطة تعبّر عن حالة الإحباط والشلل، والسلبية التي وصل إليها اليهود في مرحلة الشتات.

وتعتمد القبالة الصوفية على مجموعة من الطقوس، والسلوكيات التي يقوم بها المريدون، وبشكل جماعي، حيث يقوم المريد في البداية، ومن خلال حركات معينة ذات دلالات خاصة، بتوحيد ذاته بعد أن يقوم بإفراغ ما فيها من عناصر دنسة، ومشاعر متنوعة، وتشوش، وقلق، وحب، وكره، وتذمر وكل ما يتعلق ببنية الإنسان الجسدية المادية، كما يقوم بتفريغ الذهن من المؤثرات العاطفية للذكريات بما فيها من أفراح، وأتراح، كما أنه، ومن خلال حركات متكررة، يهدهد لمخاوفه، ومسببات قلقه من المستقبل الضبابي الغامض، كما أنه يقوم بتفريغ أحلامه، وأمانيه، وطموحاته، ثم يقوم بتعميد أو تطهير الروح، أو النفس مما علق بها من آثام، وبذلك يقوم، بغسل، وفتح

مسامات كيانه، ويخلصها من السموم من خلال التعرق الذي ينتج عن النشاط الفيزيائي، والروحي الذي يقوم به المريد أثناء تأديته للطقس الصوفي، الأمر الذي يساهم بفك الحصار الذهني الذي يقوم على خنق أفكاره، للوصول إلى درجة ما من الصفاء الروحي، كما يساهم في صيانة، وإعادة تشكيل الأنا بعناصر أكثر وضوحا، وجلاء، ومن ثم، ومع مزيد من الحركات الفيزيائية، والتركيز الذهني تتصاعد الحالة الصوفية، ويبدأ المريد يشعر بتوحده مع باقي المريدين، ومن ثم التوحد تدريجيا مع باقي العناصر الكونية، ومن ثم، وبمزيد من إحماء الطقس الصوفي، تتفتح الممرات الذهنية، ويتحول فيها المريد إلى إنسان ذهاني، هذياني، أو يبدو كما لو أنه يخضع إلى تأثير مارجواني، يكتسب خلاله الجسد نشاطا خاصا، ومميزا، وتتجدد الرؤية، ومن ثم تتفتح الأنوات على بعضها أيضا، ويتحول جسد المريد في لحظة الإشراق إلى براق يطير بواسطته من الأرض نحو السماء، وصولا إلى التوحد مع الرب الذي يمنح المريدين عفوا شاملا خاصا، دون أن يقوم بفتح، ونشر صفحات المريدين السابقة، حيث يقوم المقدس المطلق بإتلاف ملفاتهم، وهي مغلقة، ودون أي تحقيق، أو محاكمة، للشخصية السابقة، وبمعنى ما فإن الطقس الصوفي يحقق للإنسان رغبته الدفينة في العودة إلى الحالة الجنينية، ورفض حالة النضج والتمايز، أي رفض لحالة المعرفة (الأوديبية)، وبالتالي العودة إلى الفردوس المفقود الأول.

وإذا كانت اليهودية التوراتية عبارة عن عقيدة تفريدية، فإن القبالة في جوهرها هي عقيدة حلولية تعددية، بل يمكن أن ننظر إليها على أنها وثنية شمولية، فبينما يشكّل التصنيم في العقائد الوثنية حالة حلولية جزئية منقطعة، فإن القبالة حالة شديدة الخصوصية من التصنيم، حيث في الحلولية القبالية يتواجد الجزء في الكل، كما يتواجد الكل في الجزء، وهذا يعني أن العناصر الكونية تمثل أصناما للإله، وقد عبّر القباليون عن عقيدتهم التعددية، من خلال ذهابهم إلى أن الكون يحكمه مجموعة كبيرة من القوى الإلهية التي انبثقت من مصدر واحد مبهم، كما يمكن النظر إلى القبالة اليهودية على أنها محاولة لإخفاء إلحاد متخف في نقيضه، حاول اليهودي الهروب من الاعتراف به، وما دخول اليهودي في الطقوس التصوفية، التي تمثل حالة من الورع الديني سوى إضفاء المزيد من المتاريس أمام الوعي في الطريق الذي قد يصل به في لحظات مكاشفة استثنائية، إلى اكتشاف تلك الحقيقة.

ومن جانب آخر، وبينما يبرز الجانب الشيطاني للرب يهوه في التلمود، فإن القبالة اليهودية تقوم على تمثل عبادة الشيطان بطريقة متوارية على اعتباره يمثل الوجه الآخر للرحمن، وهو جزء لا يقل أهمية من أهمية الله، في وحدة الوجود.

كما أن القبالة اليهودية أعادت الزخم، إلى التصور الذي جاء به أنبياء اليهود، والذي يذهب إلى أن الرب يهوه كان قد طلّق زوجته إسرائيل، والتي هي عبارة عن تهويد لعقيدة الخصب الكنعانية، (بعل، وعشتار)، وكما كانت قد بينت الأبحاث الأركيولوجية من أن مملكة يهوذا كانت تتعبد للرب يهوه، إلى جانب تعبدهم إلى الربة عشتار أيضا، وهذه الحقيقة قام محررو التوراة بإخفائها، وجعلوا، أو استبدلوا عشتار بالشعب الإسرائيلي، ولكن القباليين عادوا إلى عباد الإلهة الأنثى ثانية، فقد جاء في ترنيمة قبالية وضعها إسحق لوريا (١٥٣٤ - ١٥٧٢م):

يرتل اليهود ممجدين الملكة العروس المتوجة بتيجانها السبعين

تاجا فوق تاج في قدس الأقداس

السيدة التي منها كل العالمين

ويذهب كتاب الزهار القبالي، إلى أن الصلوات القبالية تمكّن يهوه من اتحاده جنسيا مع الإلهة الأنثى التي تدعى الشكينة، أو الشخينة، على الرغم من أنف الشيطان الذي يحاول أن يمنع هذا الاتحاد، وهو أمر طريف إذ إن الشيطان عُرف عنه أنه هو الذي يوسوس للذكر والأنثى ليتحدا مقترفين الخطيئة، كما أن أتباع المذهب القبالي يعتقدون أن الهيكل الأول والثاني تم بناؤهما بعد أن تم اتحاد الرب الذكر يهوه، مع الربة الأنثى (الشخينة)، وبذلك فحتى يتم بناؤهما الهيكل الثالث، على يد المسيح اليهودي المنتظر، لا بد من اتحاد الرب يهوه مع الربة الأنثى، وهم من أجل ذلك، ومن خلال طقوس جنسية جماعية خاصة يحللون ويغشون فيها المحارم كي يساعدوا، أو يشجعوا على اتحاد الرب، مع الربة الأنثى، وهكذا فإن الطقس الصوفي في هذا السياق يقوم بتفريغ الشحنات الجنسية الفرويدية.

وأخيرا، فإن المذهب القبالي اليهودي الذي كان أهم عقيدة أفرزتها اليهودية فيما بعد الميلاد، أخذ بالشحوب في العصور الحديثة، ولم يبق منه سوى حركة غوش أمونيم، إلا أنه كان قد أدخل تصوراته الدينية في (العقيدة الصهيونية اليهودية)، التي قامت بعلمنة تلك التصورات القبالية، وجعلت من نظريتها المسيح اليهودي المنتظر الذي أعاد الجماعات اليهودية إلى فلسطين.

تواريخ المرحلة اليونانية حسب دائرة المعارف الكتابية:

٤٢٤ ق.م	موت ارتحشستا الأول وارتقاء داريوس الثاني العرش
٣٣٦ ق.م	ارتقاء داريوس الثالث العرش، وهو آخر ملوك فارس.
٣٣٦ ق.م	الإسكندر الأكبر يخلف أباه فيليب المقدوني في حكم مقدونية
٣٣٢ ق.م	زيارة الإسكندر الأكبر لأورشليم
٣٣١ ق.م	معركة أربلا والإطاحة بالإمبراطورية الفارسية
٣٢٣ ق.م	موت الاسكندر الأكبر وانقسام إمبراطوريته
٣٢٠ ق.م	بطليموس سوتير يضم اليهودية إلى مصر
٣١٢ ق.م	ارتقاء سلوقس الأول عرش سورية، وبداية عصر السلوقيين.
٢٨٣ ق.م	بطليموس فيلادلفيوس يحكم مصر.
نحو ٢٥٠ق.م	التاريخ التقليدي لبداية العمل في الترجمة السبعينية.
٢٢٣ ق.م	أنطيوكس الكبير يملك على سورية
١٩٨ ق.م	أنطيوكس الكبير يضم اليهودية إلى سورية
١٧٥ ق.م	أنطيوكس إبيفانس يرتقي العرش
١٦٨ ق.م	تدنيس أنطيوكس إبيفانس للهيكل
١٦٨ ق.م	مقاومة متتياس وثورة المكابيين
١٦٦ ق.م	انتصار يهوذا المكابي
١٦٠ ق.م	موت يهوذا وتولي يوناثان القيادة
١٤٣ ق.م	مقتل يوناثان وتولي سمعان القيادة
١٤٢ ق.م	سمعان يصبح رئيس الكهنة
١٣٥ ق.م	يوحنا هيركانس يخلف سمعان.
١٠٦ ق.م	أرستوبولس يصبح رئيس الكهنة
١٠٥ ق.م	ألكسندر يانيوس
٦٣ ق.م	بومبي الروماني يستولي على أورشليم.
٤٧ ق.م	أنتيباير يُعين والياً علي اليهودية.
٤٣ ق.م	مقتل أنتيباتر.
٤٠ ق.م	أنتيجونوس آخر ملوك المكابيين يرتقي العرش.

٣٧ ق.م	هيرودس يقتل أنتيجونوس ويصبح ملكاً على اليهودية.
٣١ ق.م	أوغسطس يصبح إمبراطورا على روما.
١٩ ق.م	بداية بناء الهيكل.
نحو ٥ ق.م	ولادة يسوع المسيح في بيت لحم.
٤ ق.م	موت هيرودس الكبير.

الفصل الثالث

العهد الروماني

بعد أن أصبحت روما من أقوى دول البحر الأبيض المتوسط، وبعد أن فرضت تفوقها العسكري البحري، بدأت تسحب البساط من تحت الجيوش الهيلينية البرية، حيث في النهاية سقطت أثينا بيد روما سنة ٨٦ قبل الميلاد، وبعد أن استطاعت روما أن تنهي حروبها الداخلية مع الإيطاليين، الذين في النهاية حصلوا على حق المواطنة الرومانية، وأن تستعيد هيمنتها على إيطاليا، وبعد أن استطاع سوللا أن يصبح سيد روما، وأن يعلن عن نفسه دكتاتورا سنة ٨٢ قبل الميلاد بعد حرب راح ضحيتها أعداد لا تحصى ممن لهم، وممن لا علاقة لهم، بتلك الحرب الأهلية، ولكن سوللا حاول سريعا غسل حمامات الدم من خلال حركة إصلاح تشريعية، وتنظيمية، وتنفيذية، داخل روما، وخارجها، بما فيها الولايات الخارجية، والأكثر غرابة في هذا الدكتاتور أنه قام بالاعتزال عن الحكم سنة ٧٩ قبل الميلاد، قبل أن يموت سنة ٧٨ قبل الميلاد، حيث اندلع صراع غير دموي على السلطة بين القادة العسكريين الأبرز كراسوس، وبومبي، ويوليوس قيصر، وقد حاول مجلس الشيوخ (السناتو) أن يرضي القادة العسكريين الثلاثة، ولكن الشاب الطموح بومبي الذي كان قد انضم إلى سوللا أثناء معمعة الحرب الأهلية، استطاع بحنكته، وبحسن حظه أن يصبح أكثر بروزا، من خلال تسديده الضربة الأخيرة للتمرد الأسباني سنة ٧٢ قبل الميلاد، كما أنه أيضا وجّه الضربة الأخيرة لثورة العبيد بزعامة سبارتاكوس (٧٣ - ٧١ق.م)، كما أنه استطاع تنظيف البحر الأبيض المتوسط من القراصنة.

وفي سنة ٦٦ قبل الميلاد انطلق بومبي نحو آسيا حيث استطاع أن ينتصر على مثراداتيس، ثم غزا أرمينيا وأخضعها لهيمنة روما، وتابع طريقه نحو سوريا التي كانت تعاني من حالة فوضى في عهد ملكها السلوقي أنطيوخوس الثالث عشر، وقام بومبي بعزله، وأعلن عن سوريا ولاية رومانية سنة ٦٤ قبل الميلاد (وكان شيشرون حينها يتبوأ منصب القنصل في روما)، وتابع بومبي طريقه نحو فلسطين التي كانت تعاني صراعاً على السلطة بين ابني

الكسندر يناي، هوركانوس الثاني، وأرسطوبولس الثاني، وقد تسابق الأخوان إلى لقاء بومبي في دمشق سنة ٦٣ قبل الميلاد، كما زاره أيضا، وفي الوقت نفسه، وفد شعبي يهودي كهنوتي يطالب بعودة الحياة الدينية الكهنوتية، وهو الذي يتماشى مع مطامع روما، فوافق بومبي على طلبهم.

ولما وصل بومبي إلى أورشليم قام أنصار هيركانوس الثاني بفتح أبواب المدينة أمام قوات بومبي، بينما احتمى أرسطوبولس الثاني مع الكهنة في الهيكل، ولكن بعد حصار استمر لمدة ثلاثة أشهر تم أسره، ونُفي مع عائلته إلى روما، أما الكهنة الذين اعتصموا في الهيكل فقد قام بومبي بقتلهم، وبذلك انتهى الصراع على السلطة في يهودا، وقد قام بومبي بجعل سوريا وحدة إدارية، ولكنه حافظ على تشكيلها الإقليمي السابق، التي حولها إلى وحدات إدارية رومانية، لكنه قام بتحجيم بعض هذه الوحدات، لا سيما منها تلك التي كان لها حراكية تاريخية مثل اليهودية، حيث قام برد المناطق التي كان الحشمونيون قد استولوا عليها، وأعادها إلى ممالكها القديمة، وقام بتعيين الحشموني هوركانوس الثاني كاهنا أعظم وقائدا للشعب مع صلاحيات مدنية محددة، وضيقة، بعد أن قلّص حدودها ودفّعها الجزية، وبذلك تحولت اليهودية إلى ولاية رومانية دون أي حرب.

وفي سنة ٦٠ قبل الميلاد عقد القادة الثلاثة (بومبي - كراسوس - قيصر) اجتماعاً سرياً صلحياً، وشكلوا أول حكم ثلاثي في التاريخ الروماني، والذي استمر قرابة ثلاث سنوات كانت الهيمنة فيها لمصلحة بومبي، وقد تغيرت تلك المعادلة في سنة في سنة ٥٣ قبل الميلاد، بعد أن أبيد كراسوس هو وجيشه في حربه مع الفرثيين، وهكذا لم يبق سوى قائدين رومانيين هما بومبي وقيصر.

أما بالنسبة لإقليم يهودا، ففي سنة ٥٧ قبل الميلاد جاء جابينوس والياً على سورية، وقد قام بتقسيم ولاية يهود إلى خمسة ألوية (أورشليم - أريحا - جيزر - حماتا - صفورية)، واستمرت الأمور هادئة في الولاية، وقد تغيرت الأمور بعد استلام يوليوس قيصر السلطة في روما سنة ٤٨ قبل الميلاد بعد صراع سياسي مع بومبي، والتي على إثرها نشبت الحرب الأهلية بينهما (٤٩ - ٤٤ق.م)، وكان اليهود قد وقفوا إلى جانب يوليوس فكافأهم بجعل مقاطعة يهودا ذات حكم ذاتي، وسلّم ابني أنتيباتر الأدومي، (فصائيل) حامياً أو واليا على أورشليم، و(هيرودوس) واليا على الجليل، واستمر دعم روما لهما حتى بعد اغتيال يوليوس قيصر ووصول كاسيوس إلى سورية، ومن بعده مارك أنطونيوس.

وفي تلك المرحلة برز على الساحة الفرثيون (البارثيون)، وهم قبائل بدوية يتحدثون لهجة فارسية، وكانوا ينتشرون جنوب شرق بحر قزوين، وقد استطاعوا أن يمدوا نفوذهم على بلاد ما بين النهرين، والتخوم الشرقية للدولة السلوقية، وقد تنافس الفرثيون مع قوات روما في السيطرة على التركة السلوقية، لا سيما بعد دخول بومبي إلى سوريا، وفي معركة بين قوات روما بقيادة كراسوس، التي قدمت لوضع حد للوجود الفرثي، وبين القوات الفرثية بقيادة سوريناس بالقرب من مدينة حران سنة ٥٣ قبل الميلاد، وقد استطاع الفرثيون إبادة الجيش الروماني في تلك المعركة، بل وقتلوا كراسوس نفسه في أثناء المفاوضات التي تلت المعركة، ولم تستطع روما أن تحجّم دور الفرثيين المتنامي في المنطقة، وحتى بعد اعتلاء بومبي سنة ٥٢ قبل الميلاد قمة السلطة في روما باعتباره قنصلا وحيدا، ولكن في سنة ٤٩ قبل الميلاد اندلعت حرب أهلية بين قيصر، وبومبي على السلطة استمرت حتى سنة ٤٤ قبل الميلاد، حيث استطاع قيصر في سنة ٤٨ قبل الميلاد أن يعلن عن نفسه ديكتاتورا، ثم نجح في أن يكون قنصلا بالانتخاب في نفس السنة، وفي معركة فارسالوس بين يوليوس قيصر، وبين بومبي، هُزمت قوات بومبي، وتشتت، وما كان من بومبي سوى إن يلتجئ إلى مصر البطلمية التي كانت تعاني نزاعاً على السلطة بين بطليموس الثالث، وأخته كليوبترا، حيث قام الجنود بأمر بطليموس الثالث عشر بقتل بومبي، وفي تلك الفترة وصل يوليوس ومعه حامية صغيرة إلى مصر قبل أن يعلم يوليوس بموت بومبي، وقد قامت القوات المصرية، التي اعتبرت قدوم قيصر هو نوع من الهيمنة الرومانية على مصر، بمحاصرة الحرس الشخصي ليوليوس قيصر، وقد قام أنتيباتر الأدومي (وزير الكاهن الأعظم في مملكة يهوذا) بإرسال تعزيزات عسكرية إلى يوليوس حولت هزيمته إلى نصر، وبعد أن تزوج يوليوس قيصر من كليوبترا التي دعمها وأولاها العرش في مصر، عاد سنة ٤٧ قبل الميلاد إلى روما، وحصل على قرار تعيينه دكتاتورا لمرة ثانية، إلى جانب احتكاره لمنصب القنصل أيضا، واستمر في منصبه هذا حتى مصرعه يوم ١٥ آذار من سنة ٤٤ قبل الميلاد على يد بروتوس وكاسيوس.

كان يوليوس قد أله نفسه، وأنشأ معبدا للرحمة القيصرية، وقد كانت الفترة القيصرية فترة رخاء في روما، وفي كل الولايات الرومانية، كما أنشأ عدة مستعمرات رومانية في كل الولايات التي تدين لروما، وكان يحدد فترة اعتلاء المناصب في الولايات لفترة قصيرة، كي لا يستطيع صاحب المنصب أن يمسك بزمام الأمور بحيث يشكل خطرا في المستقبل، ولذلك وصف بأنه أعظم عبقرية سياسية عسكرية إدارية أنجبتها روما، كما وصف بأنه الشخصية التاريخية الثانية بعد الاسكندر المقدوني.

وبعد اغتيال يوليوس قيصر سنة ٤٤ قبل الميلاد، تولى السلطة في روما أنطونيوس، ولكن نجم أوكتافيوس ابن أخت يوليوس، وكان يوليوس قد أعلنه وريثا له، قد بدأ يلمع جماهيريا من خلال بذخه، كما استطاع من خلال أمواله الهائلة التي تركها له يوليوس أن يجنّد جيشا في يوغسلافيا، وقد خسر في محاولته الأولى دخول روما، إلا أن ذلك لم يثن من عزيمته، لا سيما وأن الكثير من جنود أنطونيوس كانوا يتركون معسكراتهم وينظمون إلى معسكر أوكتافيوس الذي استطاع أيضا أن يكتسب الكثير من المؤيدين له من مجلس الشيوخ، وفي النهاية دارت الدائرة السياسية، وتقلد أكتافيوس منصب القنصل سنة ٤٣ قبل الميلاد، وتحت ضغط الجيوش الرومانية أجبر كل من أنطونيوس، وأكتافيوس، ولبيدوس أن يشكلوا تحالفا واحدا، وأعلن الثلاثة، عن تشكيل حلف عسكري ضد الجيش الجمهوري بقيادة بروتيوس، وكاسيوس، وفي معركة فيليبي الحاسمة سنة ٤٢ قبل الميلاد بين الجيش الجمهوري بقيادة بروتيوس، وكاسيوس، وبين جيوش الحكومة الثلاثية بقيادة أكتافيوس، وأنطونيوس، انتصر كل من أكتافيوس، وأنطونيوس في المعركة الحاسمة والنهائية على الجيش الجمهوري، ولكن، وبعد قرابة سنتين، اندلع خلاف حاد بين الشريكين أكتافيوس، وأنطونيوس سنة ٤٠ قبل الميلاد، وصل إلى درجة اللجوء إلى السلاح، ولكن صلح برنديزي أصلح البين مؤقتا، بينما اندلعت سنة ٣٩ قبل الميلاد حرب مع سكستوس بومبي، وقد استطاع أكتافيوس إنهاءها لمصلحته في سنة ٣٦ قبل الميلاد.

وفي ذلك الوقت الاستثنائي استطاع الفرثيون خلسة أن يجتاحوا آسيا الصغرى سوريا (٤٠ - ٣٨ق.م) بزعامة لابينوس، ولم تقاوم الممالك السورية الفرثيين باستثناء مدينة صور، وقد انضم إلى الفرثيين أنطيغونوس الأخ الأصغر لأرسطوبولوس الثاني ابنا ألكسندر يناي، وقد قام الفرثيون بسحب الكهانة من هوركانوس الثاني ابن ألكسندر يناي أيضا، وشوهوه بقطع أذنيه، وأسروه، وأسكنوه في بابل (وقد سمح له هيرودوس بالعودة سنة ٣٦ قبل الميلاد، ثم أعدمه سنة ٣٠ قبل الميلاد)، وأُسر فصائيل بن انتيباتر الأدومي الذي انتحر على إثر ذلك، أما أخوه هيرودوس حاكم الجليل، فقد هرب إلى روما بعد أن وضع عائلته في قلعة ماسادا (مسعدة) على الشاطئ الغربي للبحر الميت، وفي روما تم تنصيب هيرودوس بن انتيباتر الأدومي (هيرود الأكبر) ملكا على يهودا سنة ٤٠ قبل الميلاد - التي ما زالت تحت هيمنة الفرثيين - بدعم من صديقه المقرب أنطونيوس الذي قدّمه على أنه يعرف اليهود أفضل مما يعرفهم الرومان، كما يمكن الاعتماد عليه في أن يظل مواليا لروما، كما أنه الأقدر على الحفاظ على مصالح روما ضد أنطيغونوس بن ألكسندر يناي، وضد الفرثيين أعداء روما.

ولكن بعد أن هزم فنتيدوس باسوس، وهو أحد جنرالات أنطونيوس، الفرثيين سنة ٣٨ قبل الميلاد، عاد هيرودوس مع فرقتين رومانيتين وحاصر أورشليم لمدة خمسة أشهر (وفي تلك الفترة تزوج من مريم الحشمونية بنت سمعان رئيس الكهنة)، وعندما سقطت أورشليم التي كانت على ولائها الفرثي، أُعدم أنطيغونوس بن ألكسندر يناي بأمر من روما سنة ٣٧ قبل الميلاد، عقابا له على انضمامه للفرثيين، وتولى الحكم الملك المعين سابقا هيرودوس الكبير (٣٧ - ٤ق.م).

كان هيرود بن انتيباتر أدومياً متهوداً من أم عربية نبطية، وكان قد عُيّن من قبل يوليوس قيصر وبدعم من أبيه أنتيباتر حاكما على الجليل سنة ٤٧ قبل الميلاد، حيث أظهر جدارة قيادية عالية، بعد أن استطاع أن يقضي على عصابات اللصوص وقطاع الطرق، وكان يتصف بتفانيه في العمل، ويحزمه ويقبضته الحديدية، وبالجدارة العالية في خدمة روما.

ومن خلال تلك الصفات، وما أن تولى منصب الملك على اليهودية، استطاع هيرود أن يوسّع سلطته لتشمل كل فلسطين، وبدأ حكمه بإعدام خمسة وأربعين من أنصار الحشمونيين شنقا، كما أعدم بعض الحشمونيين أيضا، ولم يسلم منه حتى زوج ابنته، وقد صارع هيرود الأنباط العرب (أخواله) حسب رغبة صديقه انطونيوس (والذي كان ينفذ رغبة كليوبترا)، بعد أن أسس جيشا قويا مدربا ومنظما اعتمد فيه على التوازن بين اليهود، وبين المقاتلين المرتزقة.

قام هيرودوس بتقسيمات إدارية ناجحة ثبّتت أركان حكمه، ودرّت على خزينة الدولة المزيد من المال، وكان عهده عصر ثراء وتقدّم في كل مجالات الحياة، لقد عرف كيف يجمع الكثير من المال، وعرف كيف ينفقها أيضا، وكان هيرود شديد الحماس للهيلينية أكثر من الهيلينين أنفسهم.

وكانت سياسته متسامحة مع المعتقدات الدينية، ومع الأنماط الاجتماعية، فسمح للجميع بممارسة طقوسهم الدينية، وأعانهم على بناء معابدهم، وهذا ما شجع الكثير ممن تهودوا قسرا على العودة إلى دين آبائهم، ولكنه، وفي الوقت نفسه، كان يرفض ويكره الجبة الثقافية اليهودية، وكان يحاول أن يظهر أن الديانة اليهودية ديانة عالمية، وهذا ما كانت ترفضه المذاهب والجماعات اليهودية المتزمتة، ولذا لم يكن اليهود يحبونه، بل وكانوا يُعَدّونه حاكما أجنبيا، وعميلا لروما، لا سيما وأن معظم معاونيه كانوا من الإغريق والأدوميين، ولم يعط لليهود أي مناصب أو نفوذ سياسي في مملكته، على الرغم من أنه قرر أن يتزوج من مريم الحشمونية بنت سمعان رئيس الكهنة علّه يحظى بالقليل من رضى اليهود، ويكسب العائلة الحشمونية المعارضة لمصلحته.

وعلى الرغم من عدم وجود شعبية واسعة له، فقد استطاع أن يسيطر على مناحي الحياة في الولاية بقبضته الحديدية التي كان يضرب ويقمع بها دون أدنى رحمة كل أنواع المعارضة، ولم تسلم عائلته من قبضته الحديدية فقد قام، بتحريض من أخته سالومي التي دبّرت عدة مؤامرات ضد عائلته ونسائه العشر، وبخاصة ضد زوجته مريم الحشمونية التي كانت تغار منها كثيرا، بإعدام زوجته مريم الحشمونية، وهي ابنة أهم معارضيه، والتي حملت لواء المعارضة ضد زوجها أيضا من خلال أبنائها وأخيها، والذي قام هيرودوس بإعدامه أيضا، وكان أكثر جزما، وحزما عندما أعدم ابنيه منها ألكسندر وأرسطوبولس، وأيضا أعدم ابنه أنتيباتر الذي كان بالتآمر مع عمه فيراروس قد دسّ لأبيه هيرود السم، وقد أُكتشف أمره، كما أعدم في مرحلة سابقة أرسطوبولس الثالث آخر الكهنة الحشمونيين، ولكن هيرود، بالوقت نفسه، كان سياسيا محنكا، وشديد الدهاء في معالجة بعض القضايا متبعا سياسة الترهيب والترغيب حسب الحاجة، وقد أوجز ذلك المؤرخ يوسيفوس بالقول: {لقد ضمن خضوع الشعب بطريقين: الخوف إذ كان عنيفاً في عقابه، وإظهار العطف الشديد في حالة الأزمات}.

كما ذكر يوسفوس أن هيرودوس كان في بعض الأوقات يلبس ثياب مواطن عادي، ويختلط بالجماهير كي يعرف رأي الناس به، لأنه كان شديد التخوف من أي مؤامرة تحاك ضده للاستيلاء على العرش، كما أنه قام بتأسيس شبكة واسعة من الجواسيس والمخبرين في طول البلاد وعرضها، لقد كان شديد الخوف على مملكته، ولذا لم يرحم أعداءه في الداخل، وقد اشتهر بتعطشه الشديد لسفك الدماء، كما قام بعدة أعمال دفاعية ضد أي خطر قد يأتي من الخارج، أو حتى من الداخل، وقام أيضا بتشكيل حرس شخصي مدرب ومتفان في ولائه، وهذا ما مكّنه من احتواء الجميع، فقد أضعف المعارضة وأحلّ توازنا بين سكان فلسطين اليهود وغير اليهود.

أما علاقته مع روما، فقد كان صديقا شخصيا لأنطونيوس الذي وقع في حب كليوباترا، والتي كانت تمقت، وتغار من هيرودوس كثيرا، ومن شهرته التي كانت على كل لسان داخل وخارج الإمبراطورية الرومانية، والتي جعلت أنطونيوس (بطلب من كليوبترا) يأمر هيرودوس بأن يتخلى عن بعض مدنه لمصلحتها، كما طلبت منه أن يأمر هيرودوس بإعلان الحرب على العرب الأنباط من أجل إضعاف الطرفين، لكن هيرودوس استطاع أن يحسم هذه الحرب سريعا لمصلحته، وكان أنطونيوس يحاول أن يخفّف من غيرة كليوبترا، ومن تحاملها على هيرودوس، وبعد أن انتصر أوكتافيوس على جيش أنطونيوس وحليفته

كليوبترا، في معركة اكتيوم البحرية سنة ٣١ قبل الميلاد، والتي على إثرها انتحر انطونيوس، وعشيقته، وحليفته في الحرب كليوبترا في مصر، قام هيرودوس، على غير المتوقع، بالتأكيد على صداقته لأنطونيوس، وحزنه على ما أصابه، من خلال موقف أخلاقي إعلامي، الأمر الذي قدره أكتافيوس (الذي أصبح اسمه الإمبراطور أغسطس)، والذي بدل أن يعاقب هيرودوس، قام برد المدن التي كانت قد أخذتها كليوبترا منه، كما أضاف له مناطق أخرى من الجولان، وبذلك توسعت حدود مملكته أكثر مما كان.

كان هيرودوس داهية سياسيا، كما كان أيضا اقتصاديا محنكا يعرف كيف يحصل على المال بشتى الوسائل، وهذا ما سمح له أن يقوم بعدة أعمال بناء ذات فخامة في أورشليم، كان أهمها الهيكل الذي قام ببنائه بشكل لم يكن له مثيل، وتم بناؤه بخبرات مهندسين من صور، كما أنه أحاط المدينة بسور ما زالت بعض أجزائه قائما حتى الآن (حائط المبكى)، وكان على كل حاج أن يدفع نصف شيكل مقدس لخزينة الهيكل، وبسبب شهرة هيرود وشهرة هيكله، فقد كانت تأتيه التبرعات من أثرياء اليهود، ومن الشخصيات العالمية وعلى رأسهم القيصر أغسطس والملك الفارسي أرتازكسيس، كما أنه قام ببناء البلاط والمسارح والحمامات والملاعب الرياضية والكثير من الحصون، وأعاد تشييد السامرة وحصّنها وأطلق عليها اسم سيبسطة، وهو اللفظ اليوناني لأوغسطس، وبنى مدينة قيصرية، ومدينة أنتيباتريس تخليداً لاسم أبيه، كما بنى عدة معابد (غير يهودية) خارج حدود يهودا كنوع من أعماله الإعلامية ليحظى بمزيد من الشهرة والعظمة، كما أنه قدّم معونات مالية للألعاب الأولمبية، كما كان أيضا يقدم المساعدات المالية للجماعات اليهودية خارج مملكته، ولكن هذا المجد الخارجي لحكم هيرودوس كانت تعكره المتاعب العائلية التي ظلت تحاصره وتضيق الخناق عليه، وترافق ذلك بفتور علاقته مع قيصر روما أغسطس، الأمر الذي جعله في سنيه الأخيرة شديد التوتر، متعكر المزاج، حتى أصبح يتصرف أحيانا كما لو كان مجنونا، وحسب ما يذكر يوسفوس قام هيرودوس، عندما شعر بدنو أيامه، باستدعاء وجهاء المملكة لمقابلته في أريحا، حيث أمر باعتقالهم، وأمر بقتلهم جميعا لحظة موته لتكون له مناحة كبيرة في البلاد، ولكن أمره لم ينفذ، وهكذا، في سنة ٤ قبل الميلاد مات هيرودوس، الذي وصفه أعداؤه بأنه تسلل إلى العرش كالثعلب، وحكم كالنمر، ومات كالكلاب.

وكان قبيل موته قد عيّن ابنه أرخيلاوس (من زوجته السامرية ملتاكي) ملكا في أورشليم، وابنه أنتيباس واليا على الجليل وهو الشقيق الأصغر أرخيلاوس، وابنه فيلبس على

الجولان ومحيطها، وقد أقر أغسطس (أكتافيوس) هذا التقسيم احتراما لوصية هيرودوس، ولكن أغسطس فصل بين المقاطعات الثلاث وأتبعها مباشرة إليه.

وبعد ثورة، أو احتجاج شعبي على أرخيلاوس ابن هيرود، الذي كان يحكم كوالي على اليهودية والسامرة والأدومية، والذي ورث عن أبيه البطش دون الحنكة، والذي قام في أحد أعياد الفصح بقتل ثلاثة آلاف يهودي في الهيكل، وتحت ضغط التذمرات والشكاوى اليهودية ضده، قام إمبراطور روما بعزله، ونفيه إلى فينا في فرنسا سنة ٦ للميلاد، بعد أن حكم لمدة عشر سنوات، وعيّن بدلا عنه كوبونيوس حاكما رومانيا (ناظر) على أورشليم، وبذلك أصبحت يهودا ولاية رومانية، وبقي النظّار يحكمون أورشليم حتى ٧٠ للميلاد، حيث في تلك المرحلة ولدت المسيحية، وتم صلب المسيح يسوع الناصري.

أما بالنسبة لفيلبس الثاني (٤ق م - ٣٤م) ابن هيرودوس من زوجته كليوبترا الأورشليمية، والذي تختلط سيرته أحيانا مع سيرة أخيه فيلبس الأول زوج هيروديا وأبي سالومي، وهو الأخ غير الشقيق من مريم بنت سمعان رئيس كهنة أورشليم، وكان هيرودوس قد حرم ابنه فيلبس الأول من الإرث لأنه كان ابن زوجته الخائنة التي تآمرت عليه، وكان فيليبس الثاني قد تزوّج من سالومي ابنة أخيه فيلبس الأول من زوجته هيروديا، وكان هيرود قد عين فيلبس الثاني واليا على الجولان التي كان أغلبية سكانها من السريان والرومان، وقد اتصف فيلبس الثاني بالهدوء والاعتدال والحكمة في حياته الشخصية، وسياسته العامة، ولذا كان محبوبا من قبل رعيته، وقد قام بعدة أعمال بناء، فقد أعاد بناء بانياس عند منابع نهر الأردن، وأطلق عليها اسم قيصرية فيلبس، كما بنى بيت صيدا ودعاها جولياس، ومات سنة ٣٤ للميلاد، بعد أن حكم لمدة ثمان وثلاثين سنة، حكماً اتسم بالعدل والهدوء، وأضيفت ممتلكاته إلى ولاية سورية الرومانية.

أما بالنسبة لأنتيباس الشقيق الأصغر لأرخيلاوس، والذي تم تعينه من قبل والده هيرود الأكبر واليا على الجليل وبيريه (وعاصمتها طبرية) والذي كان يتصف بشخصيته الثعلبية وبطموحاته الكثيرة، التي ترافقت مع خضوعه لنزواته الجنسية والإجرامية، والذي اشتهر تاريخيا بقتله ليوحنا المعمدان (النبي يحيى)، الذي كان يقوم بتعميد أتباعه في نهر الأردن، والذي ادعى أنه المسيح، ثم ادعى أنه المبشر بمجيء المسيح، وكان له شعبية واسعة، وخاصة في منطقة الجليل إلى درجة أن الملك أنتباس ابن هيرودوس كان يخشى من أن يتحول يوحنا إلى حقل السياسة، الأمر الذي قد يشكل خطرا على سلطته، وهذا هو السبب الرئيس وراء قرار سجنه في قلعة مخيروس في منطقة شرقي الأردن، ومن ثم قام بقتله، ويقال أن أنتيباس قام

بقتل يوحنا المعمدان لأنه كان يجدف على أنتيباس بسبب علاقته، أو زواجه غير الشرعي من هيروديا، على الرغم من أن أنتباس كان قد تزوج من ابنة الحارث ملك الأنباط (أريتاس).

كانت هيروديا حفيدة هيرود الكبير، وابنة أخ أغريبا الأول، وكانت قد تزوجت من عمها (غير الشقيق لأبوها) فيليبس الأول ابن هيرودوس الكبير، وأنجبت منه ابنتها الشهيرة سالومي، وكان هيرودوس قد حرم ابنه فيليبس الأول من الإرث لأنه ابن زوجته الخائنة مريم الحشمونية، وكانت هيروديا قد فرت مع ابنتها سالومي من عند زوجها فيليبس الأول دون أن تحصل على طلاقها، والتجأت إلى أخ زوجها غير الشقيق أنتيباس، والذي أعلن زواجه بها، وقد اعترض يوحنا المعمدان على هذا الزواج، لأن الدين اليهودي يحرّم هذا الزواج مادام الأخ (الزوج الأول) على قيد الحياة، وهذا ما جعل هيروديا تحقد على يوحنا، وتسعى إلى قتله، وقد كان لها هذا في النهاية، ففي عيد ميلاد أنتيباس، قام الأخير بدعوة بعض الرومان من ذوي الشأن، إضافة إلى أعيان البلاد، ووجوه الجليل، لحضور احتفال يقام بتلك المناسبة، وفي الاحتفال، وبينما كانت الخمرة قد فعلت فعلتها، طلب أنتيباس من سالومي أن ترقص في الاحتفال، وقد اشترطت سالومي على رقصتها أن يقدم لها أنتيباس رأس يوحنا المعمدان (حسب تعليمات أمها هيروديا لها)، وقد كان لها ما طلبت، وقدم لها رأس يوحنا المعمدان سنة ٢٩ للميلاد، وبعد مقتله، وفي عهد أنتيباس، ومن ولايته، خرج يسوع الجليلي، والذي تم القبض عليه في أورشليم من قبل الناظر الروماني بيلاطس، وبصفته جليليا فقد تم تسليمه إلى أنتيباس الذي كان حينها بزيارة في أورشليم، إلا أن أنتيباس قام برده إلى بيلاطس، وفي النهاية تم صلبه، كما أتى في العهد الجديد، وقد شكّل أتباعه، وأتباع يوحنا المعمدان من الأسنيين الجماعة المسيحية الأولى.

وبعد أن تسلم كاليجولا (جايوس) عرش روما (٣٧ - ٤١م)، وفي سنة ٣٩ للميلاد سمع بسوء أخلاق أنتيباس، كما نمى إليه عن طريق أغريبا الأول (ابن أخ أنتيباس) أن أنتيباس قد تحالف سرا مع الملك الفرثي، ومع ضابط روماني كبير اسمه سيجانوس ضد الإمبراطورية الرومانية، وقد أقر انتيباس بخيانته عندما وقف بين يدي غاليغولا، والذي أمر بنفيه إلى مدينة ليون في فرنسا سنة ٣٩ للميلاد، وبذلك أصبحت مملكة هيرودوس بولاياتها الثلاث رومانية تخضع قضائيا لحكم السنهدرين، وإداريا لحكم النظّار الرومان.

وفي تلك الفترة بدأت المملكة الروحية للمسيحية تتوسع ببطء شديد تحت شعار (ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، ولن أخوض في تفاصيل العلاقة بين اليهودية والمسيحة، ولكن بشكل عام بدأت المسيحية تنتشر بعيدا عن اليهودية، ولم تؤثر المسيحية كثيرا في الرؤية

الاستراتيجية لليهودية، لأن اليهود أصلا لم يعتبروا يسوع الناصري عيسى ابن مريم هو المسيح اليهودي المنتظر (المسيا أو الماشيّح)، بل اعتبروه المسيح الدجال (المهرطق الزنديق)، وبقوا، وما زالوا حتى هذا اليوم ينتظرون قدوم مسيحهم اليهودي الذي سيأتي ليجمع شملهم من شتات الأرض المدنسة، في الأرض المقدسة التي ستصبح كاملة هي الهيكل المقدس للعالم دون استثناء، وهي عاصمة العالم، ويدل أن يكون اللاويون هم الكهنة اليهود سيصبح كل اليهود هم كهنة العالم على الإطلاق، وكما أن اليهود سيقومون بخدمة الرب، فعلى العالم أجمع أن يقوموا بخدمة اليهود، وهكذا سيقوم المسيح بتسييد اليهود على العالمين، ومن هنا فقد رفض اليهود وبشدة مسيح المسيحية الذي جاء، حسب تصورهم، كي يهدم اليهودية، بل أن مجيئه كان السبب الرئيسي في تلقي اليهودية الضربة القاضية سنة ٧٠ للميلاد، والتي شتتهم في أنحاء العالم.

كان المذهب الصدوقي لا يؤمن بفكرة المسيح المنتظر، ولذا لم يولِ أتباع هذا المذهب المزيد من الاهتمام لدعوته، ولم يناصبوه العداء، كما كان الأمر بالنسبة لأتباع المذهب الفريسي، الذين يؤمنون بفكرة المسيح المنتظر، والذي سيجيء ليخلص اليهود فحسب من آثامهم، ومن معاناتهم، ويعيد لهم أمجادهم الغابرة، ويسيّدهم على العالمين، وهذا يختلف عما أتى به السيد المسيح عيسى ابن مريم الذي كان ذا رسالة إنسانية شاملة، الأمر الذي جعل الفريسيين يتآمرون عليه، ويقودونه في النهاية إلى الصليب تنفيذا لما جاء في الشريعة التوراتية «إذا قام في وسطك نبي أو حالم حلما وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قائلا لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها ونعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم... وذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم يقتل لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب إلهكم» تثنية ١٣.

كانت الأمور هادئة نسبيا بعد موت أغسطس الأول سنة ١٤ للميلاد، وتولي طيبيريوس الحكم (١٤ - ٣٧م)، والذي على عهده، وبأمر من الناظر الروماني على ولاية اليهودية بيلاطس البنطي تم صلب السيد المسيح، وبينما راحت المسيحية تنشر معتقدها الأممي، على اعتبار أن المسيح جاء ليخلص بني الإنسان من خطيئة آدم الأصلية، بقيت الشؤون الدينية اليهودية في أورشليم بيد الكاهن الأكبر المؤيَّد بمساعدة مجلس الحاخامات (السنهدرين)، وما إن تولى عرش روما كاليغولا (جايوس) (٣٧ - ٤١م) حتى عيّن صديقه أغريبا الأول ابن أرسطوبولس ابن هيرودوس الكبير ملكا على مقاطعة عمه فيليبس الثاني، وعندما أله

غاليغولا نفسه (الذي أصيب بالجنون) طلب إقامة مذبح له في اليهودية، وفي مدينة يبنى أقام السكان له مذبحا، فقام اليهود بهدمه، الأمر الذي جعل كاليغولا يستشيط غيظا، ويأمر بوضع صورة له محفورة على لوح من الذهب داخل هيكل أورشليم، ولكن أغريبا الأول، وأثناء وليمة أقامها في روما على شرف غاليغولا، استطاع (بمساعدة الخمرة) أن يثنيه عن قراره، وبعد مقتل كاليجولا على يد (كاريا) أحد حراسه، واعتلاء عمه كلوديوس عرش روما، تم تعيين أغريبا الأول (الذي ساند كلوديوس في اعتلائه العرش) ملكا رومانيا (دوكس) على مقاطعة يهودا كاملة سنة ٤١ للميلاد، وبذلك ورث مملكة جده هيرود عدا منطقة الأدومية.

كان أغريبا الأول ذو صفات أخلاقية جيدة، كما كان كريما محبا للظهور، وبليغا ذا شخصية قوية، ولأنه أدومي فكان، حريصا على إرضاء اليهود، على عكس جده هيرود، وفي سياق ذلك اضطهد الجماعات المسيحية الأولى حسب ما جاء في العهد الجديد، ولكن أغريبا مات بشكل مفاجئ سنة ٤٤ للميلاد، بعد أن حكم كملك على يهودا لمدة ثلاث سنوات، تاركا ثلاث بنات هن برنيكي ومريم ودورسيلا، وولداً وحيداً هو أغريبا الثاني، وعادت يهودا إلى سابق عهدها ولاية سورية يحكمها ناظر روماني.

كان أغريبا الثاني يقيم في روما، وتربى مع القيصر كلوديوس، ولما بلغ أغريبا الثاني من العمر الحادية والعشرين، عينه القيصر كلوديوس حاكما على خالكيس، ومشرفا أعلى على الهيكل اليهودي في أورشليم، واتخذ مقراً له في قيصرية فيلبس، ثم مُنح مملكة أكبر تقع إلى الشمال، والشمال الشرقي من فلسطين، ومنح لقب ملك روماني (دوكس) في سنة ٥٠ للميلاد.

وفي تلك المرحلة بدأت حمى الأفكار الخلاصية تستعر بين اليهود في فلسطين، والتي تبشر بمجيء المسيح ابن داود، وكثر المسحاء الذين كانوا يجولون في اليهودية، ومنهم يسوع بن حنانيا الذي كان يحذر الناس من قرب نهاية العالم، كما كان أيضا منهم ثيوداس الذي ادعى أنه المسيح المخلص، وقد التف حوله عدد غير قليل من المريدين، وقد انطلقوا وراءه نحو نهر الأردن كي يعبر بهم النهر كما عبر موسى وأتباعه البحر دون أن تبتل أقدامهم، لكن الحاكم الروماني لحق بثيوداس وبأتباعه، وقام بقطع رأسه قبل أن يصل النهر، وفرّق شمل مريديه، وترافق ظهور المسحاء في يهوذا، بانتشار مجموعة من القصص، والخرافات الشعبية عن حوادث خارقة، وعن حدوث معجزات، وقصص متنوعة عن المسيح، فالبعض كان يقول إن المسيح قد جاء وانتهى الأمر، وكانت تنتشر قصص عجائبه ومعجزاته، وهناك من قال إنه سيجيء عما قريب ، كما انتشرت فكرة مجيء مسيحين في آن واحد: مسيح مقاتل من

سلالة يوسف وهو الذي سيعيد اليهود المشتتين في العالم، ومسيح آخر من سلالة داود وهو الذي سيجيء بالخلاص والسلام، وازدادت الفوضى والبلبلات والاضطرابات، وبدت المنطقة على شفير هاوية، لا سيما وأن التفاوت الطبقي قد وصل إلى حده الأقصى، حيث تشكلت طبقتان اجتماعيتان شديدتا التفاوت.

في النصف الأول من القرن الأول الميلادي كان هناك ازدهار وثراء في اليهودية، مع تشكل طبقتين، طبقة دينية أرستقراطية شديدة الغنى، وطبقة من عامة الشعب شديدة الفقر، وكان هناك الكثير من الضرائب التي لم تأخذ بالحسبان وضع الفقراء، و لا سيما ضريبة الخمس على المزارعين التي كانت تُدفع إلى خزينة الهيكل، الذي تحول إلى دولة داخل الدولة، والتي كان يشرف عليها أغريبا الثاني، وكان الهيكل يضم عددا كبيرا من الموظفين فيه.

وفي تلك الفترة فرضت الإدارة الرومانية ضريبة العقارات التي زادت من فقر الفقراء، والتي شاركت، مع انتشار فكرة اقتراب نهاية العالم، بانطلاق عدة توترات بين اليهود والحكم الروماني، وأتت القشة من الناظر الروماني فلوريس سنة ٦٦ للميلاد، الذي قام بسلب سبع عشرة وزنة من ذهب خزينة الهيكل سدادا لضرائب متراكمة، فانطلقت شرارة الثورة في ولاية اليهودية، وقد أتت هذه الثورة في سياق تمردات انطلقت في أرجاء المحيط الروماني، وكانت مدينة أورشليم هي رمز هذه التمردات لأنها كانت مدينة كبرى، وهي المدينة المنيعة بموقعها الجغرافي الحصين بين مجموعة من الوديان، والتلال، وخلف سور ضخم مزود بـ ١٦٤ برج، ولم يستطع الناظر الروماني بجنده السيطرة على الوضع، ففر تاركا مدينة أورشليم، وولاية اليهودية بلا قانون، فدخلت إلى مدينة أورشليم الجماعات الثورية الريفية، وهاجمت الأسر الغنية والكهنوتية، وعلى أثرها فر أغريبا الثاني وأخته بيرنكي ابنا أغريبا الأول اللذان كانا مكروهين من قبل الشعب اليهودي، وبعد مدة دخلت الفصائل الثورية المسلحة بصراعات بينية، وانتشرت رقعة الحرب الأهلية.

وقد تم استدعاء قوات رومانية بقيادة فسبسيان، بأمر من نيرون إمبراطور روما، بعد عجز القوات المحلية عن السيطرة على الوضع العام، كما جاء جيش ثانٍ من الإسكندرية بقيادة تيتوس ابن فسبسيان، فهربت فصائل الجيش اليهودي الثوري الذي كان ينتشر في الريف إلى مناطق نائية، وحصينة، وقد التجأت بعض قيادات الثورة، مع بعض عناصرها إلى المغارات الحصينة في مرتفعات الجليل سنة ٦٧ للميلاد، والذي كان من بينهم سليل الكهنوت اليهودي يوسف فلافيوس (٣٧ - ٩٦م) المؤرخ اليهودي الشهير، والذي كان ضابطا، وقائدا في منطقة الجليل، والذي استطاع أن يهرب من المدينة التي كان يتحصن بها، والتي سقطت بيد الرومان، وتم قتل كل المدافعين

عنها، وقد التجأ يوسف إلى إحدى المغارات التي كان يختبئ فيها أيضا أربعون رجلا من الأعيان، وقد تبنى يوسف فكرة الاستسلام إلى القوات الرومانية بعد أن جاءتهم دعوة بالاستسلام من صديق روماني له، إلا أنه اضطر إلى الخضوع للقرار الجماعي الذي رفض فكرة الاستسلام، ولما أحكم الجيش الروماني الحصار على تلك الجماعة الثورية، اتخذت القيادة الثورية قرارا بالانتحار الجماعي، خشية أن يباعوا عبيدا، وكذلك الأمر لم يستطع يوسف أن يقنعهم بالعدول عن الانتحار، وقد أوكل إليه ترتيب عملية الانتحار، بحيث يقوم الثوار بقتل بعضهم ضمن ترتيب محدد، وقد تم هذا الترتيب بالقرعة، ولكن يوسفوس الذي أشرف على عملية القرعة، أبقى دوره إلى الأخير كي يشرف على العملية حتى نهايتها، ولما لم يبق سواه وجندي آخر، قام يوسفوس بإقناع الجندي بأن يسلّما نفسيهما لقوات روما، حيث ارتد يوسفوس عن اليهودية، ومُنح، من قبل السلطة الرومانية، صفة المواطنية الرومانية لمساعدته في سقوط الجليل، وهكذا فقد قام يوسفوس بدور النبي إرميا في الحرب اليهودية الأولى، على اعتبار أن يوسفوس كان يدرك حجم وقوة الرومان، واستحالة وقوف يهودا في وجهها مهما تحلى اليهود بالشجاعة، ولكنه لم يستطع أن يقنع اليهود من الدخول في مغامرة التمرد على روما التي انتهت بسقوط أورشليم وتدمير الهيكل الثاني، كما لم يستطع النبي إرميا أن يقنع اليهود بالعدول عن التمرد على بابل، والتي انتهت بسقوط أورشليم، وبتدمير الهيكل الأول.

بعد موت نيرون انتحارا في سنة ٦٨ للميلاد، توقفت الحرب لمدة عام بسبب الصراع السياسي على عرش روما، والذي انتهى بتعيين فسبسيان إمبراطورا على روما، وكان حينها فسبيسيان ما زال في فلسطين، والذي ذهب مباشرة نحو الإسكندرية حيث تم تنصيبه هناك إمبراطورا على الإمبراطورية الرومانية، ثم سافر إلى روما ليعتلي عرشها، تاركا ابنه تيتوس قائدا للجيش هناك.

وقد استطاع تيتوس أن يسيطر على الحركة الثورية في الريف، ومن ثم توجه سنة ٧٠ للميلاد إلى أورشليم ليسدد الضربة الأخيرة إلى الثورة، أو التمرد اليهودي، وقام تيتوس بإحاطة أسوار أورشليم الحصينة، والتي كان قد بناها هيرود، بسور من الجنود الرومان، إضافة إلى قوة عسكرية قوامها ألف فارس، وخمسة آلاف من المشاة بعث بها ملك الأنباط مالكو الثاني بن الحارث الرابع (٤٠ - ٧١م) لمساندة تيتوس.

كما كان مع القوة الرمانية كتيبة يهودية بقيادة أغريبا الثاني ابن أغريبا الأول (شقيق بيرنكي عشيقة تيتوس) الذي كان قد فر إلى الإسكندرية مع أخته بيرنكي ومعه بعض الجنود اليهود في بدء الثورة، وعاد على رأس كتيبة يهودية مع جيش تيتوس، وكان إلى

جانب تيتوس أيضا يوسفوس المؤرخ اليهودي الشهير، والذي وقف على جدار المدينة وخطب بالشعب اليهودي، وطلب منهم فتح الأبواب، والاستسلام مقابل الأمان لهم من تيتوس، وقد استطاع بعض أفراد الشعب الخروج من المدينة وانظمّوا إلى الرومان، لكن الكهنة والثوار رفضوا الاستسلام، ولما بدأ الرومان بقذف أبواب أورشليم بالمنجنيق لفتحها، وحسب رواية يوسفوس نفسه، قام اليهود بإشعال النيران في الهيكل، في الوقت الذي دخل فيه الجيش الروماني إلى المدينة بعد حصار استمر لمدة خمسة أشهر، وتابع الجيش الروماني إحراق المعبد بشكل نهائي، ولم يبق منه حجر على حجر، باستثناء قسم من الحائط الغربي الذي ما زال قائما حتى هذا اليوم (حائط المبكى)، كما أحرق الكثير من البيوت التي اختبأ فيها المتمردون، ويُقدّر عدد من قُتل من اليهود في تلك الحملة بـ خمسة وخمسين ألف إنسان، وكان يقدر عدد اليهود في فلسطين في تلك الفترة قرابة مليونين ونصف من أصل ثمانية ملايين في العالم، كان منهم مليون في سوريا وبابل ومصر وآسيا الصغرى، والباقي متناثراً في أنحاء العالم، وتذكر بعض المصادر أن من تم قتلهم في تلك الحرب قرابة ربع مليون يهودي، وإضافة إلى الأعداد الضخمة من القتلى، فقد قام تيتوس بأسر أعداد غفيرة أيضا، وقام ببيعهم كعبيد في أرجاء الإمبراطورية الرومانية، واقتاد البعض منهم إلى روما من أجل موكب النصر، وهناك أجبر بعضهم أن يصارعوا بعضهم الآخر حتى الموت، كما أجبر البعض على مصارعة الحيوانات المفترسة في مسارح روما، وقد تم تشييد قوسي نصر في روما كي يمر تحتهما تيتوس (قاهر اليهود) ابن الإمبراطور فاسبيسيان وما يزال أحدهما قائما حتى هذا اليوم، أما ما تبقى من اليهود في ولاية اليهودية، فقد أجبروا على دفع ضريبة الهيكل في أورشليم إلى معبد جوبيتر في روما، التي التجأ إليها أغريبا الثاني وأخته بيرنكي، وماتا فيها.

أما بالنسبة للمتمردين، من اليهود الغيورين، الذين كانوا قد حاصروا قلعة ماسادا سنة ٦٦ للميلاد في بداية التمرد اليهودي، والتي تقع بالقرب من الشاطئ الغربي للبحر الميت بقيادة مناحم الجليلي، الذي اغتيل في القدس على يد المتمردين في مرحلة لاحقة، وكان الثوار الغيوريون قد وعدوا الحامية الرومانية بالأمان فيما لو استسلموا، ولما كان لهم ذلك، قام الثوار الغيوريون بالغدر بالحامية الرومانية وقتلوهم جميعا، ولما استطاع تيتوس القضاء على التمرد في اليهودية سنة ٧٠ للميلاد، بقي المتمردون متحصنين في القلعة بقيادة إليعازر بن يائير (بن جابر)، على الرغم من سيطرة القوات الرومانية على كامل ولاية اليهودية، ثم قامت قوة رومانية بقيادة فلافيوس سيلفا سنة ٧٣ للميلاد بحصار القلعة (الماسادا) لمدة ٧٣ يوما، وقد رفض المتمردون الاستسلام لأن مآلهم سيكون القتل، كما كانوا قد فعلوا بأفراد الحامية

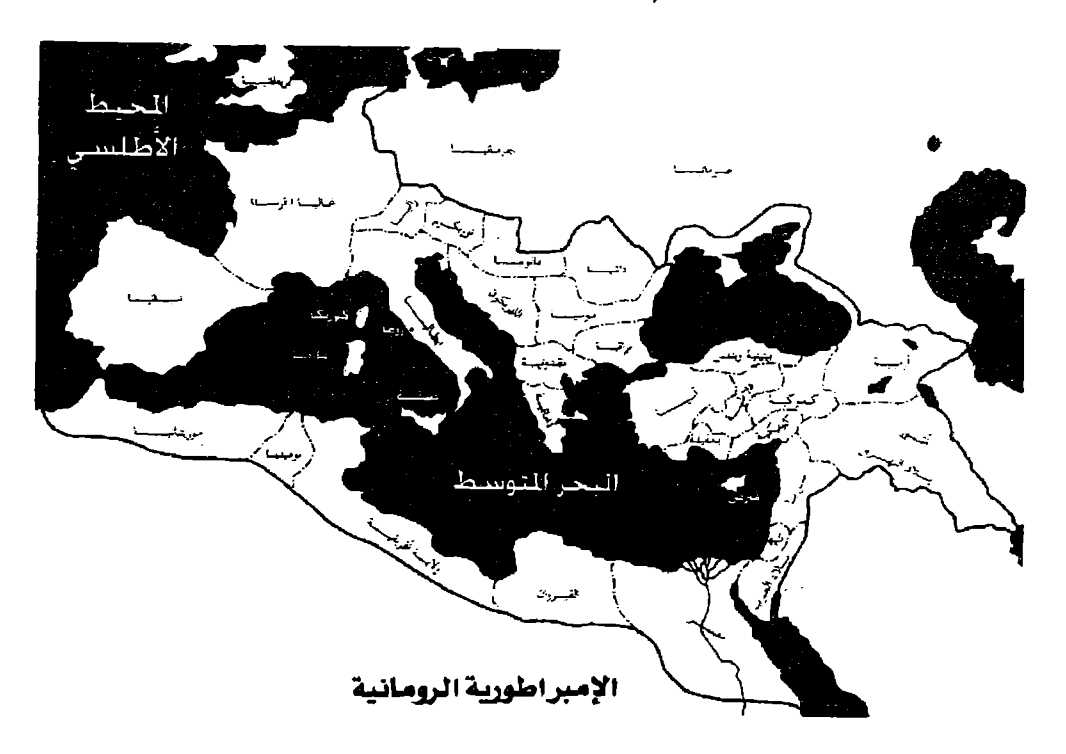
الرومانية حين استسلموا، وقد أقنع أليعازر بن يائير المتمردين أتباعه بالانتحار الجماعي بدل أن ينتقم منهم الرومان، وبعد أن أحرقوا المؤن، كي لا يستفيد منها الرومان، قام كل رجل منهم بقتل عائلته، ثم قام عشرة رجال بقتل من تبقى، ثم قام رجل بقتل التسعة ومن ثم انتحر، وبلغ عدد المنتحرين٩٦٠ إنسان، وقد نجا من هذه المجزرة امرأتان وأربعة أطفال، كانوا قد اختبؤوا، وهم الذين قاموا بنقل القصة التي أرخها يوسفوس (على ذمته)، وهذه القصة التي رويت بطريقة أقرب إلى القص الشعبي منه إلى الواقعية، ربما قام يوسفوس بتدبيجها، أو زخرفتها على أساس قصة حصار صور من قبل الفرس، وانتحار شعبها في مطلع القرن الرابع قبل الميلاد والتي سبق ذكرها، وما زالت حادثة ماسادا رمزا يهوديا مهما، وقد حولتها الصهيونية إلى أسطورة، وقامت سنة ١٩٦٩ للميلاد بدفن رمزي للمنتحرين.

وبعد هذه الضربة القاصمة استقرت الأمور في ولاية اليهودية، ولم يبق إلا القليل من الفقراء اليهود يعيشون في أورشليم، أما الأكثرية فكانوا يعيشون في الأرياف، وقد تحلّلت أكثر الفرق الدينية (الصدوقيون والأسنيون والغيوريون)، وتبنى الربانيون (المعلمون الفريسيون) القيادة الروحية لليهود، وشكلوا محفلا لهم في بلدة يمنيا على ساحل البحر المتوسط، ومن محفلهم تأسست الشريعة الشفوية (التلمود) وتشكّلت اليهودية التلمودية التي أسقطت أسفار الأبوكريفا (الأسفار غير القانونية).

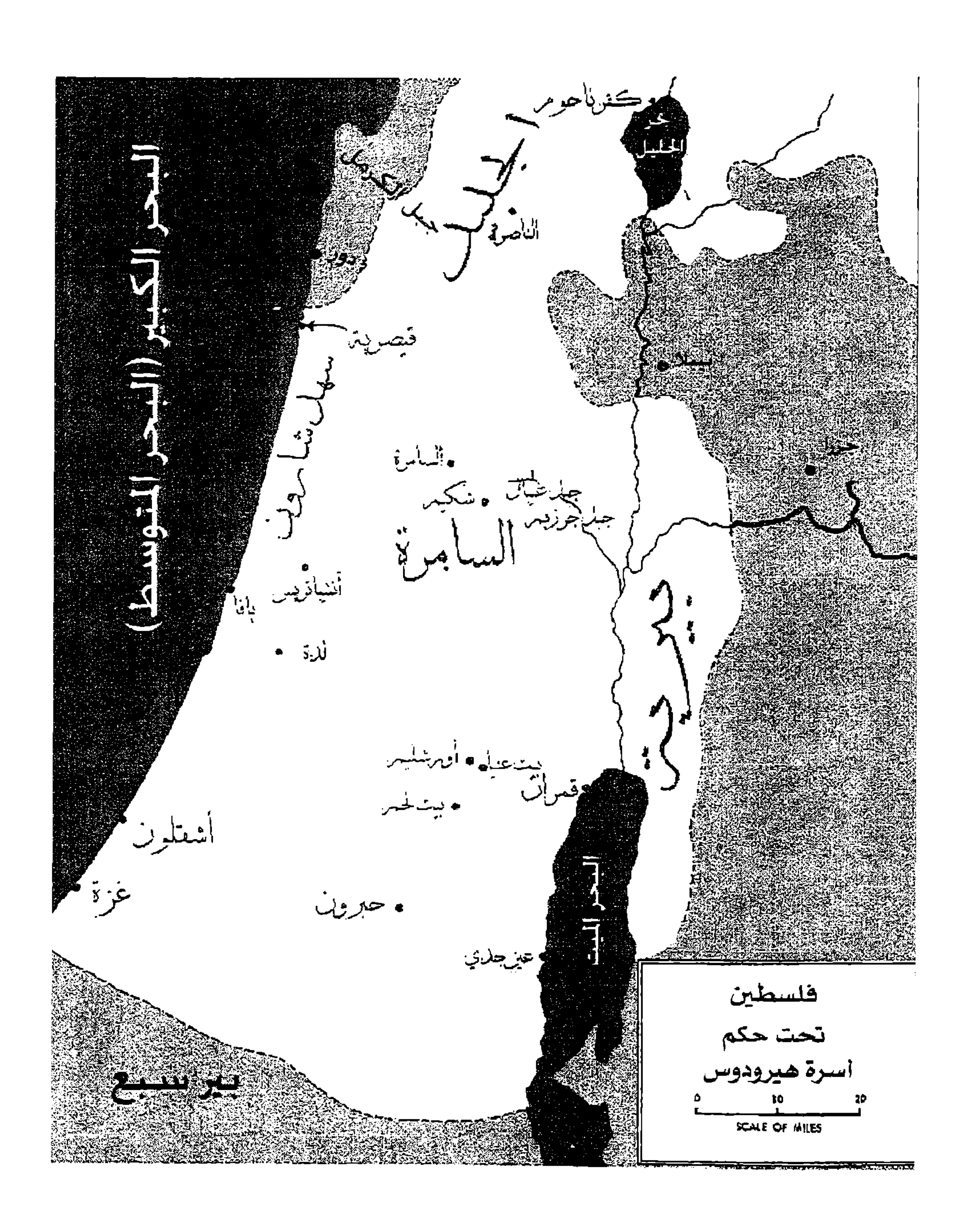
واستمرت الحياة مستقرة وهادئة في يهودا في عهد الإمبراطور نيرفا (٩٦ - ٩٨م)، في الوقت الذي شهدت أرجاء متعددة من الإمبراطورية الرومانية بعض الحركات الثورية اليهودية ضد الحكم الروماني، ابتدأتها الجالية اليهودية في ليبيا سنة ١١٥ للميلاد في عهد الإمبراطور الروماني تراجان (٩٨ - ١١٧م) الذي عانت في عهده الإمبراطورية الرومانية من حالة ضعف خلال حربه ضد الجرمانيين والغاليين، ثم انتشرت حركات التمرد إلى مصر وقبرص، وبنغازي، ومدن ما بين النهرين وقد تم قتل الآلاف من الرومان، واليونان، كما تم قمعها بشكل وحشي لا رحمة فيه، وقد وصلت حركات التمرد إلى مقاطعة يهودا في عهد الإمبراطور هادريان (١١٧ - ١٣٨م) سنة ١٣٢ للميلاد، وعلى الرغم من أن هادريان حاول أن ينظم جباية الضرائب التي كانت تشكل سببا مهما في اندلاع التمردات، كما أنه كان يتجاوب بمرونة مع التذمرات الشعبية في الأقاليم المترامية الأطراف، ولكن هادريان كان أشد قسوة من تراجان على الجماعات اليهودية و لا سيما في اليهودية، وهو الذي أمر، أثناء زيارته للمنطقة، ببناء مدينة يونانية (إيليا كبتولينا) على أنقاض مدينة أورشليم، كما أمر ببناء معبد لجوبتر على أنقاض هيكل أورشليم، وقد نصّب تمثالا له وهو يمتطي حصانه عند

قدس الأقداس، فقامت ثورة يهودية بقيادة الكاهن شمعون باركوخبا الذي اعتبره البعض حينها أنه المسيح المنتظر، والذي دخل القدس، مع الجماهير الغاضبة، وذبح المستوطنين الرومان، وأعلن اليهودية مقاطعة مستقلة استمرت ثلاث سنوات (١٣٢ - ١٣٥م)، وقد قام شمعون باركوخبا بإجبار المسيحيين على الختان والارتداد عن المسيحية إلى اليهودية، وردا على ذلك قام القائد العسكري يوليوس سفيريوس بشن حرب استنزاف ضد التمرد، واستطاع قمع حركة باركوخبا بشكل تدريجي، ابتداء بالريف الذي قام بتدمير ٩٨٥ قرية فيه، وانتهاء بأورشليم التي دخلها سنة ١٣٥م، وقبض على قادة التمرد، وقام بتسويتها بالتراب، في النهاية استولى على قلعة بيتار آخر الحصون اليهودية، وقتل فيها باركوخبا.

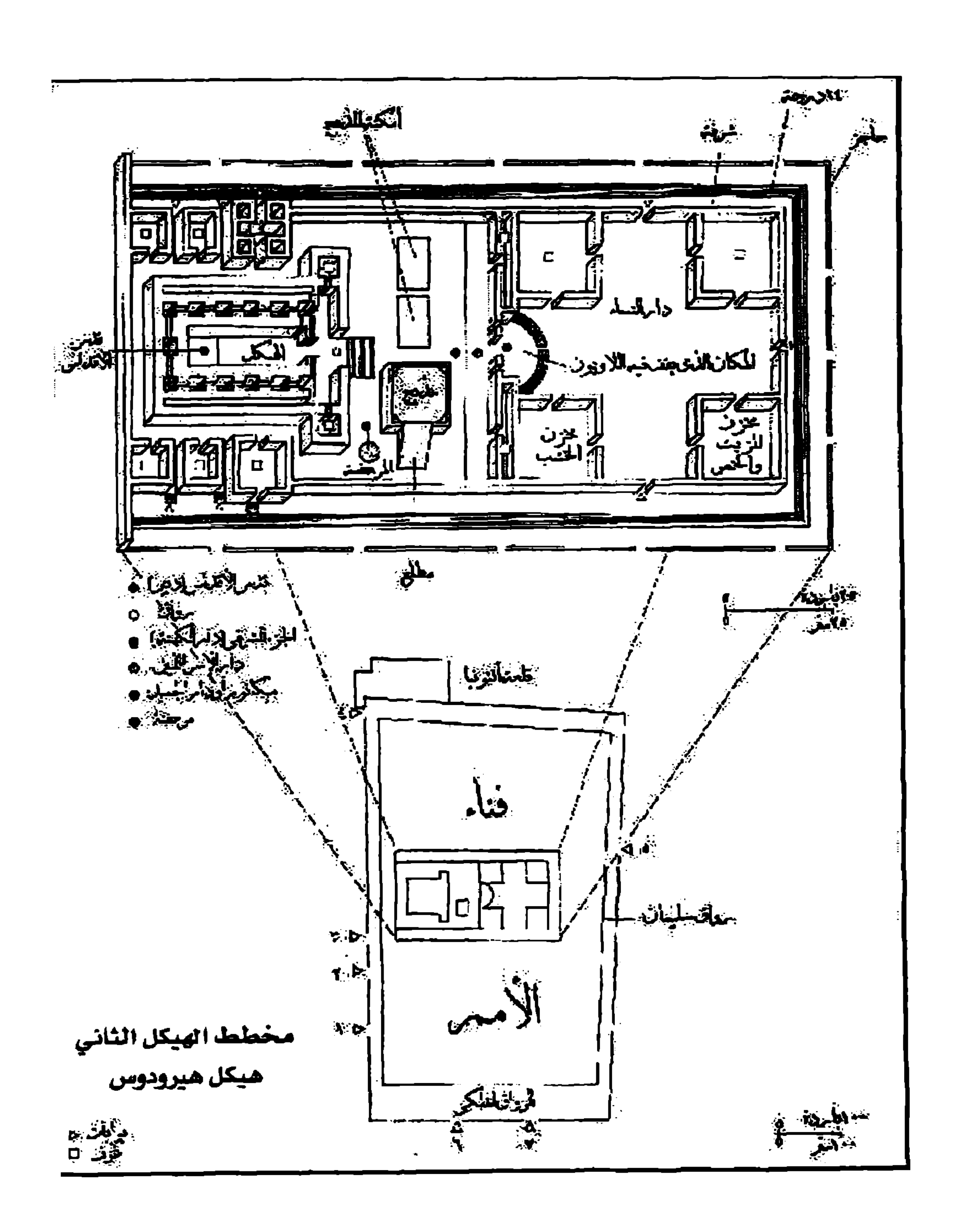
وتقدر بعض المصادر عدد من تم قتلهم من اليهود في هذا التمرد بـ ٨٠٠ ألف إنسان، وبعض المصادر الأخرى تقدر عددهم بـ ٥٨٠ ألف إنسان، أما ما تبقى منهم فقد تم بيعهم عبيدا في سوق النخاسة (وكان ثمن العبد اليهودي أقل من ثمن الحمار)، وحرّم، في إثر تلك الأحداث، على اليهود القيام بشعائرهم الدينية في أورشليم، وتم بناء مدينة فوق أساسات أورشليم وأسموها (إيليا كابيتولينا)، وبنهاية شمعون باركوخبا المسيح الأخير في يهوذا، بدأت المسيحية تنتشر في فلسطين، والعالم.



الإمبراطورية الرومانية



البحر الكبير (البحر المتوسط)
كفرناحوم
بحر الجليل
الجليل
جبل الكرمل
الناصرة
دور
قيصرية
سهل شارون
السامرة
شكيم
جبل عيبال
جبل جرزيم
السامرة
أنتيباتريس
يافا
لدة
بيرية
بيت عنيا
أورشليم
قمران
بيت لحم
أشقلون
غزة
حبرون
عين جدي
البحر الميت
بير سبع
فلسطين
تحت حكم
أسرة هيرودوس
0 10 20
SCALE OF MILES



مخطط الهيكل الثاني
هيكل هيرودوس

الباب الثاني

الشتات اليهودي

الفصل الأول

نبذة عن تاريخ فلسطين بعد الميلاد

مع بدء التاريخ الميلادي، وبعد أن سيطر الرومان على حركة التمردات التي شهدتها المنطقة في سياق القرن الميلادي الأول، وبداية القرن الميلادي الثاني سادت حالة من الهدوء في فلسطين تحت الحكم الروماني، ومرّ زمان طويل ظلت فيه كل الطرق تنتهي في روما، ولم تتغير الحالة إلا في بداية النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي حيث بدأت مظاهر تفكك الإمبراطورية بالبروز، ثم أخذت الحركات الشعوبية المتنوعة تنهش في أطراف الإمبراطورية، وهذا ما أتاح للفرس سنة ٢٦٠ للميلاد بقيادة سابور من التحرر من حكم الرومان، ومن ثم بدؤوا بالتوسع في محيطهم الجغرافي، وفي تلك الفترة استطاعت زنوبيا ملكة تدمر التاريخية أن تتوسع أيضا على حساب الأقاليم التي كانت تحت الحكم الروماني، والتي كانت تعاني حالة من التفكك، وأصبحت فلسطين تحت الحكم التدمري في سنة ٢٦٧ للميلاد، ولم تستطع روما أن تعيدها إلى سلطتها إلا بعد خمس سنوات.

ومرت السنون لتبدأ مرحلة انحطاط الإمبراطورية الرومانية التي في النهاية انقسمت سنة ٣٣٠م إلى شطرين:

شرقي: بقيادة القسطنطينية

وغربي: بقيادة روما

وقد تبنت القسطنطينية المسيحية الشرقية في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول (٢٨٨ - ٣٣٧م) الذي اعتنق المسيحية في بداية القرن الرابع الميلادي ثم جعلها العقيدة الرسمية للإمبراطورية سنة ٣٢٦ للميلاد، وقام بإنشاء عدة كنائس في فلسطين (الأرض المقدسة)، كما أن أمه هيلين التي أقامت في الأرض المقدسة أبدت اهتماما خاصا بها، وقد بنت كنيسة القيامة في أورشليم التي أصبحت محجا للمسيحيين، أما بالنسبة لليهود فقد سمح الإمبراطور

قسطنطين لهم بدخول المدينة لينوحوا على حائط المبكى بذكرى سقوطه، ولكنه بالوقت نفسه منعهم من التبشير باليهودية، كما أنه منعهم من ختن العبيد المسيحيين والتزاوج مع المسيحيين، وقد تنصر الكثير من اليهود بعد هذه القرارات.

وبين عامي ٤٨٤ و ٥٢٩ للميلاد قام السامريون بعدة تمردات على سلطة روما، وقد نجحوا من خلال أحد التمردات من إعلان ملكا عليهم، ولكن سرعان ما تم إخماد هذا التمرد.

وفي عهد الإمبراطور يوليانوس الذي ارتد عن المسيحية، والذي دعا بعض يهود الشتات أن يعودوا إلى أورشليم ليعيدوا بناء الهيكل على نفقة الخزانة الرومانية، ولكن الحرب التي أعلنها الفرس على روما حالت دون تنفيذ رغبته، وقد استطاع الفرس الساسانيون غزو سوريا سنة ٦١١ للميلاد، ودخلوا فلسطين سنة ٦١٤ بمساعدة اليهود أثناء حكم كسرى الثاني ابرويز (٥٩٠ - ٦٢٨م)، وكان يقدر عدد اليهود في فلسطين في تلك الفترة نحو ٢٠٠ ألف يهودي، ولكن الإمبراطور هرقل، الذي تصدى للتوسع الفارسي، استطاع من خلال عقد اتفاق معهم سنة ٦٢٩م أن يسترجع الولايات الشرقية، بما فيها إيليا كابيتولينا (أورشليم) إلى السيادة الرومانية.

وفي سنة ٦٣٨ للميلاد، وبعد معركة اليرموك الشهيرة التي دارت رحاها بين العرب المسلمين، وبين القوات الرومانية، استسلمت إيليا كابيتولينا للخليفة عمر بن الخطاب، والذي دخلها سنة ٦٣٧ للميلاد، وقد تقدم مسيحيو إيلياء (أورشليم) إلى الخليفة عمر بطلب ينص على منع اليهود من السكنى في أورشليم، وقد وافق عمر على هذا الطلب، ولكنه سمح لهم بالدخول إليها لأداء شعائرهم الدينية، لا سيما وأن اليهودية، في مراحل لاحقة، وبتأثير من شعيرة الحج الإسلامية، جعلت من حائط المبكى محجا يهوديا.

وفي سنة ٦٩١ للميلاد بنى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قبة الصخرة فوق القمة الصخرية لهضبة القدس الشرقية، التي يعتقد أن الرسول محمد قد عرج منها إلى السماء.

وهنا يتوقف، وبشكل نهائي، كل ارتباط لليهود ببيت المقدس (أورشليم) وبفلسطين ككل، ولكن العهد الإسلامي سرعان ما دخل في مرحلة من التشتت والتفتت بعد العصر العباسي، وتسلط الشعوب الفارسية والتركية على الأمة الإسلامية، ولم يكن من هم لدى قادة المسلمين سوى تسمياتهم، وألقابهم، وتوسيع ممالكهم، دون أن يكون لديهم أدنى مسؤولية بالمفهوم الحضاري العام.

أما بالنسبة لفلسطين على وجه الخصوص فقد تعاقب على حكمها كل من الأمويين، ثم العباسيين، ثم الفاطميين، ثم السلاجقة، ثم الأتراك، ولأن لفلسطين خصوصية دينية بالنسبة للديانات السماوية الثلاث، وبسبب المطامع الاقتصادية الجغرافية فيها، فقد كانت فريسة للصراع بين الشرق الإسلامي، والغرب المسيحي الذي جاء بقواته الصليبية عبر عدة حملات، وقد استطاعت القوات الصليبية، وكان أغلبهم من الفرنسيين الذين سماهم العرب الفرنجة، أن تصل إلى بيت المقدس (أورشليم)، بعد مذبحة كبيرة بلغ عدد القتلى فيها قرابة سبعين ألفاً حسب بعض الروايات، واستطاع الصليبيون أن يؤسسوا مملكة أورشليم اللاتينية سنة ١٠٩٩م.

ولكن الخلافات والصراعات التي اندلعت بين القيادات البيزنطية والصليبية، مكّنت المسلمين آنذاك تحت قيادة الأيوبيين الذين تجمعوا تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي، وبعد عدة مواجهات انتهت بمعركة حطين سنة ١١٨٧م، التي انتصر فيها المسلمون، وأسروا ملك أورشليم بالذات، وطردوا القوات الصليبية الذين استطاعوا أن يتحصنوا في مدينة صور، ولكنهم استطاعوا أن يتوسعوا ثانية، بعد أن تمددوا على الساحل الشرقي للمتوسط، نحو الداخل السوري، وبعد ضعف، وتشتت القيادات الإسلامية، وحسب اتفاقيات أبرمت سنة ١٢٢٩م بين الطرفين، خضعت القدس ثانية للصليبيين، عدا الحرم القدسي (المسجد الأقصى وقبة الصخرة) الذي كان تحت سيطرة الأيوبيين ورثة صلاح الدين، الذين عادوا واستردوا القدس كاملة سنة ١٢٣٩م، ثم، وحسب اتفاق آخر خضعت مرة أخرى للفرنجة، ولكن المسلمين الخوارزميين سيطروا عليها سنة ١٢٤٤م، وكان هذا آخر عهد للصليبيين في القدس الذين حوصروا على الشريط الساحلي، في الوقت الذي بدأ فيه حكم المماليك للبلاد، حيث في عهدهم اجتاح المغول المنطقة، ودمروها بشكل خاطف، ولم يوقف تقدمهم إلا بيبرس، الذي استطاع في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠م، أن ينتصر عليهم، وبعدها استطاع بيبرس أن يتفرغ للصراع مع الفرنجة، وأن يطردهم من البلاد، وأن يحاصرهم في مدينة عكا، والتي ظلت مع صور القلعتين الحصينتين لهم، وفي النهاية سقطت عكا سنة ١٢٩١م بيد المماليك الذين دخلوا في صراع مع التتر والمغول من جهة، وفي صراعات بينية من جهة أخرى، أدت إلى استلام المماليك البرجية (الشركس) السلطة، والذين تصارعوا مع القوى التركية العثمانية الجديدة، والذين اجتاحوا المنطقة في بداية القرن السادس عشر الميلادي، أما بالنسبة لفلسطين والتي كانت قد شهدت ازدهارا في عهد الأيوبيين والمماليك، عادت

للتراجع عمرانيا واقتصاديا كباقي البلدان، وبخاصة في العهد الثاني للمماليك، وقد وصلت إلى أسوأ مرحلة في تاريخها.

أما العثمانيون الذي كانوا قد توسعوا شمالا وغربا، استطاعوا في النهاية أن يستولوا على القسطنطينية منهين بذلك الإمبراطورية البيزنطية سنة ١٤٥٣م، ثم قاموا بمد نفوذهم نحو أوربا، ثم توجهوا شرقا نحو إيران التي كانت تحت حكم الصفويين، وجنوبا نحو بلاد الشام ومصر المملوكية في عهد سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠م)، والذي استطاع أن يمدد الإمبراطورية العثمانية على ثلاث قارات هي أوربا وآسيا وأفريقيا، وأصبحت اسطنبول، بعد دمشق، ثم بغداد، ثم القاهرة عاصمة المسلمين، وإن كانت الإمبراطورية العثمانية قد تشكلت خلال مرحلة قصيرة نسبيا، فإن انهيارها تدرج قرابة ثلاثة قرون بحيث استحقت لقب (رجل أوربا المريض)، في الوقت الذي بدأت فيها النهضة الأوربية بالتصاعد تاريخيا.

وفي القرن السابع عشر للميلاد، بدأت الثورات وحركات التمرد في بلاد الشام، وقد ابتدأها المعنيون الدروز في جبل لبنان، الذين استطاعوا أن يؤسسوا إمارة مستقلة، ولكنها سرعان ما انتهت.

أما في القرن الثامن عشر الميلادي فقد استطاع المماليك أن يعودوا إلى استلام السلطة في مصر على يد محمد علي بك، وأيضا تسلّمت عائلة العظم الشامية ولاية دمشق، وفي فلسطين استطاعت عشيرة الزيادية البدوية بقيادة ظاهر العمر أن تبسط نفوذها على فلسطين وأجزاء من لبنان، والذي بتحالفه مع محمد علي بك استطاعا أن يدخلا دمشق، وبمساعدة الأسطول الروسي الذي قام بقصف بيروت سنة ١٧٧١م، ولكن أحمد باشا استطاع أن ينهي سلطة ظاهر العمر، وقد مُنح ولاية عكا مكافأة له، والذي وسّع نفوذه فضمّ لبنان وأجزاء من سوريا، ووصل حتى حدود مدينة دمشق على فترات متقطعة متمردا على الباب العالي، ولكن حملة نابليون التي استطاعت أن تنزل على شواطئ فلسطين وتحتلها، حاصرت أحمد باشا في عكا، والتي أعطته شهرته بصموده أمام حملة نابليون (١٧٩٨ - ١٨٠١م)، ولكن مساعدة الأسطول الإنكليزي لأحمد باشا من جهة البحر، والجيوش العثمانية من جهة البر، والطاعون من جهة ثالثة، أُجبر نابليون على الانسحاب والنكوص إلى مصر، حيث هناك استطاعت القوات المحلية المصرية بالتعاون مع الإنكليز من إنهاء مغامرة نابليون، وعادت مصر إلى السلطان العثماني سنة ١٨٠١م، إلا أن هذه الحملة، والتي أتت بعد مدة طويلة من الحملات

الصليبية، وعلى الرغم من انكسارها، فقد فتحت شهية أوربا ثانية ككل إلى المنطقة العربية.

وبعد اندحار حملة نابليون عاد الجزار إلى هيمنته على المنطقة حتى مات سنة ١٨٠٤م، حيث اندلعت عدة انتفاضات ضد حكم دمشق بدعم من محمد علي بك، في الوقت الذي بدأت تصل إليها طلائع الحركة الوهابية من الجزيرة العربية، ولكن الصراعات الداخلية للزعامات القبلية سمحت لمحمد علي، الذي كان قد أنهى الحركة الوهابية، أن يمتد بقيادة ابنه إبراهيم باشا نحو بلاد الشام، وكانت فكرة حفر قناة السويس قد أعطى منطقة فلسطين أهمية عالمية خاصة تضاف إلى أهميتها الدينية، وفي الوقت الذي بدأ فيه المفهوم القومي العربي يتبلور، كانت الحركة اليهودية أيضا تستنهض ذاكرتها، وبدأت بدفع المستوطنين اليهود نحو فلسطين اعتبارا من سنة ١٨٨٢م.

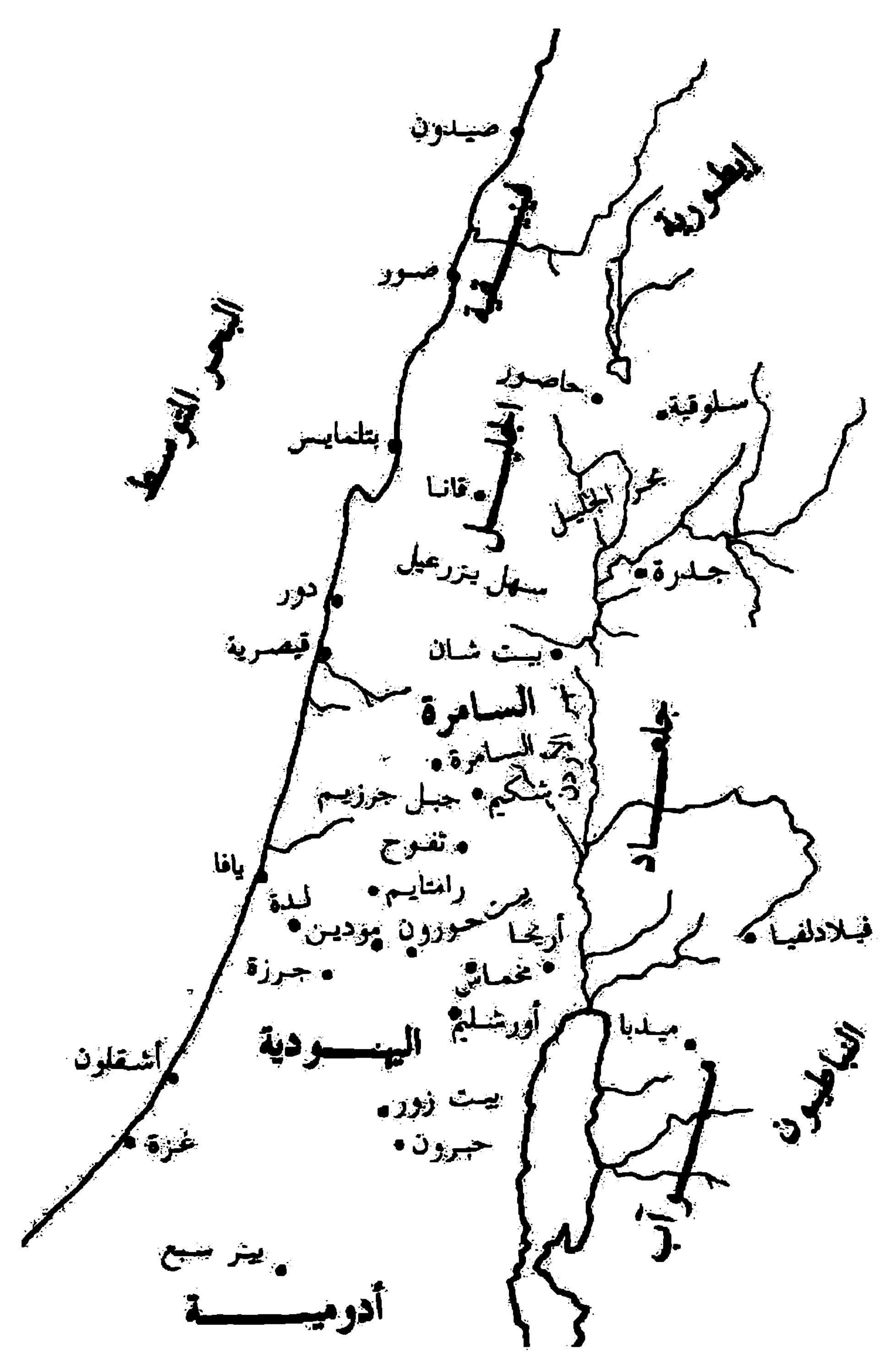
أما إبراهيم باشا فقد استطاع، بعد أن سقطت بلاد الشام بيده، أن يمتد شمالا، وتوقف بعد معاهدة كوتاجيه سنة ١٨٣٣م، وبها تم اعتراف السلطان محمود الثاني بحكم محمد علي الوراثي على مصر وبلاد الشام وأضنة، التي شهدت ازدهارا قصيرا سرعان ما انتهى باندلاع الثورات والتمردات في المنطقة الوسطى من فلسطين بتحريض من بريطانيا، بعد أن كان محمد علي قد وقّع اتفاقيات تعاون مع فرنسا، الأمر الذي أثار حفيظة بريطانيا، وقد بدأت الثورة سنة ١٨٣٤م في منطقة القدس وامتدت لتشمل فلسطين، ولكن إبراهيم باشا، الذي أتته الإمدادات من مصر، استطاع أن يكبح جماح الثورة، وأن يتفرغ للصراع مع العثمانيين، والذي كاد أن يجهز عليهم لولا مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠م الذي عقد لإنقاذ الرجل المريض من يد رجل فتي قد يصعب صراعه لاحقا، وقد شارك في المؤتمر كل من روسيا والنمسا وبروسيا، وتغيبت فرنسا التي كانت تقف إلى جانب محمد علي، وقد وجه المؤتمر إنذارا إلى محمد علي للانسحاب من الأراضي التي استولى عليها، وقد رفض محمد علي هذا الإنذار، فهاجمت أساطيل بريطانيا والنمسا الساحل السوري واحتلته، ووصلت حتى مدينة عكا، مما اضطر جيش محمد علي للانسحاب جنوبا، أمام تقدم الجيش العثماني الذي وصل إلى فلسطين، واحتل مدينة القدس، وخرج بذلك محمد علي من بلاد الشام بعد تسع سنوات من دخولها (١٨٣١ - ١٨٤٠م)، بعد أن كان إبراهيم باشا قد أحدث بعض التغيرات الإدارية المهمة، وكان على رأسها السماح للبعثات التبشيرية الدينية الثقافية الغربية بالقدوم إلى المنطقة، والأهم من ذلك سمح للإنكليز بفتح قنصلية لهم في القدس، الأمر الذي أجبر السلطان العثماني أن يسمح لباقي الدول الأوربية أن تفتح لها قنصليات أيضا بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية، والتي أخذت تتدخل بالشؤون

الداخلية للمنطقة، وهذا ما جعل السلطان العثماني سنة ١٨٧٣م، يُعَدّ مدينة القدس التابعة لولاية سوريا، إدارة مستقلة، وتابعة إلى اسطنبول مباشرة، للسيطرة على الوضع الأمني فيها، ومراقبة نشاط القنصليات الأجنبية، والتي كانت تقوم بدور قيادي من خلال الكواليس، كما أنها كانت تعمل على إثارة الفتن والصراعات المحلية بين الطوائف والقبائل، من خلال تقديمها المال والسلاح للأطراف المتصارعة.

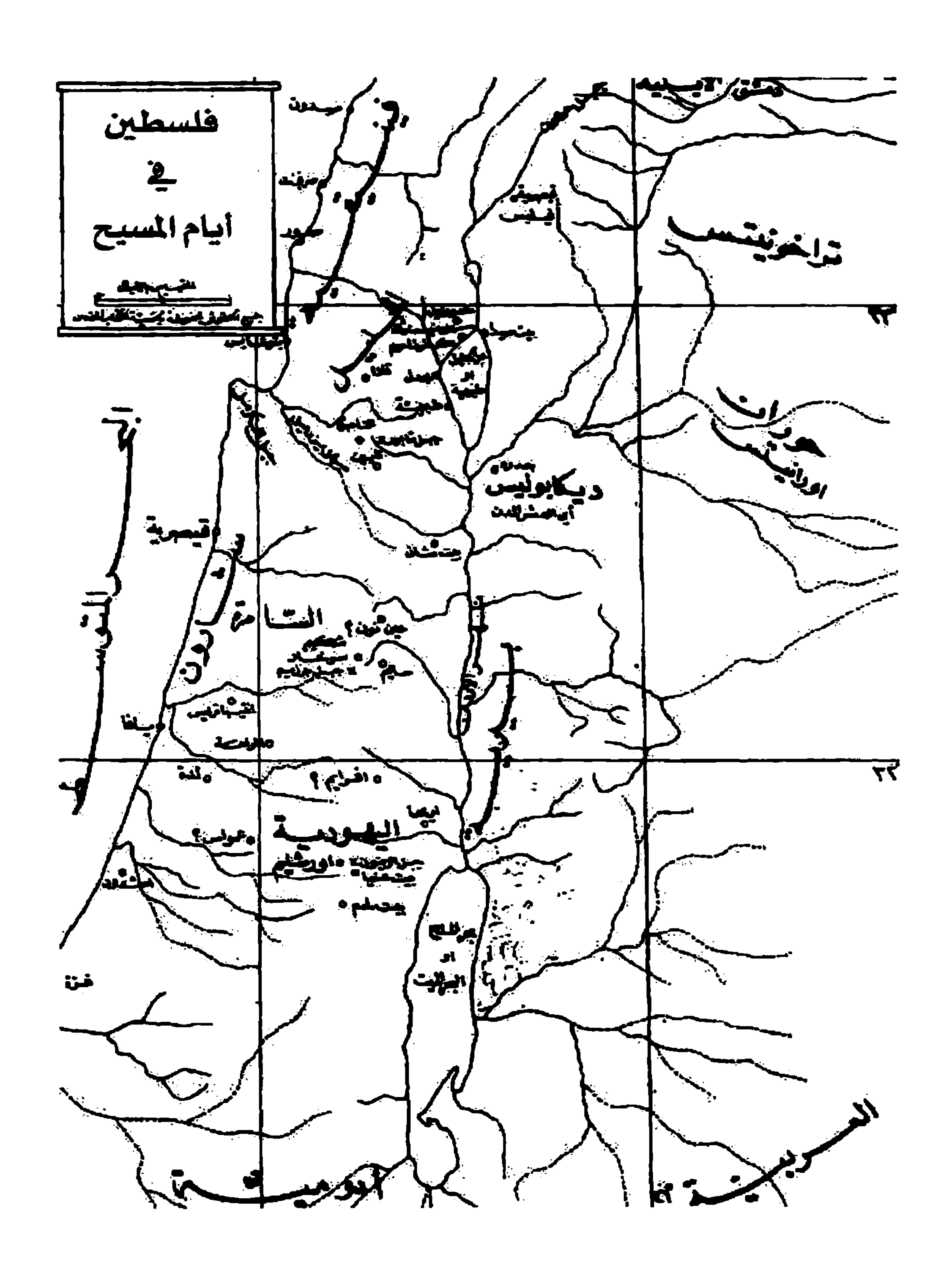
وأهم ما قامت به تلك القنصليات هو تبني، وحماية الجالية اليهودية، التي بدأت بالتزايد من خلال قدومها من أوربا، وبخاصة إلى مدينة القدس، في الوقت الذي كانت فيه الصهيونية تدفع بهم إلى فلسطين (أرض الميعاد)، وكانت تتم حمايتهم وتحصينهم على اعتبارهم من الجاليات الأجنبية، كما أن القنصليات كانت تُعَدّ أو تتعامل مع المسيحيين العرب مثلهم مثل الجاليات الأجنبية، فكانت طائفة الروم الأرثوذكس تحت حماية القنصلية الروسية، أما الطائفة الكاثوليكية فكانت تحت حماية القنصلية الفرنسية، ولما لم يكن في فلسطين طائفة بروتستانتية، فقد قامت كل من بريطانيا وبروسيا بإنشاء مطرانية بروتستانتية في القدس سنة ١٨١٤م، والتي قامت بأعمال تبشيرية استقطبت من خلالها بعض المسيحيين العرب (الأرثوذكس والكاثوليك)، ومع مجيء البعثات التبشيرية على اختلاف طوائفها، توافدت أيضا الجمعيات الأثرية التي أتت للبحث عن آثار التوراة، ومع هذه النشاطات المتعددة حصل ازدهار سكاني وصل في سنة ١٨٨٠م إلى قرابة النصف مليون، وكانت الدول الأوروبية، في هذا السياق، توظف البعد الديني في خطابها السياسي من أجل أهدافها الاستعمارية.

وفي الوقت الذي بدأت الأحداث تنبئ بقرب لفظ الأنفاس الأخيرة (للرجل المريض)، وبنهاية مرتقبة لآخر إمبراطورية من القرون الوسطى، ترافق ذلك مع بدء تنامي الوعي القومي العربي، بعد أن تم استنفاذ مفهوم الأمة الإسلامية التي دفعت من خلاله الأمة العربية قرونا من التخلف الحضاري منذ العصر العباسي الثاني، فبدأت تتشكل الجمعيات والمنظمات السرية، وقد تم إصدار الصحف والمجلات، وطبعت أمهات الكتب التراثية، وقد دفعت بعض الشخصيات العربية حياتها ثمنا من قِبَل الباب العالي الذي لاحقهم، وبخاصة في عهد السلطان عبد الحميد.

وبعد الحرب العالمية الثانية، وتفكك الإمبراطورية العثمانية، وحسب اتفاقية سايكس بيكو، أصبحت فلسطين خاضعة لقوات الانتداب الإنكليزي، التي هيأت المنطقة ليتمسرح عليها وعد بلفور لليهود بشكل عام، وللصهيونية بشكل خاص، والتي استطاعت أن تعلن قيام دولة إسرائيل يوم ١٥ - ٥ - ١٩٤٨.



أرض إسرائيل فيما بين العهدين


فلسطين
في
أيام المسيح
قيصرية
يافا
افرايم ؟
اليهودية
أريحا
اورشليم
بيت لحم
طبرية
ديكابوليس
تراخونيتس
العربية
٣٣
٣٢

نبذة عن تاريخ
الشتات اليهودي

لقد تعرض الإسرائيليون، واليهود من بعدهم إلى أكثر من عملية تهجير وسبي عبر تاريخهم، كان أهمها، وأولها السبي الآشوري سنة ٧٢١ق.م، حيث تم ترحيل الآلاف منهم، وإسكانهم في مناطق متعددة من الشرق الأدنى القديم، ثم السبي البابلي، والذي تم على عدة مراحل، ومن لم يسبَ من سكان يهوذا إلى بابل، فر إلى مصر، ولكن الضربة الكبرى التي تعرض لها اليهود كانت على يد الرومان سنة ٧٠ للميلاد، وتبعتها ضربة أخرى سنة ١٣٥م، حيث من هناك تناثروا، أو تشتتوا في أرجاء الإمبراطورية الرومانية التي كانت ممددة عبر القارات القديمة الثلاث، وبخاصة في قارة أوربا.

وقد تعرضت الجماعات اليهودية بعد سنة ٧٠ للميلاد إلى بعض الاضطهادات في أنحاء متفرقة من الإمبراطورية الرومانية، كما عانى المسيحيون أيضا نفس الاضطهادات بصفتهم فرقة يهودية، وعلى الرغم من أن الجماعات اليهودية، والمسيحية كانت تتعرض إلى اضطهادات مشتركة على اعتبارهم جماعات دينية، فقد كان هناك تنافس، وعداوة دينية بين الجماعات اليهودية، والمسيحية، ولكن تنصر، أو تمسح السلطة الرومانية على يد الإمبراطور قسطنطين، جعل الاضطهادات الرومانية للجماعات اليهودية، اضطهادات ذات طابع ديني (مسيحي)، وأولى الاضطهادات الرومانية المسيحية جاءت في عهد الإمبراطور قسطنطين الذي أمر بمنع التبشير اليهودي، وإغلاق المعابد اليهودية، ومنع تقديم الأضاحي، ومنع ختان عبيد اليهود، ومنع اليهود من الدخول إلى أورشليم (إيليا كابتولينا) إلا لمرة واحدة في السنة للبكاء على حائط المبكى في الذكرى السنوية لسقوط أورشليم يوم التاسع من آب مقابل دفع ضريبة على ذلك.

وفي عهد الإمبراطور كونستانس تم طرد اليهود من مقاطعة يهودا، ومن طبريا، وحتى من فلسطين كاملة، كما حرم اليهود من حقوق المواطنية الرومانية، وفي عهد غالوس ابن شقيق كونستاس تململ اليهود قليلا، وكما لو أنهم سيقومون بحركة تمرد واسعة، لكن

السلطة في روما قامت بقمعهم بشدة، وتم قتل الكثير من النساء والشيوخ والأطفال في فلسطين، وهدمت الكثير من منازل اليهود في طبريا، أما صفورية فتم مسحها مع الأرض.

وفي عهد الإمبراطور فوكاس قام اليهود في إنطاكية بالهجوم على المسيحيين وذبحوا البطريرك، فقام الرومان بالرد عليهم وقاموا بذبح وطرد الكثير منهم.

وعندما قام الملك الفارسي خسرو الثاني بشن الحرب على البيزنطيين، شكل اليهود مجموعة عسكرية أثناء تلك الحرب، وقد قام الجنود اليهود بقيادة بنيامين الطبري بالانتقام من المسيحيين في فلسطين وقاموا بحرق الكنائس، والأديرة، كما قاموا أيضا بنهب مدينة أورشليم، وقد نعمت ولاية اليهودية لمدة أربعة عشر عاما بإدارة شبه مستقلة، وفي تلك الفترة تهوّد الكثير من مسيحيي فلسطين، وعندما تسلّم هرقل السلطة اتفق مع بنيامين الطبري على شن حرب ضد خسرو، مقابل أن يعطي اليهود بعض الميزات، ولكن هرقل، وبعد أن استعاد المقاطعات البيزنطية، نكث بوعده بتحريض من المسيحيين.

ولما تسلّم الإمبراطور جوليان الذي ارتد عن المسيحية، أراد أن يعيد بناء هيكل أورشليم، ولكن اليهود لم يكونوا متشجعين لهذا العرض، لأن إعادة بناء الهيكل، في تلك الفترة، قد ارتبط بشكل لاهوتي بمجيء المسيح.

وإلى جانب هذه الأحداث، فقد كان اليهود يقومون بأعمال تبشيرية في الأماكن التي يصلون إليها، وقد ساهموا، أو كانوا عنصرا مهما في تشكيل مملكة الخزر التي تكونت من ائتلاف جماعات وثنية مغولية كانوا قد قدموا في القرن الأول الميلادي من آسيا عبر شمال بحر قزوين، واستقروا في شرق أوربا، وانضمت إليهم جماعات تركية، وفنلاندية، وهناك استطاعوا أن يستوطنوا، ويتمددوا عبر الغزوات، ويسيطروا على المنطقة الواقعة غربي جبال الأورال، وشمالي البحر الأسود في القرن الثاني الميلادي، وقد قدمت جماعات يهودية إبان الاضطهاد البيزنطي أثناء حكم جوستنيان الأول (٥٤٧ - ٥٦٥م)، وأثناء حكم هرقل في القرن السابع الميلادي، وقد انضموا إلى جماعات يهودية قديمة كان مثراديتس الأكبر قد استقدمهم، ووطنهم حول مضيق البوسفور، وقاموا بأعمال تبشيرية واسعة بعد أن تشكلت مملكة الخزر في القرن السابع الميلادي، حتى أن ملك الخزر الخاقان بيلان (٧٨٦ - ٨٠٩م) كان قد تهود، وتهود معه أربعة آلاف من النبلاء، وتبعهم الكثير من رعاياهم، ولكن هؤلاء المتهودين احتفظوا إلى جانب يهوديتهم بالكثير من طقوسهم ومعتقداتهم الشامانية الوثنية البدائية، إلى جانب تصوراتهم التراثية المغولية - التركية، والمعتقد الشاماني يقوم على وجود عالم محجوب يعيش فيه الآلهة، والشياطين، وأرواح الأجداد، والشاماني فقط هو الذي يتكشف له هذا العالم المحجوب، وكان الخزر ذوي بشرة

بيضاء وعيون زرقاء وشعر محمر، وقد دارت عدة معارك بين المسلمين والخزر منذ سنة ٦٤٢م، بعد أن أصدر عمر بن الخطاب أمرا بالهجوم على عاصمتهم (بالانجار)، ولكن المسلمين فشلوا في ذلك، واستشهد قائدهم سنة ٦٣٥م، وقامت حرب أخرى سنة ٧٢٢م، وانتهت سنة ٧٣٧م بهزيمة الخزر على يد مروان بن محمد، وحينها أسلم قائدهم خاقان الخزر، وأسلم معه الكثير من رعاياه، وهكذا أصبح الشعب الخزري يعتنق أربع ديانات، هي: الشامانية الوثنية وهي ديانة الجماعات الخزرية الأولى، واليهودية، والمسيحية، والإسلامية، وقد كان الجهاز القضائي الخزري يضم سبعة قضاة (يهوديان، ومسيحيان، ومسلمان، وشاماني واحد)، ولكن الأمويين الذين كانوا يعانون خلافات داخلية لم يستطيعوا القضاء على مملكتهم، وقد ارتد خاقان الخزر عن الإسلام، وبسبب الضغط الإسلامي تم نقل عاصمتهم إلى (أتل) عند مصب نهر الفولغا، وبقيت مستقلة حتى القرن العاشر حتى استطاع أمير كييف سفياتوسلاف سنة ٩٦٥م من دحرهم وتدمير عاصمتهم أتل، وإنهاء تشكيلهم الإمبراطوري، الأمر الذي قلّص الوجود الخزري إلى أدنى درجاته، حتى سقطت المملكة الخزرية نهائيا على أيدي الروس في بداية القرن الحادي عشر، ويقال أن خاقان القصر في تلك الفترة اعتنق الإسلام كحالة تحالفية مع المسلمين، وفي النهاية جاء التتار في حدود سنة ١٢٢٧م بقيادة جنكيز خان، وقاموا بتشتيت الخزر نهائيا سنة ١٢٤٧م، حيث انتشروا في أوربا الشرقية، وخاصة في بولندا وليتوانيا وهنغاريا ودول البلقان، بعد خمسة قرون من تواجدهم السياسي، والذين قد بلغوا قمة مجدهم فيما بين القرنين الثامن والعاشر الميلاديين.

ويُعَدّ أغلبية يهود أوربا الشرقية من اليهود الخزر، وهم الذين، وبسببهم، تشكلت الصهيونية، التي استطاعت أن تنشئ دولة إسرائيل في فلسطين، والطريف ذكره أن الصهيونية تسوّق دولة الخزر إعلاميا على أنها هي القوة التي وقفت في وجه الزحف الإسلامي نحو أوربا، وهي التي حالت دون أن تطبق الكماشة الإسلامية على القارة الأوربية، وتمن الصهيونية على الحضارة الأوربية بذلك، والتي حسب رأيها أنه لولا دولة الخزر لكانت الآن أوربا قارة مسلمة ترزح في تخلفها، فاليهودية هي التي حمت المسيحية الأوربية من الإسلام العربي، وعلى المسيحية الآن أن ترد الجميل لليهودية وأن تناصرها في حربها ضد الإسلام في فلسطين.

أما في أوربا الغربية فقد كانت الجماعات اليهودية مشتتة، دون أي حراكية تاريخية لهم في الألفية الأولى بعد الميلاد، ومع بداية الألفية الثانية، وبسبب أخلاقيات اليهود السيئة، ولا سيما الاستغلال المالي الربوي، وتهمة الدم التي كانت تلاحقهم حيث حلوا، فقد عانت الجماعات اليهودية، ما بين القرن الثامن الميلادي وحتى عصر النهضة، من عدة أعمال اضطهادية من قبل السلطات الرسمية، ومن قبل الشعوب الأوربية، تم طرد اليهود من أكثر الدول التي عاشوا فيها،

كما أن الدول جميعها كانت، بعد طردهم، تسن الأنظمة والقوانين التي تحرم عليهم الدخول إليها، ولكن التاريخ وأحداثه، وصروف الزمان وتقلباته كانت تعفو وتمحو هذه القرارات.

وقد تصاعدت الأعمال الاضطهادية الأوربية، المسيحية، عندما تصاعدت الروح العنصرية الدينية، واندخلت الروح القومية، مع الروح الدينية، وبرزت في تلك الفترة محاكم التفتيش الكاثوليكية التي كانت تقوم بملاحقة اليهود، ومعاقبتهم، لا سيما عندما كانوا يقومون بأعمال تبشيرية، وعلى الرغم من أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تحاول على بقاء اليهود في سياق التصور الكاثوليكي لعقيدة الشعب الشاهد، لكنها عاقبتهم، وميزتهم، عن سواهم، بإجبارهم على ارتداء لباس خاص بهم، كما منعتهم من التواجد في بعض الأمكنة، ومنعت عليهم الزواج إلا بعد إذن مسبق، كما كان الأوربيون قد قدّموا بعض اليهود كقرابين حين اجتاح مرض الطاعون القارة الأوربية، حسب بعض الروايات، وعندما قررت الكنيسة الكاثوليكية تحرير أورشليم، وهيأت للحملة الصليبية الأولى قام الجنود الصليبيون، في سياق تصاعد التعصب الديني الأعمى، بتقديم بعض اليهود كقرابين، وقد قال بيير دي كلوني في سياق تلك الحملات {ماذا يفيدنا أن نذهب ونحارب المسلمين ونحن لدينا اليهود فيما بيننا، واليهود هم أفظع من العرب المسلمين} ، وأنا أعتقد أن هناك إضاءة إعلامية على هذه النقطة، بحيث تم تصوير اليهود كما لو أنهم كانوا يقدِّمون كقرابين مسيحية تكفيرية، وربما الغاية من ذلك مقارنتها، ومساوقتها مع تهمة الدم، وتهمة (فطير بني صهيون) التي كانت تلاحق اليهود.

هذا تاريخ موجز للجماعات اليهودية في أوربا ككل، أما في كل دولة أوربية على حدة:

ففي فرنسا التي كانوا قد استوطنوا فيها، في العهد الروماني سنة ٢١٢م، قام فيليب الرابع سنة ١٣٠٦م بطردهم، وتم استرجاعهم ثانية ليقوموا بأعمالهم الربوية بعد فشل المرابين المسيحين، ولكن، وبعد أن ساءت الأحوال في فرنسا طُرِد اليهود منها مرة ثانية سنة ١٣٢٢م، وأعيدوا إليها سنة ١٣٥٩م، وتم طردهم النهائي سنة ١٣٩٤م على يد تشارلز السادس، وفي نهاية القرن السادس عشر قَدِم إلى فرنسا يهود المارانو المتمرسين بأعمال التجارة الدولية، والذين منحوا كل حقوقهم المدنية بعد قيام الثورة الفرنسية، والتي يقال أن اليد الخفية اليهودية هي من كان وراء قيامها، وتعزز الوجود اليهودي بعد تسلم نابليون سدة الحكم، وتم الاعتراف باليهودية دينا، وأصبح اليهود مواطنين فرنسيين مع كامل حقوق المواطنة.

أما في إسبانيا التي كان اليهود قد وصلوا إليها في العهد اليوناني، والروماني، وقد تعزز وجودهم عدديا في عهد الأباطرة الرومان فيسباسيان، وتيتوس وهارديان، وكانوا من أغنياء شبه جزيرة أيبيريا، وكان لهم فيها نفوذ كبير، وكادت إسبانيا أن تصبح يهودية في

عدة فترات تاريخية، وقد بدأت الحال تتقلب في القرن السادس الميلادي حيث خضعوا لبعض القوانين والأعمال والإذلال القاسي، وفي سنة ٦٨٠ مُنع اليهود من الختان، كما أنهم منعوا من رفع دعوة ضد المسيحيين، وقد أجبروا أكثر من مرة للاختيار بين التمسح أو النفي حيث بدأت إثر ذلك تتشكل طائفة الماران، وقد عادت الأمور وانقلبت بعد وصول العرب بقيادة طارق بن زياد إلى إسبانيا، فبعد أن كان اليهود يعيشون حياة رغد في ظل الدولة الإسلامية، فقد تعرضوا إلى أعمال انتقامية شعبية، وفي سنة ١٤٩٢م صدر مرسوم يخيّر فيه اليهود بين النفي والتعميد، وقد تنصّر على أثر ذلك الكثير من اليهود، وسموا بالمارانو، وعلى أثر ذلك أيضا أُقيمت محاكم التفتيش التي ارتكبت فظائعها المشهورة، وقد تم طرد قرابة ٢٠٠ ألف من اليهود، والذين استوطنوا ضمن أقاليم الدولة العثمانية، وتركزوا في مدينة سالونيكا، والتي كانت تعد عاصمة المارانو (الذين يتكلمون اللادينو)، إضافة إلى الأستانة والقاهرة، كما انتشروا في أوربا الوسطى (الدول البروتستانية)، و لا سيما في إنكلترا وهولندا تحت اسم السفارد، بعد أن كانوا قد طردوا من البرتغال في حدود سنة ١٤٨٠م.

أما في إنكلترا التي كان قد وصل اليهود إليها من ألمانيا وفرنسا، فقد تعرضوا أيضا في بداية القرن الثاني عشر لأعمال اضطهاد، ولكن بعد أن اعتلى العرش الملك جون (١١٩٩ - ١٢١٦م) تحسنت أحوالهم، ولكن أوضاعهم عادت للتدهور، وأثناء حرب البارونات (١٢٦٤ - ١٢٦٧م) ضد هنري الثالث تعرضوا للاضطهاد ثانية، ثم تم طردهم نهائيا من إنجلترا سنة ١٢٩٠م، ولم يعودوا إليها إلا في سنة ١٦٥٥م، وبدؤوا بالحصول بشكل تدريجي على حقوق المواطنة، الأمر الذي أدى إلى مزيد من الهجرة من دول أوربية نحو إنجلترا، التي بدأت تأخذ أهميتها كدولة عظمى، وقد انتشر اليهود كتجار في المستعمرات الإنكليزية، لا سيما في الهند والعالم الجديد، وبالتحديد في مدينة نيويورك، في الوقت الذي حققوا فيه اندماجا كبيرا في إنجلترا، وفي نهاية القرن التاسع عشر حصلوا على انعتاق وظيفي كامل، وبدؤوا يحتلون المناصب الوظيفية العالية، وكانت لندن أهم عاصمة عملت من خلالها الصهيونية.

أما في ألمانيا، التي كانوا قد وصلوا إليها في سياق المرحلة الرومانية، فقد كانوا ينعمون بحماية السلطة من السخط الشعبي عليهم بسبب أعمالهم الربوية، وفي سنة ١٢١٥م تم تحريم الربا، وفُرض على اليهود تعليق شارة خاصة بهم، ومع ضعف السلطة المركزية الألمانية تم عزل الجماعات اليهودية في الفيتوات، وخضعوا لأحكام قاسية، وفي تلك الأثناء طرح مارتن لوثر ضرورة تنصير اليهود، ولكن بعد أن انقسمت ألمانيا إلى مجموعة دويلات ودوقيات استرد اليهود دورهم المالي، وعادوا إلى ضعفهم بعد استرداد السلطة المركزية لدورها، وبعد الثورة الفرنسية وتأثير مفهوم

المواطنة الذي بدأ يجتاح أوربا، حصل اليهود على حقوقهم المدنية، و لا سيما في عهد بسمارك، وفي ألمانية النازية تعرضوا إلى أبشع أنواع الاضطهاد الإنساني في سياق الحرب العالمية الثانية.

أما بالنسبة للنمسا فقد كان اليهود تحت حماية الحكام المنتخبين، وقد تم طردهم جميعا سنة ١٤٢١م، ولكن فردريك الثالث (١٤٤٠- ١٤٩٣م) سمح لهم بالعودة، ليطردهم ثانية ماكسيميليان الأول (١٤٩٣-١٥١٩م) واستمروا بين طرد من مقاطعات معينة، ودخولهم إلى مقاطعات أخرى، إلى أن بدأت أعمال الدمج في عهد جوزيف الثاني الذي أصدر سنة ١٧٨٢م براءة التسامح، وتم منح اليهود حقوقهم الكاملة، والذي أدى إلى هجرة واسعة من يهود اليديشية لينعموا بظل التسامح النمساوي، و لا سيما إلى مدينة فيينا التي منها انطلقت الحركة الصهيونية على يد هرتزل.

أما في هولندا، التي كان قد قَدم إليها يهود المارانو (السفارد) من شبه جزيرة ايبيريا، فقد نعموا بحقوقهم المدنية، الأمر الذي جعل يهود الأشكناز يلجؤون إليها اعتبارا من سنة ١٦٢٠م، وكان لهم مكانة مالية كبيرة، إلى درجة أن سوق الأسهم كان يغلق في يوم السبت، الأمر الذي جعل من يهود هولندا الأكثر حداثة من بين يهود العالم، ولكن تدهور اقتصاد هولندا أدى إلى تدهور أوضاع اليهود أيضا، وكانت الضربة الاقتصادية القاصمة لهم بعد وصول القوات الفرنسية الثورية إليها، وهنا يجب التنويه إلى أن بعض اليهود الهولنديين الذي هاجروا إلى القارة الجديدة، شكلوا مقاطعة (سافاناه اليهود) سنة ١٦٧٠م في جمهورية سورينام في أمريكا الجنوبية، كما انتشرت بعض العائلات اليهودية في العالم في سياق تمدد، وانتشار الإمبراطورية الهولندية الاستعمارية التجارية.

أما في بولندا مركز ومصدر يهود اليديشية، أو يهود شرق أوربا ذوي الأصول الخزرية، والذين يشكلون أغلبية يهود العالم، ويحملون ثقافة ولهجة (ألمانية دخلت عليها كلمات سلافية)، فقد وصلوا إليها في القرن الثاني عشر من ألمانيا، وهناك تشكل الشتتل، وهو عبارة عن مجموعة من المدن، تضم كل مدينة ما بين ألف وعشرين ألفاً أغلبهم من اليهود، وكانوا يعملون لمصلحة النبلاء الذين كانوا يستغلون رعاياهم، وقد تعرض اليهود إلى بعض الهجمات الشعبية، وطردوا من وارسو سنة ١٤٨٣م، ثم تحسنت أوضاعهم ثانية في عهد الملك ألكسندر (١٥٠١- ١٥٠٦م)، ولكن ضعف سلطة الملك لمصلحة النبلاء، أصبح بعض اليهود تحت حماية النبلاء (الشلاختا) الذين كان محظوراً عليهم العمل بالتجارة، فكانوا يلتفون على القانون من خلال التجار اليهود الذين دخلوا معهم كشركاء ومندوبين، وكوسطاء، والنبلاء هم الذين سمحوا للجماعات اليهودية ببناء الشتتل الذي كان يسيطر على المزارعين في الريف من خلال اليهود الذين عملوا كوكلاء للنبلاء

البولنديين، وكانوا مدعومين بفرق بولندية مسلحة (نظام الأرندا)، كما أن النبلاء سمحوا لهم ببناء المعبد اليهودي الذي قام بوظيفتين دينية من جهة، وعسكرية دفاعية من جهة ثانية، وشكلوا فيها (نظام القهال وهي كلمة عبرية تعني الجماعة)، وهو عبارة عن شكل أو تنظيم خاص للغيتو، وكان نظام القهال يمثل مؤسسة دينية قضائية إدارية يهودية لها استقلالية نسبية، وكان دورها تنظيم الحياة الدينية للجماعات اليهودية، وقد تزايدت أعداد اليهود تحت ظل هذا النظام بحيث بلغ سنة ١٦٤٨م قرابة ٥٢ ألفاً، وكانوا يشكلون حينها أحد أهم المراكز الرئيسية لليهود في العالم، إلى جانب مركزهم المهم في الإمبراطورية العثمانية، التي انتشروا فيها بعد اضطهادهم من قبل محاكم التفتيش، و لا سيما من إسبانيا، ولكن هذا الوضع الوسيط الاستغلالي لليهود في بولندا جلب عليهم المزيد من الكره، والذي زاد من عزلتهم في الشتتلات، وقد أدت هذه التحولات والتذمرات والاحتجاجات في النهاية إلى انتفاضة بوجدان شميلنكي القوزاقي سنة ١٦٤٨م، والتي شملت البولنديين وأعوانهم اليهود الذين أبيد منهم عشرات الألوف، وانتهت تلك الانتفاضة باستقلال أوكرانيا عن بولندا، وهذا ما أدى إلى تدهور كبير وسريع في أوضاع اليهود الذين لجؤوا إلى معتقداتهم الدينية و لا سيما الخلاصية منها (المسيحانية)، وأفرزت تلك التطورات دعوة شبتاي تسفي (مؤسس يهود الدونمة) وظهور الحسيدية، وازدادت أوضاع اليهود سوءا بعد اقتسام بولندا بين الإمبراطورية الروسية والإمبراطورية النمساوية وألمانيا سنة ١٧٩٥م، حيث بدأ اليهود يفقدون ميزاتهم الثقافية منذ منتصف القرن التاسع عشر، بعد أن تم اندماجهم مع باقي اليهود، ومع المجتمعات التي عاشوا بين ظهرانيها، وقد هاجرت أعداد ضخمة من يهود اليديشية بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لا سيما إلى فرنسا وألمانيا وإلى العالم الجديد (الأرجنتين وكندا) وجنوب أفريقيا، وهم الذين ساهموا في تشكيل رد فعل عنصري ضد اليهود في ألمانيا وفرنسا وإنكلترا، وهو ما أدى إلى ظهور وبروز الصهيونية كحل لمشكلة اليهود في أوربا، والتي برزت على أثر دخول يهود اليديشية إلى أوربا الغربية بالخاصة.

وبعد دخول نابليون بولندا سنة ١٨٠٧م، فقد منحهم حقوقهم المدنية أسوة بالجماعات اليهودية في فرنسا، وقد بدأ ينتشر بشكل تدريجي حس المعاداة لليهود في أوربا بشكل عام، وقد تحسن وضع اليهود نسبيا بعد انطلاق الحرب العالمية الأولى، بعد أن أُحتلت بولندا من قبل الألمان الذين اعترفوا باليهود كطائفة دينية لا عرقية، وما بين الحربين العالميتين توحدت بولندا ثانية بكل أقاليمها بحيث أصبحت أكبر تجمع يهودي في العالم، وقد وقّعت بولندا سنة ١٩١٩م على معاهدة الأقليات التي أعطت اليهود حقوقاً مدنية واسعة، ولكن انقلاب الحكم سنة ١٩٢٦م، واستيلاء جوزيف بيلسودسكي على الحكم، عاد بالسوء على الجماعات اليهودية، وقد أدى

الفكر القومي البولندي المتطرف في تلك الفترة إلى تطرف فكري متزامن من قبل الجماعات اليهودية، وظهرت جمعيات تسيطر عليها الصهيونية على أساس فكر ديني عرقي كان لها ثقل سياسي كبير، كما ازدادت الحركة التدريسية باليهودية (العبرية) واليديشية، وكان عدد اليهود سنة ١٩٣٩م أكثر من ثلاثة ملايين ونصف يهودي، حسب بعض التوقعات الإحصائية، قبيل انطلاق الحرب العالمية الثانية، والتي أدت إلى تقسيم بولندا ثانية بين الاتحاد السوفييتي وألمانيا، وما تبقى منها فكانت خاضعة لحكومة عامة تابعة لألمانيا، وقد كان الحكم النازي شديدا على اليهود، حيث فرض عليهم أعمال السخرة وصادر أموالهم، إضافة إلى تأسيس غيتو وارسو، الأمر الذي جعل اليهود ينضمّون إلى المقاومة البولندية المناوئة للنازيين، ومع نهاية الحرب العالمية الثانية كان عدد اليهود في بولندا ربع مليون، وقد هاجر منهم ١٤٠ ألف إلى إسرائيل بين سنتي ١٩٤٨ - ١٩٥٨م انظموا إلى ١٧٠ ألف كانوا قد هاجروا إلى فلسطين قبل هذا التاريخ، ليشكلوا هناك القيادة الإسرائيلية السياسية (بن جوريون - بيجن - شامير - بيرس)، وأما ما تبقى من يهود بولندا فقد هاجروا في مراحل لاحقة إلى الولايات المتحدة، ولم يبق في بولندا سوى ٦٠٠٠ يهودي.

أما في روسيا التي وصل إليها اليهود في القرن التاسع الميلادي بعد توسع المملكة الخزرية في وادي الفولغا، ولم يختلف تاريخ الجماعات اليهودية في روسيا عن سواها من دول أوربا، فقد كانوا مرفوضين شعبيا، وكانت أول عملية طرد تمت لهم على يد حاكم روسيا إيفان الرهيب، ثم صدر فرمان سنة ١٧١٩م منع على اليهود أن يمارسوا نشاطات تجارية خارج روسيا البيضاء، وبعد تسلم الحكم من قبل الكسندر الأول (١٨٠١ - ١٨٢٥م) أصدر سنة ١٨٠٤م (قانون اليهود الأساسي أو دستور اليهود) الذي منحهم بعض الحركة والحرية في بعض الجوانب، وقيدهم في بعض الجوانب، أما التغير الرئيسي الذي حصل لليهود فكان بعد أن اعتلى العرش نيقولا الثاني (١٨٢٥ - ١٨٥٥م) الذي طبق على الجماعات اليهودية سياسة الدمج الإجباري (الترويس)، وفرض عليهم الخدمة العسكرية سنة ١٨٢٧م، وكان أثناءها عدد اليهود قرابة ثلاثة ملايين، ومع اعتلاء العرش من قبل الكسندر الثاني (١٨٥٥ - ١٨٨١م) خففت القوانين والأنظمة التي كانت تقيد حركة اليهود، الذين كانوا متجمعين ومجبرين على البقاء والالتزام في (منطقة الاستيطان)، وهي منطقة تمتد من ليتوانيا إلى البحر الأسود، ومن بولندا إلى روسيا البيضاء، وكان لا يسمح لليهود بالعيش خارجها، وفي عام ١٨٥٦م تمت مساواة الجماعات اليهودية مع سواهم، وكانت الجماعات اليهودية تعاني حالة فقر، وكانوا مرفوضين شعبيا، لا سيما وأن التعالي السلالي كان يثير حفيظة (شعب الله المختار)، وفي النهاية جاءت عملية اغتيال الكسندر الثاني سنة ١٨٨١ من قبل الثوريين الروس، والتي اشتركت فيها فتاة

روسية أخذت شهرة واسعة، وجرّت على الجماعات اليهودية أنظمة وقوانين قاسية صدرت في مايو (قوانين مايو) بعد أن اعتلى العرش الروسي ألكسندر الثالث (١٨٨١ - ١٨٩٤م) وهذه القوانين عادت وحددت حركة اليهود ثانية، ومنعتهم من إنشاء المستوطنات خارج منطقة الاستيطان، وقد بلغ عدد اليهود سنة ١٨٩٧م قرابة خمس ملايين، بنسبة ١١.٦٪ من مجموع السكان، الأمر الذي أدى إلى حفاظهم على يديشيتهم، وأدت هذه القرارات إلى دخول الشباب اليهودي في التنظيمات الثورية، وانضم الكثير منهم إلى الحركة البلشفية، وبدأت هجرة يهودية واسعة من روسيا، بحيث هاجر بين سنة ١٨٨١ و ١٩١٤م نحو مليون يهودي، وترافقت هذه الأحداث مع بروز الفكر والتنظيم الصهيوني، الأمر الذي أدى إلى تدويل المسألة اليهودية، وفي عهد نيقولا الثاني آخر القياصرة الروس (١٨٩٤ - ١٩١٨م) تشكلت عدة جماعات إرهابية كانت تناصب اليهود العداء، ووقعت تحت هذه العدوانية مذبحة كيشينيف سنة ١٩٠٣م، الأمر الذي أضاف إلى عوامل متعددة دواعي يهودية للهجرة من روسيا، قبل الحرب العالمية الأولى، وبعد انتهاء الحرب لم يبق في الاتحاد السوفييتي، التشكيل الجديد لروسيا، سوى مليونين ونصف المليون، وبلغوا ثلاثة ملايين عند انطلاق الحرب العالمية الثانية.

ومنذ استلمت الحكومة البلشفية الحكم في الاتحاد السوفييتي تمت مساواة الأقليات، ومنهم اليهود، مع الجميع، كما شجع البلاشفة في زمن لينين على انتشار ثقافتهم اليديشية من خلال الصحف اليديشية والمسرح اليديشي، وقد أنشأت لهم مستوطنة بيروبيجان الزراعية كمقاطعة لها استقلاليتها، ولغتها اليديشية في شرق سيبيريا بمرسوم صدر سنة ١٩٢٨م كمحاولة لتشتيت الأفكار الصهيونية، وخُصصت لتوطين اليهود فيها تحت اسم أو صفة (مقاطعة يهودية ذات حكم ذاتي)، وقد عارضت الصهيونية هذا المشروع، وكان تعداد اليهود فيها ٢٠٠٠٠ نسمة كانوا يمثلون ربع تعداد سكان المقاطعة (٢٤٪)، ولم تحقق هذه التجربة في النهاية النجاح المرجو، وكان البلاشفة يتطلعون في حال نجاح هذه التجربة، وفي حال استيطان العدد الكافي من اليهود فيها، أن يجعلوا من تلك المقاطعة جمهورية مستقلة ضمن التشكيل الاتحادي، كما فشلت أيضا تجربة أوكرانيا وشبه جزيرة القرم الاستيطانيتين، وبعد تعمق نظام الحزب الواحد في الاتحاد السوفييتي، ألغيت الحركات اليهودية (حزب العمال اليهودي - البوند - وعشاق صهيون)، وبعد الحرب العالمية الثانية، ومع تطور الستالينية ساءت أحوال اليهود أكثر مما سبق، بخاصة بعد اعتبار اليهود (الأخلاط مقطوعي الجذور) الذين يشكلون عقبة أمام تقدم الاشتراكية، وما أضاف من كره ونقمة الشعب الروسي على الجماعات اليهودية في الحرب العالمية الثانية تأثير الدعاية النازية التي كانت تقول إن هذه الحرب هي مؤامرة يهودية، وأن الشعب الروسي يقاتل لمصلحة اليهود.

أما في **أوكرانيا** فقد وصل إليها اليهود في القرن التاسع الميلادي بعد توسع مملكة الخزر، ولكن التواجد السياسي لهم كان في منتصف القرن السادس عشر بعد هيمنة بولندا عليها، وقد تم توظيف اليهود كطبقة وظيفية تعمل لمصلحة النبلاء البولنديين، ولما انتشر القوزاق في المنطقة، حرّموا على اليهود العمل كوكلاء ووسطاء، ولكن عودة هيمنة البولنديين على القوزاق ألغى هذا القرار، وفي سنة ١٦٦٧م تم تقسيم أوكرانيا بين بولندا وروسيا، وكان الجزء من أوكرانيا التابع لروسيا منطقة استيطان يهودية، وقد تعرض اليهود فيه إلى عدة مجازر يقال أنه قتل فيها ٦٠ ألف يهودي، ولكن في سنة ١٩٢٠م تم ضم أوكرانيا إلى الاتحاد السوفييتي حيث تمت تصفية التنظيمات الأوكرانية المعادية لليهودية.

ولم يخرج تاريخ الجماعات اليهودية في باقي الدول الأوربية عن السياقات السابقة، فقد كانوا دائما يتعرضون فيها للطرد، ولبعض الاضطهادات الشعبية، كما هي الحال في ليتوانيا التي طردوا منها في بداية القرن السادس عشر الميلادي، وكذلك في رومانيا.

أما في **جاليشيا** التي كانوا فيها يعملون بالربا والرهونات، وكانوا أصحاب الفنادق الصغيرة والتي كانت تقوم بدور تجاري أيضا إلى درجة أن مدينة برودي التي كانت على طريق تجارة الترانزيت بين تركيا وروسيا كانت تدعى أورشليم، وقد تميزت الجماعات اليهودية في جاليشيا بتفكك الأسرة اليهودية مما جعل اليهوديات الجاليشيات أهم بغايا ذلك الزمان، إضافة إلى تشكيلهم أول لوبي يهودي (من أعضاء الهيئة البرلمانية) في أوربا سنة ١٩٠٧م.

أما في **رومانيا** فقد حققوا فيها بعض الاندماج، لا سيما بالنسبة للذين كانت أحوالهم المادية جيدة، وعلى خلاف دول المعسكر الاشتراكي سُمح لليهود الرومانيين بالهجرة إلى إسرائيل بعد قيامها.

أما بالنسبة **لبلغاريا**، فقد ازدادت معدلات الاندماج والتنصر والزواج المختلط، وبالتالي الانصهار في المجتمع، وهو ما دعوه (بالهولوكوست الصامت) عند الجماعات اليهودية، وزادت نسبة الأطفال غير الشرعيين والانتحار أيضا، وهي الأوضاع التي تفتحت عيون مؤسسي الصهيونية (هرتزل وماكس نوردو) عليها واللذين ولدا في بودابست، وفي سنة ١٨٩٥م تم الاعتراف باليهودية كدين من قبل الدولة، ولما خسرت المجر في الحرب العالمية الأولى، استولت المعارضة على الحكم، وعين في المجلس القومي ١٤ يهوديا من أصل ٢٧ هم أعضاء المجلس القومي، وكان في الحكومة وزيران يهوديان، وفي سنة ١٩١٩ أعلنت الدولة المجرية الشيوعية، وقد احتل في الحرب العالمية الثانية النازيون المجر، وتم عقد الصفقة الشهيرة (الدم مقابل السلع) بين الصهيونية من خلال رودولف كاستنر الذي خدع يهود المجر، وسهل نزوحهم وترحيلهم إلى معسكرات الإبادة النازية، مقابل السماح لترحيل بعض اليهود إلى فلسطين.

الفصل الثالث

تاريخ الغيتو
أو المعتزل اليهودي

بعد أن تشتت اليهود كجماعات على يد الرومان في أنحاء متعددة من تخوم الإمبراطورية الرومانية، وعاشت كجاليات صغيرة ضمن مجتمعات متعددة، ولم يمر زمن طويل حتى بدأت تتبلور الشخصية اليهودية ذات السمعة السيئة، بحيث أصبحت تلك الشخصية ذات نمط إدراكي مجاز تمثل الاستغلال والربا والقسوة والكذب والدسائس والخديعة وكل أشكال الفساد الاجتماعي، لا سيما وأن النبلاء، والطبقات الاقتصادية الأوربية العليا كانت توظّف اليهود كما لو أنهم علقة تمص الدم من الشعوب الأوربية الفقيرة، ثم يقومون على إجبار اليهود باستفراغه، وهذا ما أدى إلى تشكّل عدائية متصاعدة بين الجماعات اليهودية وبين المجتمعات التي تعيش بين ظهرانيها، وكان هناك الكثير من عمليات القتل والاضطهاد والطرد للجماعات اليهودية في المرحلة الإقطاعية الأوربية، كما كنا قد أتينا على ذكره، وكانت أول عملية طرد كانت لهم من فرنسا سنة ١٢٥٣م، ثم تبعتها إنكلترا بأمر من الملك إدوارد الأول، ثم سادت حالات الطرد أغلب دول أوربا، وكان أهمها وآخرها طردهم من أسبانيا سنة ١٤٩٢م، وبذلك بدأ عصر الانحطاط اليهودي في أوربا مع بداية النهضة الأوربية، وبدأ حصرهم في الغيتو، كحل اجتماعي، وكان محل قبول من قبل المجتمعات الأوربية الوطنية، والجماعات اليهودية على حد سواء، في مرحلة الاضطهاد الأوربي لليهود، أو عصر النهضة الأوربية.

والغيتو عبارة عن حي مسوّر ومحمي ضمن، أو على طرف، المدينة مخصص لإقامة الجماعات اليهودية، له باب يفتح صباحا، ويغلق مساء في وقت محدد، وكان فيه اليهود يشعرون بشيء من الأمن والطمأنينة، كما أنهم كانوا يقيمون فيه شعائرهم الدينية الجماعية، وفيه - وبالوقت نفسه - يتجنب المجتمع الوطني الكثير من الأعمال الشريرة اللاأخلاقية، وكان للغيتو أنظمة وقوانين خاصة به تنفذها بشكل عام القيادة الدينية

اليهودية، كما أنه كان يحوي ضمنه عدداً من الجدران والحواجب المذهبية، والقبلية، والعائلية، والطبقية، أي أن الغيتو لم يستطع أن يشكل جماعة يهودية اندماجية فيما بينها، في الوقت الذي ساهم فيه أيضا بعزل اليهود المتزمت، المتعصب، العنصري عن المجتمعات الأوربية، إلى درجة أن يهود الغيتو في القرون الوسطى كانوا يقومون بجدع أنوف النساء اليهوديات اللواتي يقمن علاقة جنسية مع المسيحيين.

وقد بدأ الغيتو بالانحسار بشكل تدريجي منذ القرن السابع عشر، بعد وصول اليهود السفارد إلى الدول التجارية، وقد سقطت أسوار الغيتو مع بداية تشكل المجتمع الأوربي الحديث تحت ضغط البحث عن الوحدة الأوربية من أجل توسيع السوق التجارية الذي أفقد اليهود الكثير من وظائفهم التجارية الطفيلية الوسيطية، وفي منتصف القرن التاسع العشر انتهت السابقات العامة للأعمال الاضطهادية ضد اليهود، واستمرت التطورات التاريخية على الغيتو في العصر الحديث، والذي يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى بدأت مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي وامتدت حتى سنة ١٨٨٢م، وهي فترة سقوط جدران الغيتو في أوربا الغربية على وجه الخصوص، وبدأ اندخال، أو اندماج الجماعات اليهودية تدريجيا ضمن المجتمع الأوربي الغربي، وبروز رجالات وبيوت المال اليهودي، وبدأت هجرة واسعة تدريجية للجماعات اليهودية اليديشية المتخلفة والمتزمتة من شرق أوربا إلى غربها وصولا إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

وأما **المرحلة الثانية** فتبدأ منذ سنة ١٨٨٢م، وتمتد حتى سنة ١٩٤٨م وفيها أخذت الجماعات اليهودية تتمركز في أربع مناطق رئيسية هي الولايات المتحدة الأمريكية، وروسيا، وأوكرانيا، وفلسطين.

أما **المرحلة الثالثة** فتمتد من سنة ١٩٤٨م (سنة إعلان دولة إسرائيل في فلسطين)، وحتى يومنا الحاضر، حيث ازداد تركّز اليهود في فلسطين، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، مع بعض الجماعات المنتشرة في المدن الكبرى لأوربا الغربية.

وقد كان هناك فارق بين تاريخ الغيتو في أوربا الشرقية، وأوربا الغربية خلال العصور الحديثة، فبينما بدأت جدران الغيتو بالتحلل والتفكك مترافقا مع اندماج اليهود ضمن المجتمع في أوربا الغربية، حافظ الغيتو في أوربا الشرقية على تكلسه، وبذلك حافظ اليهود على ملابسهم المميزة ولغتهم اليديشية وثقافتهم التوراتية، وأعمالهم الوضيعة، وكان هناك القليل من الاندماج، واستمرت الحال على ما هي عليه حتى العصور الحديثة حيث خضعت الجماعات اليهودية إلى تأثيرين:

التأثير الأول جاء من الصهيونية التي كانت تروّج وتؤكد ليهود الغيتو على عمق كراهية المسيحي لليهودي.

والتأثير الثاني جاء من يهود اليسار الذين كانوا يروّجون للجماعات اليهودية (أن الثورة الاجتماعية ستعطي اليهود المساواة والحرية، فلا حاجة بهم إذن إلى المسيح الصهيوني)، وبذلك فمن الخير لهم أن يناصروا الحركات الاشتراكية، وعلى الرغم من أن أحد أهم الأسباب التي تشكلت الصهيونية من أجلها هو حل مشكلة اليهود الشرقيين، إلا أنهم، أي اليهود الشرقيين اليديشيين، الذين كانوا يرون أن قبول الهجرة إلى فلسطين هو خضوع اليهود للاسامية، كانوا الأكثر معارضة للصهيونية، على الرغم من أن أكثر القيادات الصهيونية كانت من يهود اليديشية الذين، وبسبب عزلتهم، وبعدهم عن مركز السلطة والنفوذ (على عكس السفارد)، جعلهم يعتنقون الصهيونية رغبة منهم في الوصول إلى السلطة، والذين في النهاية شكلوا دولة كان ملاطها البشري الأساسي من اليهود الشرقيين، أي أن حالة التكلس التي عانى منها يهود أوربا الشرقية هي أحد أهم الأسباب التي أدت إلى تشكيل الصهيونية، وبالتالي الكيان الإسرائيلي على أرض فلسطين.

أما في أوربا الغربية فإن التحولات التاريخية الأوربية ذات الطابع الاقتصادي، مترافقة مع تصاعد الحركة القومية الأوربية في القرن الثامن عشر، أدى إلى تكوين توجه عام يسعى إلى إزالة ما تبقى من جدران الغيتو، كي يستطيع اليهود الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها، والانخراط في النشاط الإنساني والاجتماعي العام، وهذا ما ساهم في خروج العقلية اليهودية من سجنها، وأصدافها اليهودية المتكلسة، كمارد خرج من القمقم، وبدأت تبرز شخصيات عبقرية من أصل يهودي بعد أن تخلت عن يهوديتها مثل سبينوزا، وماركس، وفرويد، وأينشتاين، وغيرهم من يهود السفارد الذين حققوا صعودا وتميزا اجتماعيا في أوربا الغربية، كما أنهم، وبسبب الانفتاح الاقتصادي العام في أوربة الغربية، إلى جانب امتلاك اليهود، كسواهم، لحقوق المواطنية، فقد حقق بعض اليهود نجاحات مالية كبيرة، وأصبحوا شخصيات شهيرة في العالم الغربي، ولهم تأثير اجتماعي، وسياسي، مثل عائلة روتشيلد، ولكن، وبالوقت نفسه، فقد أدى ظهور المفهوم القومي في أوربا إلى تهميش الجماعات الوظيفية بشكل عام، واليهودية منها بشكل خاص، لا سيما بعد ظهور الرأسمالية الأوربية، كما أدى أيضا إلى تصعيد مشاعر النبذ للجماعات اليهودية على اعتبارهم دخلوا إلى التاريخ الأوربي والثقافة الأوربية من خارجها، لا سيما مع انتشار النظريات العرقية والداروينية التي أفرزت بعض القوميات العنصرية، وما فاقم الوضع سوءا هو دخول بعض اليهود في الحركات

المعادية للمفهوم القومي الأوربي، مثل الحركات اليسارية الشيوعية ذات الفكر الاقتصادي، كما أدى انفتاح المجتمع الأوربي إلى مزيد من الاحتكاك بين الأوربيين والجماعات اليهودية، والتي كانت مع بداية الانفتاح قد ألصقت بها الكثير من عمليات الفساد الاجتماعي على اختلاف أنواعه، وكان أشهرها حادثة اغتيال القيصر ألكسندر الثاني سنة ١٨٨١م، وفضيحة بنما ١٨٩٢م، وحادثة دريفوس ١٨٩٤ الضابط اليهودي الفرنسي الذي سلّم معلومات أمنية إلى ألمانيا، وغيرها من الفضائح، وجملة هذه الأسباب أدت إلى تزايد مشاعر العداء لليهود في أوربا، والذي بلغ ذروته بعد وصول هتلر إلى سدة الحكم في ألمانيا.

وبينما قطع اليهود في أوربا شوطا كبير في الاندماج الاجتماعي بعد انهيار أسوار الغيتو، تأخر هذا التطور التحديثي للغيتو عند يهود اليديشية، لعدة أسباب أهمها:

إن الحكومات في أوربا الشرقية في عصر الاستنارة الأوربي (القرن الثامن عشر) كانت حكومات أرستقراطية لم تكن لتهتم بعمليات التحديث المجتمعي كثيرا، ولم تكن تقوم بعمليات التحديث على أسس علمية، بل كانت قد تبنته على أساس قسري الأمر الذي كان ينفّر الجماعات اليهودية من عمليات التحديث.

وثانيا لأن المجتمع في أوربا الشرقية أقل تسامحا وديمقراطية مع الأقليات، لا سيما وأن الجماعات اليهودية كانت ذات مستوى معيشي أفضل من المستوى المعيشي للمجتمعات الوطنية التي تعيش ضمنها، حيث كانت العائلات اليهودية في دول أوربا الشرقية تأتيها الأموال من أبنائها الذين كانوا يعملون في أوربا الغربية.

وبذلك تأخر سقوط جدران الغيتو في أوربا الشرقية، ومن هنا كانت معاداة اليهود في أوربا الشرقية تعود إلى عوامل اجتماعية اقتصادية عقلانية، ودينية (غريزية عاطفية على أنهم قتلة المسيح)، إضافة إلى العوامل الوطنية والقومية، وقد تشكلت هجرة واسعة للعائلات من أوربا الشرقية إلى أوربا الغربية، وكان تخلفهم، وتكلسهم الحضاري قد سبب إرباكا، ورفضا لليهود ككل من قبل المجتمعات الأوربية الغربية، الأمر الذي سبب إحراجا، وضيقا لليهود السفارد، وبروز ما يدعى بالمسألة اليهودية، والتي طرح لها حلان:

الأول تمثل بطرد اليهود من أوربا، وعزلهم في غيتو عالمي، وقد أُنشئت الصهيونية اليهودية لتقوم بهذا الدور.

والثاني، وهو الذي برز بعد فشل، أو تأخر الطرح الأول في معالجة المسألة، وهو تمثل بإبادة اليهود، وهو الحل الذي تبنته النازية الألمانية.

هذه نبذة عن تاريخ الجماعات اليهودية في أوربا، أما في القارة الأمريكية، فقد وصلوا إليها مع الأوربيين على شكل أفراد، ولم يكن لهم أي حراكية تاريخية إلا في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن العشرين، عدا تجربتهم في سورينام وهي جمهورية مستقلة تقع في أمريكا الجنوبية بين جيانا البريطانية والبرازيل وجيانا الفرنسية، وقد وصلت جماعات يهودية سفاردية إليها، شكلت الدفعات اليهودية الأولى التي وصلت إلى العالم الجديد من البرازيل وهولندا سنة ١٦٥٢م، وتبعتها دفعة أخرى من إنكلترا سنة ١٦٥٢م، ولحقت بها جماعات أخرى، وقد حصل جميع سكانها على الجنسية الإنكليزية وتم ضمها إلى هولندا سنة ١٦٦٧م، وقد شكلوا فيها مستوطنة يهودية سمّيت (سافاناه اليهود) سنة ١٦٧٠م وكانت مستوطنة شبه مستقلة، ولكن الصراع الذي كان قائما بين اليهود والعرق الأسود انتهى لمصلحة السود لا سيما بعد انتشار الملاريا سنة ١٧٧٤م والذي أنهى الوجود اليهودي.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد حققوا اندماجا واسعا، نظرا لخصوصية المجتمع الأمريكي الفسيفسائي، والذي يتشكل من مجموعات بشرية متعددة عرقيا، ودينيا، وطائفيا، لا سيما وأن الدستور الأمريكي منذ بدايته أعطى المواطنين حقوقهم المدنية كاملة، الأمر الذي جعل الجماعات اليهودية تمارس كامل نشاطاتها من أبوابه الواسعة، دون أن تلقى أي عمليات رفض كما كان شأن اليهود في العالم القديم، وكان أول من وصل من اليهود إلى الولايات المتحدة من رجال المال، والذين وجدوا فرصتهم الذهبية لاستثمار أموالهم في المصارف والعقارات في البداية، ثم تغلغلوا نحو الصناعات الخفيفة، والمتاجر، خاصة التجزئة منها (السوبر ماركات)، وصناعة أدوات التجميل والمواد والنشاطات الترفيهية، ووسائل الإعلام وقد استطاع اليهود أن يشكلوا شبكة إعلامية إمبراطورية عالمية (صحف - مجلات - دور نشر - إذاعة - تلفزيون - سينما)، وهي جميعها كانت نشاطات ذات مردود اقتصادي عال، وسريع، وقد كان ١١٤ يهوديا من بين ٤٠٠ رجل الأكثر غنى في أمريكا سنة ١٩٨٥م، وقد حققوا ذلك من خلال خبراتهم التجارية، وارتفاع مستواهم التعليمي والعلمي لا سيما بعد أن تبنوا أو أفرزوا اليهودية الإصلاحية، كما أنهم شكلوا أقوى لوبي في الولايات المتحدة لا سيما بعد أن قامت الصهيونية بنقل مركز ثقلها من لندن إلى واشنطن في سياق الحرب العالمية الثانية، ويصنف يهود الولايات المتحدة بالصهاينة التوطينيين، وهم يُعَدّون سنداً قوياً لدولة إسرائيل ماديا من خلال تبرعاتهم المالية الضخمة، وسياسيا من خلال اللوبي اليهودي، والذي استطاع أن يمسك، بل، ويكاد يستفرد، بزمام الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة، فعلى الرغم من أن

اليهود يشكلون ٢.٤٪ من عدد الناخبين الأمريكيين، ولكن لهذه النسبة قوة تفوق نسبة الرقم لعدة أسباب، أهمها:

تركز اليهود في المدن، و لا سيما التي لها دور حاسم في انتخابات الرئاسة الأمريكية (نيويورك، وواشنطن).

كما أن أصوات اليهود تُعَدّ أصواتا فاعلة لأن عدد اليهود الذين يصوتون يشكلون نسبة ٩٢٪ من مجموع يهود الولايات المتحدة، وهي أعلى نسبة في أمريكا، والتي تبلغ ٥٤٪ فقط، كما أن أصوات اليهود أصوات قيادية متبوئة مراكز مهمة لا سيما في السياسية، والاقتصاد، الأمر الذي يجعلها إعلامية، إضافة إلى مساعدة اللوبي المالية في الحملات الانتخابية، كما أنها على علاقة تبادلية مع دولة إسرائيل، فاللوبي يتحدث باسم الخدمات التي تقدمها دولة إسرائيل للهيمنة الأمريكية، ودولة إسرائيل ترفع صوتها متسلحة بقوة اللوبي اليهودي في أمريكا.

الفصل الرابع

اليهود في الشرق والعالم الإسلامي

كان اليهود قد وصلوا إلى بلاد فارس وبابل قسرا من خلال السبي الآشوري، ومن ثم البابلي، وقد عاشوا حياة سعيدة في العهد الكلداني والفارسي، وأسسوا مدارس دينية، ولم يتعرضوا إلى أي أعمال اضطهاد إلا في عهد الساسانيين، ولمدة قصيرة، وقد تعرض المسيحيون لنفس هذه الأعمال، وفي القرن الثالث الميلادي قام سابور الثاني بجلب ٧٠ ألف سجين يهودي من أرمينيا وقام بتوطينهم في منطقة أصفهان، وفي القرن الخامس والسادس الميلادي، و لا سيما في عهد يزدجرد الثاني فقد عانى اليهود من بعض أعمال الاضطهاد بتحريض من المجوسي مزدك مؤسس المزدكية، حيث قام الفرس بسلب اليهود والمسيحيين أموالهم، كما اعتدوا على نسائهم، فثار اليهود عليهم بقيادة الحاخام مارزوطرا الثاني وأعلنوا التمرد، وتحصنوا في مدينة ماهوزا والتي لم تهزم إلا بعد سبع سنوات، وكان اليهود وبالتشارك مع المسيحيين قد وقفوا إلى جانب المسلمين في عهد عمر بن الخطاب في فتح بلاد فارس وتقويض الحكم الساساني، وقد عاش اليهود في بلاد فارس تحت الحكم العربي الإسلامي في بحبوحة، وحصلوا على الكثير من المزايا على اعتبارهم من أهل الذمة، وهذا حال الجاليات اليهودية في أنحاء الإمبراطورية العربية الإسلامية، وعلى مر زمانها، والمؤرخون على أجناسهم يُعَدّون العرب المسلمين محررين لليهود، ولم يعان اليهود في بلاد فارس في عهدها الإسلامي من أي أعمال اضطهادية بارزة، إلا في عهد الأسرة الصفوية (١٥٠٢ - ١٧٣٦م)، والتي كانت تنظر إلى اليهود من خلال التصور الشيعي لليهود الذي يذهب إلى أن اليهود نجسون، ويجب عدم الاختلاط بهم، وقد أُجبر بعض اليهود على الإسلام تحت حكم أسرة القاجار (١٧٩٥ - ١٩٢٥م).

أما في شبه الجزيرة العربية، فهناك ثلاث نظريات تتحدث عن أصول الجماعات اليهودية فيها:

أولها تذهب إلى أن يهود الجزيرة العربية هم عرب تهودوا بطريق التبشير، وقد حافظوا على قوميتهم ولغتهم العربية، ولم يغيروا سوى دينهم، وهو الرأي الذي يتبناه د. أحمد سوسة.

ثانيها: إن يهود شبه الجزيرة هم يهود عبرانيون قدموا كنازحين من بلاد كنعان، ويعيدهم البعض إلى الجماعات الإسرائيلية التي قام الآشوريون بتحطيم مملكتهم سنة ٧٢١ق.م، ثم قاموا بتوطينهم في أماكن متعددة من الإمبراطورية الآشورية، وقد كان أحد أماكن سكناهم شمال الجزيرة التي كانت خاضعة للإمبراطورية الآشورية، ومنها نزلوا جنوبا على الشريط الغربي من شبه الجزيرة العربية حتى اليمن، وانظم إليهم أيضا الجماعات اليهودية التي قدمت إلى شبه الجزيرة العربية بعد أن أنهى الكلدانيون مملكة يهوذا سنة ٥٨٦ق.م، كما يعتقد البعض أن جماعات يهودية قد هاجرت من بابل إلى اليمن عن طريق البحرين، كما انظم إليهم المزيد من اليهود بعد أن شتتهم الرومان سنة ٧٠م، وسنة ١٣٥م.

والنظرية الثالثة، وهي التي تذهب إلى أن كل التاريخ اليهودي كان قد تمسرح في غرب الجزيرة العربية، وليس في بلاد كنعان كما هو شائع، وأهم أصحاب هذه النظرية هم كمال الصليبي الذي يذهب إلى أن التوراة تمسرحت مكانيا على جبال الحجاز، وأحمد داود الذي يذهب إلى أن بلاد كنعان التي أتى ذكرها في التوراة تقع إلى جنوب بلاد زهران، وزياد منى الذي يذهب إلى أن التوراة تمسرحت على جبال اليمن، وفاضل الربيعي الذي يذهب إلى أن التوراة تمسرحت في المنطقة الواقعة بين الحجاز، وبلاد الشام، ويعتقد عبد المجيد همو أن اليهودية دخلت إلى شبه الجزيرة العربية منذ زمن قديم بسبب قرابة الدم بين أبناء يعقوب، وأبناء إسماعيل..؟، كما يذهب إلى أن الدين اليهودي كان محط قبول من قبل عرب الجزيرة العربية، على غرار المسيحية التي دخلت إلى شبه الجزيرة العربية عن طريق الأحباش الأجانب، أما طه حسين فيرى أن بعض العرب كانوا قد تهودوا، كما أن بعض اليهود كانوا قد تعربوا.

وهناك نظريات (قصص أو أساطير حسب رأي أحمد سوسة) تأخذ من الدين منطلقا تاريخيا، فتقول إن موسى في مرحلة التيه في سيناء كان قد أرسل جيشا لمحاربة العماليق الذين، حسب أصحاب هذا الرأي، كانوا يقيمون في يثرب، وقد استقر بعض عناصر هذه الحملة في يثرب، والبعض يذهب إلى أن داود هاجر مع مجموعة من سبط يهوذا إلى يثرب، وتملكوا هناك، ثم عادوا ثانية إلى بلاد كنعان، وهي مقولات يهودية الغاية منها إيجاد نوى

تاريخية لهم في شبه الجزيرة العربية، تمشيا مع حدود الأرض الموعودة (من الفرات إلى النيل والتي تصل جنوبا حتى حدود يثرب جنوبا)

ومما سبق يمكن الافتراض إن الوجود اليهودي في شبه الجزيرة العربية يعود إلى مصدرين:

الأول يعود إلى هجرة جماعات يهودية قدمت من بلاد كنعان في سياق سبيهم، وطردهم، وتشتيتهم من مملكة إسرائيل، ومن مملكة يهوذا، كما جاء البعض منهم كتجار إلى المنطقة، واستقروا فيها.

أما المصدر الثاني فيعود إلى قيام اليهود بعمليات تبشيرية، وتهويد لبعض القبائل العربية التي كانت تدين بالحنيفية (أو الإبراهيمية)، وهو المعتقد السماوي الذي كان منتشرا في شبه الجزيرة العربية، ومن هذه القبائل قبيلة جذام التي تهود منها أكثر من فخذ، كما تهود قسم من الأوس والخزرج، وقسم من بني غسان، وبعض من حمير، ومن بني كنانة، وبني الحارث بن كعب، وكندة حسب المؤرخين العرب، أما في اليمن فقد تهود الكثير على عهد ملكها تبان أسعد أبو كرب (٣٧٨ - ٤١٥م)، وكان آخر ملوكهم (يوسف اسعار) ذو نواس (٥١٧ - ٥٢٥م)، والذي كان قد هاجم مدينة نجران، التي كانت مركز الديانة المسيحية في شبه الجزيرة العربية، وقد كانت له النصرة، فخيّر أهلها بين التهود أو الموت حرقا، وقد تهود البعض، أما من رفض منهم الارتداد عن المسيحية، فقد أمر الملك ذو نواس يحفر جور كبيرة، وقام بإحراق المسيحيين بها مع إنجيلهم، وهذا ما أثار حفيظة الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي أوعزت لنجاشي الحبشة المسيحية بالانتقام من السبأيين، فجرد النجاشي حملة وأنهى المملكة السبئية سنة ٥٢٥ للميلاد، وبعد انهيار سد مأرب انتشر يهود اليمن في شبه الجزيرة العربية، وكان منهم بعض قبائل الأوس والخزرج الذين سكنوا في مدينة يثرب (المدينة المنورة) وقد تهود قسم منهم بتأثير من بني قريظة، والنضير، ومن الشخصيات اليهودية العربية الشهيرة، فيما قبل انتشار الإسلام، ورقة بن نوفل، وزيد بن عمر بن نفيل، وسيف بن ذي يزن، وأمية بن الصلت، وقس بن ساعدة الإيادي، والشاعر السموءل.

تركز وجود اليهود في الجزيرة العربية في يثرب، وخيبر ومحيطها، واليمن، ففي يثرب كانت تقيم ثلاث قبائل تدين باليهودية هم: بني النضير ويعتقد البعض أنهم من بني إسرائيل الذين تشتتوا سنة ٧٢١ق.م على يد الآشوريين، وبني قريضة الذين نزحوا من بلاد كنعان بين سنة ٧٠ - ١٣٢م حسب رأي البعض، والبعض يذهب إلى أن بني النضير، وبني قريضة يمثلان

فخذين من قبيلة جذام، وبني القيقناع الذين كانوا يعيشون في أحد أحياء يثرب، بينما كان بنو قريضة وبنو النضير يسكنون على محيط مدينة يثرب، وكانت لهم حصون خاصة بهم، ومن المواضع الأخرى التي كان اليهود ينتشرون بها هي خيبر، وتيماء، وفدك، ووادي القرى، والطائف.

وبعد أن بدأت الرسالة المحمدية بالانتشار خفية في مكة أولا، إلا أنها لم تستطع أن تحقق مرادها بسبب الرفض القبلي، الاجتماعي الذي واجهته، وبعد ثلاث عشرة سنة انتقلت من مكة إلى مدينة يثرب (المدينة المنورة)، حيث التقى المسلمون وجها لوجه مع اليهود بعد هجرة الرسول محمد وأتباعه إلى يثرب، وهنا لنا أن نفترض أن الرسول قد قرر الهجرة إلى يثرب اليهودية على اعتبار أن الرسالة المحمدية رسالة متممة للديانة اليهودية، كما لنا أن نفترض أن اليهود، والمسلمين الذين كانوا قد هاجروا قبل هجرة الرسول، هم من قاموا باستقبال الرسول، وأبي بكر الصديق، على اعتبار أن الرسول هو المسيح اليهودي، أو هو المصطفى، بأغنية (طلع البدر علينا).

ومن هنا كانت العلاقة بين الإسلام، واليهودية طيبة في بداية الرسالة، على اعتبار أن الإسلام هو مذهب تصحيحي في الديانة اليهودية، وكان هناك علاقات احترام بين المسلمين الجدد واليهود، وكان الرسول يحاول استرضاء اليهود من خلال ممارسة الكثير من الطقوس والشعائر اليهودية، إلا أن تلك العلاقة سرعان ما ساءت بعد أن بدأت الرسالة المحمدية تمضي بعيدا عن اليهودية، ولا سيما بعد أن حوّل الرسول قبلة المسلمين من المسجد الأقصى إلى بيت الله الحرام في مكة، وتحول الخلاف العقائدي إلى خلاف سياسي، عقبه خلاف عسكري بعد أن بدأت الخلافات المضمرة تظهر على السطح، ومن المنطق أن نعتقد أن اليهود كانوا في بداية الهجرة قد استبشروا خيرا بالإسلام معتقدين أن الرسالة المحمدية ما هي إلا رسالة يمكن إضافتها إلى التأريخ التوراتي، وأن النبي محمد ما هو إلا نبي من أنبيائهم، وربما اعتقدوا في البداية أن النبي محمد ربما يكون هو المسيح المنتظر الذي سيعود بهم إلى أرض الميعاد حيث هناك سيعيد أمجادهم، لا سيما وأن القبلة الأولى التي كان المسلمون يتوجهون إليها في صلواتهم كانت مدينة أورشليم، ولكن بعد زمن ليس بطويل، تكشّف لليهود أن الرسالة المحمدية جاءت لتتمم مكارم الأخلاق الحنيفية العربية، وأنها أتت لتجد حلولا للمشكلات الاجتماعية التي كان يعاني منها المجتمع العربي، أي أنها جاءت، أو انفرزت من الحراكية التاريخية، والدينية الحنيفية لشبه الجزيرة العربية، وتحديدا منطقة الحجاز التي كانت محطة لتلاقح الكثير من التيارات الدينية، والفكرية،

والثقافية، لا سيما وأن مكة كانت العاصمة الدينية، والتجارية للقبائل العربية العاربة، والمستعربة، ولم تأت هذه الرسالة من الحراكية التاريخية اليهودية، وإن كانت روحيا تشكل طبقة عليا لها استقلاليتها في الهرم الديني السماوي التوحيدي الذي يمثل الدين اليهودي صلبه، أو هي طرح آخر مؤسس على الديانة الحنيفية الإبراهيمية، كما هي اليهودية أيضا.

ومن هنا، وبسبب ضعف اليهود، وقلة حيلتهم ناصبوا رسالة الإسلام العداء خفية، وحاولوا تطويقها، وتشتيتها من خلال بث الخلافات البينية، والتآمر خفية مع أعداء المسلمين، وإحراج الرسالة من خلال طرح عدة أسئلة كانوا يوجهونها إلى النبي والمسلمين ظنا منهم أن ذلك سيحرج النبي والمسلمين، وبذلك سيزعزعون العقيدة والإيمان داخل نفوس أتباع الرسالة المحمدية، ولما بدأت نواياهم بالتكشف، وتبينت الفوارق بين ما يخفونه ويبطنونه، وبين ما يعلنونه ويظهرونه، وفي الوقت الذي استطاعت فيه الرسالة أن تنتشر، ويكثر أتباعها، قرر الرسول طرد اليهود من يثرب في نشوة انتصار المسلمين في معركة بدر، وقد تم إجلاء بني قينقاع الذين كانوا يعيشون متجمعين في أحد أحياء يثرب، وكانوا يمتلكون سوق الذهب، وقد قام المسلمون بالاستيلاء على أموال وسلاح وأرض بني قينقاع، دون أن يزهقوا أي روح منهم، وقد هاجر بنو قينقاع إلى مدينة أذرعات الشام (مدينة درعا في جنوب سوريا).

أما بنو النضير، فبعد أن عاد المسلمون من معركة أحد خائبين، طلب الرسول منهم الجلاء عن يثرب خلال عشرة أيام، لأنهم لم يؤازروا المسلمين في المعركة بحجة أنها دارت يوم السبت، وهو اليوم الذي تحرم فيه الشريعة اليهودية على اليهود الخروج من بيوتهم، كما تحرم عليهم القتال فيه أيضا، وربما أن يهود بني النضير لم يخفوا شماتتهم بالمسلمين، إلا أن بني النضير لم يذعنوا لطلب المسلمين، ورفضوا الخروج من ديارهم، فقام المسلمون بحصارهم لمدة خمسة عشر يوما ضمن حصونهم المنيعة، كما قاموا بإحراق أشجار نخيلهم خارج حصونهم، ولما أدرك بنو النضير أن لا جدوى من تحصنهم، استسلموا للرسول الذي سمح لهم أن يحملوا من متاعهم ما استطاعوا، وأن يجلوا عن المنطقة، حيث انضم القسم الأكبر منهم إلى اليهود في خيبر، وبعضهم تابع طريقه نحو بلاد الشام، فمنهم من نزل في مدينة أذرعات في منطقة حوران، ومنهم من تابع طريقه ونزل في مدينة أريحا.

أما بنو قريضة، فبعد أن قام المسلمون بحفر خندق حول مدينة يثرب، كتحضير دفاعي، بعد تشكيل تحالف القبائل العربية التي كانت قد قررت الهجوم على مدينة يثرب عاصمة الإسلام في تلك الفترة، وكان المسلمون قد أبقوا منطقة أو حي بني قريظة دون أن يلتف حولها الخندق، لأنها كانت مبنية على شكل حصن منيع، وقد أوكل المسلمون إلى بني قريضة القيام بالدفاع عن هذا القطاع، ولما وصل تحالف القبائل، وحاصروا مدينة يثرب، وفي أثناء ذلك، نمّ إلى أسماع المسلمين أن بني قريضة يتفاوضون سرا مع تحالف القبائل الذي تفكك حول الخندق بسبب خلافات قبلية على السيادة، وعادت القبائل إلى ديارها، وحينها تفرغ المسلمون كي يصفوا حساباتهم مع بني قريضة، فقاموا بمحاصرتهم، وبعد خمسة وعشرين يوما استطاع المسلمون اقتحام حيّهم، وقاموا بقتل كل الذكور الذين يحملون السلاح (٧٠٠ رجل)، وتم دفنهم في مقبرة جماعية في أسواق يثرب، أما من تبقى منهم فتم سبيهم، كما استولى المسلمون على ممتلكاتهم، وبذلك انتهى الوجود اليهودي في يثرب.

أما بالنسبة ليهود خيبر الذين كانوا رجال حرب وحصون، فلم يكن حالهم أفضل من حال يهود يثرب، فقد سقطت حصونهم تباعا في غزوة خيبر، ولما أدركوا أن لا جدوى من مقاومتهم لجيش الإسلام، استسلموا، وقد اعتبر الرسول أن خيبر تُعَدّ غنيمة حرب، وتم تقسيم ممتلكات اليهود، وأراضيهم على هذا المبدأ، وقد وافق يهود خيبر على أن يبقوا في المزارع التي كانت أملاكا لهم، وأصبحت للرسول، والمسلمين، على أن يأخذوا نصف إنتاجهم كأجر لهم.

وبعد استسلام خيبر، استسلمت القرى اليهودية الصغيرة في فدك ووادي القرى وتيماء دون حرب، وكان ليهود تلك القرى ما كان ليهود خيبر، بحيث بقوا يعملون في المزارع كأجراء مقابل نصف المحصول الزراعي، وبعد ذلك أمر الرسول معاملتهم بالحسنى باعتبارهم أهل ذمة، وقد جاء في الحديث الشريف (من أذى ذميا فأنا خصمه)، وفي خطبة الوداع (أوصيكم بأهل ذمتي خيرا)، وبذلك فقد استطاعت الرسالة المحمدية أن تتخلص من الخطر اليهودي الذي كان الرسول قد استشعر ما لهذا الخطر من إمكانية في تعثر الخطى الأولى لانتشار الإسلام، كما أن الإسلام حارب اليهود، واليهودية من خلال تحريم الربا، وشرب الخمر، وممارسة الزنا، والميسر، وهي أهم الأعمال الطفيلية اليهودية.

وهذه الفترة من التاريخ، والتي تشكل فراش العقيدة الإسلامية، ستبقى دراستها معلقة في الوقت الحالي، وهي تحتاج إلى دراسات عقيدية ونصية مقارنة، بين الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية، والمسيحية، والإسلام، ومقارنة العقيدة الحنيفية مع اليهودية، والمسيحية، والبحث عن النصوص، أو النسخ التوراتية، والإنجيلية التي كانت متداولة بين الجماعات المسيحية، واليهودية، في تلك الفترة، والبحث عن تاريخية إنجيل برنابا على وجه الخصوص، والذي جاء فيه «الحق أقول لكم، إن كل نبي إذا جاء فإنما يحمل لأمته فقط علامة رحمة الله، لذلك لم يتجاوز كلام الأنبياء الشعب الذي أرسلوا إليه، ولكن رسول الله متى جاء يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده، فيحمل خلاصا ورحمة لأمم الأرض الذين يقبلون تعليمه، وسيأتي بقوة على الظالمين، ويبيد عبادة الأصنام بحيث يخزي الشيطان لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلا: «انظر، فإني بنسلك أبارك كل قبائل الأرض، وكما حطمت يا إبراهيم الأصنام هكذا سيفعل نسلك». أجاب يعقوب: يا معلم، قل لنا بمن صنع الله هذا العهد، فإن اليهود يقولون بإسحاق، والإسماعيليون يقولون بإسماعيل؟ أجاب يسوع:.. إن العهد صُنع بإسماعيل لا بإسحاق حينئذ أجاب التلاميذ: يا معلم هكذا كُتب في كتاب موسى: إن العهد صنع بإسحاق، أجاب يسوع متأوها: هذا هو المكتوب ولكن موسى لم يكتبه ولا يشوع، بل أحبار اليهود الذين لا يخافون الله» برنابا: ٤٣.

وجاء أيضا في إنجيل برنابا على لسان كاتب يهودي مخاطبا يسوع «لقد رأيت كتيبا قديما مكتوبا بيد موسى ويشوع مكتوب فيه: إن إسماعيل هو أب مسيا وإسحاق أب لرسول مسيا.. لم أتمكن من قراءة هذا الكتاب كله لأن رئيس الكهنة نهاني قائلا: إن إسماعيليا كتبه» برنابا: ١٠٩.

«إن ابن إبراهيم هو إسماعيل الذي يجب أن يأتي من سلالته مسيا الموعود به إبراهيم أن به تتبارك كل قبائل الأرض، فلما سمع هذا رئيس الكهنة حنق وصرخ: لنرجم هذا الفاجر لأنه إسماعيلي».

وإنجيل برنابا، وعلى لسان المسيح، يصرح أن المسيح الحقيقي هو رسول وليس هو المسيح الذي ادعته الأناجيل المعروفة، بل إن المسيح الإنجيلي هو مبشر بمجيء المسيح، وهكذا فإن المسيح، حسب إنجيل برنابا، هو الرسول محمد، وإنجيل برنابا الذي رفضته الكنيسة يحتاج إلى بحث تاريخي (غير ديني) للوقوف على المرحلة التي دوّن فيها، ولكن يمكن القول أن نواة هذا الإنجيل، وتصوره الديني كان شائعا في الجزيرة العربية ما قبل

الإسلام، كما يمكن القول أيضا أن هناك نصا توراتيا كان متداولا في شبه الجزيرة العربية يختلف في مواقع متعددة عن النص الماسوري، وربما كان إنجيل برنابا نتاج طائفة دينية يهودية (سامرية) - مسيحية، أو يهودية أرادت أن تحارب تغلغل المسيحية في الجزيرة العربية، وإنجيل برنابا يذهب إلى أن يسوع هو سامري (إسرائيلي)، والنص القرآني يشير، أو يؤكد على وجود نص توراتي (عربي)

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ الصف: ٦.

﴿ وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ البقرة: ٤١.

ويبدو أن منطقة الحجاز كانت ساحة لصراع ديني عقيدي ما بين جماعات وتصورات يهودية، ومسيحية متعددة: يهودية - يهودية، يهودية - مسيحية، ومسيحية - مسيحية، وكان لكل جماعة تصور ديني يختلف في بعض جوانبه عن تصور الجماعات الأخرى

﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ البقرة١٠١.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة ١٤٦.

أما بعد وفاة الرسول، فقد كان المسلمون يعتقدون أن اليهود، وبسبب ما لاقوه على يد الرسول، فإنهم يحيكون المؤامرات ضد الإسلام، وأنهم كانوا وراء اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب بعد أن قام بطردهم من شبه الجزيرة العربية، وهي حادثة الطرد الوحيدة في التاريخ الإسلامي، والتي كان لكعب الأحبار الضلع الكبيرة فيها، كما كانوا أيضا وراء مؤامرة اغتيال الخليفة عثمان بن عفان، والتي كان لعبد الله بن سبأ اليهودي، الذي أعلن إسلامه الضلع الكبيرة فيها، كما إليه يعيد المسلمون أسباب الانقسام الإسلامي الكبير ما بين السنة والشيعة.

أما في المراحل اللاحقة للخلافة، وبعد توسع حدود الإمبراطورية الإسلامية، في الدولة الأموية، ومن ثم العباسية، ودخول الكثير من الجماعات اليهودية تحت سيادة

الإسلام، فقد عاش اليهود في ظل الدولة الإسلامية بسلام، وانخرطوا في الثقافة الإسلامية و لا سيما في العهد العباسي، وقد كان لهم رئيس ديني يرعى شؤونهم الدينية والقضائية، وينظم العلاقات البينية اليهودية من جهة، وبينهم وبين السلطة السياسية من جهة ثانية، وكان يتم اختياره من قبل اليهود، ويوافق عليه من قبل الخليفة، ويسمى رأس الجالوت، وهو استمرار للتقاليد التي كانت متبعة منذ السبي البابلي، إلا أن اليهود على اعتبارهم من أهل الذمة كان عليهم دفع الجزية مقابل الحماية، والأمن، كما كان عليهم أن يلبسوا ما يميزهم، أو أن يضعوا علامات على ملابسهم، وأن يضعوا في أعناقهم أجراسا تميزهم عن سواهم، وقد كانت أهم أعمالهم التي كانوا يمارسونها في الدولة الإسلامية هي الصيرفة والصياغة والقليل منهم- لا سيما في مصر والشام - امتهن العمل بالملابس والأحذية، وكان اليهود منتشرين في كل أرجاء الدولة الإسلامية و لا سيما المدن الرئيسية.

أما في بداية الألفية الثانية بعد الميلاد، والتي شهدت قدوم الحملات الصليبية المتابعة على الشواطئ السورية، فقد ورد، حسب المؤرخين المسلمين، أن اليهود قاموا بأعمال الجاسوسية لمصلحة الصليبيين، كما قاموا، بفتح أبواب بيت المقدس على حين غفلة من المسلمين أمام الصليبيين الذين قاموا بقتل سبعين ألفاً من أهل بيت المقدس، ويبدو أن هذه الرواية نتاج التصور العدائي لليهودية، وليس لها مرجعية تاريخية ذات مصداقية عالية، ذلك لأن بعض المصادر التاريخية تقول إن الصليبيين قاموا بحرق الكنس اليهودية في مدينة أورشليم سنة ١٠٩٩م بعد استيلائهم على المدينة، كما قام الصليبيون أيضا بقتل اليهود ضمن معابدهم، كانتقام على ما كان قد فعله اليهود في العهد الأخشيدي حين قاموا بقتل المسيحيين في كنائس القدس.

أما علاقة اليهود بالمسلمين في تلك الفترة، فقد سمح صلاح الدين الأيوبي لليهود بالعودة إلى بيت المقدس بعد أن استعاد القدس سنة ١١٨٧م، وحينها لم يكن في فلسطين من اليهود سوى ١٥٠٠ يهودي، وقد ازدادت هذه الأعداد في القرن الخامس عشر الميلادي بعد اضطهاد محاكم التفتيش لليهود في إسبانيا حيث هاجر القليل من اليهود إلى البلاد المقدسة، ولكن الأكثرية هاجروا نحو فرنسا وهولندا وإيطاليا ومصر وقبرص ومنطقة البلقان، ووصل عدد اليهود سنة ١٨٤٥م في فلسطين ١٢٠٠٠ من أصل ٣٥٠ ألف عدد سكان فلسطين، ووصل عدد اليهود سنة ١٨٨٠م إلى ٢٥ ألفاً من أصل نصف مليون عدد السكان، وبعدها بدأت موجات الهجرة تصل إلى شواطئ فلسطين.

بينما كان اليهود يعانون من عمليات اضطهاد من قبل الدول الأوربية المسيحية، كانوا، في الوقت نفسه في القرون الوسطى، ينعمون بالحياة الكريمة بشكل عام، في الدولة الإسلامية التي عاملت جميع الأمم والشعوب والأقليات على اختلاف عقائدهم، والعروق على اختلاف ألوانهم ضمن أنظمة وقوانين أخلاقية على أساس التعددية، وحرية العقيدة والمساواة بين الأجناس، وكان الناس سواسية في الشريعة الإسلامية، مع حق ممارسة الشعائر الدينية، وكان لليهود بعض الاستقلال الثقافي والديني، مع حرية العمل والكسب وتولي الوظائف إلا ما كان منها ذو صبغة دينية، وكانوا يعيشون في أحياء خاصة بهم (حارات اليهود)، ولم تكن هذه الأحياء مسورة، باستثناء الغيتو الوحيد في العالم الإسلامي الذي أنشئ في المملكة المغربية تحت تأثير الغيتو الأوربي، وقد كان المسلمون تأخذهم الرأفة باليهود تحديدا على اعتبارهم من أهل الذمة، وعلى اعتبارهم أيضا أقلية وضعفاء، وعلى الأمة الإسلامية أن تحاول الحفاظ عليهم، وقد حقق اليهود نجاحات كبيرة لم تكن لهم في أي حضارة أخرى قبل القرن العشرين.

وقد كانت الدولة الإسلامية ملجأ لليهود في المرحلة الإقطاعية الأوربية التي عانى فيها اليهود من عمليات اضطهاد واسعة، وأكثر الأماكن التي التجؤوا، واحتموا بها هي الدولة الأموية في الأندلس، والتي تُعَدّ الفردوس المفقود أو (العصر الذهبي لليهود) في التاريخ اليهودي، وكان اليهود قد وقفوا إلى جانب المسلمين في فتح الأندلس، كما أنهم كانوا يقومون بحراسة المدن الأندلسية التي يحتلها المسلمون، الأمر الذي كان يعطي للجيش الأموي الفرصة لمتابعة احتلالهم للمدن الأندلسية، وقد توطن اليهود بعدة مدن أندلسية أهمها: قرطبة وغرناطة وطليطلة، وكانوا يعيشون بأمن وسلام، ولم يعكر صفو ذلك سوى قيامهم بتمرد سنة ٨١٨م، وسنة ٨٢٨ في طليطلة، وقد تعّرب اليهود في الأندلس، لا من حيث الأسماء فحسب، بل انخرطوا، واندمجوا في الحضارة العربية الإسلامية، حتى أنهم بدؤوا يفقدون هويتهم الدينية، ويُعَدّ بعض اليهود أن النكبة التي حلت بهم في إسبانيا لاحقا سببها تخليهم عن يهوديتهم، وقد وصل بعض اليهود إلى وظائف عالية في صلب الدولة العربية الأندلسية، كما كان لهم دور كبير في تطور العلوم بتعاونهم مع العرب في شبه جزيرة أيبيريا، وهي المنطقة التي كانت النواة المحركة أو المولدة لعصر النهضة الأوربية، وأهم العلماء اليهود في تلك الفترة هو موسى بن ميمون، الذي، وبسبب تفهمه للعلاقة التي تربط بين الدين والدنيا، استطاع أن يكون أحد أهم العلماء في عصره.

وقد تعرض اليهود إلى أعمال عدوانية من قبل السلطة المسيحية الإسبانية عند سقوط الأندلس بيدهم سنة ١٤٩٢ للميلاد، وتعرضوا إلى الطرد باعتبارهم عنصراً عضوياً في الحكم العربي الإسلامي، بعد أن عانوا من اضطهاد محاكم التفتيش (وحدات السيد المسيح)، الأمر الذي قاد الكثير من اليهود إلى تمسحه الظاهري، مع بقائه على يهوديته الباطنية، وهم الذين دعوا يهود المارانو، وقد وافقت الإمبراطورية العثمانية الإسلامية بإيوائهم باعتبارهم من أهل الذمة، مما زاد من عدد اليهود بشكل واسع في الإمبراطورية العثمانية، والتي ضمت جماعات يهودية متعددة (الرومانيوت وهم يهود الدولة البيزنطية - الأشكناز - السافارد - المستعربون - يهود الأكراد - اليهود القراؤون وهم، حسب رأي البعض، بقايا دولة الخزر - السامريون)، وقد كانت لهم حقوق واسعة في حرية العمل واعتلاء المناصب المهمة في الدولة، وبعد انتشار دعوة شبتاي تسفي المسيحية اليهودية سنة ١٦٦٥م، وتصدي الحاخامات اليهود له، وافشلوا دعوته بمساندة السلطة العثمانية، وفي النهاية أعلن شبتاي تسفي إسلامه، وتبعه الكثير من أتباعه، والذين عُرِفوا بيهود الدونمة، والذين أسلموا طواعية على عكس يهود المارانو الذين تمسحوا قسرا، ولكن يهود الدونمة كانوا يمارسون الطقوس اليهودية عدا طقوس يوم السبت كي لا يلفتوا النظر إليهم، وقد بلغ عدد يهود الدونمة ما بين ١٠٠٠٠- ١٥٠٠٠ قبل الحرب العالمية الأولى، وقد كشفت وثائقهم أنهم كانوا عدميين بعيدين عن اليهودية والإسلام، وقد رفضوا كل المحاولات لإقناعهم بالهجرة إلى فلسطين بعد تشكيل دولة إسرائيل، ويتهمهم المسلمون بأنهم ساهموا، بإمكاناتهم المادية، وبمناصبهم السياسية التي تقلدوها، بتخريب البنية الداخلية للإمبراطورية الإسلامية العثمانية، لا سيما من خلال إثارة النعرات بين الإمبراطورية والأقليات فيها، كما حصل مع الأرمن، والتي أدت إلى إبادة مئتي ألف إنسان ما بين سنة ١٨٩٤م، وسنة ١٨٩٦م، كما أن المسلمين يتهمون اليهود أنهم كانوا وراء إنهاء الإمبراطورية الإسلامية من خلال علمنتها على يد أحد يهود الدونما مصطفى أتاتورك.

هذا بالنسبة لتاريخ الجماعات اليهودية في العالم العربي الإسلامي، ونظرة المسلمين إلى اليهود، أما بالنسبة لرؤية اليهود إلى العرب، أو الأعراب تحديدا فيمكن أن نجملها بما كان المؤرخ اليهودي يوسف فلافيوس قد كتبه نقلا عن الملك اليهودي هيرودوس، حيث يقول في كتابه (ضد أبيون) {إن الأعراب هم أكثر البشر مكرا وكفرا، وبرهنوا عن بخل وحسد ونكران الجميل، وأنهم غير مخلصين لأصدقائهم، وهم عنيفون، وهذا الشعب أرعن، ولا يجد الشرف إلا فيما هو مفيد له، ويعتقد أن الشتائم والأذى يجب أن تبقى من

دون عقاب عندما تكون مفيدة لفاعلها، وأنه يلجأ للخداع والخيانة، باختصار، لا يوجد هنا تقدير لهذه الأمة الكافرة والماكرة والتي نقضت العهود التي لا تنقض} ، كما أن اليهود، وحسب ما جاء في التوراة، يُعَدّون أن العرب يعودون إلى إسماعيل بن إبراهيم، وإلى عيسو بن إسحاق، إي أن قرابة قوية تربط اليهود بالعرب، أما في التلمود فقد جاء أن الرب نادم على أربعة أشياء قام بفعلها هي: نفي بني إسرائيل، وخلقه للكلدانيين الذين سبوا اليهود، وللعرب، وللشر.

وهكذا، وبينما كان يعيش اليهود السفارد في الشرق الإسلامي دون غيتو مادي، أو عقلي، كما تفكك الغيتو السفاردي في أوربا الغربية في زمن مبكر أيضا، كما أن اليهود حققوا فيها اندماجا سريعا في مجتمعاتهم، تجمع يهود أوربا الشرقية اليديشيين ذوو العقلية الغيتوية الأشكنازية، وأنشؤوا دولة إسرائيل كغيتو عالمي، تضم داخلها أيضا مجموعة من الغيتوات السياسية، والاجتماعية، ودولة إسرائيل الصهيونية الأشكنازية العنصرية، بشكل عام، ليس من مصلحتها أن تدمج الجماعات اليهودية في مجتمع واحد، الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى فقدان الأشكناز المزايا السياسية التي يتمتعون بها، كما أن الاندماج في دولة إسرائيل من شأنه أن يدخل الكتلة العربية المسلمة، والمسيحية في التشكيل السياسي الاجتماعي الإسرائيلي، الأمر الذي يحمل مخاطر وجودية على دولة إسرائيل اليهودية في المستقبل القريب.

يشكل اليهود الأشكناز في العالم ٧٧٪ من يهود العالم، أما السفارد فيشكلون ٣٣٪.

ويشكل اليهود الأشكناز في إسرائيل نسبة ٤٨٪ (سنة ١٩٨٤م)، أما اليهود السفارد فيشكلون نسبة ٥٢٪ من يهود إسرائيل.

ويشكل اليهود الأشكيناز الطبقة الفوقية على المستويات كافة، الاجتماعية، والسياسية، فقد قامت الصهيونية بدعم الأشكناز (لأن الصهيونية أصلا هي تنظيم أشكنازي)، وقد كانت الصهيونية تنظر بحذر إلى اليهود السفارد، ولا سيما منهم المتحدثون بالعربية، كما أنها تنظر بعين الغضب والريبة، وحتى الحرج من اليهود السود (الفالاشا)، وينقسم اليهود في إسرائيل إلى عدد كبير من المجموعات، منها ذات الطابع العرقي، ومنها الأثني، ومنها المذهبي، ومنها الاجتماعي، ومنها الاقتصادي، وقد جاء في صحيفة دافار سنة ١٩٨٤م {علينا ألا نوهم أنفسنا أنه بالإمكان صب وجمع مهاجري سبعين أمة ولغة في شعب واحد خلال جيل واحد، ونحن نعرف عن كثب في مستوطنات الحركة الكيبوتسية كيف يتم الصراع من أجل أن تتكتل مجموعة عرقية واحدة في مستوطنة

واحدة، ونحن نلمس الآن فروقا في العقلية والذوق وعادات الحزن والسرور وتقاليد الأعياد وفي المشاعر - وما إلى ذلك - ويحتاج الأمر إلى مسيرة تاريخية مدتها عدة أجيال لتحديد الشكل القومي الجديد في إسرائيل} ، ويقول د. سامي سمحون أستاذ علم الاجتماع في جامعة حيفا: إن التمايز القائم داخل الكيان الصهيوني بين العرب من جهة، وبين اليهود الشرقيين من جهة، واليهود الغربيين من جهة أخرى، قد شكل بنية هرمية من ثلاث طبقات:

اليهود الغربيون في قمة الهرم الإسرائيلي (الأشكنازيون)

اليهود الشرقيون في وسط الهرم الإسرائيلي (السفارديون)

العرب في قاعدة الهرم الإسرائيلي

وكما فشل هذا الغيتو في صهر الجماعات اليهودية في داخله، فإنه أيضا لم، ولن يستطيع الاندماج في محيطه الحضاري، لأن هذا الغيتو - الدولة هي:

أولا غريبة، وازدراعية، وليست وليدة المنطقة الحضارية.

وثانيا لأن دولة إسرائيل، ستبقى في ذهنية المجتمع الحضاري للمنطقة، دولة قامت على العدوان، وعلى القتل، وتهجير أصحاب البلاد الأصليين مهما تقادم عليها الزمان.

وثالثا لأن الإمبريالية العالمية ليس من مصلحتها أن تندمج دولة إسرائيل في محيطها الحضاري، لأن ذلك من شأنه أن يفقد دولة إسرائيل دورها الوظيفي الإمبريالي، إلا أن الإمبريالية، والنظام العالم الجديد يسعيا، لدمج هذه الدولة سياسيا، لا حضاريا، وهذا لن يتحقق إلا بإعطاء كامل الحقوق الشرعية (حسب قرارات هيئة الأمم المتحدة) إلى الشعب العربي الفلسطيني، والصهيونية ترفض هذا الاندماج لا سيما في جانبه الاجتماعي الحضاري، الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى ذوبان هذه الدولة اليهودية في النهاية في خضم المجتمع، والمحيط الشرقي، ولذا فيجب إبقاء مسافة، وجدران تعزل ما بين اليهود، والشعب العربي المحيط بها، وما الجدار العازل الذي تقوم الآن دولة إسرائيل بإنشائه، سوى رمز صهيوني تحاول من خلاله الصهيونية أن تحافظ على مكوناتها اليهودية الأشكنازية، بل إن الصهيونية تحاول بناء جدار غيتوي سياسي، ولذا فهي تحرص على بقاء حالة ثابتة، ومستمرة من وجود عدوانية المحيط العربي الذي من شأنه رفع جدار الغيتو الصهيوني من قبل الطرفين معا، الأمر الذي يساهم في استمرار خصوصية دولة إسرائيل الصهيونية الأشكنازية، وهذا يتعارض جزئيا مع التصور الكيسنجري، الذي يقوم على أن الاستقرار في المنطقة هو من يصنع السلام، وأن السلام المنشود لا يتحقق إلا

بتطبيق الشرعية الدولية، وأن الشرعية والاستقرار لا يتحققان إلا تحت خيمة مشتركة تتلازم فيها الدبلوماسية مع القوة العسكرية، وكيسنجر يعتقد أن هذا الحل لا ينهي الصراع العربي الإسرائيلي، بل يخفضه إلى درجة يمكن استيعابه تحت مفهوم التنافس، وحتى تستمر هذه الحالة شبه المستقرة التنافسية لا بد من استمرارية التزاوج بين الدبلوماسية والحروب الصغيرة المحلية، وما زالت الولايات المتحدة الأمريكية، والصهيونية العالمية تعتقد وتؤمن بالمقولة الكيسنجرية، أما الصهيونية الليكودية اليمينية فإنها تُعدّ أن الاستقرار، الذي قد يقود إلى السلام في المنطقة، يشكل مقتلا للصهيونية التي يشكل عدم الاستقرار العسكري السياسي في المنطقة، استمرارا، بل واستقرارا لوجودها على سدة الحكم في دولة إسرائيل.

وبعد هذه النبذة عن تاريخ الجماعات اليهودية في العالم، يمكن لنا أن نتساءل: هل شكلت الجماعات اليهودية تاريخا تزامنيا مشتركا، على الرغم من الافتراق المكاني لهم؟!!

وهل هذا التشابه في تاريخ الجماعات اليهودية ناتج عن نمط الشخصية اليهودية الأثنية، أم هو نتاج كون هذه الجماعات كانت تشكل أقليات في المكان، كما شخصها الدكتور عبد الوهاب المسيري، وهو الذي يرى أنه يجب استخدام تعبير الجماعات اليهودية، بدل تاريخ اليهود، على اعتبار أن لكل جماعة يهودية تاريخها الخاص المرتبط بتاريخ المجتمع أو الدولة التي يعيشون فيها، وليس لديهم تاريخ مشترك يجمعهم، وهو ما كان دعاه الدياسبورا (سيمون دبنوف - حزب البوند) يذهبون إليه، إضافة إلى اعتقادهم أن لكل جماعة يهودية نمطها الديني، وتراثها المختلف عن باقي الجماعات اليهودية، ولذلك فكل جماعة منوطة بها أن تجد الحل الخاص بها، ولكن هنا، وعلى الرغم من أنني استخدمت هذا التعبير (الجماعات اليهودية بدل اليهود)، الذي حسب ما أعتقد، فيه الكثير من الموضوعية، والدقة، إلى أن النظر إلى تاريخ هذه الجماعات يجعلنا نكتشف وجود تشابه تزامني كبير بغض النظر عن المكان، وعن المجتمع، والدولة، الذي كان اليهود يعيشون فيه، وهو الذي جعل الأوربيين ينظرون إلى الجماعات اليهودية على أنهم يمتلكون تاريخا مشتركا فيما بينهم، ومنفصلا، ومعزولا بشكل ما عن التاريخ الأوربي، وهم مميزون عن باقي الأقليات التي تعيش في العالم الأوربي، كما أن اللاهوت الأوربي كان يرى اليهود من خلال نظرتين متطرفتين:

الأولى تذهب إلى أن اليهود يشكلون مركز التاريخ البشري، والذي لا يمكن له أن يتحرك ضمن صيرورته إلا بوجودهم، وأن اليهود يشكلون ميزان الأمم، وهم الذين يفسرون الخير والشر في العالم ككل، وفي العالم الأوربي على وجه الخصوص.

والنظرة الثانية تذهب إلى أن اليهود شيء لا قيمة له، وهم يعيشون على هامش التاريخ.

وهما ليستا أكثر من مقولات عائمة تريد أن تسوق أن لليهود تشكيلاً خاصاً له تاريخ خاص، كما أن الكثير من الأوربيين، وسواهم يعتقدون أن اليهود يمتلكون قوى عجائبية أخطبوطية تعمل في العتمة، وهي وراء كل المؤامرات التاريخية، والتي يسعى اليهود من خلالها للسيطرة على تاريخ البشرية، على اعتبار أن اليهود وكلاء الله على الأرض، ومثل هذا التصور له تأثير كبير على أعدائهم، بل وعلى جدلية الخطاب التاريخي، وهو يضفي هيبة وهالة على الجماعات اليهودية، وبالطبع على تشكيل دولة إسرائيل، كما أنها تؤثر على البعد النفسي في الصراع العربي الإسرائيلي، حسب ما يذهب إليه الدكتور عبد الوهاب المسيري.

كان اليهود، وبسبب تقاطع نمطهم الذاتي الديني الأثني، مع موضوعية المجتمع الأوربي المسيحي، إضافة إلى تأثيرات كونهم كانوا أقليات، إضافة أيضا إلى ما أفرزته لهم حياتهم الغيتوية المغلقة، قد شكلوا، أو أفرزوا عدة مذاهب، وتنظيمات، وجمعيات سرية، منها ذات طبيعة دينية، ومنها سياسية، وهي التي رسّخت، وشكلت لدى الذين يتبنون نظرية المؤامرة حجة على تصورهم، ومن هذه التنظيمات مذهب القبالا، والمذاهب التصوفية اليهودية التي انتشرت بشكل واسع في القرن الثالث عشر الميلادي، كما كان لهم اليد الطولى في تشكيل الماسونية، والتي يقال أن عائلة روتشلد الشهيرة هي التي كانت وراء تمويلها، والإشراف عليها، والهدف من الماسونية تشكيل حكومة عالمية بقيادة طبقة من المفكرين العالميين، وقد ضم هذا التنظيم قرابة ألفي عضو، كما تم تشكيل محفل الشرق الأكبر كجهاز سري يعلو ويدير تنظيميا المحافل الماسونية، ويعتقد أن بروتوكولات حكماء صهيون تشكل المنطلقات النظرية للماسونية، والماسونية هي إحدى أجهزة (اليد الخفية لليهودية) والتي هي جزء من الدولة الخفية (جامعة يهوذا) والتي كانت باريس عاصمتها الأولى، ثم أصبحت لندن قبل أن تستقر في نيويورك، ويعتقد الكثيرون أن الثورة الفرنسية ما كانت لتنفجر لولا تدخل اليد الخفية للماسونية فيها، وكذلك الأمر بالنسبة للثورة الإنكليزية، والثورة البلشفية، وهي أيضا التي حاربت اليهود الذين حاولوا الانخراط في المجتمع المدني للبلدان التي يعيشون فيها، وقد عملت

على عولمة أو علمنة الدول التي تعيش فيها الجاليات اليهودية، أما أهم تنظيم سياسي شكلته اليهودية فهو الصهيونية اليهودية، وهي التي نشأت لمعالجة المسألة اليهودية في أوربا الغربية على وجه الخصوص، وهي التي شكلت وجها آخر للصهيونية المسيحية التي برزت كمجموعة أفكار تعبر عن رفض العالم الأوربي لوجود الجماعات اليهودية، ولا سيما منها اليديشية.

الباب الثالث

الصهيونية

الفصل الأول

الصهيونية غير اليهودية

الصهيونية غير اليهودية، أو صهيونية الأغيار، أو الصهيونية المسيحية، أو الصهيونية اللاسامية بالتعريف هي مجموعة معتقدات وقيم متعددة (وهي إما دينية أو سياسية) يحملها أشخاص غير يهود (غالبا هم مسيحيون)، وبالأخص هم من البروتستانت، وقد نشأت هذه الصهيونية في عصر النهضة الأوربية، والذي شهد أيضا ظهور يهود البلاط، وقد برزت الصهيونية، وارتفع صوت خطابها مع ظهور الدولة المطلقة في أوربا، التي اشتدت فيها ظاهرة معاداة اليهود، والتي ترافقت مع حركة التنوير اليهودية.

والصهيونية غير اليهودية (كما هي الصهيونية اليهودية) ترى أنه يتوجب أن يتم إعادة اليهود (على اعتبار أنهم يشكلون شعبا عضويا منبوذا تربطه علاقات تاريخية سياسية مشتركة) من شتاتهم إلى وطنهم المقدس في فلسطين (أرض إسرائيل) وأن يقيموا كياناً قومياً دينياً فيها، والصهاينة غير اليهود ينتسبون إلى ثلاث منظومات أو ثلاث جماعات:

- الأولى دينية مسيحية بروتستانتية، وهي تنطلق من الإيمان بالعقيدة الألفية السعيدة الاسترجاعية التي أتت في كتب الأبوكريفيا (حلول ألف سنة سعيدة على البشرية جمعاء)، وعقيدة الألفية السعيدة ترتكز على ثلاثة مبادئ هي:

أولا : إن اليهود هم شعب الله المختار.

ثانيا: إن هناك ميثاقا إلهيا أبديا مقدسا يربط بين شعب الله المختار (اليهود)، وبين الأرض المقدسة (أرض فلسطين).

ثالثا: إن الألفية السعيدة ستتحقق بعد مجيء المسيح المنتظر، وسيستمر حكمه ألف عام يحل فيه العدل والسلام، ويكون فيه اليهود حكام العالم، وهذا لن يتحقق إلا من خلال عودة اليهود إلى أرضهم المقدسة في فلسطين، ومن ثم تنصيرهم.

وتذهب هذه الصهيونية إلى أن الله يركّز على الوصول إلى خلاص شعب الله المختار، وأرضه المقدسة، وأن العجلة تمضي قدما، وسيكون هناك بعض التجاوزات، والعنف، والمظالم،

التي لا بد منها للوصول إلى الخلاص التام، وإقامة المملكة المسيحانية، والوصول إلى العصر الألفي السعيد، ولا بد من أن يقوم الإنسان (المسيحي الغربي) بدوره اللاهوتي لخلق الوقائع التي تسهل عملية، أو تمثيل سيناريو الخلاص البشري الشامل، لا لليهود، والمسيحيين فحسب.

وحسب رأي الصهيونية المسيحية، والمسيحية الأصولية، واليهودية الأصولية، فإن الوصول إلى الخلاص يفرض على العالم أن يقدم ما استطاع من الجهود لإعادة اليهود (شعب الله المختار) إلى فلسطين (أرض الميعاد)، وهذا يسوغ، أو يجعل الاعتداءات على فلسطين أرضا وشعبا مسوغة، وضرورية، لأنها تنسجم مع تحقيق الإرادة الإلهية، وبالموجز يُعَدّ اليهود، حسب التصور الصهيوني المسيحي البروتستانتي، هم مفتاح المستقبل التاريخي.

- أما المنظومة أو الجماعة الصهيونية غير اليهودية الثانية فهم المسيحيون، والسياسيون اللاساميون الأروبيون، وهذه المنظومة تعود في غالبيتها إلى المذهب الكاثوليكي، وهي تذهب إلى أن اليهود يمثلون الشر بعينه أينما حلوا وارتحلوا، ولذلك لا بد من التخلص منهم بإبادتهم أو بطردهم أو إبعادهم من أوربا، وتُعَدّ النازية في بعض جوانبها صهيونية لاسامية اتخذت في البداية للتخلص من اليهود سياسية الإبعاد والتهجير، كما هو الأمر بالنسبة للبلفورية (نسبة إلى بلفور صاحب الوعد الشهير)، وفي النهاية تبنت النازية سياسة إبادتهم طريقة مثلى للتخلص منهم.

وهذه الصهيونية اللاسامية هي التي ساهمت بدفع اليهود للهجرة نحو فلسطين، لتكون أرض الميعاد، بالنسبة لليهود معتقلات بمعنى أو آخر، أو على أقل تقدير غيتو عالمي، ينعزل فيه اليهود عن المجتمع، والحضارة الغربية الأوربية، والتي يمكن لها، بالوقت نفسه، وفيما لو كان هناك ضرورة، جعل هذا الغيتو هولوكست نووي، أو هولوكست مزدوج لليهود، والعرب المسلمين، كي تنتصر الصليبية المسيحية، على اليهودية، والإسلام معا.

- أما المنظومة الصهيونية غير اليهودية الثالثة فهي الصهيونية السياسية الاستعمارية الرأسمالية الإمبريالية الغربية، والتي تذهب إلى أنه يمكن استغلال اليهود من خلال توطينهم في فلسطين للهيمنة على المنطقة العربية، ومحيطها الجغرافي.

وهذا التصنيف بين الصهيونيات غير اليهودية يميل لأن يكون نظريا، فقد تشترك في الصهيونية غير اليهودية أكثر من منظومة في آن واحد، فقد يكون بعض الصهاينة مسيحيين استعماريين، وبعض الصهاينة مسيحيين لاساميين، ولاساميين استعماريين، وغير ذلك، وقد نشأت الصهيونية غير اليهودية قبل الصهيونية اليهودية بقرابة قرنين من الزمان، والصهيونية غير اليهودية سبقت وأسست للصهيونية اليهودية، وتُعَدّ الصهيونية المسيحية هي أولى الصهيونيات تشكّلا، وهي الأقوى، ومنها، وعلى أساسياتها تشكلت الصهيونية اللاسامية، والصهيونية الاستعمارية، وأخيرا الصهيونية اليهودية.

الصهيونية غير اليهودية

بين

البروتستانتية والكاثوليكية

كانت الكنيسة الكاثوليكية تنظر إلى اليهود من خلال تقاطع نظرتين:

الأولى تذهب إلى أن اليهود هم من تنكروا للمسيح، ومن ثم هم من كانوا وراء صلبه.

والثانية تذهب إلى أن اليهود هم الشعب المتنبئ لمجيء المسيح، والشاهد على ظهوره، ومن ثم على الكنيسة المسيحية، ولذلك كان المسيحيون الكاثوليك يحرصون على بقاء اليهود باعتبارهم (الشعب الشاهد) على انتصار الكنيسة المسيحية، كما أن هذا التصور يذهب إلى أنه يتوجب على المسيحيين معاقبة اليهود، وإذلالهم باعتبارهم قتلة المسيح، وكان هذا التصور أيضا ينظر إلى اليهود على أنهم (أغبياء يحملون كتابا ذكيا)، والبعض من الكاثوليك كانوا ينظرون إلى اليهود من خلال مقولة الكنيسة الكاثوليكية: (أن تكون يهوديا فهذه جريمة، ولكنها لا توجب على المسيحي أن ينزل بصاحبها العقاب، فالأمر متروك للخالق)، وبموجب هذه النظرة تم توظيف اليهود على اعتبار أنهم (الشعب العضوي المنبوذ).

كما أن أتباع المذهب الكاثوليكي لا يعتقدون بوجود أمة يهودية، ولا يؤمنون بأساطيرها أيضا، فهم يرون أنه بسبب آثام اليهود تم سبيهم إلى بابل كعقاب إلهي في القرن السادس قبل الميلاد، ويرون أيضا أن النبوءات المسيحية في التوراة تحققت بعودة اليهود على يد قورش، ولكن، وبسبب إنكار اليهود لعيسى ابن مريم على أنه المسيح المنتظر، تم تشتيتهم في أصقاع العالم إلى الأبد كعقاب إلهي آخر.

كما أن المذهب الكاثوليكي يرى أن المستقبل المشرق لليهودية الذي جاء ذكره في التوراة قد تم من خلال المسيحية، وأن فلسطين هي للمسيح والمسيحية التي جاءت لا لتنقض الناموس بل لتصححه وتكمله، وأن استمرار وجود اليهود بذلّهم يشكّل شاهدا على انتصار وعظمة الكنيسة المسيحية (عقيدة الشعب الشاهد الكاثوليكية)، ويرى البابا شنودة الثالث أن الرب كان فيما مضى قد جعل من شعب محدد شعبا مختارا، لأن الحاجة

في تلك الفترة كانت تقتضي ذلك في مجتمع وثني، ولكن مع مجيء المسيحية وانتشارها، واندحار الوثنية فقد سقطت فكرة شعب الله المختار، وعقيدة شعب الله المختار كانت مشروطة، بالتزام الشعب المختار ببنود العقد مع الرب والالتزام بالقيم والأوامر والنواهي الإلهية، وقد كان أكثر الأشخاص الصهاينة غير اليهود اللاساميين (أعداء اليهود) هم من الكاثوليك.

وهذا مخالف تماما لتصور المذهب البروتستانتي الأكثر حداثة من المذاهب المسيحية الكبرى، وهو الذي انتشر في عصر النهضة فيما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، وقد اعتبر المذهب البروتستانتي أن التوراة كتابا دينيا منزها، ومرجعا تاريخيا لا يرقى إليه الشك، ويجب قراءته بطريقة بسيطة مباشرة غير تأويلية، على عكس تعقيدات اللاهوت المسيحي الكاثوليكي، كما اعتبر هذا المذهب أن اللغة اليهودية لغة مقدسة، وعلى الجميع معرفتها، كما اعتبر هذا المذهب أيضا أن فلسطين هي وطن اليهود المقدس الذي يجب أن يعودوا إليه حسب النبوءات التوراتية، على اعتبار أن عودة المسيح (المجيء الثاني للمسيح) تشترط أولا عودة اليهود إلى الأرض المقدسة، وبعدها يحل العهد الألفي السعيد بعد مجيء المسيح المنتظر في نهاية الزمان، وبالتالي فإن المذهب البروتستانتي يرى أن اليهود شعب مقدس يشكل عنصرا أساسيا في الأحداث الكونية التي يشكل التاريخ العام جزءا منه، كما يشكل التاريخ اليهودي حالة خاصة ومنعزلة عن التاريخ العام، في الوقت الذي يشكل فيه هذا التاريخ الركيزة الأساسية للتاريخ العالمي، وبذلك تم استبدال عقيدة (الشعب الشاهد) الكاثوليكية بالعقيدة (الألفية السعيدة الاسترجاعية البروتستانتية)، وهي التي قادت إلى تشكيل الصهيونية المسيحية الاسترجاعية، وكان هذا الإصلاح الديني له أثر كبير في اندخال اليهودية في الفكر والأدب والفن الأوربي.

وبينما كانت اليهودية تنتظر مجيء المسيح اليهودي ليعود بهم إلى أرض الميعاد، ومنها، وعليها، يحكمون العالم (خلاص شعب الله المختار فقط)، فإن المسيحية البروتستانتية تنتظر في الوقت نفسه عودة المسيح (يسوع الناصري) مرة ثانية، وحسب قول الأصولية المسيحية الإنجيلية {إن مصيرنا مشترك، فاليهود ينتظرون المسيح ليجيء، ونحن المسيحيين ننتظر المسيح ليعود، وعلى أي حال ستتوحد المسيحية واليهودية من جديد بمجيئه أو بعودته، وسندرك جميعا أن هذا هو المسيح الذي كنا ننتظره}، وهو الذي سيدخل المسيحية في العصر الألفي السعيد (الخلاص لكل البشر)، وهذا لن يتحقق إلا

بعودة اليهود، وبناء الهيكل الثالث (مكان مسجد قبة الصخرة)، وهذا سيؤدي إلى انطلاق أحداث نهاية التاريخ حسب التصور التاريخي الديني لهذه الأصولية {إن إنشاء دولة إسرائيل أهم حدث في التاريخ المعاصر، إنه يمثل الخطوة الأولى نحو بداية نهاية الزمان}، وهذا التصور تم بناؤه على ما جاء في العهد الجديد «فإني الحق أقول لكم إلى ان تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل. فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السموات. وأما من عمل وعلّم فهذا يدعى عظيما في ملكوت السموات.» متى٥، وقد تطورت المسيحية الأصولية من حالة التصور العقيدي، إلى أيديولوجيا سياسية، وهو ما دعيت بالصهيونية المسيحية.

وبينما تُشكّل فلسطين بلاداً مسيحية مقدسة في المعتقد الكاثوليكي، فقد أصبحت فلسطين في المعتقد البروتستانتي هي الأرض اليهودية المقدسة، أو الأرض المقدسة للشعب المختار، والتي يجب أن يعود إليها الشعب المختار كمقدمة لمجيء المسيح المنتظر، وليأذنوا بدخول العصر الألفي السعيد، وهذا المعتقد يشكل حجر الزاوية في الخلاص البروتستانتي، والذي يقوم على الأركان الثلاث التي سبق ذكرها، وهي:

أن اليهود هم شعب الله المختار.

وأن هناك رباطاً إلهياً مقدساً بين الشعب اليهودي المقدس، والأرض المقدسة.

وأن المجيء الثاني للمسيح مرتبط بعودة اليهود إلى الأرض المقدسة، وتشكيل دولة إسرائيل ثانية كمقدمة شرطية لعودة المسيح، والتي لن تتحقق إلى بقيام دولة إسرائيل (التي قامت سنة ١٩٤٨م)، واحتلال مدينة القدس (التي تحققت سنة ١٩٦٧م)، وإعادة بناء هيكل سليمان، ومن بعدها قيام حرب هارمجدون الكونية، والتي تسعى المسيحية الأصولية البروتستانتية إلى تحقيقها، وقد تفشت هذه الأفكار بشكل واسع في المحيط الإنكليزي، ولا سيما أثناء حرب الثلاثين عاما (١٦١٨ - ١٦٤٨م).

وكان أبو المسيحية البروتستانتية مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) في البداية قد شجّع أتباع مذهبه البروتستانتي على التسامح مع الجماعات اليهودية، من أجل كسب اليهود، الذين، حسب قول مارتن لوثر، {إذا أردنا أن نجعلهم خيرا مما هم، فعلينا أن نعاملهم حسب قانون المحبة المسيحي، لا قانون البابا، علينا أن نحسن وفادتهم وأن نسمح لهم بأن يتنافسوا وأن نتيح لهم فرصة فهم الحياة والعقيدة المسيحيتين، وإذا أصر

بعضهم على عناده فما الضرورة في ذلك؟، نحن أنفسنا لسنا جميعا مسيحيين صالحين} ، {إن الله خلق اليهود أسيادا ، وما نحن إلا الكلاب التي تأكل من فتات موائدهم} .

ولكن مارتن لوثر الناسك ذا المزاج العصبي تراجع عن خطابه الديني المتسامح هذا في سياق مسيرته، وتبنى موقفا شديد التطرف، بل وأشد تطرفا من المذهب الكاثوليكي، فشرّع وحرّض على القيام بممارسات اضطهادية ضدهم، وهو في هذا السياق يقول {أيقنت أن اليهود أناس غلاظ الأكباد ، انحرفوا عن شريعة موسى، وزوروا كتبه وأقواله، أما معابدهم فما هي إلا مواخير للفسق والفجور ، فيجب علينا إحراق كتبهم المزورة، وتدمير معابدهم القذرة لننقذ شعبنا من خطرها ، فلو عاد موسى بنفسه للحياة لأمر بحرقها ، وإزالتها من الوجود} ، ويتابع في وصفه لليهود {هم وحوش ضارية ، وأفاع سامة ، يجب مطاردتهم حيثما كانوا والقضاء عليهم كما يقضى على الكلاب المسعورة} .

كما نادى بطرد اليهود من العالم الأوربي إلى فلسطين، وقد صرح سنة ١٥٤٤م {من يمنع اليهود من العودة إلى أرض يهودا؟ لا أحد.. سوف نزودهم بكل ما يحتاجون إليه في سفرهم.. لا لشيء إلا لنتخلص منهم. إنهم عبء ثقيل علينا. إنهم مصيبة كبيرة على وجودنا} {فالتخلص من اليهود هو الهدف الأسمى} ، وقد تفشى هذا الخطاب اللوثري في شكليه التسامحي والعقابي:

فقد قال عالم اللاهوت توماس برايتمان (١٥٦٢ - ١٦٠٧م) {إن اليهود كشعب سيعودون ثانية إلى وطن آبائهم الأولين لا من أجل الدين، كما لو أن الله لا يمكن أن يعبد في مكان آخر، بل لكيلا يكافحوا كفرباء ونزلاء لدى الأمم الأجنبية} .

وكان من أتباعه هنري فنش عضو البرلمان الإنجليزي، ومستشار الملك، وهو الذي قال مخاطبا اليهود بصيغة تذكرنا بنبوءات أنبياء اليهود المتأخرين {إن الله سيجمعكم من كل الأماكن التي تفرقتم فيها ، وسيعيدكم إلى وطنكم} .

ويقول الشاعر الإنكليزي جون ملتون (١٦٠٨ - ١٦٧٤م) في قصيدة بعنوان الفردوس المفقود:

{لعل الله الذي يعرف الوقت المناسب
سيشق لهم البحر وهم عائدون مسرعين جذلين إلى وطنهم
كما شق البحر الأحمر ونهر الأردن عندما عاد آباؤهم إلى الأرض الموعودة} .

أما سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧م)، وهو الفيلسوف اليهودي الذي تم طرده من حظيرة الدين من قبل المؤسسة الحاخامية، فكان يرى أن حل المشكلة اليهودية يتمثل إما في اندماجهم الكامل في مجتمعاتهم الأوربية التي يعيشون بين ظهرانيها، أو في عودتهم إلى فلسطين.

أما فيخته فقد قال {لا يوجد بديل إلا بغزو أرض الميعاد وإرسالهم إليها، لأنهم لو حصلوا على حقوقهم المدنية في أوربا فإنهم سيدوسون على كل المواطنين الآخرين}.

أما فيليب دي لانجالري (١٦٥٦ - ١٧١٧) وهو جنرال فرنسي مغامر، فقد تقدم بعرض عجائبي إلى السلطة العثمانية يقوم على أن يقود هو بنفسه جيشا من الحجاج المتنكرين إلى الفاتيكان حيث هناك يلقي القبض على البابا، ويسلّم روما للأتراك، مقابل أن يمنحه العثمانيون جزيرة في المتوسط لتوطين اليهود فيها تحت حماية السلطنة العثمانية.

أما أديسون فقد كتب سنة ١٧١٢م ما مفاده أن اليهود يشبهون الأوتاد والمسامير في البناء، فهي أدوات لا قيمة لها بذاتها، لكنها ذات أهمية كبرى بالنسبة لاحتفاظ البناء بهيكليته، وهو بذلك عبّر بطريقة مزدوجة عن هامشية الجماعات اليهودية، وعن أهمية، بل وضرورة هذه الحالة الهامشية، وهذا الخطاب هو نفسه ما كان قد ردده ماركس بعد قرابة قرنين من الزمان، حيث كان يرى أن اليهود هامشيون، ولكن على الرغم من هامشيتهم وحرمانهم من حقوقهم المدنية والسياسية، إلا أنهم هم من كانوا يصنعون مصير الكثير من الدول، بل مصير أوربا كاملة، وبمعنى آخر إن الهامشية اليهودية كانت تمارس قرارات مركزية من خلال وظيفتهم كأقنان للملك، ومن خلال بيوتات المال اليهودي.

ومن الصهاينة غير اليهود المشهورين في تلك الفترة جون لوك (١٦٣١ - ١٧٠٤م)، وإسحق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧م)، وجوزيف برستلي (١٧٣٣ - ١٨٠٤م)، وجيم بشينو الذي نشر سنة ١٨٠٠م كتابه (عودة اليهود.. أزمة جميع الأمم) الذي طلب فيه حكام بريطانيا {باستخدام نفوذهم لدى الباب العالي للتخلي عن هذا الجزء من الأرض الذي طُرد منه اليهود، وإعادته إلى أصحابه الشرعيين} ، وهنري إنس الذي طالب من الأوربيين أن يتمثلوا بقورش الذي أعاد اليهود إلى أرض الميعاد.

ومن ألمانيا بول فيلجنهوفر الذي نشر كتابه (أخبار سعيدة لإسرائيل) سنة ١٦٥٥م، والذي قال فيه {إن اليهود سوف يعترفون بالمسيح على أنه مسيحهم بمناسبة مجيئه الثاني}.

ومن السويد أندريس كيمب الذي نشر كتابه (أخبار إسرائيل السارة) سنة ١٦٨٨م.

وفي الدانمارك طالب هولجر باولي الأوربيين أن يقوموا بحملة صليبية جديدة على الشرق وتوطين اليهود في فلسطين.

ومن الصهاينة غير اليهود في تلك الفترة أيضا جوزيف سلفادور (١٧٩٦ - ١٨٧٣) وهو طبيب ومفكر فرنسي، وكان قد طرح تشكيل معتقد ديني يزاوج بين اليهودية والمسيحية، ويكون مقره في مدينة القدس، وهو يُعَدّ من أسلاف الصهيونية، ومنهم أيضا:

آدم مكيفتش (١٧٩٨ - ١٨٥٥) وهو شاعر بولندي (فرانكي) كان يحلم بتنصير اليهود، وقد حاول أن يشكل فرقة يهودية يكون هدفها بعث الأمة اليهودية.

بنديتو موسولينو (١٨٠٩ - ١٨٨٥م) وهو سياسي إيطالي، ومن خلال بحثه لحل المسألة اليهودية، والذي طرحه في كتابه (القدس والشعب العبراني)، حرض بريطانيا على تشكيل إمارة يهودية في فلسطين تكون العبرية لغتها، واليهودية دينها، وأن تكون تحت حماية السلطنة العثمانية.

جورج إليوت (١٨١٩ - ١٨٨٠) وهي روائية صهيونية لاسامية، وكانت قد قالت {إن كل شيء يهودي هو شيء وضيع على وجه الخصوص}، وقد حثت على تأسيس كيان يهودي يشكّل مركزاً عضوياً للعرق اليهودي، ويُعَدّ الصهاينة أن روايتها (دانيل ديروندا) هي وعد بلفور الأدبي.

أما المؤرخ والتربوي البريطاني جولدوين سميث (١٨٢٣ - ١٩١٠) فكان يرى كمعاصريه أن حل المسألة الشرقية يمكن أن يتم من خلال ربطه بحل المسألة اليهودية، وكان يرى أن تهجير يهود شرق أوربا (اليديشيين) إلى فلسطين سيساعد اليهود المنفتحين على الاندماج في وسطهم الأوربي، كما أنهم سيقومون بالوقت نفسه بملء الفراغ الذي سيتشكل بعد تحلل السلطنة العثمانية، وهو بذلك وضع أساسا للصهيونيتين التوطينية والاستيطانية.

أما رجل الصناعة البريطاني إدوارد كازالت (١٨٢٧ - ١٨٨٣) فكان يرى أيضا وجوب ربط المسألة الشرقية بالمسألة اليهودية لحل المسألتين معا، وكان كازلت يرى أن العرب شعب غير حضاري، ولا يمكن لهم أن يكونوا أسياد أنفسهم، كما اقترح على القسطنطينية إقامة سكة حديدية تربط بين سوريا والعراق على أن تخصص الأراضي على جانبي السكة لتوطين اليهود فيها.

أما اللورد أنطوني اشلي كوبر فقد حث الجماعات اليهودية في أوربا على الهجرة إلى فلسطين، وكان يرى أن وجود الإنكليز واليهود ضروريان من أجل تحقق الأمل المسيحي، وهو الذي قال في سنة ١٨٣٩م {إن فلسطين من دون أمة لأمة من دون بلاد} ، وهو الذي وقف ضد الدعوات القائلة بضرورة اندماج اليهود في مجتمعاتهم التي نادت بها جماعات التنوير، كما أكد على الدور الرئيسي لليهود في عودة المسيح الثانية، كما أنه أثر على عمه اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانية، وحثه على فتح قنصلية في القدس.

ومن أقوال الشخصيات التاريخية والأدبية الشهيرة، المعادية للشخصية النمطية اليهودية التي كانت سائدة في تلك الفترة، والذين يمكن اعتبارهم من الصهاينة غير اليهود، كما يمكن اعتبارهم أيضا من الشخصيات المعادية للسامية:

البابا كليمانت الثامن {جميع الأوربيين يعانون من الربا الفاحش وعمليات الاحتكار القذرة والغدر بالسكان المسيحيين الذين يعيش اليهود في وسطهم هؤلاء اليهود الذين سببوا ويسببون الفقر المدقع لكثير من المسيحيين الأبرياء لا سيما العمال والفلاحين، هذه الطبقة المنتجة المهمة، وعلينا أن لا ننسى أن اليهود كانوا وما زالوا ضيوفا سيئين ومخربين في أوربا كلها التي عاشوا فيها، فعلينا أن نحذرهم ونحذر تعاليمهم الأخلاقية الشديدة السوء وتصرفاتهم اللاإنسانية والقذرة في البلدان التي تستضيفهم}.

نابليون بونابرت {لا يمكن لأي إنسان أن يعمل على تحسين صفات اليهود مهما بذل من جهد، ولا يمكن له إقناعهم بالحجج والبراهين، ويتوجب علينا أن نسن لهم قوانين تخصهم وتحصر فيهم، فمنذ عهد موسى كان اليهود طغاة ظالمين أو مرابين حاقدين. إن موهبة اليهود وذكاءهم يتركزان على أعمال النهب والسلب والاحتيال، وهم يعتقدون حسب تعاليم التلمود أن ربهم يبارك سرقاتهم وجرائمهم وخطاياهم، فيجب علينا أن نحظر على اليهود التعامل بالتجارة وأعمال صياغة الذهب لأنهم يشكلون أحط صنف بشري في هذا المجال، إن اليهود هم جراد وديدان نهمة تفترس فرنسا، يجب أن لا نعتبر اليهود طائفة وإنما شعبا، فاليهود يشكلون شعبا يعيش في قلب الشعوب الأخرى، إنهم يشكلون شعبا قادرا على القيام بأبشع الجرائم فعلينا أن نعتبرهم أجانب وغرباء، وليس هناك حقارة أكبر من حكم اليهود للناس لأنهم أقذر الأجناس البشرية على سطح الأرض}

كما أنه قال بصيغة تصالحية، إصلاحية {كم هو ملح أن ننشط المشاعر الأخلاقية المدنية بين الذين يدينون بالديانة اليهودية في البلاد الخاضعة لطاعتنا، والتي - مع الأسف - قد

تموّتت عند كثير منهم من جراء الانحطاط الذي رزخوا تحته لفترة طويلة} وقد قام باستدعاء وجهاء اليهود للعمل على تنوير الجماعات اليهودية.

الكاتب الفرنسي صموئيل ميشيل {إن اليهود منذ أقدم العصور كانوا وما زالوا تلك العلقة الشرهة التي تعيش عالة على جسد كل مجتمع حلت فيه، وهي تعيش على حساب شعبه ومقدراته، وهي تشكل باستمرار المعول الهدام الذي يخرب كل قيمه وأخلاقه ومقدساته}.

الكاتب الفرنسي المسرحي فولتير {اليهود همجيون لأنهم أذلاء في العسر، ووقحون في اليسر، ستجدون في اليهود شعبا همجيا جاهلا عدوا للقيم الإنسانية الرفيعة، وقد عرفوا بالبخل الكريه منذ زمن طويل}.

القيصر غليوم الثاني ملك ألمانيا {يصر اليهود على هدم مفهوم حب الوطن لدى الشعوب، كما يسعون جاهدين لهدم وتزوير كل الشرائع السماوية المقدسة في العالم أجمع}.

فريدريك نيتشه {قريبا سيدعونا القرن العشرون للتفرج على أهم مشهد من فصوله القاتمة ألا وهو القرار الذي سيتخذه اليهود فيما يتعلق بمصيرهم، ومن الواضح جدا أنهم ألقوا الآن بنردهم، واجتازوا النهر إلى الضفة الثانية، وهم يسيرون إلى الأمام ولديهم خيار واحد: إما أن يصبحوا أسياد أوربا وإما أن يفقدوها إلى الأبد، كما خسروا سابقا أرض مصر حين خرجوا منها، وقد يمكن لأوربا أن تقع في أيديهم مستقبلا كالفاكهة الناضجة إذا أمسكوا بخناقها عن طريق الربا جيدا}.

أما الملك بطرس الأول، فيصف اليهود بأنهم {نصابون محتالون ولا يأخذون إذنا من أحد في الاستيطان وممارسة تجارته الخبيثة في الربا الفاحش}.

إمبراطورة روسيا إليزابيت بتروفنا {إن اليهود يكرهون السيد المسيح وتعاليمه المقدسة كرها شديدا، ولذلك فإنني أصدرت أمرا دينيا بأن يغادر اليهود بلادنا فورا رجالا ونساء بغض النظر عن مركزهم وثرواتهم وممتلكاتهم، إني لا أنتظر منهم معروفا، ولا أرجو منهم خيرا لأنهم أعداء السيد المسيح والأعداء الألداء للمسيحيين}.

إمبراطور روسيا نيقولا الأول {يُعَدّ اليهود ألعن وأخبث المخلوقات البشرية في ابتزاز الناس وخداعهم وطرق غشهم في كل شيء، حتى الخبز الذي لم يبذروا حنطته كانوا يتقاضون أجرة حصاده وقبل بذاره، وكانوا أشبه بالعلقة التي تمتص دم الشعب وجهده وتحيله إلى الفناء والهلاك}.

فريدريك ملك بروسيا {لا يوجد خطر أشد فتكا من خطر التجار اليهود المعروفين بجشعهم في جني الأرباح الفاحشة غير الشريفة ولا المشروعة}.

أما سينك فقد وصف اليهود بأنهم {الأمة السيئة الحقيرة التي استطاعت أن تنشر مفاهيمها في العالم كله: أعطى المهزومون قوانين للمنتصرين}

نواة تشكل الصهيونية غير اليهودية الاستعمارية الراسمالية (في فرنسا):

مع نهاية القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر بدأ اهتمام الإنكليز يتزايد بفلسطين باعتبارها عنصرا في توازن القوى الأوربية، وباعتبارها الطريق الآمن للهند، والتي كانت تشكل أحد المطامع الفرنسية والروسية، وهذا ما جعل الصهيونية المسيحية تلتقي وتتقوى بالصهيونية الاستعمارية، وفي سياق هذا الصراع جاء نابليون أحد أهم المعادين لليهود، والذي قال عنه وايزمان إنه أول الصهيونيين غير اليهود، والذي كان قد أدرك طبيعة اليهودية، وكيفية استغلالها في مخططاته الاستعمارية، ففي حملته على سورية سنة ١٧٩٩م أطلق نداءه الشهير: {إن العناية الإلهية أرسلتني إلى هنا على رأس جيشي هذا، وقد جعلت هذه العناية الإلهية نشر العدل وتحقيقه مطلبي، وتكلفت يا ورثة فلسطين الشرعيين، إن الأمة الفرنسية العظيمة ورائي لتجعل من القدس مقري العام، وبعد قليل تجعل مقري دمشق، وسوف أكون جارا لبلد داود.

يا ورثة فلسطين الشرعيين، إن الأمة الفرنسية التي تنجب الرجال تناديكم الآن لا للعمل على إعادة احتلال وطنكم فحسب ولا لاسترجاع ما فقد منكم، بل لأجل ضمان ومؤازرة هذه الأمة تحفظونها مصونة من جميع الطامعين بكم ولتصبحوا أسياد بلادكم}.

وكان الفرنسيون قد اتفقوا مع الجماعات اليهودية أن يمولوا حملة نابليون، وكان توماس كوربت - الشخصية اليهودية ذات الجنسية الإيرلندية - قد بعث برسالة إلى الفرنسيين يقول فيها {إن اليهود سوف يكونون عنصرا استعماريا ثابت الأركان يحل في آسيا محل الإمبراطورية العثمانية الآخذة بالانحلال، وسوف يقدم لكم هذا العنصر اليهودي أهم الضمانات لبث الفوضى وهدم الدين، وإشعال الأزمات} في المناطق التي سيدخلها الجيش الفرنسي بقيادة نابليون، والذي أطلق وعده فور وصوله إلى الشرق، وكان نابليون يرى أنه من خلال إحلال اليهود في فلسطين، فإن ذلك يضمن له وجود عنصر شعبي موال له، من جهة، ومن جهة ثانية يشكّل هذا الوجود اليهودي حاجزا بين سوريا ومصر، كما أنه يهدد أو يغلق به طرق المواصلات البريطانية نحو الهند.

وكان إرنست لاهاران سكرتير نابليون الثالث سنة ١٨٦٠م قد أكد في كتابه (المسألة الشرقية الجديدة - إمبراطورية مصر والعرب: إعادة تكوين القومية اليهودية) على ضرورة إعادة الدولة اليهودية إلى الحياة ثانية تحت رعاية فرنسية، حيث تشكل منارة أوربا و {طريق جديد ومعبد للحضارة الغربية وأسواق جديدة للصناعة الغربية} ، ومن حينها بدأت حمى الدعوات الصهيونية الاستعمارية غير اليهودية بالتصاعد ، والتي تدعوا إلى عودة اليهود إلى فلسطين، ولكن الصهيونية غير اليهودية الاستعمارية فقد تبنتها إنجلترا بعد فشل نابليون بونابرت في مخططه الاستعماري في الشرق، هذا إضافة إلى الصهيونية غير اليهودية الإنجليزية ذات الطابع الديني.

الصهيونية غير اليهودية

بين

السامية واللاسامية (في إنجلترا)

بعد أن أخذ المذهب البروتستانتي ينتشر كثورة تحررية من سيطرة الكنيسة الكاثوليكية، بدأ خطابه الديني ودعوته لإرجاع اليهود إلى فلسطين يعلو أيضا بدءا بنهاية القرن السادس عشر الميلادي وخاصة في إنجلترا، وفي الوقت نفسه، وكنوع من ردة فعل، بدأ أعداء اليهود الكاثوليك (اللاساميين) يشكلون خطابهم السياسي، والذي يدعوا إلى تشكيل غيتو عالمي لليهود، وفي أي مكان خارج أوربا، وهذا الغيتو العالمي يشكل حلا، وخلاصا لأوربا من شعب مكروه، ومنبوذ من قبل المجتمع الأوربي، وكان فورييه (١٧٧٢ - ١٨٣٧م)، وهو مفكر اشتراكي مهتم بالقضية اليهودية، يرى أن اليهود يمثلون التجارة بكل شرورها، وأنهم يشكلون جماعة قومية غير متميزة وغير متحضرة، ومعادية للحقيقة، وأن اليهود لا انتماء لهم كما هي التجارة، وهم خائنون وجواسيس وجلادون ومجرمون، وينقصهم الإبداع في كل شيء إلا في الأعمال غير الشريفة والهامشية والشرهة، وأنهم يحققون نجاحا ماليا من خلال أعمالهم الطفيلية، والخسيسة، ومن خلال بخلهم وطمعهم الشديدين، وقد طرح فورييه حلين متناقضين للمسألة اليهودية:

الأول يتمثل في عملية دمج قسرية لليهود ضمن مجتمعاتهم.

أما الطرح الثاني فقد اقترحه سنة ١٨٣٥م، وقبل أن تولد الصهيونية اليهودية بأكثر من قرن ونصف، وكان يتمثل في دعوته إلى توطين اليهود في منطقة جنوب سوريا، ودعا إلى إقامة كيان إسرائيلي زراعي، بعد أن يتم تأمين تربة زراعية مناسبة من خلال استجرار المياه إليها بتمويل من روتشلد، وبدعم من أوربا، وقد وجه تلامذة فورييه خطابا يقولون فيه {أيها اليهود! إلى أعالي سيناء، حيث أرسل الإله بالوصايا العشر التي تخرقونها دائما، إلى موسى والإله الذي تركتموه بسبب حبكم الشديد إلى الذهب.. اعبروا البحر الأحمر مرة أخرى، ولتنزلوا إلى الصحراء مرة أخرى، إلى أرض الميعاد التي تنتظركم،

الأرض الوحيدة التي تناسبكم، أيها الشعب الشرير الوقح الخائن، اذهبوا إلى هناك}.

وفي تلك الفترة برز محمد علي الذي قلب موازين القوى في الشرق، وهدد بشكل مباشر المشروع الاستعماري الغربي، وكان لذلك الأثر الكبير على تشكيل وتعميق الفكر والمشروع الصهيوني الغربي، لا سيما بعد أن أُجبر محمد علي باشا عام ١٨٤٠م على التوقيع على (معاهدة لندن لتهدئة الشرق)، ويُعدّ المؤرخون أن عام ١٨٤٠ م عام ولادة المسألة الشرقية، كما يُعدّه البعض عام ولادة الحل الصهيوني للمسألة اليهودية.

ومن حينها بدأت حمى الصهيونية غير اليهودية (البروتستانتية، واللاسامية، والاستعمارية) تتصاعد، وتم تأسيس صندوق استكشاف فلسطين سنة ١٨٦٥م برعاية ملكة إنجلترا فكتوريا، وكان المقر الذي يجتمع فيه (مجازيا) الصهاينة غير اليهود، وكان منبرا للتأكيد على أهمية فلسطين، وأهمية إقامة كيان يهودي فيها تحت رعاية العرش البريطاني، وقد تأسست بعد ذلك عدة جمعيات مترادفة، ومتماثلة مع صندوق استكشاف فلسطين في أكثر من مكان في العالم الغربي.

وكان أهم الصهاينة غير اليهود - الإنجيليين - في تلك الفترة هو اللورد أيرل شافتسبري السابع (١٨٠١ - ١٨٨٥م)، والذي كان شديد الاهتمام بعودة اليهود إلى الأرض المقدسة، وكان من الذين رفضوا فكرة الخلاص بدمج اليهود في مجتمعاتهم، وهو الذي قال {إن أي شعب لا بد أن يكون له وطن، الأرض القديمة للشعب القديم}، وقد طور هذه المقولة إلى شعار (وطن من دون شعب لشعب من دون وطن)، والذي حوله الصهاينة اليهود بعد قرن من الزمان إلى (أرض بلا شعب لشعب بلا وطن)، وقد اقترح شافتسبري توظيف اليهود كمزارعين في فلسطين، على أن يكون القنصل البريطاني عرّاب العلاقة بين السلطنة العثمانية وبين اليهود، وهو الذي قال أيضا {إذا رأينا عودتهم في ضوء استعمار فلسطين، فإن هذه الطريقة هي أرخص الطرق وأكثرها أمنا في الوفاء بحاجات هذه المناطق غير المأهولة بالسكان، وهم سيعودون على نفقتهم الخاصة دون أن يعرضوا أحدا - سوى أنفسهم - للخطر}، كما كتب أيضا في مقال له سنة ١٨٧٦م {إن فلسطين بحاجة إلى السكان ورأس المال، وبإمكان اليهود أن يعطوها الشيئين معا، وإنجلترا لها مصلحة في استرجاعهم لأنها ستكون ضربة لإنجلترا إن وُضع منافسوها في سوريا. لكل هذا، يجب أن تحتفظ إنجلترا بسوريا لنفسها كما يجب أن تدافع عن

قومية اليهود وتساعدهم حتى يعودوا فيكونوا بمنزلة الخميرة لأرضهم القديمة. إن إنجلترا أكبر قوة تجارية وبحرية في العالم، ولهذا لا بد لها أن تضطلع بدور توطين اليهود في فلسطين.. وهذه ليست تجربة مصطنعة.. إنها الطبيعة.. إنه التاريخ}، وقد تسلّم شافتسبري رئاسة صندوق استكشاف فلسطين، وقد كتب رسالة إلى بالمرستون يقول فيها إن اليهود {غير متحمسين للمشروع الصهيوني، فالأغنياء سيرتابون فيه ويستسلمون لمخاوفهم، أما الفقراء فسيؤخرهم جمع المال في بلاد العالم، وسوف يفضل بعضهم مقعدا في مجلس العموم في بريطانيا على مقعد تحت أشجار العنب والتين في فلسطين. وقد تكون هذه أحاسيس بعض الإسرائيليين الفرنسيين، أما يهود ألمانيا الكفار فيحتمل أن يرفضوا الاقتراح}.

وكان أهم من ناصر مشروع شافتسبري اللورد بالمرستون (١٧٨٤ - ١٨٦٥م) وزير خارجية بريطانيا لتوطين وزرع اليهود في فلسطين كمخلب قط لقمع العرب، وهو الذي كان قد بعث برسالة إلى سفير إنكلترا في استنبول في آب سنة ١٨٤٠م يطلب منه فيها إخبار السلطان العثماني أنه {توجد في هذه الأيام بين اليهود المبعثرين في أوربا فكرة قومية فحواها أن الوقت قد أوشك أن يحل حتى تعود أمتهم إلى فلسطين، وإذا أتيح للشعب اليهودي أن يعود بموافقة وحماية السلطان العثماني فإنه سيشكل حاجزا بوجه أي مشروع شرير قد يقدم عليه محمد علي أو خلفه}.

وبدأ الصهاينة الاستعماريون أو السياسيون الإنجليز (إدوارد متفورد، وجورج غولر، وتشارلز هنري تشرشل) بتأييد دعوات بالمرستون واقترحوا، وسعوا لإقامة دولة يهودية في فلسطين في منتصف القرن التاسع عشر، والذين أسسوا أو افترشوا الوضع السياسي لإنشاء المنظمة الصهيونية اليهودية، في الوقت الذي بدأ يتطور فيه النظام البرجوازي نحو النظام الصناعي، ومن ثم التجاري، فالاستعماري بقيادة إنجلترا التي شكلت أكبر قوة استعمارية في العالم، وكما تم ذكره، كان لظهور الإمبراطورية المصرية الصغيرة بقيادة محمد علي باشا الأثر الكبير في تبلور الفكرة الصهيونية، حيث تم ربط حل المسألة اليهودية التي تفاقمت بعد سنة ١٨٨٢م مع حل المسألة الشرقية، من خلال الوصول إلى فكرة حل المسألة اليهودية بترحيل الجماعات اليهودية (حل المسألة اليهودية)، وتوطينهم في فلسطين كقاعدة استعمارية (ضمن معالجة المسألة الشرقية)، ومن حينها أصبح مصير فلسطين مرتبط بالتطلعات الاستعمارية الغربية، وكانت تروج إنجلترا لمشروعها الاستعماري من خلال إحياء المشروع الصليبي في نهاية

الألف الثانية للميلاد الذي لم يتمكن من تحقيق أهدافه في بداية الألف الثانية للميلاد، وقد تمت تورية هذه الحملة تحت أسماء متعددة (استعمار - انتداب - وصاية -..) وقد رأى الكثير من الصهاينة غير اليهود أن المشروع الصهيوني هو شكل من أشكال الصليبية، ولديه من الأسباب والمسوغات ما يجعله أكثر نجاحا من الحملات الصليبية السابقة.

وكان الضابط الإنكليزي تشارلز هنري تشرشل (١٨٠٧ - ١٨٦٩)، وهو الذي شغل منصب القائمقام البريطاني، والذي أصبح فيما بعد قنصل بريطانيا في دمشق، قد ألقى في دمشق خطابا أمام الجماعة اليهودية قال فيه {إن هذه الوديان والسهول الجميلة التي يقطنها الآن العرب الجوالون وبسببهم تعاني من الخراب بعد أن كانت مثالا للوفرة والرخاء وتملأ أرجاءها أغاني بنات صهيون، ستعود لإسرائيل في ساعة قريبة حيث أن اقتراب الحضارة الغربية من هذه الأرض يمثل فجر نهضتها الجديدة. فلتستعد الأمة اليهودية مكانتها بين الشعوب، وليُثبت أحفاد المكابيين أنهم مثل أسلافهم العظماء}، وقد وظّف نفسه مدافعا وحاميا لليهود في دمشق، ولكنه، ولأنه لم يجد أذنا صاغية من يهود سوريا، فقد بدأ بتوجيه خطاباته إلى يهود أوربا، وقد كتب رسالة لليهودي الشهير موسى منتفيوري سنة ١٨٤١م يقول فيها {لا أخفي عنك رغبتي الجامحة في أن أرى قومك يحاولون استعادة وجودهم كشعب، وأرى أن الموضوع ميسور تماما. لكن هناك شرطين ضروريين لذلك أولهما أن يتولى اليهود أنفسهم الموضوع عالميا بالإجماع، وثانيهما أن تساعدهم القوى الأوربية على تحقيق أهدافهم}، ويُعَدّ الصهاينة أن تشرشل أحد الآباء الأوائل للحركة الصهيونية.

أما ميتفورد فقد دعا سنة ١٨٤٥ إلى {إعادة توطين الأمة اليهودية في فلسطين كدولة تتمتع بالحماية تحت وصاية بريطانيا.. فإقامة دولة يهودية ستضع إدارة مواصلاتنا البحرية في أيدينا بالكامل، وستوفر لنا في المشرق مركز سيطرة نستطيع أن نوقف منه عملية التعدي، وأن نردع الأعداء السافرين ونصد تقدمهم عند الضرورة}.

أما جورج غولر (١٧٩٦ - ١٨٦٩م) الذي كان حاكما عسكريا لجنوب أستراليا (١٨٣٨ - ١٨٦٩) فقد قال {إن بإمكان دولة أجنبية أن تعرض التجارة البريطانية للخطر بسرعة، وينبغي أن تعمل بريطانيا على تجديد سوريا بواسطة الشعب الوحيد الذي يمكن توظيف طاقاته بصورة دائمة على نطاق واسع: أبناء الأرض الحقيقيين.. أبناء إسرائيل}، كما كان يرى أن فلسطين هي ملك لرب إسرائيل، ولشعبه المختار أبناء الأرض

الحقيقيين، وكان يعتقد أن إعادة اليهود إليها هو الحل الأمثل لمشكلة عدم استقرار الشرق الإسلامي، والحل الأمثل لحل المشكلة اليهودية، وكان جورج غولر قد سافر مع موسى منتفيوري إلى فلسطين سنة ١٨٤٩م، وشارك في التشجيع على بناء مستوطنات يهودية زراعية في محيط مدينة يافا.

أما أكثر الصهاينة غير اليهود نشاطا في تلك الفترة فكان لورنس أوليفنت (١٨٢٩ - ١٨٨٨م) عضو البرلمان ووزير الخارجية والكاتب الإنجليزي، وصديق شافتسبري، والذي كان قد اقترح إقامة دولة يهودية في شرقي الأردن، كما أنه عمل كهمزة وصل بين الصهيونية غير اليهودية، والصهيونية اليهودية، وكان يرى أن من المتوجب دعم الوجود العثماني ليبقى سدا أمام التوسع الروسي، ويتمثل هذا الدعم بإدخال (وتوطين) اليهود بأموالهم وفكرهم الاقتصادي في فلسطين، وفي الضفة الشرقية أيضا (أرض جلعاد)، {على إنكلترا أن تعمل على تطوير موارد فلسطين الزراعية عن طريق إعادة توطين الجنس الذي تملّكها أولا قبل ٢٠٠٠ عام}، ويمكن أن يتم ذلك عمليا من خلال إنشاء شركة استيطانية برعاية بريطانيا، بحيث يكون مقرها في استنبول، وفي معرض بحثه لهذا الحل قسّم العرب الفلسطينيين إلى قسمين: بدو، وفلاحين، واقترح طرد البدو، ووضع الفلاحين في معسكرات مثل معسكرات الهنود الحمر في كندا لاستغلالهم كمصدر للعمالة الرخيصة، وقد ساهم أليفانت في تهجير سبعين يهوديا إلى فلسطين، كما أنه سكن في النهاية في فلسطين ومات فيها، وبذلك فقد ساهم بتشكيل الصهيونية العملية، وقد اعتبره بعض أعضاء جماعة البيلو (قورش الثاني)، والبعض اعتبره المسيح.

كما كان من الصهاينة غير اليهود في تلك الفترة الروائية الإنكليزية جورج إليوت، والصحافي هربرت سايد بوثام الذي كتب {ليس لفلسطين وجود قومي أو جغرافي مستقل إلا ما كان لها من تاريخ اليهود القديم، إنها تُعد وطنا بالنسبة لليهود فقط}.

ومن الذين عملوا أيضا كهمزة وصل بين الصهيونيتين غير اليهودية واليهودية وليم هشلر (١٨٤٥ - ١٩٣١م) والذي كان قد كتب سنة ١٨٩٤م كتاب (إعادة اليهود إلى فلسطين)، وقد تم التعارف بينه وبين هرتزل بعد أن نشر الأخير كتابه (الدولة اليهودية)، وقد ساعد هرتزل على تسويق فكرته عند النخبة الحاكمة في أوربا، وبالأخص في ألمانيا، ولكنه فشل في مسعاه بسبب التحالف القوي بين العثمانيين والألمان، وكان هشلر قد حضر

المؤتمر الصهيوني الأول سنة ١٨٩٧، وكان بول هاوبت البرفسور في جامعة جون هوبكنز قد اقترح سنة ١٨٩٦م، وقبل أن يعقد المؤتمر الصهيوني الأول، خطة لتوجيه اليهود القادمين من شرق أوربا نحو الهلال الخصيب.

وفي تلك الفترة ولدت الصهيونية اليهودية، وعقدت أول مؤتمر لها في بازل سنة ١٨٩٧م، وبينما كانت الصهيونية غير اليهودية هي الواجهة التي كانت تسوّق لإقامة دولة يهودية في فلسطين، أصبحت الواجهة هي الصهيونية اليهودية مدعومة بالصهيونية غير اليهودية التي انسحبت لتقبع في الكواليس وتنظم وتعمل كوسيط بين الصهيونية، وبين العقلية الاستعمارية الغربية، وكان أكثر هؤلاء الصهاينة غير اليهود من الإنجليز يتبعون المذهب البروتستانتي، وقد برز منهم في تلك الفترة جوزيف تشامبرلين (١٨٣٦ - ١٩١٤م) وزير المستعمرات البريطاني الذي كان يرى أن {اليهود مجموعة من المستعمرين الأوربيين الجاهزين لاستيطان وتطوير وامتلاك أرض خالية تحت الوصاية البريطانية}، وهو الذي قدّم لهرتزل منطقة العريش لاستيطانها، لا سيما وأن إنكلترا كانت قد بدأت تضيق ذرعا بالأعداد المتزايدة من المهاجرين، وبخاصة منهم اليهود القادمين من أوربا الشرقية نحو أوربا الغربية وبالذات نحو بريطانيا (المسألة اليهودية)، وقد اقترح هرتزل حلا لتلك المشكلة هو تحويل هجرة الجماعات اليهودية من أوربا الشرقية نحو وطن يهودي يتم إنشاؤه في فلسطين، وقد تبنى هذا الطرح كل من تشامبرلين وبلفور.

وبعد أن رفض الصهاينة اليهود طرح تشامبرلين بالاستيطان اليهودي في منطقة العريش بسبب الإشكاليات والصعوبات الإروائية المائية، عاد وطرح تشامبرلين أوغندة كمنطقة استيطانية جديدة لليهود، ولكن تم رفض هذا الطرح في المؤتمر الصهيوني السادس سنة ١٩٠٣م، الأمر الذي حاصر الصهاينة السياسيين غير اليهود بقبول تبني فلسطين كمنطقة لتوطين اليهود فيها، وهو الطرح الصهيوني اليهودي، والذي كان يسوّق لذلك الطرح كل من حاييم وايزمان، وناحوم سوكولوف واللذان كانا قد طرحا المشروع على أساس عقد شراكة بين الجماعات اليهودية، وبين الأطماع الاستعمارية الاستراتيجية الإنكليزية (العقد الصامت)، وكان هرتزل قد عمل - قبل موته سنة ١٩٠٤م - كعراب وصاغ بنود (العقد الصامت) بين الرأسمالية والإمبريالية الغربية، والحركة الصهيونية، والذي ينص على قيام الصهيونية بتخليص أوربا من الفائض السكاني اليهودي الطفيلي، وتوظيف الصفة الطفيلية في إضعاف البنية الاقتصادية للمنطقة العربية، وبالمقابل تقوم الدول الراعية بتوطين اليهود في فلسطين، وتشكيل دولة خاصة

بهم هناك، وحمايتها وإيجاد مسوغات استمرارها، على أن تقوم هذه الدولة بتقديم الخدمات الاستعمارية للدول الغربية، وعلى رأسها أن تشكل الدولة اليهودية قاعدة عسكرية إمبريالية في المنطقة.

في النهاية قامت بريطانيا في عهد رئيس الحكومة الصهيوني الديني السياسي غير اليهودي لويد جورج، وبالتعاون والتنسيق مع الولايات المتحدة الأمريكية بإعلان وعد بلفور يوم ٢- ١١- ١٩١٧ والذي جاء فيه {إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه الإخلال بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين، ولا بالحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلاد الأخرى}.

ويصنف بلفور من الصهاينة غير اليهود السياسيين اللاساميين على الرغم من أنه يعود إلى المذهب البروتستانتي، حيث كان يُعَدّ اليهود غرباء عن الحضارة الغربية، ويجب التخلص منهم لأنهم طفيليات هدامة للنسيج المدني، وقد ساهم في استصدار قرار سنة ١٩٠٥م، وهو القرار الذي يحدّ من الهجرة اليهودية إلى إنكلترا، وهو الذي قال بعد إطلاق وعده الشهير الذي يُعَدّ توقيعاً على (العقد الصامت) بين العالم الاستعماري الإمبريالي الغربي، وبين الصهيونية العالمية {إن الدول الأربع العظمى ملتزمة بالصهيونية. والصهيونية سواء أكانت على حق أم خطأ وسواء أكانت سيئة أم رديئة هي متجذرة في تقاليد منذ الماضي السحيق وفي الحاجات الحالية وفي آمال المستقبل لمضمون أعمق بكثير من الرغبات والتحاملات المبغضة لدى ٧٠٠ ألف عربي يسكنون الآن في الأرض القديمة}، وهذا الخطاب يظهر بطريقة مضمرة عدوانية بلفور اللاسامية على اليهود (الصهيونية) من جهة، وعلى العرب من جهة أخرى، أما خطابه الذي يبرز فيه صهيونيته الاستعمارية النفعية، فقد أتى على هامش إعلان وعده الشهير، والذي يقول فيه {لا يهمنا النظام الذي نضعه ولا القرار الذي نتخذه بغية الاحتفاظ ببترول الشرق الأوسط، فمن الأمور الأساسية أن يبقى هذا البترول في متناول يدنا}، ولكن بلفور، وبعد مدة قصيرة استشعر، وأدرك، البعد اللاأخلاقي في وعده الشهير، فكتب سنة ١٩١٩ إلى لويد جورج يقول {إن نقطة الضعف في موقفنا هي أننا فيما يتعلق بفلسطين قد رفضنا مبدأ وحق تقرير المصير. فلو استشرنا السكان الحاليين فإنهم كانوا سيرفضون حتما الاستيطان اليهودي}.

أما لويد جورج رئيس الحكومة في تلك الفترة، فقد كان يدرك خطورة اليهود، واليهودية، والصهيونية التي كانت آخذة بالتصاعد في أوربا، ولذا كان لا بد من المساهمة في إيجاد مخرج لحل تلك المعضلة المحتملة {لا تخطئوا، إنكم إن اعتبرتم مشكلة اليهود مشكلة عابرة لا يلبث غبارها ووباؤها أن ينقشع حين يتحسن الطقس، إن هذا الوباء داهمكم ليثبت جذوره في أرضكم، ففي فرنسا يسمّون البلشفية، وهي جميعها تسميات لمسمّى واحد هي اليهودية وكلمة واحدة تعارضها هي نظام الملكية العامة الشاملة التي تحرض إنكلترا على التمسك بها}، وهذا التصور يمثل الرؤية التي جعلت من إنكلترا على وجه التحديد، والعالم الأوربي على وجه العموم يتبنون فكرة التخلص من الجماعات اليهودية من أوربا، وتوطينهم في أي مكان خارج القارة الأوربية.

ومن بين الصهاينة غير اليهود الإنكليز الذين كان لهم شأن في تلك الفترة التي كانت قد شهدت ولادة الصهيونية اليهودية، ومن ثم استصدار وعد بلفور، هو سايد بوثام الذي قال {إن الحجة من أجل الصهيونية قوية جدا بالنسبة لأمننا حتى أن الواجب يدعونا أن نوجدها لو لم تكن موجودة بيننا}.

وأيضا السير مارك سايكس الشهير، ذو النفوذ الواسع في الحكومة البريطانية، وهو الذي شارك الفرنسي بيكو في وضع الاتفاقية السرية الاستعمارية الشهيرة سنة ١٩١٦م، والتي سميت اتفاقية سايكس بيكو، وهو على خلاف أكثر الصهاينة غير اليهود الذين كانوا بروتستانتيين كان كاثوليكيا، وكان المهندس الرئيسي لوعد بلفور.

ومنهم أيضا اللورد ملنر الذي قال {إذا ذهب العرب بعيدا في ادعائهم أن فلسطين واحدة من بلدانهم تماما كما هي بلاد ما بين النهرين أو الجزيرة العربية، فإنني أعتقد أنهم يتحدّون الحقائق والتاريخ والمبادئ والروابط ذات الطبيعة المقدسة.. إن مستقبل فلسطين لا يمكن أن تقرره الانفعالات المؤقتة ومشاعر غالبية عرب الوقت الحاضر}.

وكان الوزير البريطاني إيميري قد كتب في مذكراته {نحن نرى، من وجهة النظر البريطانية الخالصة أن إقامة شعب يهودي ناجح في فلسطين، يدين بوجوده، وفرصته بالتطور إلى السياسة البريطانية كسب ثمين لضمان الدفاع عن قناة السويس من الشمال، ولأداء دور المحطة للطرق الجوية المقبلة مع الشرق}.

أما اللورد كيتشنر فقد دعا حكومته إلى أن {تجعل من فلسطين دعامة لموقع بريطانيا في مصر، إضافة إلى كونها معبرا بريا إلى الشرق}.

وكان إيان سمطس (١٨٧٠ - ١٩٧٠م) من جنوب أفريقيا، قد ساهم في استصدار وعد بلفور، وساعد في تشكيل الفيلق اليهودي إبان الحرب العالمية الأولى، وكان قد قال لجابوتنسكي سنة ١٩١٧م {إن أحسن فكرة سمعتها في حياتي هي أن على اليهود أن يحاربوا من أجل أرض إسرائيل}.

وممن شارك أيضا في الجهود الدبلوماسية لاستصدار وعد بلفور السياسي البريطاني جوسيا ودجوود (١٨٧٢ - ١٩٤٣م)، وكان قد اقترح إقامة دولة يهودية على ضفتي نهر الأردن على أن تكون عضوا في الكومنولث البريطاني، وكان قد أكد أن إنكلترا ستكون على خطأ إذا ما تخلت عن الصهيونية من أجل إرضاء العرب.

وفي النهاية جاء ونستون تشرشل الذي كتب في مذكراته {وإذا أتيح لنا في حياتنا - وهو ما سيقع حتما - أن نشهد مولد دولة يهودية، لا في فلسطين وحدها بل على ضفتي الأردن معا، تقوم تحت حماية التاج البريطاني، وتضم نحوا من ثلاثة ملايين أو أربعة ملايين من اليهود، فإننا سنشهد وقوع حادث يتفق تمام الاتفاق مع المصالح الحقيقية البريطانية}، وأضاف في موقع آخر من مذكراته، متلاعبا بكثير من المفاهيم {كانت مشكلة فلسطين من أعقد المشكلات التي واجهتها بريطانيا في هذه الأرجاء. ولقد كنت منذ وعد بلفور في عام ١٩١٧م من أخلص أنصار القضية الصهيونية ومؤيديها. ولم أشعر قط أن البلاد العربية قد جنت منا إلا العدل في معاملتها، فالعرب مدينون لبريطانيا، وبريطانيا وحدها، في وجودهم كدول. فنحن خلقنا هذه الدول، والأموال البريطانية والمستشارون البريطانيون دفعت ودفعوا بها سريعا في طريق التقدم. وكانت الأسلحة البريطانية هي التي تتولى حمايتهم... وهناك شيء واضح، فالشرف والحكمة يتطلبان بقاء دولة إسرائيل والحفاظ عليها. والسماح لهذا الشعب أن يأتي إلى المنطقة بإسهام لا يقدر بثمن من المعرفة العلمية، والعمل، والإنتاج. ومن الواجب إعطاؤه هذه الفرصة لمصلحة الشرق الأوسط كله}.

أما آرثر روبين فقد قال سنة ١٩١٩م، بتأثير توراتي {في الشرق تفرض وجهة النظر التاريخية ضم كل من مؤآب وعمون القديمتين، واللتين كانتا في ما مضى جزءا من الدولة اليهودية}، وأضاف أيضا {إنه ليس من المتوقع أن يتصرف العرب خلافا لتصرف أي شعب في

التاريخ: التخلي عن ملكيتهم لبلدهم، والاعتراف بأفضلية الحق الديني والتاريخي، من خلال تقبل ديانة القادمين لأخذه منهم}.

وجاءت الطفرة النازية الأوربية لتعزز الصهيونية اليهودية إلى أبعد الدرجات، والتي كان اليهود قد أداروا ظهورهم لها، ولكن النازية جعلت اليهود في العالم الغربي المهددين بالإبادة أن يتطلعوا، وأن يلتفوا حول الصهيونية التي رأوا فيها المسيح القادم لإنقاذهم من الهولوكوست النازي، وقد تعاونت الصهيونية اليهودية والنازية الألمانية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في هذا المسعى، فكلاهما كان له مصلحة في هجرة اليهود إلى فلسطين، حيث تتخلص النازية من (النير اليهودي)، والصهيونية تكسب قوى بشرية لتشكيل الدولة الصهيونية من خلال إحلالهم بدل الشعب العربي في فلسطين، وقد جاء في قوانين نورمبورغ سنة ١٩٣٥: {لو كان لليهود دولة خاصة بهم تضمهم جميعا في وطن واحد لأمكن اعتبار القضية اليهودية محلولة حتى بالنسبة لليهود أنفسهم. لقد كان الصهيونيون المتحمسون من كل الشعوب أقل الناس اعتراضا على الأفكار الأساسية لقوانين نورمبرغ لأنهم كانوا يدركون أن هذه القوانين هي الحل الوحيد الصحيح للشعب اليهودي}، وقد طلب وايزمان منماينرتزهاجن أن يتفق مع النازيين لترحيل بعض اليهود إلى فلسطين، والتي كانت - أي فلسطين - بالنسبة إليه أهم من اليهود أنفسهم حسب رأي ماينرتزهاجن.

الولايات المتحدة الأمريكية

بين

نظرتها الذاتية العاطفية، وعقائدها الدينية، وأطماعها الإمبريالية

لقد نشأت الصهيونية غير اليهودية (صهيونية الأغيار) في أوربا البروتستانتية على وجه التحديد، في الوقت الذي كانت فيه أمريكا لم تسمع بعد، ولم تعانِ أيضا بشكل واضح من المشكلة اليهودية إلا بعد أن بدأت الهجرة اليهودية الجماعية المكثفة في أعقاب الاضطهادات التي تعرضت لها الجماعات اليهودية في روسيا القيصرية على أثر اغتيال القيصر الكسندر الثاني سنة ١٨٨١م، وهي المرحلة التي يمكن القول أنها التي أدّت إلى بدء تشكل الصهيونية اليهودية في أوربا، وكان القادة الأمريكان في تلك الفترة، يرون اليهودية من خلال العيون التي كانت ترى بها الدول الأوربية في مرحلتها القومية (اللاسامية؟)، وقد تأثر المسيحيون البروتستانتيون الأمريكيين بوصف مارتن لوثر كنغ لليهود {إنهم قتلة لم تشرق الشمس يوما على شعب أكثر دموية وحقدا من اليهود} {اعلموا يا أعزائي المسيحيين أنه بعد الشيطان لا يوجد قطعا عدو أكثر شراسة وعنادا وأشد فتكا على المسيحية من يهودي حقيقي مصمم على الاعتزاز بيهوديته.. يتوجب عليكم طردهم طرد الكلاب المسعورة من بلادكم، إنهم يشكلون العدو العام الذي يوغل في شتم سيدنا المسيح وينعتونه بابن الزنا وابن المومس طعنا في سيدتنا المقدسة مريم العذراء}.

وكان الرئيس جورج واشنطن (١٧٣٢ - ١٧٩٩م) قد قال عن اليهود {إنهم يعملون بشكل فعال ضدنا أكثر من جيوش العدو. فهم أكثر خطورة مائة مرة على حريتنا.. وهم السبب الرئيسي في انشغالنا.. إن على الدول أن تنوح أو تحزن منذ فترة طويلة لأنهم لم يقوموا باصطياد هؤلاء القوم على أنهم الطاعون أو حشرات المجتمع.. فهم أعظم الأعداء لنا ولسعادة أمريكا}.

وهو يتطابق مع خطاب الرئيس الأمريكي فرانكلين في المؤتمر الذي عقد لإعلان الدستور الأمريكي سنة ١٧٨٩م {حيثما استقر اليهود فإنهم يوهنون من عزيمة الشعب،

ويزعزعون الخلق التجاري الشريف. إنهم لا يندمجون بالشعب، لقد كونوا حكومة داخل الحكومة وحينما، يجدون معارضة من أحد فإنهم يعملون على خنق الأمة ماليا.. إذا لم يستثن اليهود من الهجرة بموجب الدستور ففي أقل من ١٠٠ سنة سوف يتدفقون على هذه البلاد بأعداد ضخمة تجعلهم يحكموننا ويدمروننا ويغيرون شكل الحكومة التي ضحينا وبذلنا لإقامتها دماءنا وحياتنا الفردية إذا لم يستثن اليهود من الهجرة فإنه لن يمضي أكثر من ٢٠٠ سنة ليصبح أبناؤنا عمالا في الحقول لتأمين الغذاء لليهود الذين يجلسون في بيوتهم المالية مرفهين يفركون أيديهم غبطة.. النمر لا يستطيع تغيير لونه. اليهود خطر على هذه البلاد}.

وهذا التوجه المعادي لليهودية لم يكن بشكل عام الخطاب، أو التصور الشائع في المجتمع والسياسة الأمريكية، وكان أول رئيس أمريكي دعا إلى عودة اليهود إلى فلسطين هو جون آدمز (١٧٦٧ - ١٨٤٨م) والذي قال سنة ١٨١٨م {أتمنى أن أرى ثانية أمة يهودية مستقلة في يهودا}.

وباستثناء صهيونية فرانكلين اللاسامية، فقد كانت الصهيونية غير اليهودية الأمريكية بأغلبيتها تعود، أو تندرج تحت الصهيونية البروتستانتية، وقد كانت إضافة إلى ذلك ذات بعد عاطفي من خلال تماثلهما على أنهما مجتمعان استيطانيان إحلاليان، فقد كان الأمريكان البروتستانتيون يُعَدّون أنفسهم الجماعات العبرية، وأن أمريكا هي كنعان الجديدة، أما فرعون مصر فكان يمثل الملك جيمس الأول الذي فر الإنجليز على عهده، وأن الكنعانيين هم الهنود الحمر، وقد أطلق المستوطنون الأمريكان منذ بداية الاستيطان على مستعمراتهم، وعلى أسماء أولادهم أسماء عبرية، كما أن جيفرسون كان قد اقترح بأن «يمثل رمز الولايات المتحدة الأمريكية: أبناء إسرائيل تقودهم نهارا غيمة وليلا عمودا من نار، وليس النسر»، بل وقد اقترح البعض أن تكون اللغة الأمريكية الرسمية هي اللغة اليهودية بدل الإنكليزية.

وبذلك كانت البروتستانتية الأمريكية أشد ميلا لليهود من البروتستانتية الإنجليزية بسبب التأثير العاطفي الناتج عن التماثل ما بين القبائل العبرية الإسرائيلية، والجماعات الأمريكية الاستيطانية، فالرجل الأبيض قام بالاستيطان في الأرض المشاع لقارة واسعة الحدود يمكن لها أن تستوعب المزيد من السكان، وبذلك حقق أو أسس أسبقية تاريخية في امتلاك الأرض التي ادعى أنه استولى عليها عذراء، ولم تكن مأهولة بالسكان، وهي تشابه الذريعة التي قدمتها التوراة في تأسيس الأسبقية التاريخية في فلسطين في القرن الثالث

عشر والثاني عشر قبل الميلاد، حيث أدعى المؤرخ التوراتي أن القبائل الغبرية هي أول من شكّل كيان سياسي عسكري اعتباري في فلسطين، وبذلك فإن دفاع العالم الغربي عن ادعاء اليهود بأرض فلسطين، هو دفاع مستبطن عن ادعائه باستيطان الرجل الأبيض في أرض الرجل الأحمر، يقول وليم فوكسويل {وقد يحق لمعظم الأمم المعاصرة ولكن لا يحق لنا نحن الأمريكيين - على الرغم من من إنسانيتنا الصادقة - أن نحكم على الإسرائيليين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ما دمنا قد قمنا عن عمد أو عن غير عمد بإبادة آلاف مؤلفة من الهنود في كل زاوية من مساحة أرضنا الشاسعة ثم عزلنا من بقي منهم في معسكرات خاصة}.

أما البعد الديني المسيحي البروتستانتي في تشكيل الصهيونية المسيحية فكان يتأتى من معتقد العصر الألفي السعيد ومجيء المسيح المنتظر، والذي كان له دور مهم في الحياة الدينية الأمريكية، واستمر هذا الأمر حتى يومنا هذا، متمثلا بطوائف المورمون، والسبتيين، وشهود يهوه، وقد خطب البرت بيفريدج ممثل ولاية إنديانا في مجلس الشيوخ بطريقة توراتية يهودية قائلا {إن الله لم يهيئ خلال ألف عام الشعوب التتونية والشعوب الناطقة بالإنكليزية لكي تتأمل نفسها بكسل ودون طائل. لقد جعل منا أساتذة تنظيم العالم، كي نتمكن من نشر النظام حيث تسيطر الفوضى، وجعلنا جديرين بالحكم لكي نتمكن من إدارة الشعوب البربرية والهرمة. ومن دون هذه القوة ستعم العالم ثانية البربرية والظلام، وقد اختار الله الشعب الأمريكي دون سائر الأجناس كشعب مختار لكي يقود العالم أخيرا إلى تجديد ذاته}.

أما رايت، وهو كاتب يمثل الرأي السائد في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد بنى على خطاب البرت بيفريدج في مرحلة متأخرة خطابه الذي يقول فيه {إلا أن شعوبا أخرى كانت لها أحداث في خلفيتها ليست بعيدة عن ذلك، فنحن في الولايات المتحدة الأمريكية لدينا آباؤنا المؤسسون و (خروجنا) من الاضطهاد الأوربي، وعهدنا المتمثل في الدستور ومرسوم الحقوق، وفتحنا لأمريكا، وسلسلة من الرجال العظماء الذين كانوا آباء بلادنا ابتداء من جورج واشنطن طبعا، وبمعنى آخر إن الحدث الكتابي بوصفه حدثا تاريخيا ليس مثيرا كثيرا للعاطفة من حيث فرادته}.

ومن الصهاينة غير اليهود، الذين برزوا في تلك الفترة، وارد كريسون (١٧٩٨ - ١٨٦٠) وهو مواطن أمريكي من أتباع طائفة الكويكر، ثم أصبح من المارمون، ثم اعتنق اليهودية، بعد أن اعتنق أكثر من معتقد أو طائفة بروتستانتية، استوطن في فلسطين سنة

١٨٥١م، وحاول تأسيس مستوطنة فيها بمساعدة موسى منتفيوري، وكان يرى أن الاستيطان اليهودي في فلسطين يجب أن يكون استيطانا زراعيا مسلحا قادرا على الدفاع الذاتي.

وفي هذا السياق قدّم القنصل الأمريكي وردر كريسون في عام ١٨٤٨م دعما بالمشاركة مع جمعية مسيحية إنكليزية لقيام مستوطنة يهودية.

أما أهم وأشهر الصهاينة غير اليهود البروتستانتيين فكان وليام بلاكستون (١٨٤١ - ١٩٣٥م)، وهو صاحب الكتاب الشهير (عيسى قادم)، والذي كان قد قدم عريضة استرحام سنة ١٨٩١م للرئيس الأمريكي هاريسون على أثر المذابح الروسية لليهود، وقد وقّع على عريضة الاسترحام ٤١٣ شخصا من أهم الشخصيات الأمريكية، والتي يقول فيها {لماذا لا نعيد فلسطين لهم؟ إنها وطنهم حسب توزيع الله للأمم، وهي ملكهم الذي لا يمكن تحويله لغيرهم والذي طردوا منه عنوة}، وقد حث فيها الرئيس الأمريكي كي يتوسط عند الدول الأوربية والدولة العثمانية لعقد مؤتمر دولي لمناقشة حق اليهود في فلسطين، كما كان قد أرسل سنة ١٩١٦م برسالة مماثلة إلى الرئيس ويلسون، وفي مؤتمر اتحاد الصهاينة الأمريكيين سنة ١٩١٨م، والذي حضره بلاكستون وأعلن فيه أن بلاكستون هو (أبو الصهيونية)، وكان شارل رسل الذي ساهم في تشكيل وانتشار جماعة شهود يهوه، قد تنبأ أثناء زيارته إلى القدس سنة ١٩١٠م بأن اليهود سيعودون عاجلا إلى أرض الميعاد.

ومن الصهاينة غير اليهود إدوين شارمن دانس القنصل الأمريكي في القدس، وهو الذي كتب في سنة ١٨٩٨م {إن الأرض بالانتظار، والشعب على استعداد للمجيء سيأتي فور أن تتأمن الحماية للحياة والممتلكات.. يجب أن نقبل بذلك، وإلا فإن الرؤى العديدة التي تأكدت بإيجابية يجب أن تعد عديمة الجدوى}.

وكان أكثر الصهاينة الأمريكان غير اليهود يرون أن اليهود هم أصحاب، أو هم مؤسسو الحضارة الغربية، وأن عليهم أيضا أن ينشروا الحضارة الغربية في العالم الثالث، يقول السناتور واغنر سنة ١٩٤١م {إننا نعلن أن فلسطين حصن مهم على جبهة العالم الديمقراطي، وأن الوطن القومي اليهودي في فلسطين سيكون جزءا مهما وأساسيا من النظام العالمي الذي يجب أن يعقب النصر}.

وفي نفس العام قال أستاذ علم الأخلاق رينهولد نيبور {ليس هناك في الواقع أي حل لأي مشكلة سياسية. إن كون العرب يملكون منطقة واسعة في الشرق الأوسط وكون اليهود

لا يملكون مكانا آخر يذهبون إليه يبرهن على العدل النسبي لمطالبهم وقضيتهم، ومن الواجب التضحية بسيادة العرب على جزء من الأرض المتنازع عليها من أجل إقامة وطن قومي يهودي عالمي}.

وقد شكلت الصهيونية غير اليهودية في أمريكا على وجه الخصوص، وفي العالم البروتستانتي على وجه العموم - لا سيما بعد وعد بلفور - ما يدعى بالصهيونية التوطينية، والتي تضم أيضا عناصر يهودية اندماجية رفضت العودة إلى الأرض المقدسة، وكان دور هذه الصهيونية هو تقديم الدعم المادي والمعنوي والسياسي والإعلامي للصهيونية الاستيطانية، للاستيلاء على الأرض العربية، وتهويد الحياة العامة في فلسطين.

أما الرئيس الأمريكي البروتستانتي ولسون (١٩١٣ - ١٩٢١م) فقد كان يؤمن بالأسطورة الصهيونية، والذي كان وزير خارجيته لانستغ قد طلب منه التمهل في إقراره لوعد بلفور علنا (وهو الذي كان قد ساهم في وضع الصيغة النهائية لهذا الوعد) لأن ذلك، حسب رأي لانستغ، يتعارض مع السياسة العامة للولايات المتحدة، وعلى الرغم من ذلك فقد اعترف الرئيس الأمريكي ولسون بوعد بلفور، وصادقت الحكومة الأمريكية عليه سنة ١٩٢٢م، وكان هذا الرئيس الأمريكي هو أول رئيس يظهر صهيونيته، وهو الذي قال إن {من واجبه العمل والمساعدة على إعادة الأرض المقدسة لأهلها}، وفي الوقت الذي بدأت فيه الولايات المتحدة الأمريكية تسحب البساط من تحت لندن كمركز للإمبريالية العالمية، والذي انتهى بعيد الحرب العالمية الثانية بأن أصبحت واشنطن هي مركز الإمبريالية العالمية دون منافس، والذي تزامن مع نقل النشاط الصهيوني اليهودي من لندن إلى واشنطن، كما أن الأمريكان يُعَدّون سنة ١٨٩٧م هي السنة التي بدأت فيها الولايات المتحدة مرحلتها الأمريكية الإمبريالية، وهي السنة نفسها التي عقدت فيه الصهيونية مؤتمرها الأول، وكان الرئيس ولسون هو الذي أسس منظمة البعثة العبرية من أجل إسرائيل، وهي التي تحولت إلى الزمالة اليسوعية الأمريكية، وهو الذي أدخل الولايات المتحدة كشريك منافس مع بريطانيا في تبني المشروع الصهيوني اليهودي في فلسطين، على الرغم من أن الأغلبية اليهودية الأمريكية كانت تعارض الصهيونية (اليهود غير الصهاينة)، وتتبنى فكرة الاندماج في المجتمع الأمريكي.

أما الرئيس هاردنج فقد قال سنة ١٩٢٢م {يسعدني أن أعبر عن موافقتي وتعاطفي القلبي مع جهود إنشاء صندوق فلسطين من أجل إعادة فلسطين وطنا قوميا للشعب اليهودي}،

وقد اتخذ الكونغرس الأمريكي، ومجلس النواب في نفس السنة قرارا يؤيد، ويدعم إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وقد تابع الرؤساء الأمريكيون اللاحقون الجمهوريون دعمهم للصهيونية، وبقي اليهود الصهاينة الأمريكان حتى سنة ١٩٤٣م أقل من خمسة بالمائة من يهود الولايات المتحدة الأمريكية.

والتغير المهم الذي جرى في العلاقة الصهيونية الأمريكية كان في عهد الرئاسة الثانية لروزفلت، وتحديدا بعد صدور الكتاب البريطاني الأبيض الذي قيد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، فقد قررت الصهيونية نقل مركز ثقلها من إنكلترا نحو الولايات المتحدة الأمريكية، ومن حينها بدأ الجدل بين المنظمة الصهيونية وبريطانيا، والتي كانت قد بدأت تأخذ موقفا أقل تطرفا نحو تبني الصهيونية من أجل كسب ود العرب، وقد أكد على ذلك بن غوريون في كلمته إلى مؤتمر بلتيمور سنة ١٩٤٢ في نيويورك {إن اليهود لم يعد باستطاعتهم الاعتماد على الإدارة البريطانية في تسهيل إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين}.

ومع أن روزفلت ينتمي إلى الكنيسة الأسقفية التي لا تعترف بالأسطورة الصهيونية، ولكن أصدقاءه اليهود استعاضوا عن ذلك بإقناعه بتبني الصهيونية، لا سيما وأن اللوبي الصهيوني كان قد بدأ يمارس ألعابه الانتخابية، وعلى الرغم من أن روزفلت أعيد انتخابه بعد وعوده بدعم الصهيونية، لا سيما حول موضوع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، إلا أنه لم يقدم شيئا حقيقيا للصهيونية على أرض الواقع، ولم يف بوعوده لها.

وقد تولى بعده ترومان (١٩٤٥ - ١٩٤٩م)، والذي أسس للعلاقة والمعادلة الأمريكية التي ما زالت قائمة حتى هذا اليوم، وكان يمثل الصهيونية غير اليهودية، والتي كانت صهيونيته ناتجة، حسب رأي الباحثين، عن أكثر من أس، أولها وأهمها ضغط اللوبي الصهيوني على ترومان، وثانيها رؤية ترومان الإنسانية لليهودي الذي تعرض لأقسى أنواع الاضطهاد في تلك المرحلة على يد النازيين، إضافة إلى خلفية ترومان الدينية المعمدانية والتي ترتكز على عودة اليهود إلى الأرض المقدسة في فلسطين، وهو أيضا كان يرى أن هناك تطابقا بين تاريخ استيطان الرجل الأبيض في أمريكا، وبين تاريخ استيطان العبرانيين في فلسطين {إن الله قد دعا المستعمرين إلى الحرب. وقد لجأ الهنود وأحلافهم من القبائل إلى التجمع وحمل السلاح لارتكاب الآثام كما فعلت - في أغلب الظن - القبائل القديمة من العمالقة والفلستيين الذين تحالفوا مع غيرهم في مواجهة إسرائيل}،

ويمكن تلخيص سياسة ترومان من خلال بيانه الصحفي الذي جاء فيه {إن وجهة النظر الأمريكية من فلسطين هي أننا نريد أن نسمح بدخول عدد من اليهود إليها قدر الإمكان، وبعد ذلك يبحث الموضوع مع البريطانيين والعرب بالطرق الدبلوماسية حتى إذا ما أمكن قيام دولة هناك فإن ذلك يمكن أن يتم على أسس سلمية} ، وقد كان ترومان يجاهر بصهيونيته، وفي هذا السياق كان قد أعلن في معبد يهودي في مدينة نيويورك {أنا قورش.. أنا قورش} ، وفي رسالة بعث بها إلى الملك عبد العزيز آل سعود يوم ٢٨ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٨م بعد صدور قرار التقسيم يقول فيها {من الطبيعي أن تشجع الحكومة في هذا الوقت وصول أعداد كبيرة من اليهود المرحلين من أوربا إلى فلسطين لا لكي يجدوا مأوى لهم هناك فحسب، بل ليساهموا بمواهبهم وطاقاتهم في إقامة الوطن القومي اليهودي}.

إن الرؤساء الأمريكيين، لا سيما فيما بين الحربين العالميتين وما بعدها، كانوا يمثلون رأس الهرم الصهيوني، أي بمعنى أن الشعب الأمريكي - بكل تمثيلاته المؤسساتية، بما فيها مجلسي الشيوخ والنواب - كان صهيونياً غير يهودي، لا سيما وأن الجماعات اليهودية استطاعت أن تمتلك وتُخضع وسائل الإعلام، والهيئة الأكاديمية الجامعية التعليمية لخطابها الإعلامي، وكانت الصهيونية الأمريكية إما سياسية، وإما مسيحية (بروتستانتية)، أو عاطفية من خلال صورة التماثل الذاتي في تشكيل الولايات المتحدة الأمريكية، وإسرائيل، فكل الجماعات التي شكلت كلتا الدولتين هم دعاة للمساواة والديمقراطية في وسط شعوب ديكتاتورية، وهم مغامرون، إضافة إلى تطابق تجربة الاستيطان الإحلالي للجماعات العبرية في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، والجماعات المسيحية التي أسست الولايات المتحدة الأمريكية، والجماعات اليهودية الصهيونية في فلسطين في القرن العشرين، ففي سنة ١٩٢٩ قال القس البروتستانتي جون هاينز {عندما قابلت وتحدثت مع فالحي الأرض هؤلاء لم أكن أفكر إلا في المستوطنين الإنجليز الأوائل الذين قدموا إلى شواطئ ماساشوسيتس القاحلة، واستطاعوا أن يرسوا قواعد جمهوريتنا الأمريكية الثابتة وسط برد الشتاء في أرض لم تفلح، وبين السكان المناوئين لهم.. من الواضح أن المواطنين العرب الذين لا يقلون عنادا ووحشية عن الهنود الأمريكيين الحمر لا يمكن إبعادهم عن مسرح الأحداث} ، وهو أيضا موقف الرئيس الأمريكي ترومان.

أما الرئيس الأمريكي البروتستانتي جيمي كارتر فقد قال سنة ١٩٧٩م أمام الكنيست الإسرائيلي حول العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل {علاقة

لا يمكن تقويضها لأنها متأصلة في وجدان وأخلاق وديانة ومعتقدات الشعب الأمريكي نفسه.. لقد أقام الرواد وأقوام تجمعوا في كلا الشعبين من دول شتى إسرائيل والولايات المتحدة، فشعبي كذلك أمة مهاجرة ولاجئون وفدوا من شعوب مختلفة لبلدان عديدة، إننا نتقاسم معا ميراث التوراة} ، وهو القائل أيضا {إن دولة إسرائيل هي أولا وقبل كل شيء عودة إلى الأرض التوراتية التي أخرج منها اليهود منذ مئات السنين.. إن إنشاء دولة إسرائيل هو إنجاز النبوءة التوراتية وجوهره} وأن عليه {التزاما كاملا ومطلقا نحوها كإنسان وكأمريكي وكشخص متدين}.

أما رونالد ريغان (١٩٨١ - ١٩٨٩م)، فهو الذي كان يرى أن الصراع العربي على الحاضر هو الصراع الرمزي بين داود وجالوت بحيث أن داود يمثل دولة إسرائيل، وجالوت يمثل الشعب الفلسطيني، وقد تحولت هذه النظرة بطريقة معكوسة بحيث لم تعد إسرائيل هي داود، بل هي جالوت، والشعب الفلسطيني هو داود الذي يحمل المقلاع ليلقي بالحجارة على دروع الدبابات الجالوتية، ومن أقواله الشهيرة {إن النبوءات التي يجب أن تتحقق قبل هارمجدون قد تحققت كلها فعلا، يقول النبي حزقيال في الإصحاح ٣٨ إن الرب سيأخذ أبناء إسرائيل من بين الوثنيين حيث تشتتوا، وسيجمعهم ثانية في أرض الميعاد، لقد حدث ذلك كله أخيرا بعد ألفي سنة} وقد رضي ريغان أن ينعت نفسه، ومسيحي العالم، وغيرها من الأديان بالوثنيين.

أما الرئيس الأمريكي البروتستانتي الصليبي جورج بوش الابن فقد ردد بطريقة ببغائية في المؤتمر السنوي لمنظمة إيباك سنة ٢٠٠٤، ما كان قد قاله كل من الرئيسين الأمريكيين ترومان، وجيمي كارتر حول التشابه والتماثل، بل والتطابق بين التاريخين الأمريكي، والإسرائيلي.

وبالتالي فإن المسيحية الأمريكية البروتستانتية تُعَدّ بمجملها صهيونية غير يهودية، وحسب ما كتبه الباحثان الأمريكيان جورج بول ودوغلاس بول {إن المسيحيين الإنجيليين الذين يتجاوز عددهم أربعين مليونا في الولايات المتحدة، يشكلون قاعدة مؤيدة لإسرائيل، وينظرون إلى إسرائيل باعتبارها إنجازا لتحقيق النبوءة التوراتية، ويعتقدون بأن المسيح سوف يظهر مجددا على الأرض بعد أن يكون اليهود قد بنوا دولتهم وجمعوا يهود العالم في هذه الدولة، وبنوا الهيكل الثالث}.

والأصولية المسيحية البروتستانتية (الأمريكية على وجه التخصيص) أكثر تمسكا، وإصرارا من الأصولية اليهودية على تشكيل إسرائيل الكبرى على اعتبارها المفتاح الوحيد

لمستقبل المسيحية، ووصولها إلى العصر السعيد، ولذا {يجب أن يمتلك اليهود الأرض التي وعدهم بها الرب كي تصبح عودة المسيح ممكنة، ولن يكون بعيدا وقت الخلاص الجماعي}.

وفي هذا السياق يقول براد ليندسي في مقابلة مع الكاتبة الأمريكية غريس هالسل، في تعقيب حديثه على حرب ١٩٦٧م، وامتيلاء اليهود على المزيد من الأراضي العربية {إني سعيد لعودة اليهود إلى أرض فلسطين، وإقامة دولة إسرائيل، ولكن اليهود لم يكملوا مهمتهم، يجب على اليهود اليوم تخليص الأراضي كلها التي أعطاها الرب للعبرانيين، كي يتمكن المسيح من العودة، على العرب أن يغادروا هذه الأراضي التي أعطاها الرب إلى شعبه المختار، ونحن المسيحيين نعرقل وصول المسيح بقلة مساعدة اليهود على أخذ الأرض من الفلسطينيين} ، وبذلك فإن المسيحية الأصولية تقف إلى جانب الصهيونية، بقوة أكبر من وقوف الأصولية اليهودية، بل على العكس من ذلك، فقد وقفت بعض الجمعيات اليهودية الأصولية المتطرفة ضد الصهيونية، لأنها، أي الصهيونية، منظمة سياسية تأخذ دور المسيح الإلهي، وهذا من شأنه أن يعرقل تنفيذ السيناريو الإلهي (المثيولوجي التاريخي) على خشبة التاريخ.

وخير مثال يمكن أن نستشهد به في هذا السياق ما أتى به المؤتمر الصهيوني المسيحي العالمي الذي عقد اجتماعه الأول سنة ١٩٨٥م في مدينة بازل، وفي نفس القاعة التي عقد فيها المؤتمر الصهيوني سنة ١٨٩٧م، وفي سنة ١٩٨٨م عُقد المؤتمر الصهيوني الثاني في مدينة القدس، وقد جاء في بيانه {نحن المندوبين إلى المؤتمر الصهيوني المسيحي العالمي الثاني، المجتمعين في القدس، عاصمة إسرائيل الأبدية.. نعلن:

إثباتنا الحق المقدس لليهود بأن يعيشوا أحرارا في أرض إسرائيل كلها، بما فيها اليهودية والسامرة وغزة، واعتبارها دولة يهودية.

تشجيعنا لعودة الشعب اليهودي كله من الشتات إلى أرضه، استجابة لدعوة الله الملحة والحنونة والمعبر عنها في أنبيائه.

ونحن ندعو الدول جميعها إلى الاعتراف بقداسة ما وعد الله به الشعب اليهودي من إعطائهم أرض كنعان ملكا أبديا، واحترام هذا الوعد} ، وقد اعتبر أعضاء المؤتمر أن مدينة القدس (مدينة داود) هي العاصمة الأبدية لدولة إسرائيل، وطالبوا القيادة الإسرائيلية بضم الضفة الغربية إلى دولة إسرائيل، وبدا أعضاء المؤتمر المسيحيين كما لو أنهم أشد يهودية، وصهيونية من الصهاينة اليهود أنفسهم، بل إن أحد اليهود الإسرائيليين

الذين كانوا يحضرون المؤتمر حاول أن يخفف من اللهجة الدينية الأصولية المسيحية المتعصبة، لأنها تتعارض مع المعطيات السياسية الحاضرة، كما صرّح بأن اليهود يمكنهم أن يبادلوا الأرض بالسلام، فوقف القس الهولندي في وجهه قائلا {لا يهمنا اقتراح الإسرائيليين، إن ما يهمنا هو ما يقوله الرب، وقد أعطى الرب هذه الأرض كلها إلى اليهود}.

وفي هذا السياق الأصولي المتطرف من قبل الصهيونية البروتستانتية يقول السيد أوين، أحد الأصوليين المسيحيين (الدهريين) الذين كانوا من المدافعين، والمسوغين لأعمال العنف التي تنفذها المؤسسة العسكرية الإسرائيلية ضد الشعب العربي الفلسطيني المسلم {إنني أقول إن الإرهابيين اليهود سوف ينسفون الأماكن الإسلامية المقدسة، وذلك سيستفز العالم الإسلامي إلى حرب مقدسة مزلزلة ضد إسرائيل، تجبر المسيح على التدخل، يؤمن اليهود بأنه قادم للمرة الأولى، ونحن المسيحيين نؤمن بمجيئه الثاني}، ويشير هنا، أو يحرض السيد أوين المتطرفين اليهود على نسف مسجد قبة الصخرة الذي يقوم، حسب اعتقادهم، في مكان الهيكل اليهودي المقدس.

وهذه الأصولية المسيحية البروتستانتية على وجه الخصوص، هي التي شكلت البنية التحتية العقيدية الدينية للحرب الإمبريالية على العالم الإسلامي، أو ما يسمى، حسب وسائل الإعلام الغربية، الحرب على الإرهاب، على اعتبار أن الإسلام، أو العالم الإسلامي هو مصدر الإرهاب في العالم، ويقوم التصور البروتستانتي لتلك الحرب الصليبية البروتستانتية، على أن هذه الحرب سوف تحرض، وتحمّي التاريخ للوصول إلى معركة هارمجدون، وبالتالي مجيء المسيح، وإقامة دولة إسرائيل الدينية، وبعد انتهاء حرب هارمجدون الكونية التي سيقوم فيها أبناء النور (المسيحيون) بقيادة المسيح بتدمير أبناء الظلام، الطغاة، والأشرار (المسلمين) في العالم، ومن ثم سينفتح التاريخ على الألفية السعيدة، وما احتلال العراق سوى مساهمة بروتستانتية في هذا السيناريو الديني العقيدي، وما تعبير (حرب صليبية) التي قالها الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن، بُعيد أحداث الحادي عشر من سبتمبر الشهيرة، والتي اعتبرها الإعلام الأمريكي زلة لسان، سوى تعبير عن لاوعي جمعي، يتنضد فيه التصور الديني للشعب الأمريكي المسيحي بشكل عام، ورجالات البيت الأبيض بشكل خاص.

بل إن بعض الأصوليين المسيحيين من البروتستانتيين الأمريكيين تبنوا التصور اليهودي التلمودي الذي يذهب إلى أن معركة هارمجدون سوف يسبقها حروب تمهيدية مع العرب،

كما أن اليهود يمكنهم أن يقوموا ببناء هيكل مقدس مؤقت في مدينة أورشليم (القدس) بينما يأتي المسيح، وينزل الهيكل المقدس الأبدي من السماء.

أما بالنسبة للعلاقة المصلحية بين الصهيونية بدولتها (إسرائيل)، وبين الإمبريالية الأمريكية حصرا، والتي في وقت قياسي استطاعت أن تترأس، ومن دون منافس على قيادة الإمبريالية العالمية، فتتمثل في عدة بنود على رأسها:

إن الولايات المتحدة الأمريكية تريد من دولة إسرائيل أن تحوّل دورها الوظيفي الاستعماري التقليدي لمصلحة الولايات المتحدة حصريا، بحيث تصبح قاعدة عسكرية أمريكية بالخاصة، كي تهيمن من خلالها على دول الشرق الأوسط التي تحتوي على أكبر احتياطي نفطي في المنطقة، كما أنها تشكل منطقة ذات أهمية حيوية إستراتيجية على المستوى الجغرافي.

أما النقطة الثانية، أو الدور الوظيفي الثاني الذي تريده الولايات المتحدة الأمريكية من دولة إسرائيل، فهو الوقوف في وجه مصالح الدول الأوربية في منطقة الشرق الأوسط، وهذا التوجه الأمريكي بدأ بالبروز بعد العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦م التي تعاونت فيه إسرائيل مع كل من المملكة المتحدة، وفرنسا، من أجل مصالحهم المشتركة في قناة السويس، وقد استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أن تجهض هذا التحالف، ومن ثم استطاعت بعد مدة قصيرة من احتواء دولة إسرائيل، وقطع السلسلة التي تربطها بدول أوربا الغربية بشكل عام، وأن تقوم باحتكار، وتوظيف دولة إسرائيل لمصلحتها الخاصة، وتجلى هذا في حرب سنة ١٩٦٧م، والتي تشكل، حسب رأي البعض، حلقة من سلسلة حرب عالمية ثالثة تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية، وقد وظفت، أو وكّلت الولايات المتحدة الأمريكية دولة إسرائيل بالقيام بهذه الحلقة، والتي كان الغاية منها وصول الولايات المتحدة الأمريكية إلى أفريقيا عبر البحر الأحمر، وحصر النفوذ الأوربي فيها، فمن خلال إغلاق قناة السويس تم حرمان أوربا من القناة التي تُعَدّ من الشرايين المهمة في الاقتصاد الأوربي، وليس الأمريكي، ولا سيما بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفييتي، وفي النهاية استطاعت أمريكا، وعلى مراحل عديدة ومزمنة، أن تكنس التواجد الأوربي نهائيا من منطقة الشرق الأوسط، وعلى الرغم من أن أوربا تحاول دون كلل، أو ملل أن تدس برأسها هنا وهناك خلسة، ولكن الولايات المتحدة الأمريكية تبعده بكل صفاقة أحيانا، وهو ما نراه في الآونة الأخيرة يتمثل في الجدال القائم بين الولايات المتحدة، والدول الأوربية حول التدخل في مباحثات السلام بين الجانبين العربي والإسرائيلي، وما شهدناه أيضا في سياق

تحضير الولايات المتحدة الأمريكية لحربها على العراق، والتي استطاعت أن تحقق فيها ما أرادته على الرغم من معارضة الدول الأوربية التي تبنته كل من فرنسا، وألمانيا، وأصبحت المنطقة كاملة رهينة للسياسة الأمريكية دون منازع، ولم يتبق للأوربيين سوى ازدراد الهزيمة سرا.

أما بالنسبة للدور الإسرائيلي في تلك الحرب الصليبية الإمبريالية العولمية الأخيرة، فله جوانب متعددة، على رأسها هو تجنيد اللوبي الصهيوني اليهودي في تهيئة الرأي العام الأمريكي، وجعله يقف إلى جانب (نسور البيت الأبيض)، كبديل عن الدور العسكري الإسرائيلي الذي ارتأت الولايات المتحدة أن تحيّده في ضرباتها العسكرية الثلاث على العراق، نظرا لحساسية هذا الموضوع بالنسبة لأصدقاء أمريكا من العرب، ولكن لنا أن نعتقد أن الصهيونية الإسرائيلية سوف تتحسس من تحييدها، وستشعر أنها ربما ستفقد شيئا ما من دورها الوظيفي في المنطقة بعد أن أصبحت القوات الأمريكية في قلب المنطقة، على الرغم من لهاث المؤسسة العسكرية الإسرائيلية الشديد وراء تنفيذ أي مهمة تكلفها بها الإمبريالية الأمريكية سيدة النظام العالمي الجديد.

إن دولة إسرائيل تدرك أن النظام الإمبريالي ككل، ومن خلال الفلسفة العلمانية النفعية التي يتبناها، ينظر إلى إسرائيل بمقدار ما تحقق له من منفعة على المستويين المباشر والاستراتيجي، فإسرائيل بالنسبة للإمبريالية تقوم بدور وظيفي، وأهميتها، ومقدار التمسك بها يتعلقان بعمق المفاضلة ما بين ما تتكلفه الإمبريالية من خدمات متنوعة للحفاظ على استمرارية الكيان الإسرائيلي كمقيم غير شرعي، وما بين المردود العسكري، والاقتصادي قصير، وبعيد المدى الذي تجنيه من توظيف هذا الكيان، هذا إذا ما غضضنا النظر عن دور اللوبي الصهيوني في إضفاء المزيد من الأهمية على دولة إسرائيل.

إن إسرائيل بدأت، بعد حرب ١٩٧٣م، تدرك، على قلق، أنها قد تخسر دورها الوظيفي في المؤسسة الإمبريالية الأمريكية، لا سيما إذا ما أدرك الجانب العربي العلاقة العجائبية بين الإمبريالية الأمريكية والدولة الإسرائيلية، وقد بدأ القادة الصهاينة يعتقدون أن العرب مهما كانوا مغفلين فإنهم سيتعلمون من أخطائهم وسوف يدركون كيف يندخلون في اللعبة العالمية، وبالتالي سوف يسحبون البساط من تحت دولة إسرائيل، والتي ستقع على الأرض في العراء، وسوف تقوم الذئاب العربية (الانتقامية) بتقطيع أوصال اليهود فيها، وبمباركة من الدول الراعية الآن، لأن دولة إسرائيل ستكون مصدر إزعاج للدول الراعية، وستصبح أشبه ما يمكن بمسن يحتاج إلى رعاية دون أن يقدم أي فائدة أي أنها ستتحول إلى عبء على

الإمبريالية العالمية، بعد فقدانها جوهر دورها الوظيفي في المنطقة بسبب المستجدات، والاختراعات، والتطور الكبير بصناعة الأسلحة، وبذلك فحسب الداروينية، والنيتشوية، والنازية، فيجب إبادة الكيان اليهودي، أو التخلص منه، لانتهاء فعاليته الزمنية، مثل أي منتج صناعي.

ودولة إسرائيل، وبالتعاون مع اللوبي الصهيوني في أمريكا، ومن خلال تغذيتها لكل ما من شأنه أن يبقي المنطقة في حالة أزمة، وحالة مسرحة سياسية عسكرية تقدم لدولة إسرائيل فرصة وظيفية للقيام بدور عسكري، والذي بدأت أهميته العسكرية بالتراجع بعد تطور منظومات الأسلحة، وخاصة منها الجوية والصاروخية التي أصبح بإمكانها الوصول إلى أماكن بعيدة مع الحفاظ على طاقتها التدميرية، ولذا فإسرائيل منذ الآن تبحث عن تعزيز دورها الذي بدأ بالتآكل، والطرح الذي تتبناه الآن الصهيونية، وتحث الدول الصناعية لأن تقدم التسهيلات اللازمة كي تصبح دولة إسرائيل سوقاً تجارية (سوبر ماركت) في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقية، والذي من خلاله يمكن فتح مكاتب وساطة، وأماكن ترفيهية تجيز فيه أو تقدم فيه كل أنواع المحرمات، ولكن هذا الدور الذي كانت قد هيأت له الولايات المتحدة الأمريكية من خلال طرح مفهوم السوق الشرق أوسطية، والتي ستجعل من الدول الحليفة لها وعلى رأسها إسرائيل، وتحتها تركيا، ومصر، وبعض دول الخليج مثل قطر، هي مقر الوكالات أما باقي الدول فهي الزبائن، ولكن دول المواجهة (الزبائن) استطاعت، إلى الآن، أن تُفشل بناء هذا السوق.

ولكن الإمبريالية العالمية، وبدعم من اللوبي اليهودي، ترى أنها ما زالت تحتاج إلى الدور الوظيفي الذي تشغله دولة إسرائيل، ولذا فعلى الإمبريالية تقديم على الدعم للصهيونية اليهودية كي تحافظ على دولة إسرائيل ما دامت تحقق دورها الوظيفي، والتي يأتي على رأسها كون القوة العسكرية الإسرائيلية أداة في يد الإمبريالية، وهي تقوم بدور مباشر، أو غير مباشر، وبتكاليف غير باهضة، بتفتيت كل المشاريع النهضوية في المنطقة العربية، وإبقاء البترول العربي تحت سيطرة الدول الغربية، وفي هذا السياق يقول جوزيف لينز سنة ١٩٩٢ وهو سكرتير سابق لحلف الناتو {إن إسرائيل كانت المرتزق الأقل كلفة في عصرنا الحاضر}.

وإسرائيل تحاول أن تعلو على دورها الوظيفي الأداتي بحيث تحاول أن تصبح شريكاً للإمبريالية، وهي تسوق نفسها للإمبريالية أن بإمكانها أن تشكل عاصمة، أو سوبر ماركت

في الشرق الأوسط لتسويق الصناعات الغربية، بعد تشكيل السوق الشرق أوسطية المشتركة بعد فرض السلام حسب ما ترتئيه الصهيونية، بحيث يكون الإسرائيليون خبراء، ووكلاء للصناعات الإمبريالية، أما العرب (الممولون لهذا المشروع)، فدورهم لا يتعدى كونهم مستهلكين.

الفصل الثاني

الصهيونية اليهودية
بين
فلسطين واليهود

بدأت حركة التنوير اليهودية في أوربا في منتصف القرن الثامن عشر، والتي دعت اليهود إلى أن يخرجوا من حالتهم السلبية في انتظار المسيح اليهودي المخلص، وأن يحاولوا البحث عن الخلاص بأنفسهم، واستمرت حتى سنة ١٨٨٠م، ويُعدّ موسى مندلسون (١٧٢٩ - ١٧٨٦م) فيلسوف التنوير اليهودي الأول، والذي حاول أن يعقلن العقيدة والفكر اليهودي الذي كان في تلك الفترة يعيش بعقلية القرون الوسطى، كما أن الحركة الديناميكية التاريخية، التي أدت إلى بروز الوعي القومي الأوربي بشكل عام في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، هي نفسها الحركية التي أدت إلى ظهور المفهوم (القومي) اليهودي، الذي بعث الحياة في فكرة أرض الميعاد، في محاولة للتخلص من حالة الخزي النفسي التي كان اليهود يشعرون بها أمام الاعتزاز الأوربي القومي الذي احتقر الأمم الأخرى، وحاول التخلص من الأقليات ولا سيما منهم اليهود الذين كانوا يشكلون مشكلة أوربية يهودية (المسألة اليهودية)، والتي حاولوا الوصول إلى حلها، بل والاستفادة منها، في سياق التطلعات الأوربية الاستعمارية، وبتأثير من الصهيونية غير اليهودية المسيحية، والاستعمارية، وبذلك اجتمعت أو التقت القناعات السياسية الأوربية، مع التطلعات الدينية، والسياسية لليهود الذين أخذوا يشعرون بحاجتهم إلى وطن يكون لهم مبعث عز، وملجأ (أو غيتو دولي) يحميهم من الاضطهادات التي تعرضوا، ويتعرضون لها في دول الغرب المسيحي، وقد التقط هذا التوجه كل من العلمانيين والحاخاميين الإصلاحيين اليهود، وأخذوا يعملون على حل المسألة اليهودية، وقد بدأ الحاخام يهودا القلعي البوسني (١٧٩٨ - ١٨٧٨م)، والحاخام البولوني تسفي هيرش كاليشر (١٧٩٥ - ١٨٧٤م) بالدعوة

إلى جمع تبرعات مالية لإقامة مستوطنات ومستعمرات في فلسطين، وكان يهودا القلعي قد حاول استرضاء أوربا المسيحية، وحاول أن يدمج التصورين الدينيين المسيحي البروتستانتي، واليهودي في تصور واحد، حيث أكد أن المسيح ابن مريم سوف يشارك في معركة ياجوج وماجوج (هارمجدون)، وسوف يسقط في المعركة، الأمر الذي سيتبعه مجيء المسيح اليهودي المنتظر (المسيح بن داود)، كما أكد على أن عقيدة الخلاص ستكون أولا بعودة اليهود إلى الأرض المقدسة، ومن ثم سيتبعه مجيء المخلص، وليس العكس، كما جاء في رؤيا الأنبياء اليهود، وفي هذا السياق يقول يهودا القلعي {إن شعب إسرائيل كله يجب أن يعود إلى الأرض التي هي إرث آبائنا، لاستلام الأمر الإلهي، وقد تنبأ بهذه العودة جميع الأنبياء}.

أما كاليشر فقد اقترح على اليهود أن يحزموا أمرهم، ويعودوا إلى أرضهم المقدسة (فلسطين) لمتابعة تاريخهم، بدل أن يبقوا ينتظرون بسلبية مجيء المسيح المنتظر {لماذا يضحي شعب إيطاليا وشعوب العالم من أجل أرض آبائهم ونحن لا نعمل شيئا؟ لنقتد بالإيطاليين والبولونيين والمجريين الذين ضحوا بكل شيء من أجل الاستقلال.. إذا قدمنا الخلاص للأرض بهذه الطريقة الدنيوية، فسوف تظهر لنا علامات الخلاص تدريجيا وسيسمع الإله للمستوطنين وسيسرع بيوم خلاصهم}، وتأسست في هذا السياق جمعية أحباء صهيون، وكان من أهم شخصياتها يهودا ليون بنسكر (١٨٢١ - ١٨٩١م)، وجمعية أو منظمة البيلو، والتي كانت ترى أنه يجب الخضوع للحراكية التاريخية، ولذلك يجب تنحية الأفكار الخلاصية الغيبية في المعتقد اليهودي، ولا سيما معتقد المسيح الذي سيجيء ليعيد اليهود إلى أرض الميعاد، الذي قادته حركة الهاكسلا، وكان موسى مندلسون هو الممثل الرئيسي لهذه الحركة، وفي النهاية، وبسبب مجموعة تغيرات دولية فقد فشل، أو انحسر تيار التنوير اليهودي الذي كان يدعوا إلى اندماج اليهود في مجتمعاتهم، كما تأسست في فرنسا جمعية الأليانس في فرنسا سنة ١٨٦٠م للدفاع عن الحقوق اليهودية في العالم، وقد سبق ذلك تشكيل منظمة بناي بريت سنة ١٨٤٣م في نيويورك، وهي التي ساهمت بتشكيل الصهيونية، كما قدمت منظمة بناي بريت دعما كبيرا للصهيونية بعد تشكلها، وقد وقفت جمعية عشاق أو أحباء صهيون ضد اندماج اليهود في مجتمعاتهم (الذي تبناه تيار الهكسلا التنويري)، ودعت إلى عودة اليهود إلى البلاد المقدسة، وكانت جمعية عشاق صهيون منظمة صهيونية يهودية دينية صوفية مسيحانية أكثر منها منظمة سياسية، ولكنها شكلت أحد بنى الصهيونية السياسية على يد هرتزل، الذي بنى صهيونيته على عدة أسس أهمها:

إن اليهود يشكلون شعبا واحدا بغض النظر عن جنسياتهم، وعن البلدان التي يقيمون فيها.

ولا يمكن لليهود، على الرغم من تقادم الزمان، أن يذوبوا في المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها، لعدة أسباب، وأنهم، وبسبب ذلك، عانوا من عمليات اضطهاد متعددة على مر التاريخ.

وكانت جمعية أحباء صهيون قد أسست أو ساهمت بتشكيل، أو بروز التيار الصهيوني اليهودي تحت تأثير بيرتس سمولنسكين (١٨٤٢ - ١٨٨٥م)، لا سيما بعد تفجر الأحداث اليهودية في روسيا وبولندا وصدور قوانين مايو ١٨٨٢م، والتي قضت على فرص الاندماج اليهودي، وبذلك بدأت هجرة يهودية واسعة من شرق أوربا نحو غربها، ولا سيما إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا والعالم الجديد، وهي التي شكلت ما دعي بـ (المسألة اليهودية).

لقد أدى فشل حركة التنوير اليهودية (الردة التنويرية)، بالتعاون مع صهيونية الأغيار (ذات البعد الاستعماري، الإمبريالي) التي كانت استجابة اليهود لها ضعيفة في البداية، إلى ظهور الصهيونية، والتي تُمثل الجناح السياسي لليهودية العالمية (من أجل إنشاء وطن للشعب اليهودي في فلسطين يحميه القانون)، والتي نصّبت نفسها قائدة للجماعات اليهودية في أوربا، والتي استطاعت أن تعقد مؤتمرها الأول سنة ١٨٩٧م في بازل بسويسرا، بقيادة مسيحها السياسي الصحافي القانوني تيودور هرتزل، والذي كان قد تتلمذ فكريا على يد موسى هس الذي كان قد تبنى أفكار الحاخام كاليشر وطورها إلى (نظرية قومية يهودية تقوم على الدين والعرق أي على الجنس اليهودي)، وكان عدد أعضاء المؤتمر ٢٠٦، وهو يماثل عدد العظام التي تشكل جسد الإنسان، وهذا يحاكي أو يحقق نبوءة حزقيال الذي رأى عظاما تتجمع وتشكل إنسانا حيا، على الرغم من أن الصهيونية لم تعتمد في بنيتها على اليهودية كدين، بل على العكس كان قادة الصهيونية على حالة عداء أو خرق للطقوس والشعائر الدينية كما كان يفعل هرتزل، كما أن ماكس نوردو كان ملحدا، أما وايزمان فكان على مرأى من الحاخامات يقوم بخرق الطعام المباح، ومن أجل هذا فقد دعا الآباء الأوائل للصهيونية اليهودية إلى تشكيل دولة على أساس قومي (عبراني) لا ديني (يهودي)، كما أن هؤلاء القادة كانوا يرون أن التراث الذي تشكل في مرحلة الشتات يجب التخلص منه لأنه تراث نتج عن مرحلة الهزيمة، وهو يشكل تراثاً انهزامياً، وقد استطاع قادة الصهيونية المؤسسين من تحويل أو

ترجمة أو تسييس المعتقد الديني اليهودي إلى برنامج سياسي، ويمكن اختصار المنطلقات النظرية الصهيونية بثلاث نقاط:

استعادة أرض مملكة إسرائيل بحدودها التاريخية

إعادة تكوين الشعب اليهودي في وطنه القديم

إيقاظ الوعي القومي بين يهود العالم

والصهيونية نشأت في البداية كفكرة، ثم قامت بتصنيع شعب يؤمن بعقيدتها، ويشكل بنية تحتية لتصورها، ومن ثم قامت بتشكيل دولة ذات بنية هرمية مقلوبة، رأس الهرم إلى الأسفل، وقاعدته إلى الأعلى، كما هو حال الهرم المجتمعي اليهودي المقلوب، والذي تشكل قاعدته طبقة غنية وثقافية وقيادية، وأما قمته فيشغله بعض الناس البسطاء غير المميزين على عكس الهرم الاجتماعي بشكل عام.

وبدأت الصهيونية ترفع عقيرتها، ودعاويها التاريخية والسياسية للهجرة إلى فلسطين (أرض الميعاد) لتشكيل غيتو يهودي عالمي في فلسطين على حساب الشعب العربي، وكان من أهم الشخصيات الصهيونية اليهودية التأسيسية الأولى إلى جانب تيودور هرتزل، الحاخام آحاد هعام (١٨٥٦ - ١٩٢٧م)، واليساري دوف بيربوروخوف (١٨٨١ - ١٩١٧م)، واليميني فلاديمير جابوتنسكي (١٨٨٠ - ١٩٤٠م)، وحاييم وايزمان (١٨٧٤ - ١٩٥٢م)، الذين أسسوا الصهيونية العالمية كحركة تبحث في حل المسألة اليهودية من داخل المشكلة، لا من خارجها كما هو الأمر بالنسبة للصهيونية غير اليهودية، وقد أدرك قادة الصهيونية، برؤية استشرافية، أن حل المسألة اليهودية لا يمكن أن يتم إلا من خلال التعاقد مع التطلعات والمصالح الإمبريالية الغربية، وهو ما دعي بـ (العقد الصامت) والذي ينص على أن:

تقوم الإمبريالية العالمية بتقديم كل سبل الدعم للصهيونية، من أجل تهجير يهود أوربا إلى فلسطين التي ستقدمها لهم الإمبريالية العالمية دون أي مقاومة، بل وحتى دون سكان بالمعنى الوطني، وكان حاييم وايزمان الرئيس الأول لدولة إسرائيل الصهيونية قد فضح هذا البند من بنود العقد الصامت بين الصهيونية والإمبريالية الغربية ممثلة الصهيونية غير اليهودية حين صرّح {لقد اتفقنا مع الإنجليز على أن نتسلم فلسطين خالية من السكان}.

أما دور الصهيونية في هذا العقد فيكون من خلال جعل دولة إسرائيل الصهيونية تقوم بعدة وظائف قابلة للتعديل حسب متطلبات الإمبريالية، وتبعا للمتغيرات السياسية

والعسكرية، المحلية، والدولية، ومن هنا فقد جعلت الإمبريالية العالمية من الكيان الإسرائيلي، كيانا ليس له تشكيل محدد، لا على المستوى الجغرافي، ولا على المستوى السياسي، كيانا قابلا للتعديل بما يتناسب والوظيفة التي يجب أن يقوم به، ولكن أهم دورين ثابتين على الصهيونية القيام بهما من خلال دولتها هما:

- الدور الوظيفي الأول يتمثل بتخليص أوربا من الفائض اليهودي الطفيلي، وتوظيف الصفة الطفيلية اليهودية في إضعاف البنية الاقتصادية للمنطقة العربية، وبث الجراثيم المرضية العامة في بنية العالم العربي، والإسلامي، وهو الأمر الذي يسمح للإمبريالية العالمية من الهيمنة على العالم العربي، ويسهّل عليها سلبه مقدراته الاقتصادية، وفي الوقت نفسه، فإن الصهيونية، كانت ترى أنها بتشكيل كيانها السياسي هذا يمكن لها أن تشَكل غيتو عالمياً في (أرض الميعاد) يستطيع اليهودي ضمنه أن يخلع جبته الكلسية التي تحول دون اندماجه مع المجتمعات الأخرى، واستبداله بجبة أو جدار عال حول الدولة الصهيونية.

- أما الدور الوظيفي الثاني الذي يجب أن تقوم به الدولة الصهيونية، فهو كونها قاعدة عسكرية إمبريالية متقدمة ذات تكاليف رخيصة، بدل التكاليف الكبيرة التي تحتاجها حاملات الطائرات، والصواريخ بعيدة المدى.

كما أن على دولة إسرائيل أن تشارك في سير الأحداث الطارئة، وفي الوقت المناسب، بينما تستطيع الإمبريالية أن تجد الحلول الاستراتيجية لمصالحها فيما لو تعرضت إلى أي تهديد في المنطقة.

وإسرائيل التي أصلا تعاقدت مع الإمبريالية العالمية على هذا الدور تدرك تماما أنه بمقدار ما تحقق من منافع للإمبريالية بمقدار ما تكون أو تشعر بطمأنينة أكبر على استمرار إقامتها من جهة، إضافة إلى ارتباط فائدتها بالمكافآت التي تتقاضاها من الإمبريالية من جهة أخرى.

كانت الصهيونية بعد مؤتمرها الأول قد بدأت بعولمة مشروعها، تحت شعار الغاية تبرر الوسيلة (الميكافيلية)، مستفيدة من حالة البؤس والشقاء التي تعيشها الطائفة اليهودية في كل بلدان العالم الغربي، لا سيما وأن مفهوم اللاسامية الذي كان قد بدأ بالانتشار في سياق تصاعد القومية الأوربية نحو العنصرية الأوربية، وأخذت الصهيونية - والتي رأت فيه عنصرا إيجابيا في مشروعها المستقبلي - تدق على طبوله موسيقا الخوف والجزع لليهود وللعالم الغربي على حد سواء، وقد استدرج هرتزل، من خلال نظريته (رسالة الرجل الأبيض التحضيرية)،

الدوائر والمؤسسات الإمبريالية العالمية بحيث صوّر الدولة اليهودية بـ (متراس أوربا في آسيا)، وقد قام بزيارات متعددة إلى دول العالم للحصول على البراءة الدولية والتي تعني تبني إحدى الدول المشروع الصهيوني على أساس مصالح مشتركة متبادلة، وقد أجاد هرتزل بالعزف، لكل دولة على حدة، الموسيقى التي تطرب آذانها، وتدغدغ مشاعرها، وتفتح شهيتها الاقتصادية.

ففي اسطنبول عرض على السلطان عبد الحميد رفع الديون التي تثقل كاهل الإمبراطورية الآيلة إلى السقوط، لكن الرد كان قد خيب أمله.

وفي ألمانيا، وهي إحدى القوتين العظميين في تلك الآونة، إلى جانب بريطانيا، طرح هرتزل مشروع دولة يهودية تقوم بدور محمية ألمانية ضمن (المجال الحيوي الشرقي) لألمانيا.

ولكن هرتزل، وبعد أن أضاع بعض الوقت على أبواب ألمانيا، أدرك أن الحل الوحيد، والطريق الوحيد إلى فلسطين هو الذي يمر من لندن التي عرض عليها إقامة دولة يهودية حامية وحارسة لقناة السويس، وقد وافق تشامبرلين وزير المستعمرات الإنكليزي سنة ١٩٠٢م على طرح هرتزل، واشترط أن يتم توطين اليهود في سيناء والعريش لقربهما من قناة السويس، ولكن مشكلة نقص المياه في تلك المنطقة حالت دون التقدم في هذا الطرح، كما طرح عليه أيضا سنة ١٩٠٣م فكرة توطين اليهود في أوغندا، وقد وافق بعض أعضاء المؤتمر على هذا الطرح، ومنهم هرتزل، على أساس المناورة، لا على أساس القبول الحقيقي حسب اعتقادي، وتم رفض هذا الطرح نهائيا بعد موت هرتزل سنة ١٩٠٤م.

وفي روسيا عرض هرتزل إقامة دولة يهودية يمتص من خلالها كل القوى اليهودية اليسارية الثورية التي تقض مضجع روسيا، لكن القيصر لم يتحمس للفكرة.

وفي إيطاليا طرح هرتزل توطين اليهود في ليبيا تحت رعاية إيطاليا، لكن رد الملك عمانوئيل كان باردا حين علق على المشروع بـ (البناء في منزل شخص آخر)، أما البابا فقد رفض دعم (اليهود الكفرة)، وبالتالي كانت ردود الفعل مخيبة لآماله.

ولكن هرتزل استمر بالعمل قدما على لم اليهود حول المنظمة الصهيونية، والتي جعل منها دولة غرائبية (دون شعب ودون جغرافيا)، ولكنه وضع الأسس لامتلاك العنصرين من خلال (الهجرة اليهودية الصهيونية الثانية) التي بدأت سنة ١٩٠٤م، ومن أوربا الشرقية للمرة الثانية، وفي تلك السنة مات هرتزل، وترأس المؤتمر خلفا له دافيد

ولفسون، وقد استفادت الصهيونية برئاسته من انقلاب (حزب الاتحاد والترقي) سنة ١٩٠٨م في تركيا، الأمر الذي، بالمحصلة، أدى إلى تخفيف القيود المفروضة على الهجرة اليهودية إلى فلسطين، حيث تقوّت الصهيونية قليلا بعد أن دُعمت بالطاقات البشرية التي هاجرت إلى فلسطين، وفي سنة ١٩١١م ترأس المؤتمر الصهيوني أوتو واربرغ بدلا من دافيد ولفسون.

ومع انطلاق الحرب العالمية الأولى التي أدت إلى انخفاض في عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين، بدا المشروع الصهيوني بالترنح، ولكن الصهيونية التي لم تثن عزيمتها عن المضي قدما في مشروعها، ومن خلال استقراء الصهيونية للمستقبل، كثفت نشاطاتها نحو المملكة المتحدة إحدى القوى العظمى في زمانها، واستطاعت في النهاية من خلال المملكة المتحدة أن تحصل على (البراءة الدولية) وهو الأمر الذي سيمنح الدولة المانحة حق وضع الاستيطان اليهودي الصهيوني في فلسطين تحت حمايتها، كما سيجعل المال والقوة اليهودية بكل أشكالها المادية والعقلية، العلنية منها والسرية، في خدمة الدولة الواعدة، وقد كان للمبادرة الإنجليزية حق السبق في إعلان الوعد الذي أطلقه على الملأ وزير خارجيتها اللورد الصهيوني المسيحي ليونيل روتشفلد بلفور في يوم ٢-١١- ١٩١٧م، والذي جاء فيه {إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه الإخلال بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين، ولا بالحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلاد الأخرى}.

وكانت بريطانيا قد أرادت من إعلانها لهذا الوعد محاصرة النفوذ الفرنسي في لبنان، والدفاع عن قناة السويس وهو الهاجس الأكثر أهمية من سابقه، وهذا الوعد الذي كان يتم العمل على تحرير وعود مماثلة له في كواليس أكثر من دولة أوربية، أهمها ألمانيا والنمسا، ففي تلك الفترة كانت نهاية الحرب العالمية أصبحت قاب قوسين أو أدنى، والمتوقع أنها ستسفر عن تحولات دولية جديدة، ورسم خارطة جديدة لمناطق النفوذ حسب نتائج الحرب، وكانت الجماعات اليهودية قد انقسمت على جانبي طرفي الحرب العالمية الأولى، وكان لتلك الجماعات دور فعال في تحولات ميزان القوى، وبذلك فقد كانت الدول المتحاربة تسعى لاسترضاء الجماعات اليهودية التي كانت تمسك بثلاثة أوراق ذات تأثير كبير في تلك الحرب:

الأولى منها محاولة الدول كسب الجماعات اليهودية للوقوف إلى جانبها في جبهة الحرب، بدل وقوف تلك الجماعات ضدها، وهذه الورقة كان لها أهمية خاصة في روسيا، التي كانت تعاني من حالة مخاض داخلي، إلى جانب معاناتها على جبهات الحرب، وكانت الثورة البلشفية تحضّر نفسها للحظة الانفجار، وكانت الجماعات اليهودية من الركائز المهمة والقيادية في الحزب الشيوعي، وقد تفجّرت الثورة بعد خمسة أيام من إعلان وعد بلفور.

أما الورقة الثانية التي كانت بحوزة الجماعات اليهودية، فهي ملكيتهم لبيوتات المال العالمية، حيث كانت الدول تسعى للحصول على قروض مالية لدعم الجيوش بالمعدات العسكرية، ودعم الاقتصاد الداخلي.

أما الورقة الثالثة فكانت من خلال إمكانية الجماعات اليهودية التأثير على الجانب الأمريكي الذي لم يكن قد حزم أمره بعد في دخول الحرب العالمية.

وفي السباق الدولي على إطلاق هذا الوعد لكسب الجماعات اليهودية، استطاعت بريطانيا بالتنسيق مع الولايات المتحدة الأمريكية أن تستبق جميع الدول، ولا سيما النمسا، وألمانيا التي كانت تعد في كواليسها الوعد الذي يكفل لها الحصول على البراءة الدولية من أجل كسب اليهود إلى جانبها في الحرب.

وقد كان براندايس زعيم يهود أمريكا قد جنّد ضغطا أمريكيا على الحكومة البريطانية لاستصدار الوعد، وقد شارك الجانب الأمريكي في تحرير مسودة الوعد، وتم الاتفاق عليها بين السلطتين البريطانية والأمريكية، كما وافق على الوعد بعد صدوره كل الدول الكبرى لتدخل فلسطين ضمن مؤامرة دولية كبرى.

والجدير ذكره هنا، أن الكثير من السياسيين والمفكرين، ولا سيما منهم العرب، يحاولون أن يلمعوا الفكرة، أو التصور الذي يذهب إلى أن الصهيونية كانت تبحث عن أي مكان على وجه الكرة الأرضية ليكون وطنا قوميا لليهود، ولم يكن لدى القيادات الصهيونية تصور مبدئي وثابت في (العودة) إلى أرض الميعاد اليهودية التوراتية، وهذا التصور الذي تبناه بعض المفكرين ينبع من محاولة فك الارتباط بين اليهودية من جهة، والصهيونية ببعدها العقيدي الديني من جهة أخرى، ويحاول هذا التصور إظهار الصهيونية على أنها منظمة سياسية، وهي وإن كانت قد نهضت لحل المسألة اليهودية، فإنها ليس لها أي علاقة أو ارتباط وثيق بالدين اليهودي، كما أن هذا التصور يحاول أن يقلل أو يسخّف من مفهوم الوطن القومي الديني في الفكر الصهيوني،

وقد بنى هؤلاء الساسة، والمفكرون تصورهم على ما كان يُطرح على الصهيونية من أوطان قومية من قبل الدول الأوربية الاستعمارية، وعلى الطريقة المراوغة التي كان الصهاينة يردّون بها على هذه الطروحات، بحيث يوافقون على تلك الطروحات ظاهريا، كما لو أنهم يوافقون عليها من حيث المبدأ، على الرغم من أن كشف جوهر فكرة الوطن القومي الصهيوني لا يتعدى النظر إلى اسم المنظمة (الصهيونية) المأخوذ من (جبل صهيون) في مدينة القدس، وهو ما يدعى بمدينة داود، حيث كان الملك التوراتي داود قد اتخذ من قلعة جبل صهيون مقرا أو عاصمة له قبل استيلاء اليهود على أورشليم في سياق بداية الألف الأولى قبل الميلاد حسب الادعاء التوراتي، وبذلك فإن جوهر الصهيونية يقوم على إعادة اليهود إلى فلسطين على اعتبار فلسطين هي المملكة الداودية التوراتية، وقد تجاهل هذا التصور أن الصهيونية هي مذهب ديني - مادي يهودي استطاع أن يوفّق ما بين الرؤية العلمانية الغربية، وما بين التصور الحلولي للدين اليهودي.

وكان هرتزل في حواره مع أصحاب النفوذ في أوربا يظهر ما لا يبطن، من خلال حواره الفضفاض، ومات قبل أن يكشف عما كان يدور في سرائره، ومن هنا فقد كوّن بعض الباحثين تصورا يذهب إلى أن هرتزل لم يكن يضع في أولوياته أن يكون الوطن القومي لليهود في فلسطين حصرا، ولم يكن هرتزل ليهتم كثيرا بالوطن الصوفي اليهودي، وهو تصور مسطح أثرت فيه ثعلبية هرتزل والذي استطاع، كما نوهنا، أن يعزف لكل أذن ما تهواه من الموسيقا من أجل الحصول على (براءة الوعد)، وقد حاول هرتزل أن يجعل من دعوته إلى إنشاء وطن قومي لليهود مطلبا إنسانيا، فهو سيجمع اليهود ويحميهم من الاضطهادات التي يتعرضون لها في غير مكان، في الوقت الذي لن يحدث هذا الوطن القومي أي ضرر في الجغرافيا التي سيحل فيها، ولا في الشعوب المحيطة به، وهي صيغة (التمسكن) التي غايتها التمكن من استحواذ أي وعد للذهاب به خطوة أثر خطوة إلى حيث يضمر هرتزل والقيادة الصهيونية، في الوقت الذي كان بطريقة خلفية مبطنة يقوم بتهديد أوربا من اليهود، فهو حينا يستثير شفقة الدول الكبرى، وحينا يثير شهية جيوبها، ومطامعها، وحينا يهددها، ففي لندن قال أثناء تسويقه لفكرة الوطن القومي لليهود، وأن من مصلحة الإنكليز أن يناصروا اليهود لأنهم بذلك {يقضون على خطر ثورة يقوم بها اليهود ولا أحد يعلم كيف تنتهي}.

وقد تابعت القيادات الصهيونية، إلى درجة ما، نفس النهج الهرتزلي، ونفس الخطاب الثعلبي المراوغ الفضفاض في سياق مسيرتهم نحو الوطن القومي لليهود، وقد كشف اللورد كرزون سنة ١٩١٩م هذه الخاصية حين قال {بينما يقول لك وايزمان شيئا، فتفكر في مركز قومي لليهود، يضع هو نصب عينيه شيئا آخر مختلفا كل الاختلاف. إنه يفكر في دولة يهودية وسكان عرب خاضعين يحكمهم اليهود. إنه يسعى إلى تحقيق ذلك خلف ستار الضمانة البريطانية وحمايتها}.

ومن هنا، فإني أعتقد، أن على من يريد قراءة، واستكشاف الآلية التي تقوم عليها الحراكية الصهيونية، أن يكون ملما بالتصور اليهودي للتاريخ المبني على الادعاءات التوراتية التاريخية، وبغض النظر عن كون اليهودية (ديانة، أو عرق، أو أثنية، أو اندماج أكثر من عنصر من هذه العناصر)، وحسب اعتقادي فإن هذه القراءة المعمقة تمكننا من الوقوف أمام ظاهرة تاريخية خاصة يمكن تسميتها بالعناد التاريخي، الأمر الذي يستوجب ألا نتعامل، أو نقرأ الحركة الصهيونية بطريقة سطحية، لأن للصهيونية عمقاً تاريخياً يعود إلى قرابة ثلاثة آلاف عام.

الصهيونية والهجرة إلى فلسطين

بدأت الدعوات الدينية (للعودة) إلى البلاد المقدسة تتصاعد في بداية الألفية الثانية للميلاد، وكانت متزامنة مع تصاعد التعصب الديني المسيحي، وخاصة لدى المذهب الكاثوليكي، والذي في النهاية قاد الحرب الصليبية (لتحرير البلاد المقدسة من أيد المسلمين)، أما بالنسبة لليهود (المنهزمين) فقد كانت دعوات الهجرة (العودة) إلى أرض الميعاد ذات طبيعة دينية رومانسية، وكان من أهمها دعوة الفيلسوف والشاعر اليهودي يهودا هاليفي (١٠٨٥ - ١١٤١م)، وبعد تصاعد عمليات اضطهاد الأوربيين للجماعات اليهودية، تصاعدت دعوات الهجرة، ومنها دعوة دافيد روبيني، وتلميذه سولون مولوخ (١٥٠١-١٥٣٢م)، ودعوة منشة بن إسرائيل (١٦٠٤-١٦٥٧م)، ودعوة شبتاي زيفي (١٦٢٦ - ١٦٧٦م)، والذي اعتبر نفسه المسيح المنتظر الذي سيعيد بناء مملكة اليهود، لا سيما بعد أن تمكن اليهود من جمع المال الذي يمكنهم من شراء الأرضي والعقارات في منطقة فقيرة مثل فلسطين.

وكانت أولى الدعوات التي دخلت حيز التنفيذ هي دعوة اليهودي الإسباني دوم جوزيف ناس سنة ١٥٦٦م الذي قام بشراء قطعة من الأرض قرب بحيرة طبريا، بعد أن كان قد أخذ إذنا من السلطان العثماني، وقد أسكن في تلك المستوطنة بعض اليهود الهاربين من اضطهاد محاكم التفتيش في أوربا الكاثوليكية، وخاصة في إسبانيا، وقد شكل هؤلاء المستوطنون طائفة صوفية يهودية، ولكنها لم تجد الكثير من الأتباع، وقامت المستوطنة الثانية قرب مدينة يافا، وقد بلغ عدد المهاجرين من اليهود منذ ذلك التاريخ حتى سنة ١٨٣٩م ٦٠٠٠ مهاجر، وفي سنة ١٨٤٥م بلغ العدد ١١٨٠٠، وقد أُنشئت مستوطنتان لليهودي موسى منتفيوري سنة ١٨٥٥م في مدينتي صفد وطبرية، وفي سنة ١٨٨٢م بلغ العدد ٢٤٠٠٠ مستوطن يهودي، وبعد الاضطهاد الروسي لليهود إثر اتهامهم بالمشاركة في اغتيال القيصر الروسي الكسندر الثاني، برزت المنظمات اليهودية التي بدأت تدعو وتنظم الهجرات اليهودية إلى فلسطين، وكانت تلك الهجرات تتم على شكل موجات:

كان أولها الموجة التي امتدت بين سنتي ١٨٨٢ - ١٨٩٧م، والتي أشرفت عليها جمعية عشاق أو أحباء صهيون، ومولّت من قبل البارون اليهودي روتشيلد، وقد بلغ عدد الذين تم توطينهم في فلسطين قرابة خمسة آلاف يهودي قدموا من روسيا ثم من رومانيا وألمانيا

وبريطانيا والنمسا، وعلى الرغم من أن هذا العدد ليس بالكثير، ولكن هذا القليل مع الزمن كان له أثر كبير في التغيرات الديموغرافية في بلد صغير مثل فلسطين، وكان اليهود الأشكناز يدخلون إلى فلسطين تسللا بعد حصولهم على تأشيرة دخول كمواطنين أجانب لهم حقوق خاصة، وكان للقناصل الأجانب الدور البارز في هذه العملية.

وقد تزايدت، هذه الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بشكل ملحوظ بعد أن استطاعت الصهيونية أن ترتبط بشكل وظيفي مع المخططات الإمبريالية نحو المنطقة العربية، وهي التي دفعت بالموجة، أو الهجرة الثانية، التي بدأت سنة ١٩٠٤م، ومن أوربا الشرقية للمرة الثانية، بعد أن تسامحت تركيا مع قوانين الهجرة اليهودية، وبلغ عدد المستوطنين اليهود سنة ١٩١٣م ٨٥٠٠٠ نسمة، والذي عاد للانخفاض حتى بلغ في نهاية الحرب العالمية الأولى نحو ٥٥٠٠٠ نسمة، بعد أن أدى الاستيطان المتسارع في فلسطين إلى أعمال عنف طالت المستوطنين الجدد وممتلكاتهم من جهة، ومن جهة ثانية اكتشاف المستوطنين الجدد للخديعة التي روّجت لها الصهيونية في حملتها الإعلامية في الهجرة إلى الأرض التي تسيل لبنا وعسلا، ومن جهة ثالثة التغيرات العالمية التي قادت إلى الحرب العالمية الأولى، والنتائج التي أسفرت عنها.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عادت أمواج الهجرة تصل إلى شواطئ فلسطين، لا سيما بعد دخول الجيش الإنكليزي فلسطين، وإعلان وعد بلفور سنة ١٩١٧م، الذي اعترفت به الدول الكبرى حينها، وبذلك ازدادت عمليات الاستيطان بدعم من قبل الدول الأوربية التي اتفقت مصالحها مع المصالح الصهيونية، وتلاحقت الهجرات على شكل موجات وكان أغلب المهاجرين من دول أوربا الشرقية بالدرجة الأولى، ومن دول أوربا الغربية ومستعمراتها بالدرجة الثانية، ومن دول الشرق الأوسط (العراق واليمن وإيران والمغرب) بالدرجة الثالثة، وقد بلغ عدد اليهود في فلسطين حتى ١٥-٥-١٩٤٨م يوم إعلان الدولة الصهيونية في فلسطين ستمائة ألف مستوطن يهودي.

وبعد أن حازت الصهيونية اليهودية على الجهاز السياسي في فلسطين، وبعد أن كانت المستوطنات في فلسطين هي بديل أو شبيه للغيتوات اليهودية في أوربا، انفتحت تلك المستوطنات على بعضها في تشكيل سياسي معترف عليه من قبل الدول العظمى، وبالتالي من قبل الهيئات الدولية، وقد قامت الحكومة الصهيونية الإسرائيلية بسن قانون العودة سنة ١٩٥٠م، وبذلك استمرت عمليات التوطين، حيث تزايدت بعد حرب حزيران سنة ١٩٦٧م، كما حققت تزايداً كبيراً بعد سقوط الشيوعية في الآونة الأخيرة.

بدأت الهجرة اليهودية في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، إلى فلسطين التي كانت تحت السيادة العثمانية، وكانت تلك الهجرة تقض مضاجع العرب، منذ أن لاحظوا

تزايدها في نهاية القرن التاسع عشر، ومن المعروف أن اليهود الذين عادوا إلى فلسطين هم الفقراء والمستضعفون، أما أغنياء اليهود، وقادة الصهيونية المالية فقد ظل أغلبهم في أوربا ينعمون بالأمن في قصورهم الفارهة، ودفعوا بالفقراء إلى الخوف والموت في ساحات الحرب وفي المستوطنات بعد أن بدأت أعمال الاحتجاج الشعبية العربية، والتي نتج عنها بعض الأعمال العسكرية البسيطة ضد هذه الهجرة، والتي تزايدت بالوقت نفسه الذي بدأت فيه التنظيمات الإرهابية اليهودية بالتشكل بعد المؤتمر اليهودي الأول سنة ١٨٩٧م تحت شعار الدفاع الذاتي، وفي سنة ١٩٠٩ تشكلت منظمة الهاشومير اليهودية الصهيونية تحت شعار (الدفاع الذاتي)، والذي تحول إلى شعار (الدفاع الإيجابي)، وحلّت مكانها منظمة الهاجانا سنة ١٩١٩م، والتي انشقت عنها منظمة الأرجون المتطرفة، والتي انشقت عنها منظمة شتيرن الأكثر تطرفا والأقل عددا ذات النشاط السري، ثم انشقت عن منظمة الهاجانا منظمة البالملاخ (الصاعقة)، أو تشكلت ضمنها كأحد الأجنحة الضاربة للهاجانا، وهي التي كانت نواة جيش الدفاع الإسرائيلي.

وقد كانت هذه التنظيمات تعمل ضد العرب تحت حماية الاستعمار الإنكليزي الذي كان يُعدّ سيناريو (وعد بلفور) على أرض الواقع، وقد نفذت هذه التنظيمات عدة مجازر أهمها: مجزرة القسطل ٨-٤-١٩٤٨م، ومجزرة دير ياسين ١٠-٤-١٩٤٨ ونفذتها منظمتا الأرجون وشتيرن بمساعدة من منظمة البالماخ، وتم قتل ٢٥٤ فلسطيني، منهم ٢٥ امرأة حاملاً، و٥٢ طفلا دون العاشرة من العمر قطعت أوصالهم أمام أمهاتهم، وقد أخذت المنظمات الصهيونية بعض النساء وحملوهن على سيارات مكشوفة وهن عاريات، وطافوا بهن في الحي اليهودي في القدس، وكان لهذه الحادثة الأثر الكبير في بث الرعب في نفوس العرب الأمر الذي جعلهم يخلون الكثير من قراهم، ويهربون إلى الدول المجاورة، وقد وصف بيغن المشهد حين قال {.. كان العرب المذعورين يهربون صارخين: دير ياسين.. دير ياسين}، وهناك اعتقاد أن مجزرة كفر قاسم كانت عبارة عن مجزرة منهجية تم وضع سيناريو خاص بها من أجل جعلها مجزرة إعلامية لبث الرعب في نفوس الشعب العربي في فلسطين.

وفي النهاية استطاعت الصهيونية أن تثبت أقدامها وبقوة في فلسطين، كما واستمرت الهجرة الاستيطانية إليها من جميع أنحاء العالم، وحتى يومنا هذا ولكن، وبسبب النضوب النسبي لمصادر الهجرة فقد تناقص بشكل تدريجي عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين، ولكن تلك الهجرة عادت وتيرتها للتصاعد بشكل مؤقت بعيد تفكك العالم الشيوعي، ثم عادت للشحوب ثانية، الأمر الذي ما زال يقض مضاجع الصهيونية بسبب المخاوف التي تطلقها الاستقراءات الديموغرافية للزمن القريب القادم، وتغيرات النسبة الديمغرافية بين عدد الإسرائيليين اليهود، والإسرائيليين العرب، والمتعلقة بقضيتين أساسيتين هما:

اولا: التزايد السكاني الداخلي في دولة إسرائيل، والفارق بين نسبة التزايد السكاني السنوي بين اليهود، وبين عرب دولة إسرائيل.

وثانيا: مؤشر ميزان الهجرة اليهودية من العالم إلى دولة إسرائيل (الهجرة الإيجابية)، والهجرة من دولة إسرائيل إلى العالم الغربي (الهجرة السلبية)، وخاصة إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

وعلى الرغم من أن دولة إسرائيل هي الدولة الأقل أمنا، وأمانا، والأكثر خطورة على اليهود في العالم، وعلى الرغم من أنها البلد الأفقر، والأقل حراكية اقتصادية، والأكثر بطالة بالنسبة للدول الأوربية والولايات المتحدة التي تكثر فيها الجماعات اليهودية أو الجاليات، حسب الصهيونية، على اعتبار أن اليهود هم إسرائيليون، وعلى الرغم من أن جميع الإسرائيليين يحملون جنسيات أوربية غربية، إلا أن الكثير من اليهود قرروا الهجرة إلى (أرض الميعاد) وعلى الرغم من خسرانهم لمراكزهم، ولفرص عملهم، كما أن الكثير من الإسرائيليين يصرّون على بقائهم في دولة إسرائيل على الرغم من كل الظروف الصعبة التي يتعرضون لها في دولة إسرائيل.

وهنا لنا أن نتساءل لماذا يهاجر اليهود من بقاع العالم إلى دولة إسرائيل..؟

لماذا لا يكتفي اليهود فقط بممارسة شعائر الحج والصلاة، والرحلات الصوفية ومن ثم العودة إلى بلدانهم..؟

لماذا يقررون (العودة) الأبدية إلى الأرض المقدسة (الفردوس المفقود) في التصور الديني الغيبي، والذي هو في الحقيقة (الجحيم المتفجر).

وهذا يجعلنا نضع بالحسبان البعد الغيبي اللاهوتي الروحي لليهودي، على الرغم مما عرف عنه من أنانية ومادية مفرطة، وأن نفكر بتلك الجملة التي كان يرددها اليهودي مرات عديدة في اليوم، ولمدة ألفي سنة، والتي تقول (العام القادم في أورشليم)، كما تجعلنا نتأمل التأثير الروحي للمزمور ١٣٧:

«على أنهار بابل هناك جلسنا.
بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون.
على الصفصاف في وسطها علّقنا أعوادنا.
لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة
ومعذّبونا سألونا فرحا قائلين: رنموا لنا من ترنيمات صهيون
كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة.
إن نسيتك يا أورشليم تنسى يميني.
ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك
إن لم أفضّل أورشليم على أعظم فرحي».

الصهيونية، والقومية العربية، والأرض

بدأت الصهيونية برؤية واضحة، وبإمكانات ومقدرات عالية في مشروع الهجرة إلى فلسطين، وإقامة الكيان اليهودي، لا سيما بعد مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧م، بينما كانت حركة النهضة العربية في ظل الحكم العثماني المترهّل - والتي كالحركة الصهيونية قد ولدت في أحضان الفكر القومي الغربي - ما زالت بحالة تَشكّل، مع رؤية ضبابية، ووعي لم يصل إلى حجم التحديات، لا سيما بالنسبة لموضوع الاستيطان اليهودي، والذي تنبه إلى خطورته، دون أن تكون ردة فعل الجانب العربي موازية لحجم الخطر المحدق، وعلى الرغم من أن الباب العالي في استنبول كان قد وقف ضد المشروع الصهيوني، ولكن مشاغله الداخلية، والخارجية كانت تجعله مكتوف الأيدي، بخاصة وأن المال اليهودي الذي كان يقدم كرشاوى كان يقوم بدوره الفعال عند أصحاب القرار الأتراك في فلسطين، وبذلك استمرت عمليات الهجرة اليهودية واستملاك الأراضي من خلال أعمال السماسرة، والتي من خلالها اشترى اليهود مساحات واسعة من الأراضي من الشعب العربي الفلسطيني الفقير الذي لم يكن يمتلك الوعي التاريخي لتلك الحركة، ومن الإقطاعيين الغائبين أصلا، والذين كانوا يقيمون في المدن الكبرى، وبعضهم كان يقيم في أوربا، وكان يتم بيع أراضيهم التي لم تكن تدر عليهم الكثير من المال بسبب سوء الاستثمار، عن طريق عمليات سمسرة، بحيث أن الأراضي كانت تنتهي إلى اليهود، وفجأة يكتشف الفلاحون، بعد طردهم من الأراضي التي كانوا يعملون بها كمستثمرين سنويين (مرابعين)، أصبحت مُلكاً لغير أصحابها، وهذا ما أدى إلى مصادمات بينهم، وبين الملاك الجدد، الذين حرّموا على الفلاحين العرب العمل بها حسب تعليمات الصهيونية، وكانت أولى الاحتجاجات العربية قد رفعها أعيان القدس سنة ١٨٩١م كبيان إلى الباب العالي يطالبون فيه بوضع حد للهجرة اليهودية، وقد صدر قرار عثماني سنة ١٨٩٢م ينص على منع بيع الأراضي في فلسطين إلى اليهود، ولكن قرارات البيت العالي المدعومة بالمقاومة الشعبية، مع المقالات الصحفية، جميعها لم يكن لها تأثير حقيقي على المشروع الصهيوني، الذي استمر في مشروعه الاستيطاني من خلال الهجرة اليهودية الثانية (١٩٠٤

- ١٩١٤م)، في الوقت الذي استفادت الصهيونية من مجيء الحكومة التركية الانقلابية سنة ١٩٠٨م.

واستمرت الحال على ما هي حتى بدأت الحرب العالمية الأولى، وكان الجانب العربي منقسماً إلى فريقين:

الأول أيد وساند الجانب التركي.

والثاني، وهم أغلب القوميين العرب، وقف إلى جانب القوى الغربية، والذي انضم إليه الفريق الأول، بعد هزائم الأتراك المتلاحقة في خضم الحرب العالمية الأولى، وسياسة جمال باشا القمعية، وبذلك انطلقت الثورة العربية الكبرى، والتي أتت بعد تنسيق أو (اتفاقية مكماهون - الحسين) وقبول الإنكليز بـ (بروتوكول دمشق) الذي ينص على استقلال الدول العربية تحت العرش الهاشمي، في الوقت الذي كانت تتم فيه سرا صياغة اتفاقية (سايكس - بيكو) التي تتعارض مع اتفاقية (مكماهون - حسين).

وانطلقت الثورة العربية، ودون صعوبات تذكر سيطر الثوار العرب على منطقة شبه الجزيرة العربية، وتم إعلان استقلال العرب يوم ٢٧ حزيران ١٩١٦م، وبويع الشريف حسين ملكا، وتم التقدم المنسّق مع دول التحالف نحو بلاد الشام، في الوقت الذي أطلق فيه بلفور وعده من جهة، وتم نشر بنود اتفاقية (سايكس بيكو) من قبل لينين في روسيا من جهة ثانية، ولكن القوات العربية، بعد أن تم امتصاص نقمتها على الإنكليز من خلال تطييب الخواطر، استمرت في تنسيقها مع دول التحالف، ودخل الجيش العربي دمشق يوم ٣٠ أيلول ١٩١٨م، وفي ٣٠ تشرين الأول أعلنت تركيا استسلامها، وبذلك انتهت أربعة قرون من الجهل والتخلف والجوع والاضطهاد للأمة العربية، التي لم تكن تعي المخططات التي كانت ترسمها أوربا بالتفاهم مع الصهيونية، بل وأن قيادة الثورة العربية كانت تضع بثقة وبصدق يدها بيد الإنكليز أنفسهم الذين أعطوا وعدا لليهود بإقامة الدولة اليهودية، والذين كانوا قد أوضحوا للشريف حسين أن فلسطين هي جزء من الدولة العربية، وكانوا يثقون بما يقال لهم، كما أنهم كانوا ينظرون بعين العطف والقرابة مع اليهود على اعتبارهم من أهل الذمة، وكان حاييم وايزمن قد قابل الملك فيصل في معسكره بالقرب من ميناء العقبة سنة ١٩١٨م، وأكد له أن الحركة الصهيونية لا تهدف إلى إقامة حكومة يهودية في فلسطين، وجلّ ما تخطط له هو تطوير فلسطين، بحيث يمكن لها أن تصبح دولة متقدمة،

وكان الجانب العربي تنطلي عليه مقولات الإنكليز، واليهود، التي كانت تطيب خواطر العرب، وتهدئ مخاوفهم.

وكان الأمير فيصل بن الحسين، الذي ترأس الوفد العربي إلى مؤتمر باريس للسلام الذي عقد يوم ١ كانون الثاني / يناير ١٩١٩م، الذي أتى في نهاية الحرب العالمية الأولى لتقسيم غنائم الحرب، وكانت فرنسا قد اعترضت على مشاركة الوفد العربي لأن إمارة الحجاز لم تكن قد اشتركت في الحرب بصفة رسمية، ولكن بريطانيا ومقابل تنازلات من الوفد العربي، أهمها:

الاعتراف بوعد بلفور من حيث المبدأ، على أن تشرف إدارة من الدول الكبرى على فلسطين، بحيث تحافظ على التوازن بين الأجناس والأديان، مقابل المشاركة في المؤتمر.

الاعتراف باستقلال البلاد العربية، وكانت موافقة الوفد العربي على نص وعد بلفور ناتجة عن قناعة الوفد أن هذا الاعتراف سيرتبط باعتراف استقلال البلدان العربية، في الوقت الذي لم يكن أعضاء الوفد العربي قد سمعوا بعد باتفاقية سايكس بيكو، ولم يكونوا يدركون أن الدول الكبرى كانت تتجادل حول اقتسام الوطن العربي فيما بينها، وقد استطاعت بريطانيا أن تنجح في ثني الاعتراض الفرنسي على مشاركة الوفد العربي، وبذلك تم اشراك الوفد العربي في مؤتمر باريس، وكان أعضاء الوفد (كالأيتام على مأدبة اللئام)، وكان الوفد الصهيوني إلى مؤتمر باريس برئاسة حاييم وايزمن وناحوم سوكولوف، وقد قدم الوفد الصهيوني مذكرة طالب فيه بالاعتراف بالحق التاريخي للشعب اليهودي في فلسطين.

وحددت جغرافيا فلسطين (تبدأ في الشمال عند نقطة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط بجوار مدينة صيدا وتتبع مفارق المياه عند تلال سلسلة جبال لبنان حتى تصل إلى جسر القرعون. فتتجه منه إلى البيرة متبعة الخط الفاصل بين حوضي وادي القرعون ووادي التيم، ثم تسير في خط جنوبي متبعة الخط الفارق بين المنحدرات الشرقية والغربية لجبل الشيخ حتى جوار بيت جن، وتتجه شرقا بمحاذاة مفارق المياه الشمالية لنهر مغنية حتى تقترب من سكة حديد الحجاز إلى الغرب منها، ويحدها شرقا خط يسير بمحاذاة سكة الحجاز وإلى الغرب منها حتى ينتهي في خليج العقبة، وجنوبا حدود يجري الاتفاق عليها مع الحكومة المصرية، وغربا البحر المتوسط).

وقد أقر لاحقا المؤتمر معاهدة فرساي، وميثاق عصبة الأمم، الذي يتضمن وضع دول المنطقة تحت الانتداب، والذي يقر بوعد بلفور الذي يناقض ميثاق عصبة الأمم، ووقع على المعاهدة الأمير فيصل بن الحسين، وقد اعترض على ذلك وزير خارجية بريطانيا كريزون قائلا {إن الصهاينة يعملون على إقامة دولة يهودية يكون العرب فيها حطابين وسقائين وكذلك الكثيرون من المتعاطفين البريطانيين مع الصهاينة.. - وأضاف ساخرا - هنا بلد به ٥٨٠٠٠٠ عربي و٣٠٠٠٠ يهودي.. وانطلاقا من مبادئ تقرير المصير النبيلة وانتهاء بنداء رائع موجه إلى عصبة الأمم، نشرع الآن في وضع وثيقة تمثل.. دستورا معلنا لدولة يهودية. ولا يسمح للعرب المساكين إلا أن ينظروا من ثقب المفتاح بوصفهم طائفة غير يهودية}.

أما اللورد سيد نهام فقد قال في مجلس اللوردات {فما فعلناه بتنازلاتنا لا للشعب اليهودي وإنما لقطاع متطرف صهيوني، هو أننا بدأنا قرحا نازفا في المشرق، ولا أحد يدري إلى أي مدى سيمتد هذا القرح}، ولكن، وعلى الرغم من ذلك، فقد أقر في عصبة الأمم وأصبح ساري المفعول بعد معاهدة لوزان.

وفي مؤتمر سان ريمو تم الاتفاق على انتداب بريطانيا على العراق وفلسطين (على أساس وعد بلفور) وانتداب فرنسا على سورية ولبنان حسب اتفاقية سايكس بيكو، وقد ادّعت الأوساط الصهيونية أنه تم اتفاق بين الأمير فيصل وحاييم وايزمن رئيس الوفد الصهيوني، قَبل فيها الأمير فيصل بوعد بلفور، وقد تم نشر الاتفاق السري سنة ١٩٣٦م بعد موت فيصل، وقد أنكر أعضاء الوفد العربي حصول مثل هذا الاتفاق.

وقد تم لاحقا إقرار معاهدة فرساي وميثاق عصبة الأمم، والذي يتضمن شرعية الانتداب بحجة تهيئتها للاستقلال، ووقّع على المعاهدة الأمير فيصل، وقد رفضها الشريف حسين، وكان الملك فيصل قد بعث في سنة ١٩١٩م برسالة إلى الزعيم الصهيوني فيليكس فانكفورتر يقول فيها {نحن نشعر بأن العرب واليهود من عرق واحد، وقد عانينا الاضطهاد نفسه من جانب الدول الكبرى. إننا نحن العرب ننظر بعين العطف إلى الحركة الصهيونية فنحن نعمل معا على تجديد منطقة الشرق الأدنى وبعثها.. إن حركتينا تتمم الواحدة الأخرى.. ففي سوريا مكان يتسع للعرب واليهود معا. وما أظن أن واحدا منا ينجح دون التعاون مع الآخر.. آمل بمستقبل تساعدوننا فيه ونساعدكم على نحو نستطيع معه الإسهام فيما يعود بالخير على الشعوب المتحضرة في العالم}.

في الوقت الذي جاء في المؤتمر الثاني عشر للصهيونية سنة ١٩٢١م {يأخذ المؤتمر علما بأن منطقة شرقي الأردن التي ينظر إليها الشعب اليهودي كجزء متمم من أرض إسرائيل سوف تدمج في منطقة الانتداب لفلسطين، ويجد المؤتمر نفسه ملزما بالإعراب عن أسفه على أن مسألة الحدود الشمالية لأرض إسرائيل لم تجد سبيلها إلى حل مرض حتى الآن}.

وبدأ العرب، أصحاب القضية الأساسية، يستيقظون في وقت متأخر، بعد أن بدأ السيناريو يتمثل على الأرض، وتزايدت الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وازداد استملاك اليهود للأراضي الفلسطينية بشتى الطرق الشرعية، وغير الشرعية، لا سيما بعد أن عيّنت بريطانيا الصهيوني هربرت صموئيل أول مندوب سامي على فلسطين سنة ١٩٢٠م، وقد حصلت عدة ردات فعل عربية مسلحة، وفي النهاية انفجرت الثورة العربية الكبرى سنة ١٩٣٦م، والتي استمرت حتى سنة ١٩٣٩م، ولكن ذلك لم يكن ليحدث التأثير الكبير على مجريات الأحداث التي كانت الصهيونية قد نجحت في كتابة السيناريو بإحكام، بتعاون مع قوات الانتداب البريطاني أحيانا، وأكثر الأحيان بعدم رضاها، وقد قفز عدد المستوطنين اليهود في فلسطين من ٨٠,٠٠٠ مستوطن سنة ١٩٢٢، إلى ٦٤٠,٠٠٠ مستوطن في نهاية الانتداب، وفي النهاية تم الإعلان عن تشكيل دولة إسرائيل يوم ١٥ - ٥ - ١٩٤٨م.

بالمقابل كان الجانب الصهيوني اليهودي قد شارك في الحرب العالمية الأولى من خلال (كتيبة القناصة الملكية) من يهود المملكة المتحدة، وقد شاركت هذه الكتيبة في حملة أللنبي على فلسطين، وردفتها في نهاية الحرب بكتيبة يهودية ثانية تعدادها قرابة ٥٠٠٠ مقاتل سنة ١٩١٨م برئاسة دافيد بن غوريون ويتسحاق بن تسفي، ووصل قسم من جنود هذه الكتيبة إلى فلسطين للقتال إلى جانب أللنبي أيضا، كما تشكلت كتيبة في فلسطين سنة ١٩١٧م، ونقلت إلى مصر، وكان مجموع اليهود الذين شاركوا في الحرب قرابة ٥٠٠٠ مقاتل، إضافة إلى ذلك تشكلت منظمة سرية لأعمال التجسس باسم (نيلي) إلا أنها أُكتشفت، وحلّت بعد أن اعتقل بعض أفرادها.

وفي النهاية انتهت الحرب العالمية الأولى، وتركت وراءها فلسطين تحت الانتداب البريطاني بقيادة إدارة عسكرية، وسعى الجنرال كلايتون لتخفيف الاحتقان العربي على وعد بلفور، وتراجع الحلفاء بتعهدهم باستقلال البلدان العربية، أما الصهيونية فبدأت تفرض سياسة الأمر الواقع، وتابعت الحركة الصهيونية من خلال لجنة المندوبين

التي اعتبرت نفسها حكومة في طور التشكل، وبدأت عمليات التهويد على المستويات الثلاثة (السلطة - والشعب - والأرض) والتي لم تكن على وفاق مع الإدارة العسكرية البريطانية التي كانت تحاول أن تخادع وتهادن الطرف العربي، وتطمئن العرب بشأن المشروع الصهيوني، بينما كانت تعمل لجنة المندوبين الصهيونية ضمن مفهوم وعد بلفور، وكانت (بوقاحة) تسبب الحرج الشديد للجانب البريطاني، وقد تم تغيير القيادة العسكرية البريطانية عدة مرات، إلا أن تم تعيين اليهودي هربرت صموئيل سنة ١٩٢٠م مندوبا ساميا على فلسطين، في الوقت الذي بدأت تتكشف الخديعة التي قامت بها الدول الكبرى للشعب العربي، وبينما سنت السلطة البريطانية القوانين التي من شأنها تهويد فلسطين، فعدّل قانون الهجرة سنة ١٩٢١م عدة مرات، وكذلك بالنسبة لقانون نقل ملكية الأراضي، المترافق مع اعتراف المندوب السامي بالمؤسسات الصهيونية المتزامن مع تضييق الخناق على الجانب العربي، وبدأت أعمال المقاومة للانتداب من جهة، والمشروع الصهيوني من جهة أخرى، وكان هو الأهم والشغل الشاغل للحركة الوطنية، وكان قد عُقد المؤتمر الفلسطيني الأول سنة ١٩١٩م ردا على مؤتمر يافا الصهيوني سنة ١٩١٨م، وكانت قد نجحت الصهيونية في تهميش دور المعارضة اليهودية للمشروع الصهيوني من خلال الاعتراف الإمبريالي بالحركة الصهيونية التي قدّمت نفسها كممثلة ليهود العالم.

وعلى الرغم من أن حكومة الانتداب لم تعط الحركة الصهيونية الحبل على الغارب، إلا أن الجرأة الصهيونية في تجاوز أنظمة الانتداب كان يضعها في حالة حرج أمام جميع الأطراف الفلسطينية والعربية والإقليمية والدولية، ولكن (الابن المدلل المتمرد) لم يكن ليأبه بذلك، وهذا ما وضع الشعب الفلسطيني في صراع متعدد الجبهات، وعلى الرغم من أنه كان يعي بحسه الفطري الخطر الصهيوني منذ بدأ ترسيمه على الأرض، لكنه لم يكن لديه البنية التحتية، من حيث التنظيم السياسي والاجتماعي، الكافية للدخول في صراع منظم، كما أن (الكتب البيضاء) البريطانية إضافة إلى التطمينات المخادعة، كانت تهدأ الحالة الثورية الفلسطينية كلما وصلت إلى مرحلة من الاحتقان تنبأ بقرب الانفجار، وقد جاء في الكتاب الأبيض الأول أن وعد بلفور لا يعني تأسيس وطن قومي يهودي على كل الأرض الفلسطينية، وأن هذا الوطن لا يعني تشكيل دولة يهودية، كما أن استمرار الهجرة اليهودية منوط بمقدرة الوضع الاقتصادي للمنطقة على استيعاب المهاجرين الجدد، وأخيرا تشكيل مجلس تشريعي كخطوة أولى على طريق الحكم الذاتي، وكان المندوب السامي صموئيل،

ومعه تشرشل مقتنعين بـ {أن أولاد أولادنا سيكونون قد رحلوا عن الدنيا قبل تحقيق الحكم الذاتي؟؟}.

وقد كان الكتاب الأبيض هو أساس صك الانتداب الذي صادقت عليه عصبة الأمم سنة ١٩٢٢م، وبذلك أصبحت المؤامرة البريطانية -الصهيونية ذات شرعية دولية، ولكن الاحتقان الشعبي الفلسطيني تفجر في ثورة البراق سنة ١٩٢٨م والتي امتدت على كل مناطق التماس بين القرى العربية والمستعمرات الصهيونية، وقد سيطرت قوات الانتداب على الثورة، إلا أن بعض المطلوبين الذين فروا إلى الجبال شكلوا أول تنظيم عربي مسلح في فلسطين أطلق عليه الكف الأخضر، وكان تحت قيادة أحمد طافش، ولكن هذا التنظيم انحل بعد قرابة العام، واستمرت أعمال المقاومة، وقد جاء الكتاب الأبيض الثاني سنة ١٩٣٠م في أثر ثورة البراق، وتقرير لجنة شو التي تحققت من أسباب الاضطرابات، وبرأت حكومة الانتداب البريطاني من المسؤولية التي ألقتها على سياسة (الوطن القومي اليهودي)، وقد كان عصارة التقرير اعتبار حائط البراق وقف إسلامي، كما جاء فيه التأكيد على التزام حكومة الانتداب نحو شعوب المنطقة بأن تكون عادلة حسب صك الانتداب، ويجب (ألا يلحق الضرر بالعرب من جراء الهجرة اليهودية)، وقد أكدت حينها حكومة الانتداب البريطاني على التوفيق بين السير في تنفيذ وعد بلفور، وبين ضمان الحقوق العربية، وأنها ستسعى لمنح العرب قسطا من الحكم الذاتي، وأن تقوم بكل ما من شأنه أن يدعم البنية التحتية الاقتصادية، وعلى رأسها المشاريع الزراعية، وحماية المزارعين وتأمين فرص عمل للجميع، وقد تقبل العرب بشيء من الرضا الكتاب الأبيض الثاني، إلا أن الصهيونية أثارت زوبعة إعلامية أجبرت الحكومة البريطانية أن تصدر (الكتاب الأسود كما أطلق عليه الجانب العربي)، وفيه تم التراجع عن الكتاب الأبيض.

وفي هذا الوقت، وبعد صدور الكتاب الأسود، تصاعدت الهجرة اليهودية لا سيما بعد تصاعد النازية في أوربا، وفي الوقت نفسه بدأ الشارع العربي بالغليان ثانية، الأمر الذي أدى إلى حالة مشحونة بين الأطراف الثلاثة: الانتداب البريطاني، والحركة الصهيونية، والشارع العربي، والتي أدت إلى انطلاق ثورة الشيخ عز الدين القسام، والتي انتهت بعد استشهاده سنة ١٩٣٥م، بعد أن كانت قد مهدت الطريق، مع التغيرات التي شهدتها المنطقة، والظروف العامة العالمية، إلى حصول الإضراب العام سنة ١٩٣٦م، وانطلاق الثورة العربية الكبرى بعد أن حصلت صدامات عنيفة بين العرب واليهود، وقد أعلنت حينها حالة الطوارئ العامة،

وتشكلت لجان قومية في المدن الفلسطينية والتي قررت الإضراب العام، لكن حكومة الانتداب لم تسمع للمطالب العربية، الأمر الذي جعل اللجان العربية تدعو الشعب العربي الفلسطيني إلى التمرد على حكومة الانتداب، والتوقف عن دفع الضرائب، وبدأت مجموعات مسلحة بالعمل ضد جبهتين:

حكومة الانتداب من جهة.

والمستعمرات الصهيونية من جهة ثانية.

ومن ثم توسع النشاط الثوري ليشمل وسائل المواصلات والمتاجر، وبالمقابل قررت حكومة الانتداب سحق الثورة بالقوة، والتي كانت قد تركزت في الريف، ووقعت عدة معارك عنيفة بين الثوار وقوات حكومة الانتداب، وقد سيطر الثوار على المناطق الجبلية الوسطى والجليل، وزادت قوات الانتداب من إجراءاتها القمعية، ولكن النار كانت تزداد اشتعالا لا سيما بعد تولي القاوقجي القيادة الثورية، مما أضطر حكومة لندن أن تبعث بتعزيزات عسكرية، وقد عرضت اللجنة العربية بيانا تقبل فيه وقف الثورة بشرط وقف الهجرة اليهودية، وإلغاء قوانين الطوارئ، وإطلاق سراح المعتقلين، ولكن حكومة الانتداب رفضت المطالب العربية، لكنها، إلى جانب الترهيب بالسحق العسكري، مارست الترغيب من خلال الوساطات العربية لإنهاء الاضطراب، وقد استطاعت الوساطة العربية أن تقنع القيادات الفلسطينية بإنهاء الإضراب الذي استمر لمدة ستة أشهر وإعلان الهدنة، مما سمح للجنة الملكية للتحقيق (لجنة بيل) لبدء أعمالها في تشرين الثاني ١٩٣٦م، وقد استمعت اللجنة إلى الجانبين العربي واليهودي، وفي تموز ١٩٣٧م أصدرت تقريرها، والذي يتضمن تقسيم فلسطين، بعد وصول اللجنة إلى قناعة باستحالة التعايش بين العرب واليهود، والذي يمكن تلخيصه بـ: إنشاء دولة يهودية في القسم الشمالي والغربي من فلسطين، على أن تبقى الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم مع ممر يصلها بمدينة يافا وتضم اللد والرملة تحت الانتداب، أما الدولة العربية فلها الباقي من فلسطين على أن يتم تبادل السكان بين الدولة اليهودية والدولة العربية.

وقد وافقت الحكومة البريطانية على التقرير، أما الجانب الصهيوني فكان منقسماً على قبول تقرير لجنة بيل، في الوقت الذي رُفض من قبل الجانب العربي، الأمر الذي أدى إلى استئناف العمل العسكري، وقد تم دعم الحركة الوطنية الفلسطينية عربيا من خلال عقد اجتماع في بلودان بالقرب من مدينة دمشق أيّد الحركة الوطنية الفلسطينية، مما دعم موقف الثورة التي اشتعلت ثانية في تشرين الأول سنة ١٩٣٧م، ولم

تتوقف حتى نشبت الحرب العالمية الثانية، وقد أحرجت الثورة العربية في فلسطين الحكومات العربية، التي ساهمت في عقد المؤتمر البرلماني العربي الإسلامي سنة ١٩٣٨م، ومع الضغوطات المتعددة، والوضع العام العالمي، تخلت الحكومة البريطانية عن مشروع التقسيم، ودعت إلى عقد مؤتمر لندن، والذي انتهى بصدور الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩م، والذي أكد على ضرورة إعلان انتهاء الانتداب وإنشاء دولة فلسطينية مستقلة، وهذا ما كان من شأنه أن تعلن المنظمة الصهيونية الحرب على المشروع البريطاني، وبدأت بنقل ثقلها السياسي إلى الولايات المتحدة الأمريكية، الدولة التي كانت الصهيونية تراهن على تسيدها على العالم الجديد القادم.

وقد جاءت الحرب العالمية لتهمش بشكل مؤقت القضية الفلسطينية، في الوقت الذي وقف فيه العرب إلى جانب بريطانيا، أما الجانب الصهيوني فقد استغل الحرب لنقل مركز ثقله إلى الولايات المتحدة الأمريكية، كما أنه استفاد من إعلان النازية أنها ستجعل من أوربا الوسطى، (المجال الحيوي الألماني) منطقة خالية من اليهود، وقد كان المطلب الصهيوني هو ترحيل اليهود إلى فلسطين، وقد قامت الأجنحة السرية الصهيونية بعمليات ضد يهود أوربا، وحمّلت الحكومات الأوربية المسؤولية عن ذلك، وكانت بريطانيا قد أدركت أن لا سبيل لإنهاء الحرب إلا باستجرار أمريكا إليها من خلال استرضاء الجانب الصهيوني، فتخلت عن الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩م، وتعهدت بقيام دولة يهودية تضم ٣ - ٤ ملايين يهودي، وقد تبنى وايزمن هذا التعهد وطلب من المنظمة الضغط على الولايات المتحدة لدخول الحرب، وكذلك تشكيل فيلق يهودي يشارك في الحرب ويكون نواة للقوة العسكرية التي ستستند عليها الصهيونية لتشكيل الدولة اليهودية، وقد قامت الحركة الصهيونية بحملة إعلامية واسعة لمشروعها متذرعة بالحالة العاطفية العالمية إزاء اليهود أثناء اضطهاد النازية لهم، كما أنها استطاعت العزف على تناقضات الحلفاء لكسب المزيد من التأييد والدعم لمشروعها القادم، في الوقت الذي كان فيه العمل الوطني الفلسطيني في حالة من القهقرى.

وفي الوقت الذي خسرت الحكومة البريطانية بقيادة تشرشل صداقة العرب، فإنها لم تكسب رضى الصهيونية التي كانت قد نقلت مركز ثقلها إلى واشنطن، بعد أن رفضت الحكومة البريطانية اقتراح تشرشل برفض الكتاب الأبيض (كي لا تخسر الموقف العربي)، ولكنها حاولت استرضاء الصهيونية من خلال موافقتها على السماح بتشكيل لواء يهودي عسكري بالاتفاق مع روتزفلت سنة ١٩٤٤م في نهايات الحرب العالمية

الثانية، ومقابل ذلك طرحت بريطانيا فكرة إنشاء جامعة للدول العربية، والتي تم وضع ميثاقها سنة ١٩٤٥م، وبعد نهاية الحرب طلبت الصهيونية، التي أصبحت في مركز معزز بالقوة الأمريكية، من بريطانية الإعلان عن تأسيس دولة يهودية، خاصة وأن حرج بريطانية من الجانب العربي لم يعد له ما يسوغه، وقد تجاهلت الحكومة البريطانية ما جاء في الكتاب الأبيض من تعهدات، وسمحت بالهجرة اليهودية بعد أن مارس الرئيس الأمريكي ترومان أشد أنواع الضغوط التي وصلت إلى درجة تهديد الحكومة البريطانية، في الوقت الذي كانت فيه المنظمات الصهيونية تصعّد من عملياتها الإرهابية في فلسطين مع زيادة الهجرة غير الشرعية، الأمر الذي جعل الحكومة البريطانية في سنة ١٩٤٦م تطلب تشكيل لجنة أنكلو- أمريكية لتقصي الحقائق، من أجل التنصل من بعض من مسؤوليتها، وفي الوقت نفسه أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية طرفا أو شريكا في تقرير مصير الصراع العربي اليهودي، وقد قامت اللجنة بالاستماع إلى ممثلي الدول العربية في هيئة الأمم، والأمين العام للجامعة العربية، ثم شهادات العرب واليهود في فلسطين، كما قامت بزيارة أهم العواصم العربية، وبعثت بأعضاء إلى عدد من الدول الأوربية للنظر في أحوال اليهود، وقد أوصت اللجنة في نهاية عملها بالسماح حالا بهجرة ١٠٠ ألف يهودي إلى فلسطين، وأن يقام حكم ذاتي في فلسطين تحت وصاية الأمم المتحدة (أي عدم إقامة دولة عربية أو يهودية)، ولم تأت ردود فعل واضحة من قبل الأطراف المتنازعة، إلا أن الصهيونية، وبدعم من ترومان، تعاملت مع توصية السماح الفوري للهجرة، وكأنه التوصية الوحيدة للجنة، وبدأت بتنشيط الهجرة اليهودية التي ترافقت مع تكثيف الأعمال الإرهابية ضد حكومة الانتداب ضمن مفهوم (حرب الاستقلال)، وقد أدت هذه التطورات إلى أن تطلب الحكومة البريطانية بتدويل الصراع العربي اليهودي، ونقل ملفاته السياسية إلى الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧م.

وكان الحكام العرب قد عقدوا مؤتمرهم الأول في شهر أيار سنة ١٩٤٦م في مصر، والذي أكدوا فيه على عروبة فلسطين، وتم في شهر حزيران من نفس السنة اجتماع مجلس الجامعة العربية الاستثنائي في بلودان، وقد أعلن المؤتمرون رفضهم لتوصيات اللجنة الأنكلو-أمريكية، وطلبوا أن تتم مفاوضات حول القضية الفلسطينية مع المملكة المتحدة، وأُعلن عن فتح مكاتب لمقاطعة المنظمة الصهيونية، والتحضير العسكري التطوعي للدفاع عن فلسطين في حال اقتضى الأمر، كما أُتخذ قرار سري بالعمل ضد المملكة والولايات المتحدة في حال مر تنفيذ توصيات اللجنة الأنكلو-أمريكية.

وقد استجابت المملكة المتحدة لطلب الحكومات العربية بالتفاوض لحل القضية الفلسطينية، وتم عقد مؤتمر في لندن في ١٠ أيلول لسنة ١٩٤٦م شارك فيه ممثلون عن الوكالة اليهودية، وأثناء المؤتمر تم طرح مشروع موريسون، والذي ينص على تقسيم فلسطين إلى: منطقة يهودية، وأخرى عربية، وثالثة دولية تضم القدس وبيت لحم، وتم رفضه من قبل الطرفين العربي، والصهيوني، وبسبب التباين الشديد في متطلباتهما فقد تم تعليق المفاوضات.

وفي يوم ٢٨ نيسان ١٩٤٧م عقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة دورة استثنائية، وقررت تشكيل لجنة تحقيق دولية، لكن الهيئة العربية العليا قررت مقاطعة لجنة التحقيق، التي قدمت مجموعة من التوصيات تتلخص بتشكيل حكم ديمقراطي في فلسطين بعد إنهاء الانتداب، ولكن اللجنة اختلفت حول صيغة التنفيذ، وتم طرح فكرة التقسيم، وقد عملت الولايات المتحدة الأمريكية في الكواليس لدعم قرار التقسيم، ومارست السياسة الأمريكية ضغوطا مفضوحة وقذرة على مندوبي هايتي، وليبيريا، والفيليبين من أجل الحصول على موافقة ثلثي الأصوات.

وفي ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ صدر قرار التقسيم، والذي رفضته الهيئة العربية العليا، كما تم رفضه شعبيا في كل الوطن العربي، وعبّروا عن ذلك من خلال مسيرات صاخبة عمّت كل العواصم والمدن العربية.

أما الصهيونية فقد بدأت بتهيئة قواتها للحظة الحسم العسكري، وكان تعداد القوات اليهودية في نيسان ١٩٤٦م ٦٨ ألف مقاتل، أما القوات العربية الفلسطينية فكانت عبارة عن مجموعات متفرقة، وقد أجرت بعض التنسيق فيما بينها، ولكن لم تكن قد وضعت مخططا ذا بعد استراتيجي للمعركة القادمة، وكانت الجامعة العربية قد شكلت جيش الإنقاذ من المتطوعين العرب، وتم تجميعهم في معسكر قطنا بالقرب من مدينة دمشق بعد قرار التقسيم، وكان تعدادهم ٣٨٣٠ متطوع موزعين على عدد من الأفواج، وقد تحركت باتجاه فلسطين بعد اتباع المتطوعين العرب دورة عسكرية بسيطة بقيادة اللواء العراقي طه الهاشمي، وتولى القيادة الميدانية فوزي القاوقجي الذي دخل إلى فلسطين في آذار ١٩٤٨م، وكانت قوات الانتداب قد بدأت تعيد انتشارها من أجل انسحابها في الوقت المناسب، وقد توزع جيش الإنقاذ حسب قرار التقسيم، وبدأ هجومه من خلال فوج اليرموك ليلة ٢١ من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٨م، وبدأت الأعمال العسكرية التحرشية بهجومات صغيرة، وعمليات كمائن على طرق المواصلات، أما

الجانب العسكري اليهودي فكان منظماً ومهيأ ضمن خطة عسكرية تكتيكية، وكانت الميليشيات الصهيونية تقوم بالرد الأولي على شكل دفاعي، بينما تحين ساعة الصفر للتحول إلى الخطة الهجومية، والتي بدأتها قبل الانسحاب البريطاني، بعد أن تقدمت بشكوى إلى مجلس الأمن ضد الدول العربية التي كانت تدق طبول الحرب، وقد سحبت الإدارة الأمريكية تأييدها لقرار التقسيم، واقترحت على مجلس الأمن وضع فلسطين تحت الوصاية، لإعادة تقييم الصراع على فلسطين، وعقد هدنة سياسية عسكرية بين الطرفين العربي واليهودي حتى يتم حسم المشكلة في هيئة الأمم المتحدة، ولكن هذا الاقتراح تم رفضه من قبل الطرف العربي، ومن قبل الوكالة اليهودية أيضا التي كانت قد بدأت بالعمل العسكري الهجومي، وردا على ذلك اتخذت اللجنة السياسية للجامعة العربية في ١٢ نيسان ١٩٤٨م قرار (الزحف على فلسطين) يوم ١٥ أيار/مايو ١٩٤٨م عشية انسحاب قوات الانتداب البريطاني، وفي يوم ١٤ أيار/مايو ١٩٤٨م أعلن ديفيد بن غوريون قيام دولة إسرائيل، والتي اعترف بها الرئيس الأمريكي بعد دقائق من الإعلان، وتلاه إعلان المندوب السامي البريطاني قرار نهاية الانتداب الإنكليزي على فلسطين، في الوقت الذي كانت فيه قوات الهاغاناه منتشرة في المستعمرات اليهودية والمدن الرئيسية، وتلاه إعلان الحكومات العربية دخول جيوشها إلى فلسطين {والآن وقد انتهى الانتداب البريطاني على فلسطين من دون أن تنشأ فيها سلطة دستورية شرعية تكفل صون الأمن واحترام القانون وتؤمن السكان على أرواحهم وأموالهم.. رأت حكومات الدول العربية نفسها مضطرة إلى التدخل في فلسطين لمجرد مساعدة سكانها على إعادة السلم والأمن وحكم العدل والقانون إلى بلادهم}، وتم دخول الجيوش العربية الخمسة إلى فلسطين والتي كانت على أدنى درجات الجهازية من حيث التدريب والتسليح وهي:

الجيش	قوامه	
المصري	٥٠٠	مقاتل
الأردني	٤٥٥٠	مقاتل
العراقي	٢٥٠٠	مقاتل
السوري	١٨٧٦	مقاتل
اللبناني	١٠٠٠	مقاتل

وكانت تلك القوات تحت قيادة ملك الأردن عبد الله الأول بن الحسين، وتم توزيعها على عدة قطاعات حسب ما هو متفق عليه، وهذا ما وضع القوات اليهودية في موقع الدفاع، وقد استطاعت القوات الصهيونية ضمن خطة واضحة أن تمتص هجوم القوات العربية إلى درجة ما، وقد جاءها الفرج الحقيقي من خلال قرار مجلس الأمن بإعلان الهدنة لمدة أربعة أسابيع، والتي وافقت عليه الدول العربية بعد ممارسة ضغوط من قبل الدول الكبرى، في الوقت الذي كانت فيه كفة الصراع تميل للجانب العربي، وهذا ما سمح للقوات اليهودية أن تعيد ترتيب أوضاعها، وتعيد صياغة خطتها العسكرية من وضع الدفاع إلى وضع الدفاع - الهجوم حسب المقتضيات، وأن تدعم قواتها بوصول المزيد من المتطوعين، واستجرار المزيد من الأسلحة الأكثر تطورا بما فيها الطائرات، وفي الوقت نفسه كان قبول الهدنة وكأنه اعتراف ضمني بقرار التقسيم من قبل الجانب العربي، ثم عادت الأعمال العسكرية بعد انتهاء الهدنة، واستمرت لمدة عشرة أيام فقط، كانت الكفة فيها تتأرجح بين دفاع وهجوم، وقد بدأت القوات الإسرائيلية تأخذ زمام المبادرة، بينما بدأت القوات العربية تعاني من حالة من التفكك، وفي يوم ١٩ تموز استجاب الطرفان العربي، والصهيوني للهدنة التي أمر بها مجلس الأمن، الأمر الذي قدّم المزيد من الفرص لتدعيم الجانب الإسرائيلي، وإعطائه الفرصة المناسبة ليهيئ نفسه لمرحلة جديدة، وخلال الهدنة تقدم برنادوت بمشروع جديد ينص على:

أن تعترف الدول العربية بإسرائيل ضمن قرار التقسيم الذي عدّل قليلا بحيث تضم الأراضي العربية الفلسطينية إلى الأردن، وأن تكون القدس تحت إشراف دولي، على أن يكون ميناء حيفا ومطار اللد مرافق حرة، وهذا ما زعزع الثقة والتنسيق في الصف العربي، ولا سيما الجانب الأردني الذي راق له ضم الأراضي العربية على أساس قرار التقسيم.

وفي يوم ١٥ تشرين أول / أكتوبر ١٩٤٨ بدأت القوات الإسرائيلية عملياتها العسكرية الحاسمة باستخدام سلاح الجو، الأمر الذي مكّنها من الاستيلاء بقوة على الأراضي الفلسطينية حسب قرار التقسيم، وعلى عدة مراحل مستفردة بالجبهات كل على حدة.

وفي النهاية توقفت الأعمال العسكرية على مراحل أيضا وانتهت في آذار/مارس ١٩٤٨م، وبدأت المفاوضات على الهدنة ضمن سيناريو كان يُعدّ بشكل سريع وتكتيكي.

وفي رودوس تم الاتفاق مع الأردن في ٣ نيسان على الهدنة، وأصبحت بمقتضاه القدس مقسمة إلى شطرين، وتبعت الضفة الغربية للأردن، وكانت القوات قد انسحبت دون مفاوضات الهدنة.

أما اتفاقية الهدنة على الجبهة المصرية فتمت في ٢٤ شباط/فبراير ١٩٤٩م في رودوس بحيث ضُمّ قطاع غزة إلى السيادة المصرية.

وفي رأس الناقورة وقّعت لبنان اتفاقية الهدنة يوم ٢٣ آذار/ مارس ١٩٤٩م.

بينما تأخر توقيع الهدنة مع سورية نظرا لحساسية الحدود وقيمتها الاستراتيجية حتى ٢٠ تموز / يوليو ١٩٤٩م.

وبذلك تم تقاسم فلسطين بين إسرائيل والأردن ومصر، وأصبحت دولة إسرائيل أمرا واقعا تضافرت على توقيعها مؤامرة دولية شارك فيها القاصي والداني، والبعيد والقريب؟؟؟

الباب الرابع

الإعلام الصهيوني

الفصل الأول

الإعلام الصهيوني
والهيمنة اليهودية على أوربا

لقد استطاعت الصهيونية اليهودية بواسطة إمكاناتها المادية، وتقديم كل أنواع الدعم الفكري، والنفسي، واستخدام الترغيب والترهيب، والابتزاز والتجسس لكل ما يتعلق بطرح الصهيونية الإعلامي، من الاستحواذ على إمبراطورية إعلامية عالمية، والتي من خلالها روّج الصهاينة اليهود لأفكارهم، وتصوراتهم، وادعاءاتهم ولوجهة نظرهم، وأعلنوا، ورسّخوا ادعاءاتهم التاريخية والسياسية من خلالها خطابهم الإعلامي، وحجبوا أي خطاب معارض يمكن أن يقف على المنابر الإعلامية، أو يحاول كشف خباياهم وخفاياهم، لا سيما وأن اليهود قد خبروا تاريخيا كيف لهم أن يوظفوا الإعلام لإيصال مقولاتهم، ودعاواهم التاريخية، والسياسية، مسنودة بمقدراتهم الفذة على العمل، من خلال الكواليس، وجماعات الضغط، والمنظمات السرية، التي من خلالها استطاعوا السيطرة على أعلى الهيئات السياسية في العالم الغربي، بوساطة المال الأسود، ومعرفة، بل وصناعة السيّر الشخصية للقادة السياسيين الأوربيين، والأمريكيين، وبدعم من اللوبي الصهيوني ذي التنظيم المترابط، والقدرات المادية والفكرية الجبارة، والمدعوم من قبل المؤسسات الغربية الرسمية.

وقد استفادت الصهيونية من كون العاملين في هذا الجهاز الإعلامي مواطنين يحملون الجنسيات الأوربية، والأمريكية، الأمر الذي جعل من هذا الجهاز الإعلامي الصهيوني يعمل في كل دولة على أنه إعلام داخلي تابع لإعلام الدولة الرسمي، أو للمؤسسات الإعلامية شبه الرسمية، أو الحرة، والعاملون فيه مواطنون يتكلمون اللغة القومية لبلدانهم، وينتمون إلى مؤسسات إعلامية قومية أيضا، ولذلك فإن هذا الجهاز الإعلامي يُؤخذ من قبل المتلقي المستهدف على درجة كبيرة من المصداقية.

وإضافة إلى ذلك فإن الأصولية المسيحية المتغلغلة في البنية الاجتماعية المسيحية الغربية، قدّمت الكثير من الدعم للإعلام الصهيوني في ادعاءاته الدينية والتاريخية، بل إن هذه

الأصولية كان لها تأثير مباشر على الذهنية الغربية المسيحية أشد من تأثير الإعلام الصهيوني نفسه، لا سيما في الاوساط البروتستانتية الأمريكية، والفرق المشتقة منها {الإنجيليون - شهود يهوه - السبتيون - المتجددون - الدهريون - المعمدانيون}، وبالتالي فقد تمكّن الإعلام الصهيوني، وبمساعدة الأصولية المسيحية، أن يهيمن على الذهنية الأوربية المسيحية، وفي هذا السياق يقول لويد جورج رئيس الحكومة البريطانية (١٩١٦ - ١٩١٩م) {نشأت في مدرسة تلقنت فيها تاريخ اليهود أكثر مما تلقنت تاريخ بلادي، وبمقدوري أن أذكر أسماء ملوك إسرائيل جميعا، ولكني أشك في مقدرتي على تذكر أسماء ستة من ملوك إنجلترا، أو مثل هذا العدد من ملوك ويلز، لقد أُشربت نفوسنا بتاريخ الجنس العبري في أيام أمجاده العظيمة، واستوعبنا أدبه المقدس باعتباره جزءا من أفضل ما في الأخلاق المسيحية}.

ويقول القس دينجل النائب عن ولاية متشغان الأمريكية {لقد تعلمت دائما أن أعتقد بأن فلسطين هي وطن أجداد اليهود التاريخي الذي وهبه الله إلى اليهود، وتعلمت كذلك أن أؤمن بأن الله قضى بأن يعود يهود العالم يوما إلى وطنهم التاريخي}، وهذا يعني أن العرب الذين يرفضون، ويكافحون ضد عودة اليهود إلى فلسطين، ويدافعون عن وجودهم، وتاريخهم، وأرضهم، وماضيهم، ومستقبلهم، إنما يقفون ضد المشيئة الإلهية في عودة الشعب المختار إلى أرض الميعاد.

وتقول الكاتبة الأمريكية غريس هالسل {نشأت في بيت مسيحي أصغي إلى الكتاب المقدس وأقرؤه، درسنا قصص العهد القديم حول إقامة الشعب اليهودي في أرض فلسطين، وحروب ملوك إسرائيل، وعهود الرب مع الشعب المختار، ولقد فهمت هذا الكتاب المقدس مثل ملايين المسيحيين الأصوليين الآخرين على أنه توثيق لعلاقة خاصة أقامها الرب مع شعبه المختار، وتعلمت أن أؤمن بما قاله المؤلفون العبرانيون من أنهم وقبيلتهم الشعب المختار لدى الرب، وبما أن اليهود شعب الله المختار، فإن الرب يبارك الذين يباركون اليهود، ويلعن الذين يلعنون اليهود}.

أما الأب فورست فقد قال {كنت معاديا للعرب، ومناصرا لإسرائيل مثل أي فرد في المجتمعات الغربية، وحين أتذكر ما تلقيناه في المدرسة عن الحروب الصليبية، وما قرأناه في القصص عن العرب القذرين، العرب الماكرين، العرب النهابين أدرك مقدار ما أُخضعنا له من إعداد سيئ، وأعتقد أنني في عدائي للعرب كنت صورة عن الغربيين قارئي الصحف الذين يؤمنون بتعاليم الكنيسة عن طيبة قلب، ونية حسنة، وكان لدي نزعاتي الموالية لإسرائيل والمناهضة للعرب، فاليهود كانوا بالنسبة لي شعب الله المختار، والقدس مدينتهم المقدسة،

وفلسطين أرضهم المقدسة، وإنها لعلامة على فضل خاص من الله أن اليهود بعد قرون من التشرد استطاعوا العودة إلى أرض آبائهم، وبدا الأمر معقولا وجيدا أن الشعب الذي عاش فوق هذه الأرض، وهم العرب الرحل الذين يتنقلون من مكان إلى آخر على ظهور الحمير والجمال، يجب أن يترك أرضه لهؤلاء اليهود، لقد ورثت هذه الأفكار من كنيستي، ومن مدرسة الأحد.. وحين اكتشفت البون الشاسع في ما بين القصة الحقيقية وبين ما سمعته وقرأته في الغرب، أحسست أن الصحف ووسائل الإعلام الأخرى التي وثقت بها، قد ضللتني وخدعتني، ولا أزال أحس أنها تخدعني حين أقرأ ما فيها من افتتاحيات ورسائل القراء، أو حين استمع إلى واعظ بروتستانتي، يشرح بعد أن يكون قد قام برحلة مجانية إلى إسرائيل، كيف أن إرادة الله قد قضت بأن تأخذ إسرائيل فلسطين} ، وهذا يتطلب من الجانب العربي أن يبذل جهودا خاصة من أجل تصحيح التصور الغربي المسيحي للشخصية العربية التي كان الإعلام الصهيوني قد رسمها في ذهنية الغرب المسيحي.

ومن الأمور التي ساهمت في نجاح الإعلام الصهيوني هو النظرة الرومانسية، التي كان ينظر من خلالها بعض الأوربيين إلى اليهود الذين لم، ولن يتخلوا عن حنينهم إلى فردوسهم المفقود في الأرض المقدسة التي عاش فيها آباؤهم الأوائل، وأنبياؤهم، وشعراؤهم، ولن يعيشوا بشكل سوي خارج هذه الأرض المقدسة، والبعض، وتحديدا، العرق الأبيض في القارة الأمريكية، وفي الجيوب الاستيطانية الغربية (استراليا - جنوب أفريقيا)، كانوا يَعُدّون الاستيطان الصهيوني اليهودي في فلسطين، هو وجه آخر لاستيطان الرجل الأبيض، فكلا الاستيطانين يرجع إلى جماعات تحمل أكثر من ثقافة، وأكثر من جنسية، تجمعوا واستوطنوا في أرض جديدة من خلال أعمال غير شرعية (مجازر دموية لاإنسانية) ضد المواطنين الأصليين للبلاد، وكلاهما طمسا التاريخ الحقيقي للحضارة الأصلية في كلا الموقعين، وشوها الصورة الحقيقية الإنسانية لأصحاب الأرض الأصليين، وكمما أصواتهم أو صرخاتهم في الدفاع عن أنفسهم أمام الرأي العام، وكلاهما ادعيا أنهم رسل تبشيريون للحضارة الغربية، والفارق الوحيد بين الاستيطان اليهودي، وبين استيطان الرجل الأبيض هو فيما تدعيه الصهيونية اليهودية من حق الأسبقية التاريخية في أرض فلسطين، أو أرض الميعاد المقدسة، مضافا إلى ذلك ادعاءها أن فلسطين أرض بلا شعب، واليهود شعب بلا أرض، أما الرجل الأبيض فقد استعاض عن ذلك بحجة أنه قام بالاستيطان في الأرض المشاع لقارة واسعة الحدود يمكن لها أن تستوعب المزيد من السكان، وبذلك حقق أو أسس أسبقية تاريخية في امتلاك الأرض التي ادعى أنه استولى عليها عذراء، ولم تكن مؤهولة بالسكان، وهي تشابه

الذريعة التي قدمتها التوراة في تأسيس الأسبقية التاريخية في فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، حيث أدعى المؤرخ التوراتي أن الإسرائيليين هم أول من شكل كياناً سياسياً عسكرياً اعتبارياً في فلسطين، وبذلك فإن دفاع العالم الغربي عن ادعاء الصهيونية بحقها التاريخي بأرض فلسطين، هو دفاع عن ادعاءات استيطان الرجل الأبيض في أرض الرجل الأحمر في أمريكا، ولذلك فقد وقف العالم الغربي إلى جانب الاستيطان اليهودي كدفاع مضمر عن استيطان الرجل الأبيض، وخوفا من أن تكشّف حقيقة زيف الدعاوى اليهودية الصهيونية، سيؤدي إلى تكشّف، وإدانة الفكر الاستعماري الاستيطاني، وفتح ملفات الاستيطان الغربي لأمريكا، وإعادة النظر في قراءة تاريخ الحقبة الأولى لاستيطان الرجل الأبيض، والمجازر الوحشية التي نفذها في أصحاب الأرض الحقيقيين من الهنود الحمر، والمواطنين الأصليين في أوستراليا، وجنوب أفريقيا، وبعض الجزر البحرية.

لقد امتلك الإعلام الصهيوني القدرة على تسويق خطابه كمنتج وحيد للصراع العربي الصهيوني، ولا سيما بغياب الإعلام العربي عن ساحة المعركة، وهذا ما مكَن الإعلام الصهيوني من تزييف الحقائق، حتى البسيطة والواضحة منها، دون أدنى جهد، وزرع ما يخدم أهداف الصهيونية اليهودية في عقول وعواطف الرأي العام العالمي، وفي هذا السياق يقول كارتز كوهين {تسيطر الروح اليهودية على كل البلاد التي عانى الشعب اليهودي بين ظهرانيها كثيرا ورفض الانصهار في بوتقتها، إننا لسنا بحاجة اليوم لعزل أنفسنا لأننا أصبحنا نملك السلطة ونمسك بصولجان السيطرة الموعودين به، فمن دوننا لا يستطيع أي عاهل أو حاكم في هذا العالم أن يتخذ قراره المناسب بعيدا عن إرادتنا، لأننا نحن الذين نتحكم ببورصة الذهب والمال، كما لا يوجد أي صحافة تجرؤ على نشر عدائها لنا، لأننا نتحكم بصحافة العالم كله، كذلك لا يمكن لأي فكر لا يروقنا أن يدخل عالم الفكر من دون إذننا، فنحن من يهيمن على المسرح والأدب والفكر، ألا ترون بأن الروح اليهودية قد غزت العالم؟}.

أما برنار براون فيقول {استطاعت صحافتنا اليهودية لجم الصحافة المعادية لنا إلى درجة أن الصحف الأمريكية اليوم باتت تمتنع عن الإفصاح عن أن فلانا من الناس يهودي غير مرغوب فيه}.

والإعلام الصهيوني عرف كيف يوجه خطابه إلى الشرائح الاجتماعية كافة على اختلاف انتماءاتها الدينية، والسياسية، وعلى كل مستوياتها المعرفية، والعلمية، والثقافية، وقد اهتم الإعلام الصهيوني بالتغلغل، على وجه الخصوص، في أوساط النخبة ولا سيما الأكاديمية منها، والتي تأخذ، أو ستأخذ في المستقبل، موقعها في البنية التحتية، أو الفوقية

لمراكز اتخاذ القرار ابتداء بالمنظمات المدنية، وانتهاء بالسلطات العليا التشريعية والتنفيذية للمجتمعات والدول الغربية، كما أن الإعلام الصهيوني استطاع غزو العقل اللاواعي الأوربي، ولا سيما عند الأطفال والشباب من خلال اختراقه، وامتلاكه للوسائط التربوية التعليمية، كما أنه لم يكتف بالهيمنة على الصحافة الإعلامية فحسب، بل استطاع أن يتغلغل في الفنون السبعة دون استثناء تقريبا، خاصة وأن الفن، والأدب الأوربي يستلهم بعده اللاهوتي العقيدي من التصورات التوراتية، وقد توسع وانفتح خطاب الصهيونية الإعلامي بعد هيمنته على النظام العولمي الحديث بأشكاله الإعلامية والاستهلاكية كافة.

ومن الأسباب التي ساهمت في نجاح الإعلام الصهيوني في مسعاه، هو دعمه المتبادل مع جماعات الضغط التي عرفت الصهيونية كيف تشكلها، وتستحوذ عليها، ولا سيما في الدول العظمى، وتحديدا في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي تُرسم سياساتها الخارجية، والداخلية بتأثير جماعات الضغط المتعددة، وقد استطاعت الصهيونية أن تشكّل أكبر لوبي في أمريكا، مدعومة بقوة مالية كبيرة، وبشخصيات قيادية وذات نفوذ في مؤسسات القرار، إضافة إلى استنادها على هيمنة إعلامية ضخمة، وهذه التشكيلة متضافرة، مكنت الصهيونية من أن تكون لها اليد الطولى في رسم السياسات الأمريكية الخارجية، لا سيما في ما يتعلق بالشأن الإسرائيلي، وأهم ما يقوم الإعلام الصهيوني بالتدخل فيه، وبالتكامل مع اللوبي الصهيوني، هو انتخابات الرئاسة الأمريكية، والتي تجعل من المرشحين إلى سدّة الرئاسة يتسابقون في إطلاق وعودهم بتقديم أقصى ما يمكن من دعم لدولة إسرائيل في صراعها التاريخي، السياسي، العسكري، مع الأمة العربية، والإسلامية والرؤساء في وعودهم إلى دولة إسرائيل على وجه التحديد يلتزمون بتعهداتهم على أكمل وجه، بعد تسلمهم الرئاسة، خوفا من انتقام اللوبي اليهودي الصهيوني الذي يسيطر على مفاصل السياسات الأمريكية من خلال عدة وسائل، منها، وعلى رأسها:

القوة المالية التي تستطيع أن تفعل فعلها بطريقة مباشرة، أو بطريقة غير مباشرة.

كما أن اللوبي اليهودي، عرف كيف يتسلل إلى مخادع السير الشخصية لرجالات السياسة، الأمر الذي يمنحه مجموعة من أوراق الضغط ذات التأثير الكبير، لا سيما وأنه يمتلك أكبر إمبراطورية إعلامية قادرة على أن تقوم بصناعة الأساطير، وتلفيق الدعاوى، وتشويه الحقائق.

وربما لن يتورع اللوبي، في بعض الأحيان، من التهديد، لا بالتصفية السياسية فحسب، بل وبالتصفية الجسدية.

إضافة إلى اعتماد اللوبي على كوادر يهودية ذات شأن في مجمل البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الولايات المتحدة الأمريكية، والجدير ذكره هنا أن هناك ستة عشر يهوديا من أصل أربعين أغنى رجل في أمريكا، كما أن متوسط دخل اليهودي الأمريكي يعادل مثلي الدخل لباقي الأفراد، و٤٠٪ من جوائز نوبل التي أخذها الأمريكان في العلوم والاقتصاد هي يهودية، كما أن ٢٠٪ من أكبر أساتذة الجامعة، و٤٠٪ من أعضاء نقابات المحامين في نيويورك وواشنطن هم من اليهود.

وهذا اللوبي الصهيوني المتمثل بالمنظمة الصهيونية العالمية، والوكالة اليهودية، يضع نفسه، وعلى الملأ، في خدمة المصالح اليهودية في أي مكان، كما أنه وعلى الملأ يُعَدّ نفسه ممثلا لدولة إسرائيل في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو أمر محظور بشكل عام في الولايات المتحدة، إلا أن اللوبي اليهودي لا يُتهم بالعمالة لدولة أجنبية، على اعتبار أن دولة إسرائيل لها حالة اعتبارية خاصة، بل يمكن اعتبارها في التصور الأمريكي كما لو أنها ولاية أمريكية، والقيادات السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية تدرك، أن هذه الدولة لا يمكن لها الاستمرار في تواجدها ما لم تكن، وعلى الدوام، مدعومة بالدولة العظمى، وكان قد عبّر عن هذه النقطة بول فندلي وهو الذي شغل منصب عضو كونفرس لمدة عشرين عاما {هذا الفرع الحقيقي للحكومة الإسرائيلية يشرف على الكونغرس وعلى مجلس الشيوخ، وعلى رئاسة الجمهورية، ووزراء الخارجية، وعلى البنتاغون، وكذلك على وسائل الإعلام، ويمارس تأثيره في الجامعات وفي الكنائس على حد سواء}، ويضيف في كتابه (لقد تجرؤوا على الكلام) {إن لرئيس الوزراء الإسرائيلي من التأثير في سياسة الولايات المتحدة الخارجية في الشرق الأوسط، أكثر مما له في بلاده ذاتها}، كما قال أيضا في نفس الكتاب عن اللوبي الصهيوني {كل من ينتقد سياسة إسرائيل فينبغي أن يتوقع انتقاما مؤلما ومستمرا، حتى فقدان وسائل العيش من جراء ضغوط اللوبي الإسرائيلي. الرئيس يخافه. والكونفرس يسلّم بجميع متطلباته. وأكثر الجامعات نفوذا تحرص في برامجها على أن تستبعد كل ما يعارضه: عمالقة وسائل الإعلام والقادة العسكريون يخضعون لضغوطه}.

أما الرئيس الكندي فقد قال في سنة ١٩٦١م لبن غوريون {أنا أعلم أني انتخبت بفضل أصوات اليهود الأمريكيين. أنا مدين لهم بانتخابي. قل لي ما الذي ينبغي أن أفعله للشعب اليهودي}.

وأهم المقولات التي استطاع الإعلام الصهيوني ترسيخها في ذهنية المجتمع الغربي هي:

- ادعاءات الصهيونية اليهودية التاريخية بشكل عام، وعلى وجه التحديد في فلسطين (إيرتس إسرائيل)، معتمدة على ما جاء في التوراة التي تشكل العهد القديم اليهودي، ومستفيدة من سيطرة الأسطورة التوراتية على الحالة الذهنية الغربية المسيحية، بعد أن كان اليهود قد ربطوا بين اليهودية، والمسيحية ولا سيما لدى المذهب البروتستانتي، والجناح المحافظ الأصولي لكل الطوائف المسيحية بشكل عام، كما ربطوا بين التوراة (العهد القديم)، والإنجيل (العهد الجديد) في كتاب واحد هو (الكتاب المقدس)، الأمر الذي جعل المسيحية لا تكتمل إلا بإيمان المسيحي بالتوراة، وبذلك فإن مسيحية المسيحي لا تكتمل إلا إذا آمن بحق اليهود في أرض الميعاد، لا سيما وأن الإنجيل قد قال على لسان المسيح «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض، بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس» متى ٥.

وفي موضع آخر «فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه وانقلوه» متى ٢٣.

كما جاء في الإنجيل أن السيد المسيح قد رد على إحدى السامريات التي طلبت منه أن يوضح لها من هو الذي على صواب: السامريون الذين يُصلّون على جبل الجرزيم، أم اليهود الذين يصلّون على أورشليم، بقوله «صدقيني إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للأب، أنتم تسجدون لما لستم تعلمون، أما نحن فنسجد لما نعلم، لأن الخلاص هو من اليهود» يوحنا ٤.

ومن هنا فإن المسيحيين يتلون في صلواتهم اليومية المعتقدات اليهودية بما فيها الدعوات التي ترفع إلى السماء لإعادة اليهود إلى أرض الميعاد، (خلص يا إله شعبك، وبارك ميراثك) وهي أيضا نفس الأفكار التي يقرؤها التلاميذ في مدارسهم، والتي يسمعونها بشكل متكرر في وسائل الإعلام المختلفة، وبالتالي فقد استطاع الإعلام الصهيوني أن يعزز الترابط العاطفي بغض النظر عن إيجابيته، أو سلبيته بين المسيحية الغربية، واليهودية، والتي من خلالها قام الإعلام الصهيوني بطمس التاريخ الفلسطيني الحقيقي منذ الإنسان البدائي، بكل مراحل تطوره، حيث رسخ الإعلام الصهيوني في ذهنية العالم ككل، والغربي المسيحي على وجه التحديد أن تاريخ المنطقة العربية (الهلال الخصيب)، لا بل تاريخ البشرية ككل هو تاريخ بني إسرائيل منذ سَبَت الرب في اليوم السابع، وأن أرض كنعان هي حق تاريخي للشعب اليهودي الذي وضع اللبنات الأساسية للحضارة الإنسانية، وهو، على وجه التحديد، يمثل السلف الحضاري للغرب الأوربي، وهذا ما حاول أن يؤكد عليه المؤرخ التوراتي جورج سميث حين قال {أن فلسطين لا تملك تاريخا خاصا بها، باعتبار الغرب الأوربي والأمريكي، إن تاريخها هو تاريخ إسرائيل الذي بدوره تاريخ الغرب}.

وقد استطاع الإعلام الصهيوني أن يرسّخ في ذهنية المواطن الغربي ادعاء اليهودية من أن التوراة كتابا تاريخيا ، وأن الصراع العربي الصهيوني هو صراع بين الدول العربية ، وبين دولة إسرائيل القومية ذات السيادة ، وحول هذه النقطة كان وايزمان قد قال {إن الإنجليز ، لا سيما أصحاب المدرسة القديمة ، هم أشد الناس تأثرا بالتوراة ، وتديّن الإنجليز هو الذي ساعدنا في تحقيق آمالنا. لأن الإنجليزي المتديّن يؤمن بما جاء في التوراة من وجوب عودة اليهود إلى فلسطين. وقد قدمت الكنيسة الإنجليزية من هذه الناحية أكبر المساعدات}.

أما بن غوريون فقد قال {إن كتاب المسيحيين المقدس الذي يرجع تاريخه إلى ٢٥٠٠ سنة هو صك اليهود المقدس لملكية أرض فلسطين} .

وقال أيضا بعد العدوان الثلاثي على مصر {لقد نجحت إسرائيل في إقناع الأوربيين والأمريكيين الذين نشأوا على الكتاب المقدس ، بحق اليهود في تقرير مصيرهم القومي في الأرض المقدسة}.

كما رسّخ الإعلام الصهيوني في ذهنية الغرب المسيحي أن اليهود هم الأصحاب الحصريون لعقيدة التوحيد السماوية ، وأنه الشعب الأكثر عراقة في العالم حسب ما قاله الزعيم الصهيوني الأمريكي لويس براندیس {- اليهود - شعب عريق ، شعب مكنته ثلاثة آلاف سنة من الحضارة ، من تقديم الكثير من أجل تقدّم الحضارة الإنسانية في المستقبل كما كان شأنه في الماضي}.

أما بن غوريون فقد قال قبل قيام دولة إسرائيل {ربما يكون مقدرا لملكة يهوذا التي ستولد من جديد ، أن تؤدي دورا عظيما ومهما في عالم الغد ، مثلما قدّمت إسرائيل للعالم يوم كانت تعيش فوق أرضها ، وربما كان مقدرا لنا أن نساهم مرة أخرى في مضمار الحضارة الإنسانية}.

وهو ما كان قد قاله ناحوم غولد مان {من الواجب أن يلتقي يهود العالم في أرض فلسطين لمتابعة إسهاماتهم في الحضارة الإنسانية التي قدّموا لها الكثير}.

أما رفائيل باتاي فقد قال في كتابه (العقل اليهودي) {ما من جماعة بشرية أخرى تستطيع الافتخار بسجل حضاري مشابه ، ولو مشابهة طفيفة ، لسجل الحضارة اليهودية القديمة}.

ويقول أندريه نيهر في كتابه جوهر النبوة {إن إسرائيل هي الإشارة المميزة للتاريخ الإلهي في العالم. إن إسرائيل هي محور العالم ، وهي عصبه ، ومركزه ، وقلبه}.

وتقول الكاتبة اليهودية تروي فاليس روز مارين {إن المساهمة الخالدة الباقية التي قدمها اليهود للعالم هي اكتشافهم الله الواحد الفريد غير المتجسد ، وقد جاءت المسيحية ، ثم

الإسلام بعد ذلك فعدلت كل منهما من فكرة اليهودية عن الله تعديلا جعل الفكرة أكثر ملائمة لمن كانت وحدانية اليهودية بالنسبة لهم أدق وأكمل من أن تستوعب، وقد كان من أثر ذلك صيغت حضارة الغرب في صورة جديدة تماما}.

وبذلك استطاع الإعلام الصهيوني أن يقنع الغرب المسيحي المسيطر أن لليهود حالة خاصة استثنائية في القانون العالمي والإنساني لأنهم لا يمثلون بشراً عاديين، بل حالة لاهوتية للإنسانية ككل بصفتهم أصحاب (المعجزة اليهودية)، وعلى الجميع أن يتعاملوا معهم على أنهم يمتلكون قدسية إلهية فوق بشرية، وهذا يعطيهم الحق في أن يكونوا فوق القوانين التي سنتها الهيئات، والمنظمات الاجتماعية، والدولية، والعالمية.

وقد كانت اليهودية، ومن بعدها الصهيونية، بعد استلامها زمام الأمور بالنسبة للتمثيل السياسي لليهود، قد استطاعت أن تغيّر من الموقف الكلاسيكي للكنيسة الرسمية التي كانت تنظر إلى اليهود على أنهم من قتلوا المسيح، بل وأن البابا منح اليهود صك غفران، على الرغم من ما جاء في إنجيل متى، فبعد أن سلّم اليهود المسيحَ الناصري إلى السلطة الرومانية «قال لهم بيلاطس فماذا افعل بيسوع الذي يدعى المسيح. قال له الجميع ليصلب. فقال الوالي وأيّ شر عمل. فكانوا يزدادون صراخا قائلين ليصلب. فلما رأى بيلاطس انه لا ينفع شيئا بل بالحري يحدث شغب أخذ ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلا إني بريء من دم هذا البار. ابصروا انتم. فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا» متى ٢٧.

وكان مجلس الكنائس العالمي قد أصدر سنة ١٩٦١م بيانا قال فيه: {العداء للسامية خطيئة ضد الله، ضد السامية، علينا في التعليم المسيحي ألا نلقي الأحداث التاريخية التي أدت إلى صلب المسيح على عاتق الشعب اليهودي، فالمسؤولية تقع على إنسانيتنا المشتركة، وليست محصورة في جماعة معينة أو قوم، وقد أيد هذا القول قرار الفاتيكان في عام ١٩٦٥م}.

أما البابا يوحنا بولس الثاني فقد قال سنة ١٩٩٧ {إن المسيح كان يهوديا.. وكان.. ابنا حقيقيا لإسرائيل - ولذلك يجب ألا - يضطهد اليهود، أو تساء معاملتهم بوصفهم يهودا}.

كما أن الصهيونية تمكّنت من الهيمنة على البعثات الاستكشافية الآثارية، والدراسات الاستشراقية الغربية منذ تشكلت (منظمة اكتشاف فلسطين) سنة ١٨٦٥م للبحث عن إسرائيل التوراتية، كما أنها تغلغلت في الدراسات الاستشراقية الأوربية، والتي حاولت أن تشكل رسالة تبشيرية للمشروع الثقافي الغربي، والسبب في اندخال المشروع الصهيوني، ضمن المشروع الأوربي الاستشراقي، يعود إلى أن اليهودية صاغت نظريتها القومية

بتأثير القومية الأوربية من جهة، ومن جهة ثانية لم يستطع هذا المشروع الصهيوني القومي ببعده الثقافي من الانزراع في المنطقة العربية، على الرغم من كل محاولات تطبيعه، ولذا فقد بقي هذا المشروع على ارتباط مع أوربا الغربية على وجه الخصوص، على أمل تقبّل أو إخضاع المنطقة للمشروع الصهيوني في مرحلة لاحقة، وبذلك فقد اتخذ المشروع الصهيوني ببعده الثقافي موقعا علائقيا، فيه إنتمائية سياسية واقتصادية وثقافية مع أوربا، وبما أن الاستشراق الغربي كان يبحث في الفكر الشرقي من خلال الثقافة الغربية ذات الدين المسيحي الوريث، والمتطور عن الدين اليهودي، فقد استطاعت الصهيونية في مرحلة لاحقة أن تُدخل ضمنه خطابها الثقافي السياسي، بحيث أصبح الاستشراق مشروعا غربيا مسيحيا يهوديا، للحديث والتحادث مع الفكر الشرقي الإسلامي التاريخي بلسان ومنطق غربي يهودي صهيوني، بل إن الصهيونية من جهة، والمشروع الاستشراقي من جهة أخرى كانا يريان أنه الممكن توظيف اليهود كمبشرين برسالة الحضارة الغربية، في العالم الشرقي المتخلف، بل إن البعض من المستشرقين، والمفكرين الغربيين اعتبروا الصهيونية حملة صليبية تبشيرية تنويرية في عالم شرقي يعاني من عتمة الفكر، والعقيدة الإسلامية.

وهذا المشروع الاستشراقي، وعلى الرغم من كل ما قُدّم له من إمكانات مادية، لم يستطع أن يحقق أهدافه، إلا أن الغرب، وبدعم من الصهيونية حاول تغريب المجتمع الشرقي من خلال تمكين الفلسفة الغربية، وإحلال قيمها مكان القيم الشرقية، وجعل العلم أساس ودين المجتمع المدني، وإقصاء القيم الروحية الدينية الشرقية، وفصل الدين عن الدنيا، وتجزئة المنطقة سياسيا، وجغرافيا، ودينيا وطائفيا، وعرقيا، وقد حاول الإعلام الصهيوني، وبالتعاون مع المطامع الاستعمارية الإمبريالية، أن يغيّر المسميات والتعابير الشائعة التي تعبر عن الوحدة القومية، والجغرافية، والإقليمية للوطن العربي، بحيث تحول الوطن العربي إلى الشرق الأوسط وشمال أفريقية، وأصبح يضم عروق، وأثنيات، ودول مختلفة في محاولة لدس الوجود اليهودي الإسرائيلي في التعابير، والمسميات الجغرافية، كما جعل الإعلام الصهيوني من كل بلد عربي مجموعة من الطوائف الدينية المختلفة، والعروق المختلفة، وبدت الدول العربية، حسب الإعلام الصهيوني، كما لو أنها تشكيل فسيفسائي.

كما حاول الإعلام الصهيوني، وبالتعاون مع التصورات الإمبريالية، ان يقلب المفاهيم والمدلولات العامة، بحيث أصبحت المقامة الشعبية للاحتلال تعني الإرهاب، أما الإرهاب الدولي واحتلال الدول ذات السيادة، كما حدث في العراق، فيعني التحرير، كما أنه قلب الحقائق رأسا على عقب، وجعل من الضحية (الشعب العربي الفلسطيني) جلادا، وجعل من

الجلاد (الصهيوني) ضحية، وحجبت الحقيقة عن أعين الرأي العام العالمي، الذي كان من جانب آخر قد قام بتسكين، وتخدير ضميره، وفي هذا السياق يقول المؤرخ الشهير توينبي {لو أن أي شعب آخر غير العرب ذاق مرارة هذه المعاملة، وعلى أيدي أي شعب آخر غير الإسرائيليين، لأدرك العالم كله أن هناك ظلما فادحا جرى ارتكابه بحق ضحايا لم يقترفوا شيئا يستحقون عليه مثل هذا العقاب، ولكان من شأن هذا الانتهاك الصارخ للحقوق الإنسانية ألا يثير السخط والاحتجاج فحسب، بل يؤدي إلى اتخاذ الخطوات الفعالة لإزالة الظلم ورفع الغبن}.

وقد تزايد عدد المتنورين من المسيحيين الغربيين، ومن اليهود الذين هاجروا، واستوطنوا في فلسطين، أو لم يهاجروا، الذين أدركوا أن هناك الكثير من التصورات الخاطئة، والمظللة، والمزيفة التي حملتهم إياها وسائل الإعلام الصهيونية، وقد بدأت أصوات هؤلاء المتنورين تتردد هنا وهناك، وبدت هذه الجماعات تعلن بأعلى صوتها معاداتها للصهيونية، ووقوفها إلى جانب الشعب الفلسطيني الذي، على عكس ما كان يصوره الإعلام الصهيوني، كان ضحية لأبشع أنواع الظلم، والحيف، وقد انضم هؤلاء إلى بعض الجماعات الدينية اللاهوتية التي وقفت ضد الصهيونية على اعتبارها منظمة سياسية، لا دينية، نصّبت نفسها مكان المسيح التوراتي اليهودي المنتظر، بل إن بعض المذاهب اليهودية الأرثوذكسية المتطرفة، كانت ترى أن الصهيونية تعمل ضد الرب، وضد مسرحة التاريخ الإلهي على الأرض، لأن عودة اليهود إلى (أرض الميعاد) مرتبطة بمجيء المسيح اليهودي المنتظر، وعودة اليهود دون ذلك سيؤدي إلى إرباك حركة التاريخ الديني كما وضع الرب السيناريو المحدد له.

وأعداء الصهيونية برزوا منذ تشكل الصهيونية، ومن ثم تناقصوا بعد أن استطاعت الصهيونية أن تثبت وجودها السياسي، ومن ثم الجغرافي، ولكن هؤلاء الأعداء بدؤوا بالتزايد مرة أخرى بعد أن بدأت الحقائق تتكشف للكثير من الأفراد والجماعات، وكان هناك الكثير من الشخصيات اليهودية بالخاصة، وغير اليهودية بالعامة، التي وقفت ضد المشاريع الاستيطانية الصهيونية، ومن هذه الشخصيات العالم الفيزيائي الشهير إينشتاين، ومارتن بوبر، ويهوذا ماغنيس الذي قال سنة ١٩٢٤م {إن ما يقلقني هو غياب كل اقتراح بناء حول الطريقة التي يمكن بها إيجاد حل للمشكلة من دون حرب بين الشعبين.. لا شك أن لليهود الحق بمطالبة العالم بالعدالة.. ولكني أنا، لست على استعداد لأن أعيد لليهود حقهم بعمل غير عادل تجاه العرب بوضعهم تحت سلطة القانون اليهودي دون موافقتهم. فإذا كنت أعارض قيام دولة يهودية فذلك لأني كما قلت لا أود أن أخوض حربا مع العالم العربي} ويضيف {هل

يصبح اليهود هنا (في فلسطين) في سعيهم لخلق كيان سياسي مرتبطين بالعنف والعسكرتاريا كما كان بعض الأشمونيين؟ يبدو لي أننا فكّرنا بكل شيء ما عدا العرب}.

أما مارتن بوبر فقد كان قد قال {لا تستطيع قوة غير قوة ثورة داخلية، أن تشفي شعبنا من مرضه القاتل المتمثل في كراهية الأغيار، فحين تقوم هذه الثورة يدرك شبابنا مدى الظلم والشقاء اللذين ألحقناهما بالفلسطينيين العرب البؤساء، الذين شردناهم، وأعطينا بيوتهم وأراضيهم إلى يهود جاؤوا من شتى بقاع الأرض، واليوم نحرث حقولهم ونقطف ثمار بساتينهم ونقيم في مدنهم، ومع هذا لا نكف عن الثرثرة بتشنج وهذيان بأننا شعب التوراة ونور الشعوب}.

أما الحاخام يهودا ماغنيس فقد قال {لا أريد قيام دولة يهودية، وليس من العدل إخضاع الفلسطينيين العرب للحكم اليهودي بالإكراه.. إن أرض فلسطين هي للفلسطينيين، وإن اليهود غرباء فيها، فالحق يقضي، وأبسط مبادئ العدالة الإنسانية يوجب بألا يمنع الفلسطينيون المشردون من العودة إلى ديارهم، بينما تتدفق سيول من اليهود الغرباء على فلسطين ليحلوا محل من تقتلع جذورهم العريقة فيها منذ قرون عديدة}.

كما أن الحاخام الأكبر في العراق خضوري ساسون قد قال مشخصا العلاقة والتعايش العربي اليهودي في العراق قبل قيام الدولة الصهيونية، حيث كان يعيش في العراق سنة ١٩٤٨م بحدود ١١٠٠٠٠ يهودي {إن اليهود والعرب تمتعوا بنفس الحقوق والامتيازات، منذ ألف سنة. ولهذا فهم لا يرون أنفسهم منفصلين عن غيرهم في هذه الأمة}.

مقولات الإعلام الصهيونية
حول الحقوق التاريخية اليهودية في فلسطين

لم تقم دولة إسرائيل على أرض الواقع، إلا على الادعاءات التي جاءت في التوراة، وقد قدمت الصهيونية التوراة على أنها وثيقة تاريخية، ذات مصداقية قانونية، وفي غير موضع كنت قد استشهدت بالنصوص التوراتية التي جاء فيها أن الرب يهوه قد أعطى شعبه المختار الحق الأبدي في استملاك بلاد كنعان، وتشكيل كيان سياسي عليها، وقد بدأت الدعوات في إعادة تشكيل هذا الكيان بذهنية شعرية، رومانسية، ذاتية، في محيط الألفية الأولى للميلاد، ثم تحولت إلى دعوات حقوقية موضوعية، في سياق الاضطهاد الأوربي لليهود، وإن كانت تلك الدعوات قليلة، ومتباعدة، ثم تصعّدت على لسان الصهيونية غير اليهودية في أوربا في سياق تطورها الإمبريالي، ثم أخذ اليهود بترديدها بشكل متصاعد في سياق بدايات تشكل الصهيونية اليهودية، ومنها دعوة موسى هس {ولكي يتسنى لهم - أي لليهود - أداء رسالتهم وجب أن يعيدوا بناء حياتهم القومية بفلسطين، فيكتشفون أنفسهم من جديد كشعب، ويقدمون للعالم قدوة من ذلك الاستشراق التركيبي، لذا فإن تطوير حركة قومية يهودية لا يشكل المفتاح الجوهري لمستقبل اليهود فحسب، بل لمستقبل البشرية جمعاء}.

ومن ثم قامت الصهيونية والتي، حسب بن غوريون {لم تبدأ بهرتزل ومؤتمر بال، ولا بوعد بلفور، ولا بقرارات الأمم المتحدة عام ١٩٤٨، ولكنها بدأت يوم وعد الله أبانا إبراهيم بأرض فلسطين ملكا أبديا}، لتعيد تشكيل الماضي على أرض الحاضر الواقع، يقول أحادها عام {لكي ينبعث هذا العرق المتفوق لا بد له من مكان ثابت ومستقر حتى تتاح له الفرصة ثانية لتطوير عبقريته، وإبلاغ رسالته كاملة متفوقة}.

بن غوريون {إن لليهودي أينما كان حقا مقدسا بالعودة إلى وطنه القديم، أرض إسرائيل، هذا الحق الذي يرتبط ارتباطا وثيقا، ومن غير انقطاع، بتاريخه وبتراث أجداده}.

وحق اليهود بالعودة إلى أرض الميعاد يعتمد على الحق الديني التوراتي المتغلغل في حلم اليهود بالعودة، يقول بن غوريون {إن ما يربط اليهود ليس الدين اليهودي، فاليهود الملحدون يهود أيضا، وليس العرق، فهم ليسوا من عرق واحد، وليس اللغة، فهم يجهلونها، ولكن رؤيا

العودة إلى أرض الميعاد} ، وبن غوريون في هذا يمثل قناعة الأغلبية الصهيونية التي ترى أن اليهود لا يشكلون عرقاً دموياً صافياً بالمعنى الحرفي الفقهي لهذه الكلمة، وأينما يُعَدّون عرقا (تكاثريا).

وحق العودة الذي تحدث عنه بن غوريون، يعتمد على التصور الديني لليهود ، على حسب رأي البروفسور الإسرائيلي يعقوب تالمون {إن الحق اليهودي التاريخي بفلسطين يفتقر إلى أساس ثابت في ما لو تمّ إقصاء مسألة الإيمان بالوعد الإلهي، وفكرة الشعب الذي اختاره الرب واصطفاه مما يؤدي حتما إلى إظهار اليهود بمظهر الغزاة الفاتحين والإمبرياليين}.

أما غولدا مائير فتقول {لقد وجدت هذه البلاد تنفيذا لوعد صدر عن الرب بالذات، ومن السخف أن نسأله بيانات عن شرعية ذلك}.

والصهيونية وليدة الإمبريالية كانت ترى أنه يتوجب عليها ، أو لها الحق حسب النظرية الداروينية النيتشية أن تقوم بأخذ نصيبها من الأرض عنوة، وانتزاع ثرواتها من الشعوب الدنيا (المدنسة) الذين لا يعرفون قيمة الأرض التي يقيمون عليها ، ولا يعرفون أيضا استثمارها ، ولا يرتبطون معها برباط روحي، ويقول في هذا الصدد الحاخام تسفي يهودا كوك الأب الروحي لغوش إيمونيم (١٨٩١ - ١٩٨٢م) {لقد اختيرت الأرض من قبل ما اختير الشعب نفسه ، فالأرض المصطفاة والشعب المختار يكونان وحدة إلهية كاملة، قد ضم بعضها إلى بعض عند خلق العالم وخلق التاريخ}.

أما الحاخام ميمون أول وزير للشؤون الدينية في دولة إسرائيل فيقول {إن الرباط بين إسرائيل وبين أرضها ليس كالرباط الذي يشد الأمم سائرها إلى بلادها ، فهو لدى تلك الأمم، وفي أجلى مظاهره، رباط سياسي، علماني، خارجي، عرضي ومؤقت، بينما الرباط القائم بين الشعب اليهودي وبين بلاده كناية عن سر خفي من القداسة ، فالشعب والأرض قد أنعم عليهما بتاج القداسة ، والرباط الذي يشدهما رباط سماوي وأبدي} ، ولذا كان لا بد من ترحيل هذه الشعوب العربية العابرة بالقوة، والعنف، وإحلال مكانهم الشعب اليهودي الأبدي المقدس.

وكنت قد ذكرت فيما سبق أن الكثير من القيادات الدينية اليهودية ترى أن الصهيونية شكل زائف لليهودية التي لا تقوم على العنف والعدوان، بل على الإيمان بالرب الذي هو وحده من سيحرك التاريخ نحو مجيء المسيح المنتظر ليعلن يوم الرب، ويحكم مملكة الأرض بالعدل، ومن هنا فقد حرّمت تلك القيادات الدينية الأصولية الأرثوذكسية على أتباعها العودة إلى أرض الميعاد قبل مجيء المسيح اليهودي، وتعتقد هذه الأصولية أن الصهيونية ليست أكثر من هرطقة ستنتهي بالفشل.

وهو ما يخالف رأي الكثير من المتدينين اليهود الذين كانوا قد تتلمذوا على ثقافة العنف الأوربية النيتشوية في سياق الحربين العالميتين الأولى والثانية، وهم الذين يرون أن العنف اليهودي يشكل الرحم الذي يولد فيه اليهودي المقدس الذي يستطيع امتلاك الأرض المقدسة من أجل تجسيد التاريخ المقدس عليها، وأن العنف ضد الآخرين، وإذكاء نار العداء مع الأغيار (إذكاء نار اللاسامية) هو الذي يجعل الشتات اليهودي يتكوكب، وينتظم في جبهة واحدة، يمكنها العودة إلى الأرض المقدسة، وانتزاع الأرض من ساكنيها، والتمترس فيها إلى الأبد، وكان هرتزل مؤسس الصهيونية قد همش في مشروعه الصهيوني أصحاب الأرض الأصليين في كتابه (دولة اليهود)، وفي خطابه في المؤتمر الصهيوني الأول، إلى درجة أنه لم يأت على ذكرهم، وكأن لا وجود لهم على الإطلاق، كما أن سكان الأرض الأصليين لم يأت أي ذكر لهم في سياق توقيع العقد الصامت بين الصهيونية، والفكر الاستعماري الغربي، وكان هرتزل يتحدث عن الهجرة اليهودية من أوربا إلى فلسطين، كما لو أنها (أرض بلا شعب)، وكان يرى أن هذه الهجرة، وهي التي أطلق عليها الخروج، معيدا إلى الأذهان خروج بني إسرائيل من مصر بقيادة موسى:

{يجب ألا يأخذ الخروج شكل هروب أو تسلل، وإنما يجب أن يتم بمراقبة الرأي العام. هذا ويجب أن تتم الهجرة وفقا للقوانين وبمعاونة صادقة من الحكومات المعنية التي يجب أن تضمن وجودنا لأن اليهود لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك بأنفسهم}.

{متى أظهرت القوى الدولية رغبة في منحنا السلطة فوق أرض محايدة ستعمل جمعية اليهود مع السلطات الموجودة في تلك الأراضي وتحت إشراف القوى الأوربية}.

ولكنه، ومن خلال إشارات غامضة، نوه على إمكانية اليهود في السيطرة على الأرض الموعودة بالقوة {امنحونا سلطة على قطعة من الأرض في هذا العالم تكفي حاجاتنا القومية المشروعة، ونحن سنعمل ما يتبقى}.

{إن الإنسان مهما بلغ من الثراء غير قادر على اقتلاع شعب من أرضه، القوة وحدها تستطيع أن تفعل ذلك وفكرة الدولة تمتلك بالتأكيد هذه القوة}.

أما بالنسبة للقيادات الصهيونية التي عاصرت هذه الهجرة، والتي واجهت أصحاب الأرض، فقد أوضح خطابها عدم إمكانية تحقق المشروع الصهيوني دون العنف، العنف الذي يذكرنا بما أتى في سفر يشوع الذي يشكل تأريخا توراتيا لاستيلاء الجماعات العبرية على أرض كنعان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وكان اليساري الصهيوني بوروخوف قد أكد أن دولة إسرائيل لن تتشكل {من دون نضال مرير ومن دون قسوة وظلم ومن دون معاناة

البريء والمذنب على حد سواء.. وأن تاريخ الاستيطان الصهيوني سيكتب بالعرق والدموع والدم}.

أما بيردشفسكي فيقول إن {السيف تجسيد للحياة في أعرض خطوطها، وهو تجسيد جوهري ومحسوس يشبه الحياة إلى حد كبير}.

وكان من إحدى المقولات أو المنطلقات النظرية لمنظمة الهاشومير التي تأسست في بداية القرن المنصرم {لقد سقطت يهودا بالدم والنار وستنهض بالطريقة نفسها}.

أما مناحيم بيجن فيقول {سوف تعود أرض إسرائيل إلى شعب إسرائيل بكاملها وإلى الأبد}.

ويضيف {إن قوة التقدم في تاريخ العالم ليست للسلام بل للسيف}، والذي كان قد كتب في كتابه الثورة {أنا أحارب، إذن أنا موجود}.

كما أن بن غوريون كان يرى أن من يفسر التوراة هو الجيش الإسرائيلي.

أما الحاخام الأكبر للجيش الإسرائيلي شلومو غورين يقول {لا يمكن الفصل بين أرض إسرائيل وبين تعاليم اليهودية، إن حدود أرض إسرائيل قد حددت في التوراة، وفصل قيم التوراة عن وصايا استيطان البلد هو بمثابة فصل الروح عن الجسد}.

ويقول حانان بورات، وهو أحد زعماء غوش إيمونيم {لا عيب خلقيا في إعلاننا على الملأ أن أرض إسرائيل هي أرض الشعب اليهودي بأمر من الله منقوش في الحديد والدم}.

ويقول الحاخام مائير كاهانا {لا يمكن التمييز بين الدولة والتوراة لأن دولة إسرائيل لم تقم بفضل قرارات الأمم المتحدة، بل بفضل التوراة}.

ويقول في موقع آخر {إن أبانا إبراهيم لديه صك من الله العلي ممهور بتوقيعه، فأين هو برهان ملكيتهم لهذه الأرض}.

وهو ما كان قد قاله أيضا بن غوريون {إن كتاب المسيحيين المقدس الذي يرجع تاريخه إلى ٣٥٠٠ سنة هو صك اليهود المقدس لملكية أرض فلسطين} ٠

أما كالن الفيلسوف البرغماتي اليهودي فيقول {إن شعب إسرائيل هو جيش إسرائيل، وجيش إسرائيل هو شعبها، وهذا ليس بالمعنى المجازي وإنما هو معنى حرفي، فالجيش الإسرائيلي هو المدرسة التي يتعلم فيها الجميع}.

أما ناحوم غولدمان فيقول {إن التمييز العنصري في إسرائيل ضد العرب هو من الضرورة التي لا يمكن تلافيها.. وعليه فلا بد أن يلقى العرب أعمال القتل والاعتقال والتعذيب والطرد من أجل إجبارهم على الهجرة خارج فلسطين}.

وفي هذا الصدد يقول مناحيم بيغن في سنة ١٩٥٨م {أنتم الإسرائيليون عليكم ألا تأخذكم الرأفة عندما تظفرون بعدوكم. عليكم ألا ترحموا، حتى تدمروا نهائيا ما يسمى بالثقافة العربية التي سوف نبني على أنقاضها حضارتنا نحن}.

وكان بن غوريون قد وصف بيغن قائلا {إن بيغن ينتسب بالتأكيد إلى النموذج الهتلري. إن هذا الرجل مستعد للقضاء على العرب جميعا في تحقيقه حلمه في توحيد إسرائيل. وهو مستعد، لهذا السبب، لاستخدام كل الوسائل}.

ويقول الحاخام أليعازر فالدمان {لا بد من توقع الحروب، واعتبارها جزءا طبيعيا ومؤسفا من عملية الخلاص، ومن المؤسف أن الخلاص لا يتم بأي طريقة أخرى غير الحرب}.

أما بن صهيون دينور أول وزير للثقافة في دولة إسرائيل فقد كتب سنة ١٩٤٠ {يجب أن يكون واضحا لنا جميعا أنه لا مكان في هذا البلد لشعبين. إذا غادره العرب سيكون كافيا لنا.. ليس هناك طريقة إلا بإبعادهم جميعا، وعدم ترك قرية أو قبيلة واحدة.. يجب أن نوضح لرزفلت ولرؤساء الدول الصديقة كافة بأن أرض إسرائيل ليست صغيرة جدا إذا غادرها جميع العرب، وإذا ما دفعت الحدود قليلا نحو الشمال أي حتى نهر الليطاني ثم نحو الشرق إلى مرتفعات الجولان}.

كما قال أيضا {لا مكان في بلدنا إلا لليهود. سنقول للعرب: ارحلوا. وإذا لم يوافقوا على ذلك، وأبدوا مقاومة فسنطردهم بالقوة}.

كما قال بعد حرب حزيران سنة ١٩٦٧م جوزيف ونتز مدير إدارة الهجرة {من الواضح أنه لا مكان في هذا البلد للشعبين، الحل الوحيد هو أرض إسرائيل وتشمل على الأقل إسرائيل الغربية وتكون خالية من العرب، ولا حل إلا بنقل السكان العرب إلى البلاد العربية المجاورة}.

ولم توجه الصهيونية عنفها إلى الشعب الفلسطيني الذي يجب التخلص منه، بتهجيره، أو بإبادة من يرفض الهجرة فحسب، بل شمل أيضا اليهود، ولا سيما الذين يعيشون في الدول العربية، وكانت الصهيونية تمارس نشاطها في الدول العربية، وتدرب بعض الشباب اليهود عسكريا، كما استغل الصهاينة السكان اليهود الذين كانوا يعيشون في الدول العربية في عمليات تجسس على بلدانهم، كما أنهم قاموا بعدة عمليات لمصلحة الصهيونية كما حصل في فضيحة لافون سنة ١٩٥٥م، حيث قامت مجموعة من اليهود المصريين بتعليمات صهيونية بوضع متفجرات في بعض المواقع والمنشآت التابعة للولايات المتحدة والمملكة المتحدة لخلق التوتر بينها وبين مصر، كما أن الصهيونية منذ بداية القرن المنصرم قد عملت على إثارة

الفتنة بين الجماعات اليهودية في العراق، والتي كانت تعد قرابة ١٣٠ ألف يهودي، والمجتمع والقيادة العراقية، وكان بن غوريون قد اتفق مع نوري السعيد سنة ١٩٤٩م، بحضور الراعي البريطاني، على إسقاط الجنسية العراقية عن اليهود العراقيين، وقد شكلت الصهيونية تنظيمات سرية في العراق، وهرّبت إليهم الأسلحة، حيث قامت منظمة (هشوراه الصهيونية) بتفجير عدة أماكن للتجمعات اليهودية في العراق مثل المقاهي والمعابد سنة ١٩٥٠م من أجل إثارة الذعر لدى الجماعات اليهودية، وحثهم على الهجرة إلى إسرائيل، والتي سميت (عملية علي بابا).

كما أن الخطاب الصهيوني العنيف شمل كل من وقف من اليهود، وغير اليهود، في وجه المشروع الصهيوني الاستيطاني، والذين كانوا يعتقدون أن الحل الأمثل للمسألة اليهودية يكون من خلال اندماج اليهود في المجتمعات الغربية، وهو الأمر الذي أدى إلى تقاعس بعض اليهود من الهجرة إلى فلسطين، بدعم من بعض المتنفذين الأوربيين الذين لم يقتنعوا كثيرا بالحل الصهيوني، والذين حاولوا دمج اليهود كمرحلة أولى للوصول إلى صهرهم في مجتمعاتهم، ومنحتهم الجنسيات الأوربية، ولم تتورع القيادة الصهيونية في تحدي هذه السياسات، وفي هذا السياق قال حاييم وايزمان سنة ١٩٢٠م موجها خطابا تهديديا {سوف نستقر هنا في فلسطين شئتم ذلك أم أبيتم. إن كل ما تستطيعون فعله هو تعجيل أو إبطاء هجرتنا ولكنه مهما يكن فإنه من الأفضل لكم أن تساعدونا لتتجنبوا تحويل قدراتنا البناءة إلى قدرات مدمرة، تدمر العالم}.

وقد حاولت الصهيونية بشتى السبل أن تستورد المادة البشرية، والتي تكفل لها أن تقيم من خلالهم دولة صهيونية، وفي هذا السياق جاء في الأدبيات الصهيونية {إننا نجد أنفسنا مضطرين لسحب كل مهاجر إلى إسرائيل وكأنه (بغل حرون)}.

أما الحاخام كلاوسنر فيقول {يجب أن نتذكر بأننا بصدد أناس مرضى. وعلينا بالتالي ألا نأخذ رأيهم، وإنما نقول لهم ماذا عليهم أن يفعلوا. وسيكونون لنا من الشاكرين بعد عدة سنوات}.

والعنف الخطابي الصهيوني لم يقف أما هذا فحسب بل تفشى في كل أشكال التعبير عن المواقف الصهيونية، وكان إسحاق شامير سنة ١٩٧٥م قد قال، بعيد صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الذي أقر فيه أن الصهيونية نوع من العنصرية {من غير المقبول أن تقوم أمم مؤلفة من رجال هبطوا لتوهم من على الأشجار، وتُعَدّ نفسها في مصاف الزعامة الدولية.. كيف يمكن للشعوب البدائية أن تعبر عن آراء خاصة بها؟ إن الضربة التي تلقيناها اليوم من

هيئة الأمم المتحدة تزيد من قناعاتنا بأننا لسنا شعبا كباقي الشعوب} وهذا الرد العنصري الصهيوني اليهودي يؤكد على صحة قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، والغريب أن شامير الذي يعتمد على عقيدة شعب الله المختار اللاهوتية، يعتمد، في خطابه هذا، على نظرية داروين المادية التي تذهب إلى أن الإنسان نتج عن تطور القرد، والتي تتعارض مع اللاهوت اليهودي بالخاصة، واللاهوت الديني بالعامة والذي يذهب إلى أن آدم هبط من الجنة في شكله الإنساني الكامل.

وقد استطاعت الصهيونية، بالعنف، أن تغتصب الأرض من أصحابها، وأن تنشئ دولة إسرائيل الصهيونية، وقد جاء في (إعلان الاستقلال): {لقد كانت أرض إسرائيل هي مسقط رأس الشعب اليهودي. هنا تشكلت هويتهم الروحية والدينية والقومية، وهنا حققوا الاستقلال وخلقوا ثقافة ذات أهمية قومية وعالمية، هنا كتبوا وقدموا التوراة للدنيا.. وقد ظل الشعب اليهودي بعد نفيه من أرض إسرائيل متعلقا بها في بلدان شتاتهم كافة دون توقف عن الصلاة والأمل بالعودة واستعادة حريتهم القومية واليهود وهم محملون بهذا العبء التاريخي كانوا يكافحون عبر القرون من أجل العودة إلى أرض آبائهم، واستعادة تشكلهم الكياني}

كتب بن غوريون في مذكراته يوم ٢١ أيار ١٩٤٨م {إن عقب أخيل في الحلف العربي هو لبنان. إن الأكثرية الإسلامية في هذا البلد هي مصطنعة وبالإمكان قلبها بسهولة ويجب إقامة دولة مسيحية فيه. وتكون حدودها الجنوبية على نهر الليطاني، وسنوقع معاهدة تحالف مع هذه الدولة. ثم بعد أن نحطم قوى الفيلق العربي ونقصف عمان سنمسح الأردن فتسقط سوريا. وإذا ما تجرأت مصر على محاربتنا من جديد سنقصف بور سعيد والإسكندرية والقاهرة.. وننهي بذلك الحرب بعد أن نكون قد انتقمنا لأجدادنا من مصر وآشور وكلدة}.

أما شارون فقد قال سنة ١٩٧٤م مهددا الثوار الفلسطينيين الذين كان يسميهم (الإرهابيين) {يجب أن نضرب ونضرب باستمرار. يجب أن نضرب الإرهابيين في كل مكان، في إسرائيل والبلاد العربية وسواها. أنا أعرف كيف يتم ذلك، فلقد مارسته شخصيا. وليس من الضروري أن نتحرك إثر عمليات يقومون بها، بل علينا أن نقوم بذلك يوميا وفي كل مكان. فإذا ما وردتنا معلومات عن وجود بعضهم في هذا أو ذاك من البلاد العربية أو الأوربية علينا أن نصل إليهم هناك.. لا في وضح النهار، بل فجأة يختفي شخص ما، ثم تجدونه مقتولا في حين يقتل آخر في أحد الملاهي الأوربية}.

وقد قامت الحكومة الصهيونية الإسرائيلية بسن قانون العودة سنة ١٩٥٠م، والذي علق عليه بن غوريون قائلا {إن الدولة لا تنوي بهذا المشروع أن تمنح اليهود حق المجيء إلى إسرائيل

حيث إن هذا حق متوارث لليهود. ولكن مشروع القانون ما هو إلا عهد من إسرائيل إلى أولئك اليهود.. إن هذه ليست دولة يهودية فقط حيث أغلبية السكان من اليهود ولكنها دولة جميع اليهود حيثما وجدوا ولكل يهودي يرغب بالمجيء إلى هنا. إن هذا الحق موروث لمجرد كونه يهوديا}.

كما قال بن غوريون بعيد إعلان دولة إسرائيل {إن إسرائيل ليست دولة يهودية لأن اليهود يشكلون الأكثرية فيها، بل هي دولة اليهود حيثما وجدوا، ودولة كل يهودي يرغب الإقامة فيها}.

أما في سنة ١٩٤٩م فقال بن غوريون {ليس هناك اليوم إلا ٩٠٠٠٠٠ يهودي في إسرائيل، على حين أن أكثرية الشعب ما زالت خارج بلادها. ومهمتنا للمستقبل هي أن نعيد اليهود إلى إسرائيل}.

وهنا لنا أن نلاحظ أن إعلان الاستقلال، وقانون العودة يعطي الحق في تملك الأرض على أساس الأسبقية التاريخية، ولذلك مسبقا، وقبل أن يتطع أحد بالحديث عن الأسبقية التاريخية للفلسطينيين العرب، قامت الصهيونية بعزلهم تاريخيا وإرثيا عن الكنعانيين أصحاب الأرض في مرحلة ما قبل الغزو العبري في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وذلك من خلال ادعاء التوراة بأن اليهود قاموا بإبادة أو إمحاء كل الشعوب الوطنية التي تواجدت في بلاد كنعان في ذلك الزمان، وبذلك يبقى الشعب العبري اليهودي هو الوريث الشرعي، والوحيد لأرض فلسطين، وعلى أقل تقدير بحجة أنهم - كما يدّعون - أول من أسس كياناً عسكرياً سياسياً وطنياً مستقلاً ذا شخصية قومية، وهذا يعطيهم، حصرا، الحق في الأسبقية التاريخية، يقول اسحق دوتشير {في إسرائيل، شكل أقدم شعب في العالم أحدث دولة بين الدول القومية، وهو يرمي بكل حرارة عواطفه إلى استدراك الزمن الذي فات}.

وهذه الدولة، التي كانت قد تأسست نظريا على أساس الوعد الإلهي التوراتي، أصبحت دولة بقوة القانون الدولي، والتقادم، والأمر الواقع، وبالتالي لا يمكن إزالتها إلا بإبادتها، وما عاد اليهود يعتمدون، في ادعاءاتهم التاريخية في فلسطين، على أساس الوعد الإلهي التوراتي، إلا حين يتحدثون عن حدود هذه الدولة، بل إن اليهود ما عادوا يهتمون بحقيقية ومرجعية وقدسية التوراة السماوية، فالتوراة مقدسة حتى لو ثبت أنها نتاج أقلام، وأفكار، وتصورات إنسانية، ولم تهبط من السماء، وسواء كانت قد ابتدعتها اليهودية، أم أن اليهودية قامت بسرقتها، وتهويدها من تراث شعوب الشرق الأدنى، وسواء ثبتت صحة ادعاءاتها التاريخية، أم لم تثبت، فهذه المحاجحات لم يعد لها الكثير من المعنى، فالتوراة هي

تراث الشعب اليهودي، وجزءا من وجدان وضمير الشعب اليهودي، وهي عاصمة روحية لكل اليهود، وفي هذا السياق جاء في كتاب (من هو اليهودي) لإسحق دوتشير {كتب هنري هايني أن اليهود الذين طردوا من أرضهم تركوا كل ثرواتهم لكي لا يحملوا معهم سوى كنز واحد هو الكتاب، ثم قام هذا - الشعب الشبح - خلال قرن بحراسة هذا الكتاب، الكتاب المقدس، حافظا إياه للإنسانية، والآن يتجسد هذا الشبح ويعود فيصبح أمة، ويعود إلى شواطئ الأردن وجبال اليهودية وفي متاعه كل الكتب الكبيرة التي ابتدعتها أمم العالم}.

وقد استطاعت هذه العاصمة الروحية أن تصبح مادية على أساس هيئة الأمم المتحدة، والتي {خلقت دولة إسرائيل وأنشأتها بأمر من رب العالمين المطلق، ومن أجل أن يتم الأمر الواضح الوارد في التوراة، والقاضي بأنهم سيرثون الأرض ويسكونونها} حسب رأي الحاخام تسفي يهودا.

أما حسب رأي آرثر كوستلر الذي جاء في كتابه إمبراطورية الخزر وميراثها. القبيلة الثالثة عشرة {على الرغم من أن الكتاب يدرس التاريخ الماضي، فلا مفر من أن يحمل تضمينات معينة تنسحب على الحاضر والمستقبل. فأنا أعي - في المقام الأول - الخطر المتمثل في أنه قد يساء فهمه - ويخبث - باعتباره إنكارا لحق دولة إسرائيل في الوجود، ولكن هذا الحق لا يستند إلى الأصول المحتملة للشعب اليهودي، ولا إلى الميثاق الأسطوري بين إبراهيم والله، ولكنه يستند إلى القانون الدولي، أي إلى قرار الأمم المتحدة لسنة ١٩٤٧، القاضي بتقسيم فلسطين - التي كانت يوما ما ولاية تركية ثم صارت إقليما خاضعا للانتداب البريطاني - إلى دولة عربية ودولة يهودية. وأيا كانت الأصول العرقية للمواطنين الإسرائيليين، وأيا كانت أوهامهم عنها التي يعللون النفس بها، فإن دولتهم قائمة فعلا وقانونا. وسواء أحملت كروموزومات شعبها جينات من أصل خزري أو سامي، أو من روماني أو إسباني، فأمر لا صلة له بالموضوع، ولا يمكن أن يؤثر في حق إسرائيل في البقاء، ولا في الالتزام الأدبي لأي شخص متحضر، يهوديا كان أو غير يهودي، بالدفاع عن هذا الحق. ولا شأن لمسألة الوجود الخزري منذ ألف سنة - مهما كان سحرها - بإسرائيل الحديثة}.

وهو الذي كان قد علق على وعد بلفور {إنه أغرب الوثائق السياسية طرا في التاريخ، ففي هذه الوثيقة تَعِد أمة أمة ثانية بأرض تخص أمة ثالثة}.

وفي النهاية فقد استطاعت الصهيونية أن تُخرج الرب (يهوه) بطل ملحمة التوراة من النص التوراتي، ومن اللغة إلى الواقع، كي ينفذ أرادته النصية أو أن يتمثل السيناريو كما كتب على يدي الكهنوت اليهودي، وبذلك قام الرب يهوه بجمع شعبه المختار من الشتات،

وأوصلهم إلى أرضهم المقدسة على شكل تسلل في البداية، ولكن بدل أن يدخلهم من نهر الأردن، ومن وادي عربة، ومن صحراء النقب، أتى بهم عبر البحر من بلدان بعيدة، ثم أوكل للقادة العسكريين القيام بدور يشوع حسب السيناريو التوراتي، بحيث أخذ كل واحد منهم جزءا من هذا السيناريو، وقام بتأريخه حسب الإمكانات العسكرية المتاحة، وجميعهم توزعوا دور التصفية العرقية (الحرب المقدسة)، وقاموا بإزاحة شعب كنعان الملعون، من خلال قتله، وتشريده، وتشتيته، واستبدلوهم بشعب الله المختار، من خلال عدة حروب، كانت فيها كل حرب تمثل مقدمة لحرب تليها، ويُعَدّ شارون الشخصية الذي استطاعت أن تأخذ مساحة واسعة من سيناريو يشوع، وما زالت هذه الجرافة تتقدم بكل همجيتها، وثقتها أيضا، وإتقانها لدورها اليشوعي.

وفي النهاية لم تعد الصهيونية تحاجج في الشرعية القانونية لوجود دولة إسرائيل، بل تحاجج على حدودها، وهنا يجب التنويه، أو التذكير بأن دولة إسرائيل تم قبول انتسابها إلى هيئة الأمم المتحدة دون أن يكون لها حدود جغرافية محددة، وهي الدولة الوحيدة من بين الدول الأعضاء في الهيئات الدولية التي لم يتم ترسيم حدود نهائية لها، كما لم يأت في التوراة على حدود واضحة، ونهائية للأرض التي منحها الرب يهوه لشعبه المختار، فبعض النصوص التوراتية ذكرت حدود (أرض الموعودة) في بلاد كنعان فحسب، وهي المحددة بين نهر الأردن شرقا، والبحر المتوسط غربا، وبين جبال لبنان شمالا، وسيناء جنوبا، وبعض النصوص التوراتية أضافت إليها منطقة شرقي الأردن، وهي حدود مملكة داود التوراتية، وبعض النصوص التوراتية مددت حدودها من الفرات إلى النيل، حسب إمكانية شعب الله المختار العسكرية في التوسع في هذه المنطقة، وهو تماما النص التوراتي الذي قامت الصهيونية بتبنيه، ومن هنا فإن الصهيونية قد قبلت مرحليا بقرار التقسيم الذي صدر سنة ١٩٤٧م، ولكن هذا لا يحرمها - حسب رأيها - من أن تطالب بحقها التاريخي في تشكيل دولة إسرائيل على (إيرتس إسرائيل)، وفي هذا السياق يقول بن غوريون متخذا من مملكة داود التوراتية مرجعية لدولة إسرائيل الصهيونية:

{إسرائيل هي أرض أسلافنا، وهي تمتد على جانبي الأردن، القدس عاصمتنا منذ آلاف السنين، وهي لنا كما أن باريس للفرنسيين ولندن للإنكليز}.

{إن قبول التقسيم لا يلزمنا بالتخلي عن شرقي الأردن، والمرء لا يطلب من أي إنسان أن يتخلى عن رؤيته. سوف نقبل دولة بالحدود التي ثبتت اليوم ولكن حدود التطلعات الصهيونية هي محط اهتمام الشعب اليهودي وما من عامل خارجي يستطيع أن يوقفها ويحددها}.

ويضيف أيضا {إن تقسيم الوطن عمل غير شرعي. ولن يعترف به أبدا. وتوقيع المؤسسات والأفراد على التقسيم باطل، ولن يلزم الشعب اليهودي. لقد كانت القدس وستظل إلى الأبد عاصمة لنا. وإيرتس إسرائيل ستعود إلى شعب إسرائيل كلها وإلى الأبد}.

بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك، متخذا من النص التوراتي الذي يقول إن حدود إسرائيل تتحدد بقدرة بني إسرائيل على التوسع شرقا حتى الفرات، وغربا حتى النيل {إن حدود إسرائيل هي حيث يشعر جنودها في مأمن} {ألا فليفهم الجميع أن إسرائيل قامت بالحرب وأنها لن تقنع بما بلغته من حدودها حتى الآن. إن الإمبراطورية الإسرائيلية سوف تمتد من النيل إلى الفرات.. ويضيف.. إن خارطة إسرائيل ليست خارطة وطننا. لدينا خارطة مختلفة. وعلى تلامذة المدارس اليهودية جعلها حقيقة واقعة. وعلى الأمة الإسرائيلية أن توسع حدودها لتشمل المنطقة من النيل إلى الفرات}.

في سنة ١٩٥٥م صدر عن الحكومة الإسرائيلية {إن خلق الدولة الجديدة لا ينتقص بحال من الأحوال من إطار الحدود التاريخية لأرض إسرائيل}.

وهو ما ردده أيضا بيغن في مرحلة لاحقة {سوف تعود أرض إسرائيل إلى شعب إسرائيل بكاملها وإلى الأبد}.

وفي موقع آخر يضيف {إن فلسطين بكاملها كانت دائما ملكا للشعب اليهودي، والآن أصبحت في أيدينا أرضا محررة، والسكان العرب فيها متطفلون وغرباء وغير مرغوب فيهم}.

ويقول، ملمحا إلى حدود إسرائيل الكبرى، وإلى مطامعها الاقتصادية الاستعمارية الإحلالية فيها {فنحن إذ نمد أبصارنا إلى الشمال نلتقي بسهول سوريا ولبنان الخصيبة.. وإلى الشرق تتراءى الوديان الغنية لدجلة والفرات.. ونفط العراق، وإلى الغرب بلاد المصريين. فلن تتوفر لدينا إمكانات التطور حتى نحل قضايا الأرض من مواقع القوة. إننا سوف نرغم العرب على الرضوخ المطلق}.

وفي موضع آخر يقول {باسم تراث الآباء الذي يعود إلى آلاف السنين أعلن أن حكومة إسرائيل لن تطلب من أي أمة قريبة أو بعيدة، صغيرة أو كبيرة، أن تعترف بحقنا في الوجود وفي الأرض، لقد حصلنا على حقنا في الوجود وفي الأرض من آلهة آبائنا في فجر الحضارة الإنسانية منذ ما يقرب من أربعة آلاف سنة}.

وفي هذا السياق قال مندوب إسرائيل في هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٧٦م، متحديا الهيئات، والمجتمع الدولي {إنني لا أعتذر عن وجودنا في القدس، وليس علي أن أعتذر لأننا فيها بناء على الحق المعلن في توراتنا}.

وجاء في مذكرة الأرغون التي كان يرأسها مناحيم بيغن، والتي رفعت إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة {إن تقسيم أرض إسرائيل عمل غير شرعي، إن هذا البلد الذي لم يزل الموطن الأبدي لشعبنا، لوحدة واحدة تاريخيا وجغرافيا واقتصاديا، أليس من العبث أن يكون حكم اليهودية والسامرة والجليل في يد غير اليهود؟، إن أسماء هذه الأراضي لتدل على أصحابها الحقيقيين، وهل يقل عن ذلك عبثا ألا تكون أورشليم - مدينة داود، عاصمة لدولتنا؟، إن شعبنا سيخوض الحرب حتى يتحرر كل شبر من أرضنا}.

وفي كتاب الثورة لبيغن جاء {لن يكون سلام لشعب إسرائيل ولا لأرض إسرائيل، ولا للعرب أيضا، ما دمنا لم نحرر وطننا كله}.

وقد جاء في التلمود إن إسرائيل تدعى أرض الظبي، وحسب التفسير الصهيوني، فإن جلد الظبي دائما يكون مشدودا على جسمه، وكلما ازداد جسد الضبي توسع الجلد بما يكفي لاحتواء جسده، دون أي ترهّل، ودون تمزق، أي أن أرض إسرائيل، أو حدود إسرائيل (المطاطية) تتحدد من خلال مقدرة الصهيونية على استقدام المزيد من المهاجرين اليهود، وحسب التزايد السكاني في إسرائيل.

وكانت قد أجابت غولدا مائير عندما سُئلت عن المناطق الضرورية لأمن إسرائيل {إذا أردت القول بأن علينا رسم خطوط فإننا لم نفعل ذلك، وسنقوم به عندما يحين الوقت. ولكن إحدى النقاط الأساسية في سياسة إسرائيل هي أن حدود الرابع من حزيران يوم ١٩٦٧م لا يمكن أن تعاد ضمن اتفاقية سلام. لا بد من تعديل في الحدود. إننا نطالب بتغيير في حدودنا كافة لمصلحة أمننا}.

ومن هنا فلن يستطيع أحد من الساسة الإسرائيليين أن يرسم أي ملامح لحدود دولة إسرائيل، لأنه سيعرض نفسه إلى التصفية السياسية، أو حتى الجسدية كما حصل مع إسحق رابين سنة ١٩٩٥م، بعد توقيعه اتفاقية السلام مع الفلسطينيين، والأردنيين.

- أما الادعاء الثاني التي نجح الإعلام الصهيوني في ترسيخه، فهو ادعاؤها السياسي بشرعية احتلالها، واستيطانها في فلسطين، ومن الطريف ذكره، أن الصهيونية استطاعت أن تقنع الرأي العام العالمي أن (فلسطين أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض)، وأن تستمر بتغذية هذه الأكذوبة، والتي انطلت على الرأي العام العالمي لمدة قرن من الزمان تقريبا، وهذه المقولة تشكل حالة نسقية من الادعاءات الصهيونية اليهودية المتعددة، والتي استطاعت أن تعلنها وتعممها وتمشّقها في الذهنية الدولية من على المنابر التي حرصت على إعلائها، كما حرصت على تكميم أي صوت يحاول أن يكشّف الضباب عن الحقيقة، أو حتى أن يشكك في تلك

المقولات اليهودية الصهيونية، تقول غولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل سنة ١٩٦٩ {لا وجود للفلسطينيين.. وكأن هناك من يقول بوجود شعب فلسطيني جئنا لإخراجه من بلده.. كلا.. ليس هناك أي وجود لشعب فلسطيني}.

وكانت مقولة زنغويل (شعب بلا أرض، لأرض بلا شعب) قد انطلت في البداية حتى على قادة الصهيونية، حتى أن ماكس نوردو فوجئ بسماعه وجود شعب فلسطيني، فخاطب هرتزل قائلا {لم أكن أعلم بهذا، إننا إذا لمقدمون على ارتكاب ظلم}.

وحين سأل أينشتاين وايزمن عما سيحدث للعرب بعد أن يستولي اليهود على فلسطين، رد عليه وايزمن {أي عرب؟، يكاد لا يكون لهم أثر}.

وكان وايزمن قد قال سنة ١٩١٤م {هناك بلد صودف أنه يسمى فلسطين، بلد بلا شعب، وفي الجانب الآخر هنالك الشعب اليهودي لا بلد له، وماذا يراد غير إدخال الإصبع في الخاتم للجمع بين هذا الشعب وهذا البلد}.

وفي هذا الصدد هناك الكثير من المقولات الصهيونية التي يمكن الاستشهاد بها في هذا المقام، منها ما قاله بن غوريون في غير مناسبة:

{لقد أنشئت دولة إسرائيل في بلادنا التي قطنها المحتلون والغزاة العرب طوال ١٣٠٠ سنة}.

بن غوريون {تتألف كل دولة من الأرض والشعب، وإسرائيل لا تشذ عن هذه القاعدة، غير أنها لم تأت مطابقة لأرضها، فقد قامت فوق جزء من أرض إسرائيل التاريخية}.

وكان قد قال بن غوريون في سنة ١٩٥٥ {إن إسرائيل لا تطمع في الحصول على بوصة واحدة من الأرض الأجنبية، ولا تسمح لأحد أن يسرق بوصة واحدة من أرضها، ولا بد من تحرير ما تبقى من أرض إسرائيل الخاضعة لسيطرة أجنبية في مستقبل الأيام، وضمها إلى الأراضي المحررة لتتكامل أرض الوطن القومي اليهودي}.

وهو ما أكد عليه بعد العدوان الثلاثي على مصر {إن الجيش الإسرائيلي لم يكلف نفسه عناء احتلال أرض العدو في مصر، وإنما اقتصر في عملياته على تحرير شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة من قوات العدو}.

الحاخام تسفي يهودا كوك الأب الروحي لغوش إيمونيم (١٨٩١ - ١٩٨٢م) {كل هذه الأراضي لنا.. جاء إليها الآخرون وبنوا عليها في غيابنا من دون إذن منا}.

ويقول ناطق باسم غوش إيمونيم {إن العرب سكان مؤقتون، صودف أن سكنوا في هذه البلاد}.

ويقول الحاخام شلومو أفينر {إن الوضع يشبه رجلا دخل منزل جاره من دون إذن، وسكن فيه طوال سنوات، وحين جاء صاحب البيت الأساسي، زعم الغازي: إنه منزلي، إني أسكن هنا منذ أعوام، ماذا يهم، طوال هذه الأعوام كان لصا، والآن يجب عليه أن يرحل، وأن يدفع أجرة السكن أيضا. يمكن للمرء أن يقول: هناك فارق بين السكن ثلاثين عاما، والسكن ألفي عام، ونحن نسأله: هل من قانون يحدد للص حقا في ما ينهبه؟، كل إنسان كان هنا يعرف جيدا أنه يسكن في أرض يملكها شعب إسرائيل} ويقول أيضا {لقد أمرنا إله إسرائيل بأن نستولي على هذه الأرض كلها، في حدودها المقدسة، وبأن نفعل ذلك بحروب التحرير}.

مناحيم بيغن {ليس لعبارة الضفة الغربية أي معنى، إنها يهودا والسامرة، وهي أرض إسرائيل التاريخية، وملك للشعب اليهودي}.

المؤرخ التوراتي أهاروني {لا يوجد شعب فلسطيني قديم، بل يوجد سكان ما قبل التاريخ، ولذلك لا يمكن أن يكون هناك شيء اسمه تاريخ فلسطين.. - إن - الشعب الأول والوحيد الذي جعل من هذه الأرض وطنا له هو شعب إسرائيل}.

أما المؤرخ التوراتي ديفيد كاتاريفاس {إن العرب سيطروا على البلاد، ولم يتمركزوا فيها، وإن جميع الذين حكموا البلاد فترات متفاوتة، من آشوريين وبابليين وفرس ويونان وعرب، جميع هؤلاء الذين حكموا البلاد منذ قرون كانوا غرباء عنها، وليس لهم ارتباط معها، لا جذور لهم فيها.. إن صلة اليهود بالأرض هي وحدها الصلة الحقيقية والواقعية والتاريخية}.

ويقول رئيس جامعة بار إيلان الدينية هارلود فيش {إن اليهود هم الأمة التي عينها الله شعبا شرعيا أبديا، لا مطعن في حقه في أرض إسرائيل كلها، أما الفلسطينيون فلا حق شرعيا لهم على الإطلاق في ادعاء المواطنية أو المطالبة بأي قطعة من البلد.. والعهد بين شعب إسرائيل وإلهه، ذلك العهد الذي تعد أرض الميعاد جزءا لا ينفصل عنه، هو غاية مهمة من غايات خطة الخليقة، وهذا الواقع هو ما يرسخ العلاقة بين شعب إسرائيل وأرضه.. إن فرادة اليهود الأبدية ناتجة عن العهد الذي قطعه الله معهم في جبل سيناء، وهو حدث تاريخي حقيقي ذو نتائج أبدية، ولا مفر للعالم كله منها}.

وقد استطاع الإعلام الصهيوني أن يغيّب، في البداية، الشعب العربي الفلسطيني وجوديا، وحين تكشف للعالم وجوده حاول تغييبه حضاريا وسياسيا، فرسم صورته في ذهنية العالم الغربي على أنه شعب متخلف، بدائي، همجي، عدواني دنس الأرض المقدسة التي

تسيل عسلا ولبنا، وحولها إلى صحراء قاحلة، وفي هذا السياق يقول برمياهو أستاذ الفلسفة في الجامعة العبرية {على الرغم من وجود هؤلاء، يجب اعتبارهم غير موجودين، والنظر إليهم على أنهم ليسوا من البشر، وحرمانهم حقوقهم كجماعة}، كما قام الإعلام الصهيوني بتغييب فلسطين تاريخيا، وجغرافيا، ولم تتكشف حقيقة هذه الأكاذيب الصهيونية الإعلامية، بشكل واضح إلا بعد انطلاق الانتفاضة الفلسطينية، ولكن بعد أن كانت الصهيونية قد حصدت كل ما تريده منها.

ومن الادعاءات الصهيونية الإعلامية التي روج لها الإعلام الصهيوني، ووجهته نحو العالم العربي على وجه التخصيص، هي مقولة (الجيش الإسرائيلي.. الجيش الذي لا يقهر)، وقد كان لهذا الادعاء تأثير كبير على الذهنية العربية التي استسلمت لتلك المقولة، وفي هذا السياق يقول مونتبني {أي نصر كبير تنتظرون أكثر من إفهام عدوكم بأنه عاجز عن قتالكم}.

وقد كان الإعلام الصهيوني قد قام بتصنيع مجزرة كفر قاسم في حرب سنة ١٩٤٨م، التي من خلالها استطاع أن يفرّغ الكثير من القرى الفلسطينية من أهلها دون أي مقاومة، ولكن التأثير الإعلامي الأكبر لأسطورة الجيش الذي لا يقهر فقد تجلى في حرب حزيران لسنة ١٩٦٧م، إلا أن حرب تشرين لسنة ١٩٧٣م حررت جزئيا الذهنية العربية من هذه المقولة.

ومن مثل هذه الادعاءات أيضا، هو التصور الشائع الذي يتلخص بأن اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية هو الذي يدير رجالات البيت الأبيض، وبالتالي فإن اليهود يتحكمون بالسياسة العالمية، وهو تصور يقوم الإعلام الصهيوني بالإيحاء به تلميحا، بخاصة وأن البيت الأبيض يتجاهل الرد على هذه الادعاءات، على الرغم من أنها تشكل إهانة لهيبته السياسية، بل ربما تساهم بالترويج لهذا الادعاء، أما أعداء اليهود فهم الذين يقومون بالتصريح به، وهم الذين يُتهمون من قبل البعض بأنهم (أصحاب المؤامرة)، والكثير من الباحثين، ومنهم د٠عبد الوهاب المسيري، يرون أن أعداء اليهودية من (أصحاب نظرية المؤامرة)، والصهيونية يقدمون خدمات إعلامية واسعة للصهيونية من خلال إلصاق صفات الشر والعدوان والمؤامرات المهولة باليهودية والصهيونية، كما أنهم وراء الترويج، والتضخيم (لليد الخفية اليهودية)، والماسونية، والتنظيمات السرية اليهودية، وهم يعتقدون على سبيل المثال أن (بروتوكولات حكماء صهيون) ما هي إلا مجموعة من الكتابات ألفها ونشرها أعداء اليهودية باسم اليهود كي يشوهوا صورتهم الأخلاقية.

كما أن العرب وبخاصة الإعلام السلطوي قد ساهم في أسطرة التفوق الصهيوني، من خلال تضخيم الإعلام العربي للصورة القبيحة لليهودية، وللقوة العسكرية للصهيونية،

والسلطة، والإعلام العربي من خلال ذلك يظهرون انتصار العرب الأخلاقي على اليهود، ويسوغون عجزهم وهزيمتهم العسكرية أمامهم، يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري في هذا السياق {فنحن في رصدنا - لإسرائيل - لا نركز إلا على مواطن قوتها وتقدمها وتفوقها، وهذه هي الموضوعية العلمية، أما إذا اكتشفنا نقاط ضعف العدو وقصوره وتآكله، فإن هذا يصنف باعتباره خداعا للذات. إن الذات المهزومة تخضع تماما للآخر ولا يمكنها أن تتصور أن من الممكن أن تتفاعل داخله عوامل الحياة والانتصار والموت والانكسار، .. ومع أطروحة الهزيمة الاختزالية، تحول الكثير من الباحثين إلى جند مجندة تخدم العدو بنزاهة موضوعية دون أن تدري، فهي ترصد مواطن قوته، وتصدق كل ما يقوله وتتصرف في إطاره بأمانة مضحكة}.

أما الادعاء السياسي الثاني الذي نجح الإعلام الصهيوني في إضاعته، وتصويره بعدسات مضخمة، فيتمثل في الهولوكست النازي، حيث استطاع الإعلام الصهيوني أن يقنع القاضي العالمي الافتراضي، ودون مزيد من التردد، بالموافقة على كل الأطروحات المقدمة لإنقاذ المضطهدين، أو على الأقل، أن يغض الطرف عن كل ما هو لا شرعي في إجراءات الهجرة إلى فلسطين لإقامة وطن قومي لليهود تنفيذا لما جاء في وعد بلفور، كما كان لتلك الحملة الدعائية الإعلامية تأثير تعاطفي كبير مع اليهود في العالم بأسره، وظهر ذلك جليا خلال تداول اتخاذ قرار التقسيم في هيئة الأمم المتحدة في سنة ١٩٤٧م، وقد نجح الإعلام الصهيوني في الوصول، والتأثير على الضمير الإنساني، والذي تلاه مسبوقا، وملحوقا بنحيب اليهود الذين عانوا من الاضطهاد الآري النازي في المجال الحيوي الألماني، والذي سوقه الإعلام الصهيوني على أنه اضطهاد ذو جوهر عرقي، وليس ديني، خوفا من تعاطف العالم المسيحي الغربي مع مسيحية هتلر، ومن حينها ارتبطت تهمة معاداة السامية مع تهمة النازية، وهي التهمة التي كان يخشى أي فرد أو جهة أن توجه له.

الصهيونية، وتهمة اللاسامية

السامية، تعبير سياسي أطلقه كل من شلوتزر، وهلفي العالمين النمساويين اليهوديين في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ميلادي، وهو الذي نحته من التوراة التي قسّمت البشر إلى:
ساميين، وهم شعوب الشرق الأدنى القديم، والذي أوكل لهم الرب مهمة حملة اللاهوت.
ويافثيين، وهم شعوب أوربا التي أوكل إليها الرب مهمة التفكير.
وحاميين، وهم الشعوب الأفريقية التي أوكل إليها الرب خدمة الشعوب الأخرى.

ومن مصطلح السامية، ولد المصطلح الذي أصبح أكثر شهرة، وهو معاداة السامية، أو اللاسامية، الذي بلورته الصهيونية، والتي جعلت من اليهود فحسب الشعب السامي الوحيد، على الرغم من أن العرب، حسب التوراة، هم من الشعوب السامية، ومن هنا فقد كان العرب، كلما وجهت الصهيونية لهم تهمة اللاسامية، يدافعون عن أنفسهم ودون أدنى تريث نحن ساميون أيضا، فكيف نكون أعداء أنفسنا؟؟؟، وبذلك فإن الصهيونية، وبطريقة خبيثة، جعلت العرب، وسواهم من الشعوب يقرّون بالنظرية اليهودية العرقية اللاإنسانية بكل مفرداتها وجملها، وأهمها اعترافهم الضمني بأن اليهود هم شعب الله المختار، وبالتالي إقرار الشعوب بالمعاهدة التي تمت بين الآباء الأوائل لليهود، وبين الرب يهوه، والتي بمقتضى هذه المعاهدة أصبحت أرض كنعان ملكا أبديا ومقدسا لشعب الرب المختار الذين يمثلون الرب على الأرض، وهذا ما يعطيهم حالة خاصة واستثنائية أو حصانة قانونية، ليس فقط ضمن القوانين السماوية، بل والأرضية، وعلى رأسها حصانة دولية في هيئة الأمم المتحدة، وما يصدر عنها من قوانين تنظم علاقات الدول والشعوب فيما بينها.

وكانت الصهيونية قد روّجت في سياق اتفاقية كامب ديفيد (خيمة داود) أن المصريين، وهم من الحاميين، هم أبناء عمومة اليهود الساميين وقد انطلت الخديعة على الإعلام الرسمي المصري آنذاك، دون أن يتنبهوا أنهم بذلك جعلوا الآراميين وهم أهل بلاد الشام، والعرب سكان الجزيرة العربية أقرب إلى اليهود منهم إلى الشعب المصري وشعوب المغرب العربي، وبذلك أعادت الصهيونية الانتماءات إلى ما كانت عليه أثناء تشكل دولة إسرائيل التوراتية في القرن العاشر قبل الميلاد، فمصر هي فرعونية، والسودان هي كوشية،

والمغرب العربي وأفريقيا بشكل عام هم من أبناء حام، وبلاد الشام هم آراميون ساميون، والخليج العربي هم إسماعيليون ساميون أيضا، وبلاد الرافدين هم بابليون وأكاديون من أبناء حام، أما الكنعانيون الذين صب عليهم اليهود جام أحقادهم، فهم الشعب الذي لعنهم الرب.

إن اليهودية عبارة عن شريعة سلطوية، أي لا يمكن تطبيقها إلا على شعب عضوي، وأمة بالمعنى السياسي السيادي، واليهودي العنصري لا يمكن له أن يخضع لقوانين غير قوانين يهوه المقدسة، والتي لا يمكن أن تطبق إلا على شعب عضوي، ولأن اليهودي العنصري رفض التخلي عن يهوديته فقد اصطدم اليهود في شتاتهم بقوانين الأمم والشعوب (المدنسة، المستحقرة) في العالم الأوربي الذي يخضع لقوانين بشرية، ومن هنا فإن اليهودي تمسك بشريعته في ظل نظام تشريعي آخر، الأمر الذي قاد إلى صدام بين اليهودي الغريب، وبين المواطن العضوي، وبالتالي السلطة، وهذه النقطة هي الأهم من بين الأسباب التي ولّدت معاداة اليهود على مر الزمكان، حسب ما ذهب إليه برنار لازار في كتابه (مناهضة السامية).

وكانت اللا سامية قد ساهمت في تشكيل (الصهيونية غير اليهودية)، والتي ساهمت بدورها في تشكيل الصهيونية اليهودية، وعلى الرغم من أن الصهيونية اللاسامية، والصهيونية اليهودية على طرفي نقيض، إلا أنهما كانا على وفاق في عدة نقاط أهمها، أن كلتا الصهيونيتين رفضتا اندماج الجماعات اليهودية في المجتمع الغربي الأوربي المسيحي، فأعداء اليهود (أصدقاء الصهيونية) يرون اليهود كائنات طفيلية، أو خلايا سرطانية تؤدي إلى خلل في نمو المجتمعات، أو جراثيم قذرة تسمم الجسد الذي تحل فيه حسب رأي المفكر الاشتراكي ألايزا، وهو أيضا ما كانت تروّج له الصهيونية لتحريض القيادات الأوربية على تبني المشروع الصهيوني، وكان الأب الروحي للصهيونية موسى هس قد قال {فالأمم المسيحية لا تعارض عودة الدولة اليهودية إلى الحياة لأنهم بهذه الطريقة سيتخلّصون من شعب غريب يعيش بينهم بعد أن كان شوكة في جنبهم}.

أما ماكس نوردو فقد كان قد قال عن اليهود {كائنات دقيقة لا تراها العين ولكنها في واقع الأمر تقوض المجتمع من الداخل وتفت في عضده، وذلك إن لم تعرّض للشمس}.

كما أن الصهيونية تعتقد أن اليهودي لا يمكن أن يخلع جبته الكلسية التي تحول دون اندماجه إلا على أرضه المقدسة، حيث هناك يمكنه خلع جبته والباسها كجدار غيتو حول الدولة الصهيونية، كما أن الصهيونية كانت ترى أن اللاسامية تشكل أحد المصادر الإيجابية التي تدعم الفكر الصهيوني، وكان هرتزل قد قال {المعادون للسامية سيكونون

أكثر الأصدقاء الذين يمكننا الاعتماد عليهم، وستكون الدول المعادية للسامية حليفة لنا} ، لأن كسب المزيد من الأعداء، يعني كسب المزيد من مؤيدي وداعمي الدولة الصهيونية، وهذا يعني أن السامية واللاسامية كلاهما كانا يصبّان في جيب الصهيونية، وأن أعداء اليهودية ، والمتعاطفين معها ، على حد سواء سيسعون بكل إمكاناتهم لتشكيل وحماية الدولة الصهيونية، وحسب قول هرتزل {سوف ينتصر اللاساميون، ولكن لا تحسدوهم لأننا نحن أيضا سنكون سعداء} .

على الرغم من أن هرتزل كان يشكك في ما يدعيه المتزمتون من أن اليهود يعودون إلى عرق واحد {كل ما أستطيع قوله أننا - نحن اليهود - وحدة تاريخية وأمة ذات أصول بشرية متنوعة.. ويكفينا ذلك لقيام دولة يهودية إذ ليس هناك أمة ذات عرق صاف.. إن العداء للسامية قد جعل منا شعبا يهوديا} .

أما بنسكر فيقول {إن اليهودية والعداء لليهودية يسيران جنبا إلى جنب عبر التاريخ منذ قرون عديدة، فاليهود هم الشعب المختار بسبب الحقد الأبدي للبشرية} .

أما وايزمان فيقول {إن السبب الرئيسي للاسامية هو وجود اليهودي} .

وهو مشابه لما قاله سوكولوف {.. إن تميز اليهودي بخصوصياته العرقية هو سبب الحقد الدائم الذي يكنه غير اليهودي له.. وأن جميع الشعوب التي يعيش اليهود بينها هي ذات نزعة لا سامية ظاهرة أم مخفية} .

وهو ما ذهب إليه آرنولد توينبي حين قال {إن الصهيونية والعداء للسامية هما تعبيران عن وجهة نظر متماثلة، والفكرتان تقومان على فرضية واحدة هي أنه يستحيل على اليهود وغير اليهود التعايش في مجتمع واحد} .

أما بيغن فقد قال {لا يمكن التفريق بين معاداة إسرائيل ومعاداة الصهيونية، واللاسامية} .

وملخص القول، فإن اليهودية، ومن بعدها الصهيونية ترى أن العالم من خلال لاساميته أجبر اليهود على اعتناق مبدأ الدولة - الأمة، وعلى العقلية اللاسامية العالمية تقع الملامة لا على اليهود، وأن هتلر هو من أسهم أكثر من غيره في تحديد الهوية اليهودية، وأن أوشفيتز، وهي أحد أهم رموز اللاسامية، هي التي رفعت حالة الوعي اليهودي بالهوية اليهودية، وقد دفع الشعب اليهودي ستة ملايين إنسان ليصبح اليهودي يهوديا حسب الادعاءات الصهيونية، ومن رمادهم طارت عنقاء اليهودية، وفي هذا الصدد يقول إسحق دونشر (اليهودي الماركسي) {إذا لم يكن العرق هو الذي يصنع اليهودي فما الذي يصنعه إذن؟ الدين؟ أنا ملحد. القومية

اليهودية؟ أنا مؤمن بالأممية، ولذلك فأنا لست يهوديا في أي من المعنيين. ومع ذلك فأنا يهودي بفعل تضامني غير المشروط مع الناس الذين يطاردون ويبادون. أنا يهودي لأنني أحس الفاجعة اليهودية هي فاجعتي اليهودية. لأنني أحس تحت أصابعي نبض التاريخ اليهودي، لأنني أريد أن أصنع كل ما في وسعي لأوفر لليهود أمانا واحتراما للذات أصيلين لا مزيفين}.

واللاسامية أصبحت التعبير الأكثر شهرة الذي روجت له وسائل الإعلام الصهيونية ضد كل من يعمل ضد اليهود، أو بصيغة أدق وأوضح من لا يعمل تحت إرادتها ومشيئتها، بغض النظر عن انتمائه وجنسه، وبالتالي فاليهودي قد يكون لاساميا، وهذا يعني أن السامية الصهيونية هي انتماء سياسي وليس عرقي، وقد بلغ هذا التعبير ذروة شهرته في سياق المجازر النازية لليهود، وقد أصبح مصطلح اللاسامية، الذي عرفت كيف تسخره، وتستثمره الصهيونية، من أخطر التهم التي قد توجهها الصهيونية العالمية إلى فرد أو مؤسسة أو حكومة على الإطلاق، وكان خطابها السياسي الإعلامي على الضمير العالمي يرتكز على أن الاضطهاد الآري لليهود ذو جوهر عرقي، وليس ديني خوفا من تعاطف العالم المسيحي مع مسيحية هتلر، ومن حينها انطلقت دعاية (معاداة السامية)، وهي التهمة التي كان يخشى أي فرد أو جهة أن يُتهم بها لمساواتها بالنازية، لا سيما وأن الإعلام الصهيوني نجح في جعل اليهود النقطة البارزة في أي شيء، فلو حصل اضطهاد من قبل أمة، أو جماعة ما لمجموعة من الأقليات، وكان بينهم يهودي واحد فسيكون التركيز على هذا اليهودي وستصبح الجماعة المضطهدة جماعة لاسامية.

وتهمة اللاسامية توجّه إلى أي نشاط يقوم به أي فرد، أو جهة أو مؤسسة ضد اليهود سواء كانوا أفرادا أم جماعات، أم مؤسسات، وبذلك فإن للاسامية أنواع متعددة أهمها:

- اللاسامية المسيحية اللإجتماعية، وهي أكثر اللاساميات شهرة، وتعود إليها أكثر الأعمال العدوانية التي تعرض لها اليهود في العالم الأوربي الذي كان ينظر إلى اليهودي على أنه قاتل المسيح من جهة دينية، كما أنه ينتمي إلى أثنية، أو عرق غير أوربي من جهة اجتماعية أثنية.

يقول برنار دي لازار صاحب كتاب (مناهضة السامية) {إن اليهودي معاد للمسيحي بالضرورة، فبكونه يهوديا تحتم عليه يهوديته أن يكون عدوا لكل الأديان الأخرى، فهو معاد للمسلم ولكل تعاليم دينه، وكذلك معاد لتعاليم الأديان الأخرى بالضرورة.. هذه حال اليهود ووجودهم الطفيلي بيننا، إن اليهودي بمثابة مذيب للمسيحية، وزارع للفوضى والشغب والفساد، هذه الأمور الخطيرة تسبب الكوارث والحروب، وقد ثبت لنا بأن قبول اليهودي في

جسم أي أمة من الأمم يعني دمارها وهلاكها، وأن دخول اليهودي في أي مجتمع إنساني فذلك يؤدي حتما إلى تدمير هذا المجتمع وزوال دولته}.

ويضيف في موضع آخر {أي الفضائل وأي مثالب استحق اليهودي من جرّائها هذا البغض العالمي؟ لماذا أهين وأسيئت معاملته، وكره على مرّ الأزمان، وبشكل متساوي من الإسكندريين ومن الرومان، من الفرس والعرب والأتراك، ومن الشعوب المسيحية؟ لأنه أينما كان وحتى يومنا هذا كان اليهودي كائنا غير اجتماعي.

لماذا كان غير اجتماعي؟ لأنه كان إنسانا مطلق التحيز لأفكاره}

- **اللاسامية الأثنية القومية**، وهي التي تنظر إلى اليهود على أنهم شعوب غير أوربية يخلّون بالنظام العام، وينافسون الأوربيين على خيرات بلادهم، ولأن العالم الغربي لا يمكن أن ينكر للحضارة الشرقية (السامية) دورها الحضاري، فكان العالم الأوربي يقسمون العرق السامي إلى فرعين، أو قسمين:

ساميون راقون، وساميون منحطون يمثلهم العرق اليهودي، وتُعَدّ النازية أهم مشتقات اللاسامية القومية.

يقول برنار دي لازار صاحب كتاب (مناهضة السامية) {أينما حل اليهود واستوطنوا.. نمت وانتشرت مناهضة السامية، أو بالأحرى، مناهضة اليهودية} لأن {هذا العرق كان هدفا لكره جميع الشعوب التي عاش فيما بينها. لذلك، وبما أن أعداء اليهود ينتمون إلى أعراق وأصول مختلفة ومبادئ متعاكسة، وليس لديها العادات نفسها، ولا الأعراف نفسها، تحركها ذهنيات متباعدة لا تسمح لها أن تحكم على الأشياء بشكل متماثل، وجب، إذن، أن تكون الأسباب العامة لمناهضة السامية كامنة في اليهود ذاتهم، وليس عند الذين يحاربونهم}، وأيضا لأن هذا {الشعب اليهودي أراد أن يكون قوة قادرة، فهو شعب نشيط حيوي متغطرس بلا حدود، كان يعد نفسه أعلى من بقية الأمم. وعنده ميل غريزي إلى السيطرة، وذلك بسبب أصوله ودينه ونوعية العرق المصفى التي نسبها - دوما - لنفسه في جميع العصور، فهو كان يعتقد نفسه فوق الجميع}، وهكذا {استمر اليهود في كل مكان مثل قبيلة غريبة محافظة غيورة على قوانينها وعاداتها قررت الموت الفكري والروحي عن أن تموت فيزيائيا وطبيعيا}.

- **اللاسامية الاقتصادية**، وهي تتفشى في كل الأطر والمناخات الاقتصادية، وهي تمثل بؤرة الصراع بين الرأسمال الوطني، والرأسمال الأجنبي، وهي التي ترى أن اليهودي الدخيل يمتلك حراكية عالية في التحكم بالمال، وهذا ما من شأنه أن يضايق التاجر الوطني العضوي.

كما يمكن اشتقاق، وتصنيف أنواع متعددة من اللاسامية منها اللاسامية الميتافيزيقية العقيدية التصورية، واللاسامية الثورية، واللاسامية الأدبية وهي التي استمرت بعد أن انتهت كل أنواع اللاساميات الأخرى، على الرغم من أن الصهيونية استطاعت أن تقمع، وتكتم الأصوات المعادية من خلال توجيه تهمة (اللاسامية) التي تعادل تهمة الجريمة، ولكن ما زال هناك بعض الأقلام (العنيدة) تصر على تدوين أفكار أصحابها، ويُعَدّ روجيه غارودي من أهم شخصيات هذه اللاسامية في الوقت الحالي، وهو الذي يقول في كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) {ما ننبذه هو القراءة الصهيونية القبلية القومية لهذه النصوص، حين تقلّص الفكرة العملاقة (للميثاق) بين الله والإنسان، وجميع الناس، ولحضوره في الجميع، وحين تستخلص منها الفكرة هي أكثر أفكار التاريخ الإنساني شرا: فكرة (الشعب المختار) من إله متحزب ومتحيز (فهو إذن وثن) مسوغ سلفا جميع أنواع السيطرة والاستعمار والمذابح، وكأن ليس في التاريخ من (تاريخ مقدس) سوى تاريخ العبرانيين}.

كما يقول روجيه غارودي {إسرائيل حدث استعماري من حيث الجوهر مغلف بأسطورة لاهوتية كاذبة}.

ويقول أيضا في كتابه (إسرائيل الصهيونية السياسية) {الصهيونية السياسية لم تولد من التقاليد اليهودية وإن كانت إسرائيل تستغلها ستارا ومسوغا بل من القومية والاستعمار الغربي السائد في القرن التاسع عشر، وبالتالي فإنها أحد أشكال العنصرية القومية الاستعمارية} وهذا التصور (السطحي) هو الذي تبناه الكثير من المفكرين العرب، والذي تم بناؤه على أساس (العقد الصامت) الذي أبرم بين التطلعات الاستعمارية الغربية التي حاولت استغلال المعتقد، والتصور اليهودي الديني التوراتي من جهة، وبين التطلعات الصهيونية اليهودية الدينية الصوفية لإنشاء وطن قومي يهودي، كما أنه تأثر بالخطاب الصهيوني المراوغ الذي كان يصور للعالم الغربي أن الصهيونية تحاول إنشاء وطن قومي يهودي، في أي مكان، لحماية اليهود من الأعمال اللاسامية الأوربية، ولو كانت الصهيونية عبارة عن فكرة استعمارية بحتة، لما حاول اليهود أن (يعودوا) ويتمسكوا بوطنهم الصوفي الذي يسمونه الفردوس المفقود، على الرغم من أنه يمثل في الجحيم الحقيقي.

الصهيونية والنازية

بعد أن ترسخ مفهوم القومية الأوربية في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، تطورت، أو تطرفت بعض هذه القوميات نحو العنصرية الشوفينية، كما هو الأمر عند القومية السلافية، والآرية النازية، والإيطالية الفاشية، والفرانكية الإسبانية، وبما أن اليهودية هي عنصرية في تكوينها، فقد اصطدمت بالعنصريات الأوربية التي كانت على تماس معها، ومنها السلافية، والنازية الألمانية، لا سيما وأن هتلر كان يحمل حقدا شخصيا على اليهود، والذي حاول جعله موضوعيا في معرض حديثه عن النظرية النازية التي وردت في كتابه «كفاحي»، فحسب رأيه {إن الإنسانية تنقسم إلى ثلاثة أجناس:

١ - الجنس الذي صنع الحضارة.

٢ - الجنس الذي حافظ عليها وسندها.

٣- الجنس الذي يعمل على تدمير الحضارة.

أما الجنس الأول فهو الجنس الآري الصانع الوحيد للحضارة.

أما الجنس الثاني فهم الآسيويون من أمثال اليابانيين والصينيين الذين استمدوا الحضارة من الآرايين ولم يكونوا خالقين لها.

وأما الجنس الثالث فمثاله اليهود الذين ما فتئوا يهدمون منجزات الحضارة الإنسانية}

وهنا لي أن أذكّر ثانية بما قد قاله هتلر عن اليهود، واليهودية، في كتابه «كفاحي» والتي كنت قد أوردتها في معرض حديثي عن الشخصية اليهودية {إن ذكاء اليهودي متجه دوما نحو الهدم والتخريب، فهو وإن فعل خيرا أحيانا فعن غير قصد، لأنه يعتقد فيه الشر، ففعله}.

{إن اليهود ليسوا رحلا، لأن الرحل يتميزون بالمثالية، وهم لم يكونوا رحلا قط، بل كانوا وما يزالون طفيليات تنافس الشعوب على مقومات وجودها، ولئن تركوا المناطق التي سكنوها، فإنما تركوها مرغمين، ملعونين من كل الشعوب التي طردتهم بعد أن ضاقت بهم وبخروجهم عن آداب الضيافة}.

{ليس لليهود حضارة خاصة، ولا أخلاق.. فالشرط الذي يجعل من الشعب شعبا ذا حضارة ليس موجودا في - الشعب المختار - فليس لليهود مثالية، ذلك أن روح التضحية عند

اليهود لا تتعدى نطاق الأنا.. أما التضامن الذي تجده بين اليهود والذي يبدو قويا، ليس أكثر من تجمع زمني أشبه بتجمع قطيع من الذئاب لمهاجمة الفريسة، فما أن تنتهي الوليمة حتى يتفرق المدعوون، واليهودي لا يعرف التضامن إلا في حالة الخطر، والتضامن هنا يصبح واجبا في حالتين: تجاه العدو المشترك، أو تجاه فريسة مشتركة، فإذا زالت مسببات التضامن يرجع اليهود إلى أنانيتهم، ويصبح همهم الوحيد: الكيد والمؤامرات، ونهش بعضهم بعضا}.

{لقد تلمست بنفسي تكتل الإسرائيليين، وتجمعهم في حي واحد، ومحافظتهم الشديدة على تقاليدهم وعاداتهم وطقوسهم وإذا ظهر بينهم انقسام فهو مصطنع، وهم بذلك يلعبون لعبة قذرة، تعتمد الكذب طهارة مما يتنافى والطهارة الخلقية، طهارة الذيل التي يدعيها اليهود وطهارة الذيل هذه وكل طهارة يدعيها اليهود هي ذات طابع خاص فقذارتهم كانت تصدم النظر منذ أن تقع العين على اليهودي}.

وكان هتلر قد أجاب على سؤال وجه له عن سبب كراهيته لليهود، وعن سبب عدائية النازية لليهودية، واليهود {لا يمكن أن يكون هناك شعبان مختاران. ونحن وحدنا شعب الإله المختار. هل هذه إجابة شافية على السؤال؟}.

إن النازية من خلال اعتناقها للمذهب المادي النفعي، وتزويجها لمعتقدها المادي النفعي بالفلسفة الهيجلية النيتشوية الداروينية التي تجعل من الشعب الألماني (العرق الآري) عرقا سيدا، وقد وضعت عدة آليات للتخلص من الشوائب البشرية (السلاف، الغجر، اليهود) التي يمكن لها أن تعكر صفاء هذا العرق الآري المميز الذي ينتشر في المجال الحيوي لألماني، وكانت النازية تنظر إلى الجماعات اليهودية على أنها أولا هي شوائب مورفولوجية عرقية، كما أنها شوائب وظيفية أيضا (فائض بشري) لأنها شعوب طفيلية تعيش على حساب الآخرين، لا سيما وأنهم كانوا يتركزون في أعمال التجارة والصيرفة والربا التي كانت تستغل الشعب أبشع استغلال، وهذا ما جعل الجماعات اليهودية أعضاء مكروهين في المجتمع الوطني، بغض النظر عن النظرية العرقية لهم، وإضافة إلى ذلك كانت النازية تدّعي أن اليهودية تحيك مؤامراتها ضد ألمانيا، وقد حمّلت النازية هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية إلى اليهودية.

والنازية على اعتبارها نمطاً من أنماط الصهيونية اللاسامية، كانت ترى كالصهيونية، بأن لليهود وحدة تاريخية سياسية، ومن هذه النظرة كانت تُعَدّ أن اليهود جماعات عابرة في طريقها إلى وطنها القومي، وهذا يعني أن اليهود جاليات في أوربا

وليسوا أقليات وطنية، وأن أعضاء تلك الجماعات غرباء أو مهاجرين وليسوا مواطنين، ولذا يجب التخلص منهم بطردهم من أوربا إلى المكان الذي أتوا منه، أو إلى أي مكان في العالم خارج أوربا، وبالتحديد خارج المجال الحيوي الألماني، ولكن تصاعد ثقافة العنف، في سياق الحرب العالمية الثانية، جعل النازية تتبنى سياسة التخلص من اليهود، وسواهم من الأقليات، والقوميات الأخرى من خلال إبادتهم، ولا سيما السلافية، والغجر، الذين رفضت استقبالهم الكثير من الدول الأوربية ولا سيما بولندا، والولايات المتحدة، كما أبادت النازية الكثير من المسنين والعجزة الألمان، من خلال تصورها المادي النفعي للحياة.

إن النازية والصهيونية طرحان شبه متطابقين لنظرية فكرية واحدة، فكلاهما يقومان على أساس عرقي شوفيني، وكلاهما يقومان على مفهوم ارتباط الشعب (السيد)، على أرض مقدسة، ولا يمكن للشعب المميز النقي أن يتمثل تاريخيا إلا من خلال ارتباطه بأرضه (المقدسة)، حيث يتشكل من هذا الارتباط (الدولة المقدسة)، المتمثل بالرايخ الثالث بالنسبة للنازية، والهيكل الثالث بالنسبة للصهيونية.

إن الفلسفة النازية العلمية كانت متشربة بالتوراة الدينية، إلى درجة أن هتلر حاول أن يؤلمن اليهودية، بحيث جعل من الشعب الألماني شعب الله المختار، بل وأنه تبنى الرؤى المسيحانية اليهودية في الخلاص العالمي، أما الصهيونية الدينية فقد كانت شديدة التأثر بالنازية، وكان قادة الصهيونية اليهودية (تيودور هرتزل - الفريد نوسيج - ماكس نوردو) معجبون بالفكر النازي، لا سيما وأنهم كانوا متشربين بالثقافة الألمانية، وبالأخص بالفلسفة النيتشوية، والتي تشكل المنطلق النظري للنازية، مع العلم أن القيادات الصهيونية كانت ذات ثقافة ألمانية (هرتزل و نوردو)، إضافة إلى أن اليديشية هي رطانة ألمانية، وكانت لغة المؤتمرات الصهيونية الأولى هي الألمانية، كما أن الصهيونية استمدت الكثير من أفكارها من التصورات الرومانتيكية الألمانية، وهذا ما أدى إلى وجود تشابه كبير بين النازية النيتشوية والصهيونية اليهودية، فكلتاهما يشكلان ديانتين ملحدتين تتبنيان الحلول الزماني (من الإحلال)، فالإله المطلق حلّ في الإنسان الزمني وأصبح كائنا مقدسا، وكلتاهما تؤمنان بمبدأ (النفعية الداروينية)، وكلتاهما عنصريتان تقومان على إلغاء الآخر للحلول مكانه من خلال إبادته، وكلتاهما تؤكدان أن على الإنسان أن يتخلص من ضعفه ومن ترهّله، وأن يعيش بالقرب من فوهة البركان في حالة استنفار ويقظة دائمة، وكلتاهما تمجدان الماضي (الفردوس المفقود)، والمستقبل (نهاية التاريخ)

(زمن الخلاص)، أما الحاضر فما هو سوى حلقة لا قيمة لها سوى وصلها بين الماضي والمستقبل، وكلتاهما كانتا على وفاق بأن حل المسألة اليهودية هي بالهجرة إلى فلسطين، وقد شخص إسرائيل شاحاك لهذا التشابه معرفا دولة إسرائيل بأنها {عنصرية، إرهابية، نازية}.

وكانت كل مقولات مؤسسي الصهيونية متطابقة ومتساوقة مع مقولات النازية، فقد جاء في مذكرة صهيونية تحدد نمط العلاقة بين النازية والصهيونية {على تربة الدولة الجديدة، ألمانيا النازية، نريد أن نعيد صياغة بنية جماعتنا بأكملها بطريقة تفيد ألمانيا واليهود في المجال المخصص لهم، فهدف الصهيونية هو تنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين}، أما وايزمان فقد قال بتلميح صهيوني متراكب مع العقلية المنهجية النازية عن العدد الكبير لليهود (الفائض البشري) في ألمانيا {إن أي بلد يود تحاشي الاضطرابات المعوية عليه أن يستوعب عددا محدودا فقط من اليهود}.

ولما قررت، أو تبنت، النازية التخلص من اليهود من المجال الحيوي الألماني بإبادتهم، في سياق الحرب العالمية الثانية، بعد أن فشلت في ترحيله، وجدت بعض التعاون (القذر) من قبل بعض القيادات الصهيونية، التي حاولت أن تستفيد من العنف النازي ضد اليهود لدعم المنظمة الصهيونية، وإجبار اليهود على الالتفاف حول الصهيونية على اعتبارها المسيح اليهودي الذي سينقذ اليهود، ويعود بهم إلى أرضهم المقدسة، وأهم تعاون بين النازية والصهيونية الاستيطانية كان من خلال اتفاقية الهاعفراه (الترانسفير أو الترحيل) سنة ١٩٢٣م، والذي من خلاله سمحت النازية لكل يهودي يهاجر إلى فلسطين أن يُخرج معه جزءا من أمواله شريطة أن يشتري فيها في فلسطين منتجات ألمانية، والمعروف أن اليهودية كانت في تلك الفترة قد أعلنت المقاطعة الاقتصادية لألمانيا، وبذلك فقد تم الالتفاف على قرار المقاطعة اليهودي من قبل النازية، أما الصهيونية فقد استفادت في تلك الفترة بتهجير كتلة بشرية تعد ٥٢٣٠٠ إنسان يهودي بين سنتي ١٩٣٣ - ١٩٤١م جميعهم من النخبة، وعلى رأسهم قرابة سبعة آلاف رأسمالي، والباقي كانوا من الأطباء والمحامين والمهندسين وما شابه من شخصيات الطبقة الوسطى.

وهناك الكثير ممن يؤكدون على أن القيادات الألمانية النازية قد أبقت على لغة الحوار مع الصهيونية، على الرغم من كل الأعمال الاضطهادية لليهود، بل وكانت تحسن معاملتهم، كما هناك يعتقد بوجود اتفاق سري ما بين الجستابو وفرق الإعدام النازية (الإس إس)، وبين الصهيونية، في تهريب بعض اليهود المنتقين (المفيدين) من ألمانيا

إلى فلسطين، ومن أشهر الشخصيات الصهيونية التي كانت متورطة مع النازية ألفرد نوسيج، وهو الذي عمل كمخبر للنازية (عميل للفستابو)، والذي عيّن رئيسا لمجلس وارسو، وقد قدم للنازية خطة لإبادة المسنيّن اليهود في أوربا لأنهم يشكلون (فائضاً بشرياً)، أو (مادة بيولوجية ضارة)، ولما اكتشف اليهود أمره تم إعدامه من قبل المقاومة اليهودية سنة ١٩٤٣م.

أما مردخاي رومكوفسكي فكان رئيس جيتو لودوز، والذي ساعد النازيين على ترحيل اثنين وخمسين ألف يهودي، من أصل مئة وثمانين ألف يهودي هم عدد سكان الغيتو إلى معسكرات الإبادة، لكن الألمان قرروا سنة ١٩٤٤م تصفية الغيتو، وكان مردخاي من الذين رحّلوا إلى معسكر أوشفيتز سنة ١٩٤٤م، حيث مات هناك.

كما ساهم رودولف كاستنر بالاتفاق مع النازي إيخمان بترحيل اليهود بهدوء إلى معسكرات الإبادة، والذي قام بخداع اليهود في المجر، وأقنعهم بأن السلطات النازية سترحلهم إلى معسكرات تأهيل مهني، مقابل ترحيل قرابة ألف وسبع مئة يهودي منتقين (من أفضل المواد البيولوجية)، ولما أُكتشف أمره في إسرائيل سنة ١٩٥٢م، دافع عن نفسه بأنه قام بفعلته بتفويض من الوكالة اليهودية، ولما صرح أن لديه من الوثائق التي لو نشرها فستطال رؤساء الوكالة اليهودية، وستؤدي إلى دماء ستسيل في شوارع تل أبيب، وبذلك تم اغتياله على علم السلطات الإسرائيلية.

وإذا كانت بعض الشخصيات قد اتفقت مع النازيين في التخلص من (الفائض البشري اليهودي الضار)، من خلال تصورات فردية، ودون التنسيق مع المنظمة الصهيونية، فإن القيادات الصهيونية كانت على علم، ومعرفة بما كان يدور في معسكرات الاعتقال النازي، وقد حاولت إخفاء ذلك جزئيا عن الرأي العام العالمي، وكانت أحيانا تشكك ببعض التقارير التي كانت تتسرب إلى الإعلام العالمي، كما أنها كانت تحجم عن تقديم أي مساعدة لضحايا النازية، وكانت غير مبالية في تقديم يد المساعدة والدعم لترحيل اليهود المعرضين لأن يكونوا من ضحايا النازية، بل كانت بطريقة غير مباشرة تحرض النازية ضد الجماعات اليهودية، كما كانت تضع عراقيل ضد هجرتهم، وهذا يتماشى مع ما قاله وايزمن سنة ١٩٣٧م من خلال تزويج صهيونيته بالنفعية النازية {أخبرت اللجنة الملكية البريطانية أن آمال ستة ملايين يهودي في أوربا تتركز في الهجرة. وجوابا على سؤال اللجنة: هل يمكن أن تنقلهم إلى فلسطين. أجبت: كلا، سيموت الطاعنون في السن متحملين قدرهم، أو غير قادرين على ذلك، فهم سقط المتاع اقتصاديا وأخلاقيا في عالم

ظالم، لن ينجو منهم سوى فرع ضئيل. وعليهم أن يتقبلوا قدرهم هذا} فإبادتهم خير من ذلك في مفهوم الصهيونية، لأن إبادة قسم من اليهود من شأنه أن يمكّن الصهيونية من أن تبيع مقابرهم للعالم بالمال، لدعم المشروع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين، وهو ما يتماشى أيضا مع ما كان يراه بن غوريون من أنه يجب ترك هامش للنازية لتقوم بأعمال (لاسامية) ضد اليهود، وأنه يجب ألا يبالغ بالرحمة بالشعب اليهودي، لأن ذلك سيلغي المشروع الصهيوني تماما، وهو الذي كان قد قال: {لو عرفت أن من الممكن إنقاذ كل أطفال ألمانيا - اليهود - بتوصيلهم إلى إنكلترا، في مقابل أن أنقذ نصفهم وأنقلهم إلى فلسطين، فإني أختار الحل الثاني، إذ يتعين علينا أن نأخذ في اعتبارنا، لا حياة هؤلاء الأطفال وحسب، بل كذلك تاريخ شعب فلسطين}.

أما إسحق جرونباوم فقال سنة ١٩٤٣م {إن بقرة واحدة في فلسطين أثمن من كل يهود بولندا}.

الإعلام الصهيوني
والهولوكوست النازي

الهولوكست كلمة ذات أصل يوناني وتترجم إلى العربية بالمحرقة، وهي تعني حرق القربان (الأضحية) بالكامل حتى تحوله إلى رماد على المذبح، وهو من أهم طقوس تقديم الأضاحي عند اليهود، لأن الأضحية أو القربان الذي يقدم للإله يتم حرقه كاملا، وهذه الأضحية تقدم تكفيرا، على هذه الطريقة، عن جريمة الكبرياء، وهذه الكلمة أو هذا التعبير أصبح مصطلحا يشير إلى عمليات الإبادة التي قام بها النازيون (الأغيار) للقرابين المقدسة من الشعب المقدس، وفي المرحلة الأخيرة شاع استعماله للإشارة إلى أي أعمال كارثية، حتى لو كانت طبيعية.

وأعمال الإبادة العرقية الأثنية الدينية عرفت في كل المجتمعات وكل مر التاريخ وفي غير مكان، وبالذات في المجتمعات التي تتفشى فيها العقائد العنصرية، والتي لم يكن في مجتمعاتها الكثير من الأقليات، ففي مثل هذه المجتمعات يتضخم الشعور الأثني في بحيرات فكرية آسنة، وتتضخم فيها الأنا الجمعية للمجتمعات لا سيما تلك التي تنضوي تحت نمط أثني، أو قبلي، أو عرقي، ويرى الباحث عبد الوهاب المسيري أن عمليات الإبادة هي حالة نسقية منتشرة ضمن العقلية الغربية لا سيما وأن المسيحية الغربية لم تكن من قبل قد كوّنت أساسات تشريعية للأقليات التي تعيش بين ظهرانيها قبل العصر الحديث.

وقد قامت الشعوب الإحلالية، الاستعمارية الاستيطانية الأوربية، بعدة عمليات إبادة في سياق استيطانهم، ومنها ما قامت بها في استراليا حيث تم إبادة أكثر من مليوني إنسان من الأستراليين الأصليين، وكذلك الأمر بالنسبة لجنوب أفريقيا، وغيرها.

ولكن التجربة الأهم كانت أثناء غزو القارة الأمريكية من قبل الشعوب الأوربية حيث نفذت (هولوكست) في أصحاب الأرض الأصليين من الهنود الحمر الذين، حسب

رأي العرق الأبيض، يشكلون عقبة أمام المشروع الاستيطاني الغربي الإمبريالي، وقد قام (الرجل الأبيض) بإبادة ستين مليوناً من (الرجل الأحمر) الذي كان يعد ثمانين مليوناً.

كما قام الرجل الأبيض بإبادة ما بين ١٠٠ - ٢٠٠ مليون رجل أسود في سياق الحروب التي كانت تشنها مليشيات النخاسين لاعتقال العبيد، وكان النخاسون يقتلون عشرة من العبيد كي يحصلوا على رجل واحد حي في معارك الأسر.

كما يمكن أن نذكّر بشكل عابر بعمليات الإبادة التي قامت بها قوات الولايات المتحدة الأمريكية بالشعب الياباني أثناء الحرب العالمية الثانية دون مسوغ عسكري حقيقي، إلى درجة أن طياري الغارات الجوية الأمريكية على طوكيو كانوا يشمون رائحة الشواء البشري (الهولوكوست) وهم على ارتفاع عالٍ، وكان على رأس هذه الأعمال الإبادية مجزرتا ناغازاكي، وهيروشيما.

كما يمكن أن نذكّر أيضا بعمليات الإبادة التي قام بها ستالين ضد الشعوب المختلفة وعلى رأسها الشعوب الإسلامية، وأخيرا يمكن أن نذكّر بآخر عمليات الإبادة والتطهير العرقي (الهولوكست) التي قامت بها الشعوب الأوربية المسيحية (الصرب) بالشعوب المسلمة في البوسنة والهرسك، وحتى بالشعوب المسلمة في كرواتيا، أما عمليات الإبادة في الشيشان فهي ما زالت مستمرة حتى يومنا هذا.

وهناك الكثير من عمليات الإبادة العرقية العنصرية التي يمكن ذكرها، ومنها عمليات الإبادة (الهولوكوست) التي قامت بها القوات التركية بالأرمن، ومنها أيضا عمليات الإبادة العرقية الأثنية القبلية التي حصلت في أكثر من مكان من القارة الأفريقية.

وقد جاء الهولوكوست النازي للشعوب غير الآرية في سياق أعمال الإبادة العنصرية الأوربية، وكان من الشعوب التي تعرضت لأعمال الإبادة النازية الشعوب السلافية، والغجرية، واليهودية على وجه التحديد، ويُعَدّ الهولوكست النازي لليهود التعبير الأوضح والأصرح للحقد المتبادل بين اليهود، وبين باقي الأمم، وعلى وجه التحديد الأمم الأوربية المسيحية، وقد نتج هذا الهولوكوست بعد غليان هذا الحقد لقرابة ألف عام.

وكانت النازية من خلال اعتناقها للمذهب المادي النفعي، الذي زاوجته بالفلسفة الهيجلية النيتشوية الداروينية، وقد جعلت النازية من الشعب الألماني (العرق الآري) عرقا سيدا، قد صنّفت البشر إلى قسمين: بشر نافعون، وبشر غير نافعين أو ضارين (الفائض البشري)، وقد صُنف في القسم الثاني الأقزام والمشوهون جسديا وأصحاب العاهات والشيوخ والعجزة والسلاف والبولنديون والغجر واليهود، قد وضعت النازية ثلاث آليات للتخلص من الشوائب البشرية ضمن هذا العرق:

أولها تأهيل الشوائب الوظيفية (الفائض البشري) إن أمكن تأهيلها.

وثانيها ترحيل الشوائب المورفولوجية، والفائض الذي لا يمكن تأهيله.

وثالثا إبادة ما يتبقى، أو الذين لم تنجح معهم الآليتان السابقتان.

أما بالنسبة لليهود والذين كانوا يشكلون قرابة ١٪ من مجموع السكان في ألمانيا النازية، فقد كان لهم خصوصية في التصور النازي، فكما سبق وتحدثنا عن أوجه التشابه، أو التطابق بين النازية واليهودية، فقد كان هذا التطابق يحوي ضمنه تنافرا شديدا على الوجه الآخر، فالنازيون يعتقدون أن العرق الآري هو العرق ذو الصفات الجيدة، فهو الأجمل، والأنبل والأطول، والخلاق، والمبدع في كل الفنون والآداب والعلوم وهو حامل لواء السيادة، وكان التصور النازي يذهب إلى أن العرق السامي بدائي، مقلد، لا يمتلك أي مقومات الإبداع والتطور، وهو العرق الذي يقف عثرة في وجه تطور العرق الآري.

أما اليهود فكانوا يعتقدون أنهم شعب الله المختار المقدس، الذي تم خلقه من طينة مقدسة، وصاحب الديانة السماوية الأولى، ومؤسس اللبنات الأولى للحضارات، وكان اليهود ينظرون إلى الشعوب الأخرى، ومنهم الشعوب الآرية، على أنهم شعوب مدنسة، ضالة، ولذا يجب عدم الاختلاط بهم.

وبسبب تعارض هذين التصوريين العنصريين المتماثلين فقد تنافسا على نفس الموقع الحضاري حسب تصورهما، وبالتالي فإن الأقدر، في لحظة المنافسة، سيقوم بإقصاء الآخر، كي ينصّب نفسه سيدا على الحضارة، وقد أمتلك النازيون تلك اللحظة، وقد قررت النازية، في سياق تنظيف المجال الحيوي الألماني من الشعوب غير الآرية التخلص من اليهود (الشوائب المورفولوجية العرقية) من خلال ترحيلهم أولا، وإن لم تستطع فمن خلال إبادتهم، وقد بدأت النازية تطبق سياستها بشكل عملي على اليهودية مع استلام هتلر

السلطة المطلقة ١٩٣٣م، وكانت أولى الإجراءات النازية هي مقاطعة الأعمال التجارية اليهودية، مترافقا مع حجب الكثير من الوظائف عن اليهود، ثم استبعاد التعليم من أطفال اليهود، وفي سنة ١٩٣٥م صدرت قوانين نورنبرغ التي نصت على استبعاد اليهود من عضويتهم في الرايخ الثالث.

وقد قام هتلر بإقصاء اليهود من ألمانيا، ثم من الدول التي استطاع أن يسيطر عليها، من خلال التهجير أولا، والطرد في مرحلة ثانية، وكانت قد طرحت في تلك المرحلة عدة غيتوات في سوريا، والاكوادور، ومدغشقر من أجل ترحيل اليهود إليها، ولكن، وبسبب الظروف الميدانية العسكرية في سياق الحرب العالمية الثانية، فقد قرر هتلر اللجوء إلى المرحلة الثالثة من مراحل التخلص من (الشوائب العضوية)، وهي مرحلة الإبادة، ونفّذ فيهم الهولوكوست.

وأرقام اليهود الذين قامت النازية بإبادتهم مختلف عليه بعض الشيء، فالصهيونية تدعي، أن من أبيد من اليهود في الهولوكوست النازي أربعة ملايين، على الرغم من أنه من الثابت إحصائيا أن عدد اليهود في كل الدول الأوربية التي كانت خاضعة لألمانية النازية قبيل الحرب العالمية الثانية، وقبيل أن يباد اليهود في ألمانيا هم ثلاثة ملايين ومائة ألف إنسان، ومن هنا، واعتمادا على بينات متعددة، فإن الكثير من الباحثين يعتقدون أن عدد من أبيدوا من اليهود في أشفيتز يتراوح ما بين ٩٥٠ ألف، ومليون ومئتي ألف، وهو رقم شديد البعد عن الرقم الذي ادعته، وفرضته الصهيونية.

وبغض النظر عن العدد الحقيقي، فإن هذا لا ينقص من البعد الأخلاقي لهذه الجريمة البشعة، ولكن تفاوت الأرقام بين الرقم الموضوعي، والرقم الادعائي الصهيوني يضعنا أمام منظمة ارتزاقية، ساهمت بطريقة أو بأخرى بتقديم، من تتحدث باسمهم من اليهود، قرابين على صليب النازية، أو على أقل تقدير غضّت النظر عما كان يجري في أشفيتز، ولم تقم بدورها المفترض للدفاع عنهم، ويُعَدّ ذلك مشاركة سلبية في تلك الجريمة، ثم أجبرت دول العالم، والمنظمات الدولية، وبطريقة ابتزازية، على شراء أرواحهم بالمال، وبينما قامت النازية بتصنيع بعض أنواع الصابون التي استخدمت في صناعتها مواد دسمة من أجساد اليهود، وبعض أنواع الوسائد المحشوة بالشعر الإنساني، وسماد، ومواد عازلة من رماد الجثث، وأمشاط من العظام البشرية، قامت الصهيونية بواسطة جهازها الإعلامي بصناعة مواد متعددة من الأرواح البشرية اليهودية، وعلى

رأسها بعض الأساطير، والقصص، والسيناريوهات، وباعتها، بطريقة ارتزاقية، في الأسواق العالمية، بعد أن كانت قد درّبت بعض اليهود الذين فروا من المعسكرات النازية كي يتحدثوا عن قصص تنخلع لها القلوب، وترتجف لها الأفئدة، وتسّيل دموع الحجارة مدرارة.

وقد استطاعت الصهيونية من خلال إمبراطوريتها الإعلامية أن تضع عدسات مضخمة أمام الهولوكست النازي إلى درجة تكاد تسبب الشعور بالدوران لمن ينظر إليها، ولأن المهزومين ليس لديهم قدرة للرد على ادعاءات الآخرين، لذلك فإن المنتصرين، وأحلافهم يصبح لديهم القدرة على تلفيق ما شاؤوا من الادعاءات، والأكاذيب، والأباطيل، وجعلها حقائق، بل وبديهيات لا تحتاج إلى أدلة، وبراهين.

وكما أن الحقائق المختلف عليها تنتهي إلى الإهمال إن لم تجد دائماً من يعيد التأكيد عليها، كذلك هي الأباطيل فمن الممكن وشمها في الذهن كما لو أنها حقيقة من خلال توظيفها إعلامياً بشكل متكرر، وقد وظّف الإعلام الصهيوني كل أنواع الآداب، والفنون، والإعلام، والإعلان (أفلام - كتب - دراسات - فن تشكيلي - منحوتات - نصب تذكارية)، من أجل أن تجعل من ادعاءاتها حقائق لا يرقى إليها الشك، كما وطدت ادعاءاتها في الذهنية العالمية بشكل عام، إلى درجة أن العالم الغربي، والأمريكي على وجه الخصوص يعرف عن الهولوكوست النازي لليهود أكثر مما يعرف عما فعلته آلة الحرب الأمريكية في بيرل هاربر، وفي ناغازاكي وهيروشيما، وفيتنام بكثير.

كما استطاعت الصهيونية أن تحتكر الهولوكوست الألماني لنفسها، وتفرض على الرأي العام العالمي ادعاءاتها بأن (جريمة العصر) هي جريمة غربية ألمانية ضد الشعب اليهودي، مهمشة، بل ومغيبة الأعمال والمجازر النازية ضد الشعوب الإنسانية المتعددة التي تعرضت للإبادة على يد القوات النازية، بل إنها استطاعت أن تجعل من الهولوكوست بناء أيديولوجياً لمؤسسة تجارية تبحث عن مكاسب خاصة، بل إنها طوّرت، وعولمت هذه الصناعة بحيث إنها استطاعت أن تبيع تراخيص لصناعتها في بعض الأسواق المحلية بأغلفة جديدة، وربما بأسماء جديدة، كما جعلت الصهيونية من الهولوكوست طوطما وشكلت له جهازا كهنوتيا، وجعلت من المشككين بالادعاءات الصهيونية للهولوكوست النازي لليهود نوعاً من الزندقة التي توجب تصفية صاحبها.

والصهيونية من خلال منطقها الابتزازي لم تكتف بتحميل الألمان (الهولوكوست)، بل حمّلت العالم الغربي كله مسؤولية أخلاقية لأنها لم تقم بدورها بمد يد المساعدة لإنقاذ اليهود من الهولوكوست، بحجة أن بعض الدول الأوربية أغلقت حدودها أمام اليهود الذين كانوا يحاولون الهروب من جحيم الإبادة، بل إن الصهيونية استطاعت أن تجعل من تعابير مثل (صمت العالم) تهما خطيرة وجهتها إلى بعض الدول لمجرد أنها وقفت بحيادية في الحرب العالمية، وأجبرت تلك الدول على دفع أو تقديم قرابين (تعويضات مالية) تكفيرية إلى كهنة الصهيونية، وحتى إنها دفّعت تعويضات لبعض الدول التي لم تكن تسمع حينها بالهولوكوست النازي، أو سمعت به بشكل هامشي، مثل الدول العربية، حيث جعلت منهم الصهيونية الإعلامية مكمّلين لدور النازية في الهولوكست لأنهم وقفوا ضد دخول اليهود الهاربين من الهولوكوست إلى فلسطين، لا سيما وأن بعض الحكومات العربية قد تحالفت، أو وقفت، أو تعاطفت، مع القوات النازية، والذي في الحقيقة لم يكن سوى تعاطفا ووقوفا مع أعداء الإنكليز الذين يحتلون الأرض العربية.

وهذه المسؤولية الأخلاقية التي حملتها الصهيونية قسرا للعالم الغربي، جعلته، كتكفير عن ذنوب حمّلتها له الصهيونية طوعا وقسرا، بغض النظر عن المجازر التي تنفذها الصهيونية بالشعب الفلسطيني، وربما عما قريب سينعتون التنظيمات الفلسطينية التي يصنفونها بالتنظيمات الإرهابية، بالحزب النازي، وكأن العالم الغربي، ومن خلال تأييد الصهيونية على إبادتها للشعب الفلسطيني من دير ياسين، وحتى هولوكوست مخيم جنين، مرورا بمجزرتي صبرا وشاتيلا تريد أن تطمس من الذاكرة الهولوكوست النازي، أو على الأقل كي تأخذ صك غفران عن معسكرات الإبادة في أوشفيتز وسواه، كما استغلت الصهيونية الإعلامية منبر الهولوكوست، أيضا، لإسكات تذمرات الرأي العالمي من الممارسات الإسرائيلية الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني، والعربي بشكل عام.

لقد استثمرت الصهيونية الهولوكوست النازي إلى أبعد درجة لا سيما ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية، وحتى سنة ١٩٦٧م، وجعلت من الهولوكوست مذبحا حصريا باليهود، وأعادت صناعته إعلاميا لتجعل منه بقرة حلوبا لا ينتهي ضرعها، وابتزت من خلاله الأموال من أوربا وبالرغم من أنفها، وعلى الرغم من أن هذه الصناعة قد خف

بريقها التسوقي بعد سنة ١٩٧٣م، ولا سيما بعد سنة ١٩٩٠م، وتهرب دولة إسرائيل من استحقاقات السلام، إلا أنها ما بين الفترة، والأخرى تقوم الصهيونية الإعلامية بإعادة ترويج بضاعتها في السوق الإعلامية العالمية.

وكان أحد، وأهم نتائج، حملتها الإعلامية حصولها على قرار التقسيم في هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧م، ومن ثم إقامة كيان صهيوني شرعي بالمفهوم البروتوكولي الدولي في فلسطين، وبمعنى ما تُعَدّ دولة إسرائيل أحد منتجات الصناعة الهولوكستية، وبالتالي فقد جعلت الصهيونية من الهولوكوست الصليب الذي من خلاله سوف ينتقل اليهود من الهامشية التاريخية إلى مركزه، وتسيده على العالم، حيث صوّرت الشعب الذي أبيد في الهولوكوست هو المسيح الذي أعاد اليهود (شعب الله المختار) إلى الأرض الموعودة، وهو الذي سيجعلهم يتسيدون على العالم، وها هم يحاولون الآن وضع المعتقد والشريعة التي سيدين بها العالم.

كما أن الصهيونية كانت قد جنّدت جهازها الإعلامي، في تأجيج الهولوكوست النازي في سياق حرب حزيران سنة ١٩٦٧م، والتي سيطرت من خلالها على ما تبقى من الأراضي الفلسطينية، وبعض أراضي الدول العربية المجاورة، وقد استطاع الإعلام الصهيوني، في سياق تلك الحرب، أن يربط، ويساوي، ويماثل بين القومية العربية، والنازية الألمانية، مستغلة بعض المقولات غير المسؤولة للقومية العربية، ولا سيما خطاب جمال عبد الناصر (سنلقي بهم في البحر)، وقد جعل الإعلام الصهيوني من الزعيم العربي عبد الناصر كما لو أنه هتلر عربي، وشوّه صورته، وصورة الشخصية العربية إلى أبعد حد، في الوقت الذي كانت فيه الصهيونية اليهودية العنصرية، فكرا، وتطبيقا أشد غلوا من النازية الألمانية، وبذلك فقد جعلت الصهيونية الإعلامية ذكرى الهولوكوست النازي الذي يمكن تحديثها، وتحضيرها في أي وقت، تبريرا لما تقوم به دولة إسرائيل على أرض الحاضر.

كما أن الإعلام الصهيوني، وفي نفس السياق، جعل من الرئيس العراقي صدام حسين هتلرا عربيا، ولكنها قلبت المعادلة، فقد جعلت من العراق، بالتعاون مع الولايات الأمريكية، غيتو وارسو، ونفذ العالم الغربي فيه هولوكوست الجوع، حيث مات في العراق بسبب الحصار الاقتصادي للعراق قرابة مليون طفل، أما سجن (أبو غريب) فهو هولوكست نفسي، وليست محاكمة صدام حسين سوى محاكمة هولوكوستية.

وعلى الرغم مما تعرض له اليهود، بسبب نموذجهم الشخصي، من اضطهادات على مر التاريخ، فقد نفذوا في الشعب العربي الفلسطيني اضطهادات أشد قسوة، ودون أدنى مسوغ، والطريف في الأمر أن هذا الشعب يقول على لسان إيلي فيزيل {لا يوجد شعب في العالم يدرك العرفان بالجميل مثلنا، نحن شاكرون حتى نهاية الأزمان، نحن معاقبون أزليا، ونحن أزليا أبرياء: هذا هو حمل اليهود}.

الإعلام الصهيوني
والتطلعات الإمبريالية الاستعمارية الغربية

استطاع الإعلام الصهيوني، ومن خلال الادعاءات التاريخية، والسياسية أن يقنع الرأي العالم الغربي بالوقوف إلى جانب الصهيونية، في إعادة اليهود إلى فلسطين، ودعمها في صراعها السياسي العسكري مع العرب، لا سيما وأن تلك العودة مرتبطة بتحقيق الرؤى الدينية المسيحية، كما أن وقوف العالم الغربي إلى جانب الصهيونية، سيكفر، ويخفف من عقدة الذنب التي يشعر بها بعض الأوربيين لما سببوه لليهود من اضطهاد على مر تاريخهم، ولا سيما ما قامت به النازية من إبادة للجماعات اليهودية، كما أن العالم الغربي إضافة لما سبق يرى أنه بدعمه للصهيونية يكافئها على وقوفها إلى جانب دول التحالف في الحرب العالمية الثانية، وفي الوقت نفسه يتخلص من بؤر الفساد الاجتماعي والسياسي التي يمثلها اليهود، وهي ما تتوافق مع الرؤى المسيحية، الكاثوليكية، والبروتستانتية.

أما الفكر الاستعماري السياسي، الذي التقت مصالحه، مع التطلعات الصهيونية، والذي قام الإعلام الصهيوني بإبرازه، فقد حاول أن يجعل من الصهيونية خنجرا مسموما في قلب الأمة العربية والإسلامية، يمكن له استنزاف الشخصية العربية ومقدراتها، وتهديم البنية التحتية، التي قد تعاود عليها الأمة العربية إنشاء بناء حضاري في أي وقت تتهيأ الظروف المناسبة.

وقد استطاعت الصهيونية أن تلتقط المطامع الاستعمارية، وأن تقدم نفسها كأداة منفذة للفكر الاستعماري، وطرحت عقدا يقوم على أساس المصلحة المشتركة بين تطلعات الأوربيين المادية، وتطلعات اليهود الروحية، وكان آباء الصهيونية الروحيون قد روّجوا لهذا العقد، وعلى رأسهم موسى هس الذي يقول إن اليهود سيكونون {مركز اتصال بين القارات الثلاث.. - وسيكونون - حملة الحضارة إلى شعوب لا تعرفها.. - وسيكونون - الوسيط بين أوربا وآسيا البعيدة، وذلك كي يمهدوا الطرق التي تقود إلى الهند والصين، لكل المناطق المعزولة التي يجب أن تعرّض للحضارة}.

وهو الخطاب الذي ردده تلميذه النجيب هرتزل في كتابه (الدولة اليهودية) {إننا سنشكل جزءا من متراس أوربا في وجه آسيا. كقاعدة أمامية تعارض البربرية، وينبغي علينا كدولة محايدة، أن نبقى متحالفين مع أوربا بأكملها، التي سوف يترتب عليها أن تضمن وجودنا}، كما ردد أيضا مقولات الصهيونية غير اليهودية في خطابه أمام المؤتمر الصهيوني الأول {إنه لمن مصلحة الأمم المتحدة أكثر فأكثر، ومن مصلحة المدنية بشكل عام، أن تؤسس محطة حضارية عبر أقصر طريق إلى آسيا. إن فلسطين هي تلك المحطة، ونحن اليهود حملة الحضارة، المستعدون لبذل أملاكنا وأرواحنا من أجل تكوينها}، وهو الذي كان قد أدرك أن الطريق إلى أورشليم يمر عبر لندن {إن الإنجليز كانوا أول من أدرك ضرورة التوسع الاستعماري في العالم الحديث، ولذلك يرفرف علم بريطانيا العظمى فوق البحار. وأعتقد بأن الفكرة الصهيونية، وهي فكرة استعمارية ستحظى، أو من الواجب أن تحظى في إنجلترا بفهم سريع وسهل}.

ويقول أيضا ماكس نوردو في هذا السياق {سنجيء إلى فلسطين لنوسع حدود أوربا ونصل بها إلى الفرات}.

أما جابوتنسكي فقد خاطب الإمبريالية الإنكليزية مركزا على أهمية فلسطين بالنسبة لها مؤكدا على {أن فلسطين، يجب ألا تظل بلدا عربيا}.

كما ردد هذا النداء وايزمان، والذي كان يشكك في الولاء العربي للإمبريالية الغربية {إن الحركة العربية تقود المرء للاعتقاد بأنها مناهضة لأوربا.. ولذا يجب الاعتماد على اليهود لضمان وجود عنصر موال}، والذي كان قد كتب لتشرشل {إن السياسة الصهيونية في فلسطين ليست على الإطلاق تبديدا للموارد، وإنما هي التأمين الضروري الذي تعطيه لك بسعر أرخص من أن يحلم به أي فرد آخر}، وهو الذي كان قد أجاب على سؤال وجه له عن سبب حماس الإنكليز لتبني المشروع الصهيوني، حيث أجاب وايزمان قائلا {إن الإنجليز، لا سيما أصحاب المدرسة القديمة، هم أشد الناس تأثرا بالتوراة، وتديّن الإنجليز هو الذي ساعدنا في تحقيق آمالنا. لأن الإنجليزي المتديّن يؤمن بما جاء في التوراة من وجوب عودة اليهود إلى فلسطين. وقد قدمت الكنيسة الإنجليزية من هذه الناحية أكبر المساعدات}، وهو القول الذي كنت قد استشهدت به في سياق حديثي عن تأثير التصور الديني الغربي المسيحي في الوقوف إلى جانب الصهيونية.

أما زانفويل فقد قال في خطاب موجه إلى الغرب الأوربي، وتحديدا بريطانيا {نحن نعرف ماذا تنتظرون منا، تريدون أن نحرس لكم قناة السويس. إن علينا أن نحرس لكم طريقكم إلى الهند عبر الشرق الأدنى، ونحن على استعداد للقيام بهذه المهمة الشاقة، لكنه من الضروري أن تسمحوا لنا بإنشاء قوة ذاتية تمكننا من القيام بهذا الواجب}، كما أن هذه الدولة ستكون {رأس جسر بين دول الغرب الاستعمارية والبلدان التي كانت مستعمرات سابقا للغرب} حسب قول ميخائيل برتشر، والصهيونية لا ترى حرجا في أن تعلن عن هذا الدور الوظيفي الوضيع.

وكان جرشوم شوكن رئيس تحرير صحيفة هآرتس قد كتب سنة ١٩٥٢م {لقد أعطيت إسرائيل دورا لا يختلف عن دور كلب الحراسة، ولا داعي هناك للخشية من أن تمارس إسرائيل سياسة عدوانية تجاه الدول العربية إذا كانت هذه السياسة لا تتعارض مع مصلحة الولايات المتحدة وبريطانيا. ولكن إذا شاء الغرب لسبب أو لآخر أن يغمض عينيه فبالإمكان الاعتماد على إسرائيل لتنزل عقابا قاسيا بتلك الدولة المجاورة التي تتجاوز الحدود المناسبة في قلة أدبها تجاه الغرب}، ودون أن تحاول، من خلال ذلك أن تتمرد أكثر من الهامش المسموح لها، من قبل الإمبريالية عن دورها الوظيفي، بل إن الصحفي كان أكثر وضوحا، وجرأة في التحدث عن هذا الدور بعد أن تسيدت الولايات المتحدة قيادة الإمبريالية العالمية {إن إسرائيل كلب حراسة حاد الأسنان مربوط بسلسلة طرفها بيد الولايات المتحدة، تطلقه متى تشاء وعلى من تشاء}.

أما يساهاياهو ليبويتز من جامعة القدس العبرية فيقول {الأمريكيون غير معنيين إلا بفكرة الإبقاء هنا على جيش من المرتزقة الأمريكيين ببزة الجيش}، ويقول {تأتي قوة القبضة الإسرائيلية من القفاز الفولاذي الأمريكي الذي يغطيها، ومن الدولارات التي تنجده}، وقول أيضا {ليست دولة إسرائيل دولة تملك جيشا، وإنما هي جيش يملك دولة}

والجدير ذكره أن الصهيونية، ودولة إسرائيل في ما بعد كانت تدين بالولاء، وتقدم خدماتها الوظيفية إلى العالم الغربي الراعي لوجودها بشكل عام، وإنكلترا بشكل خاص، وقد حصل بعض التنازع بين أوربا الغربية والولايات المتحدة على دور الوصايا والاستثمار، واستمر هذا التنازع ما بين سنة ١٩٤٨ وسنة ٧٦، وقد برز هذا الصراع الخفي في سنة ١٩٥٦م في سياق العدوان الثلاثي الأوربي الإسرائيلي على مصر، ولكن في نفس تلك السنة استطاعت الولايات المتحدة أن تفرض سيطرتها على الساحة،

وأن تبمد ويشكل نهائي النفوذ والتواجد الأوربي في المنطقة، وفي سنة ١٩٦٧م، وبعد أن أظهرت إسرائيل قوتها العسكرية والتكتيكية، استطاعت أن تقدم برهانا عمليا للولايات المتحدة الأمريكية بأنها قادرة على أن تكون الحليفة والوكيلة الوحيدة للولايات المتحدة في المنطقة، كما أنها أكدت أن دورها الوظيفي سيكون في خدمة السياسة الأمريكية بشكل حصري.

الإعلام الصهيوني
والإعلام العربي

يقول جورجي كنعان في كتابه (الله هو القضية) {إن الإعلام العربي.. يعاني الغباء والغفل والظلمة العقلية الطامسة، وتنقصه الكفاية إلى درجة تثير الشفقة، ولست مستعدا للاعتراف له بأي قدرة على التفهم، وأي قدرة على التبصر، وليس للمقيمين على شؤونه الثقافية أي بصيص من الوعي، ولذلك فهم لا يفرقون بين حبة القمح وحبة الزؤان في تلال الوعي الذي يدعون، والمؤسف أن أفضل تعبير عن انهيار مجتمع أو أمة هو ظهور أعراض غياب الوعي لدى الأفراد فيه أو فيها}.

وجورجي زيدان له الحق في أن يوجّه خطابه إلى الإعلام العربي بهذه اللهجة التقريعة، فقد كان للإعلام العربي المتخلف دور سلبي في مواجهة الادعاءات التاريخية اليهودية الصهيونية، والبحث في التصورات الدينية اليهودية للتاريخ، وجلّ ما كان يقوم به الإعلام العربي هو التركيز على التاريخ الحديث، واللهاث وراء حمى الأحداث، ومحاججة الدعاية الصهيونية على ما يستجد في الحاضر، وعلى بعض القضايا السطحية، وهي المصيدة التي نصبتها الصهيونية وسقط فيها الخطاب العربي بسذاجة، وبذلك ترك للإعلام الصهيوني الساحة ليكتب التاريخ كيفما شاء في ذهن العالم، بل إنه استطاع أن يغزو تصورات بعض الباحثين التاريخيين العرب، وجعلهم يتخبطون في بحوثهم التاريخية، وبدل أن يحققوا نواياهم المخلصة الصادقة في نصرة التاريخ الحقيقي، قدموا لمقولات التأريخ اليهودي ما لم يقدر الإعلام اليهودي الصهيوني على تزييفه.

وبالتالي فقد استطاع الإعلام الصهيوني من الوقوف متفردا على أعلى المنابر ليتلو خطابه التاريخي، والسياسي، دون رد، أو صد، أو تشويش، بعد أن تمكّن من تحجيم، بل وتكميم الخطاب العربي الإسلامي، وبينما كان الإعلام الصهيوني يقوم بصناعة الأحداث، كان الإعلام العربي يتابع، أو يلحق بما يجري من أحداث، ويتلو خطابه على أساس قطري دون أي تنسيق استراتيجي يرقى إلى أدنى درجات الإعلام التي أنشأته الصهيونية التي تمكنت

من صنع كل ما من شأنه أن يدعم ويعزز موقفها، لا سيما بجانبه السياسي في البداية، ثم العسكري والاقتصادي.

والإعلام العربي، بل والوعي العربي يعتقد بأن دولة إسرائيل هي بنت الحاضر، وقد نشأت على أساس وعد بلفور، الذي يختصر الإرادة الإمبريالية، وعلى يد الصهيونية عراب العلاقة بين اليهودية والإمبريالية الغربية، وهي نظرة قاصرة، ولا ترى سوى السطوح من الأشياء، وهذه النظرة تحول دون البحث الحقيقي في معالجة القضية أو هذا الصراع الوجودي، كما أن العرب ينظرون إلى اليهود على أنهم من شذاذ الأفاق، الهاربين من الاضطهادات الأوربية، ومن المحاكم الأوربية، وبدعم من الإمبريالية الغربية الاستعمارية، أي هو هارب من الحاضر فحسب، ولم يأخذ العرب بحسبانهم أن دولة إسرائيل هي نتاج وعد الرب يهوه، لشعبه المختار، التي شاءت له ظروف مرحلية أن يحقق فيها عقيدته على أرض الواقع، من خلال الصهيونية التي ليست أكثر من حالة تفعيل لليهودية التوراتية، التي تعتمد على عقيدتي أرض الميعاد، وشعب الله المختار، والمسيح اليهودي، ولذا فالعرب لا يحاججون أبدا بالادعاءات التاريخية اليهودية، بل يحاججون على أسس سياسية حقوقية مرتبطة بالراهن من الأحداث.

ولكن، ومنذ فترة قصيرة، ومع بدء تشكل حالة من الوعي في الإعلام العربي، وتعالي أصوات المدافعين عن الحقيقة في العالم ككل، بدأت أصوات، وأقلام، ودراسات متعددة تحاول إعادة قراءة مصداقية، وأخلاقية مقولات الخطاب الصهيوني السياسي في الماضي، والحاضر، وتأثيرها على صناعة الأحداث، وهي جاءت مترافقة أو ضمن عودة الوعي الإنساني لقراءة خطاب الأمم والشعوب المنهزمة، مثل خطاب الهنود الحمر حول استيطان الرجل الأبيض، وخطاب المجتمع الفيتنامي حول الغزو الأمريكي لبلادهم، والنقطة الأهم في هذا الاسترجاع هو إعادة قراءة التأريخ التوراتي لمنطقة الشرق العربي، وتحريره من هيمنة الأسطورة التوراة، ومن حالة التشويش التاريخي التي لا تألو الصهيونية جهدا في دعمها، والتي تقنع الكثير من العلماء بالعدول عن مزيد من البحث الآثاري الجاد للمنطقة، لا سيما تلك التي يخشى منها أن تكشف أو تشكك بالمقولات التوراتية، وكما أن الانتفاضة الفلسطينية الأولى قد كشفت بصوت واضح وجلي وصارخ زيف مقولة (فلسطين أرض بلا شعب)، كذلك هناك انتفاضة آثارية - تاريخية بدأت تعلن عن زيف التأريخ التوراتي الذي أقصى وهمّش التاريخ الكنعاني، وتؤكد هذه الانتفاضة الآثارية أن الكيان الإسرائيلي التاريخي إن كان له وجود حقيقي، فإنه لم يكن سوى عنصر في تركيبة التاريخ الكنعاني، وليس العكس،

كما سوّقت لذلك التوراة من جهة، والخطاب الصهيوني من جهة ثانية، وأن الكيان الإسرائيلي ماضيا وحاضرا، هو الذي استطاع من بين الكيانات أن يوصل خطابه التاريخي المزيف، من خلال اعتماده على اللغة التي سجل بها أحلامه، وطموحاته، وهذياناته، ومعتقداته، وحرص على تطويرها وصيانتها عبر الزمان، في الوقت الذي فشلت فيه باقي الجماعات، والشعوب مثل الكنعانيين والفلسطينيين بإيصال خطابها التاريخي.

ونهاية، وعلى الرغم من أن الصراع الإعلامي في المنطقة مجرد ساحة كانت قد استغلت فيه الصهيونية انتصارات جولاتها الأولى، وأسست بمقتضاها دولة إسرائيل التي أصبحت أمرا واقعا، وهي السياسة (سياسة الأمر الواقع) التي اعتمدت عليها الصهيونية بعد أن استنفذت كل طاقات الخطاب الديني التاريخي، إلا أنه من الضرورة أن يتكشف للعالم ككل، وللغربي على وجه الخصوص، الزيف الذي انطلى - وما زال - عليه، والتواطؤ الذي مارسه السياسي الأوربي من جهة، والباحث الآثاري والمستشرق الغربي من جهة ثانية في تقبل هذا الزيف بآلية انفعالية مقصودة.

الفصل الثاني

البحث الأركيولوجي..
والإعلام الصهيوني

ومن الطبيعي والمفهوم أن التاريخ من المنظور الفلسطيني
قد ركز على العصر الحديث وعلى الكفاح لتحقيق كيان ودولة مستقلة.
ويبدو أن الماضي قد ترك للغرب ولإسرائيل.

كيث وايتلام.

وقد وافقوا - أي العرب - على التعريف بأنفسهم من قبل مراقبين أجانب.
لقد صدقوا بسهولة وعن طواعية الأحكام الجسورة المشهورة لمستشرقينا

الباحث الفرنسي بيير روسي

جاء في التوراة عدة نقاط ارتكاز تاريخية كانت قد تبنتها الجماعات العبرية، ومن بعدها اليهودية، ومن بعدها الصهيونية، لإثبات حقها في امتلاك أرض كنعان المقدسة، وكانت مرجعية إيلاف موسى هي الوعد الإلهي للآباء الأوائل الذي نص على أن أرض كنعان (المقدسة) هي ملك أبدي لبني إسرائيل على اعتبار أنهم شعب الله المختار المقدس.

أما في مرحلة السبي فكان مرجعية، وادعاء اليهود القانوني التاريخي في امتلاك أرض كنعان المقدسة، هي أنهم أصحاب مدينة أورشليم ومحيطها التاريخي، ولم يرتكزوا أبدا على الوعد الإلهي الذي كانوا قد استنفذوه في المرحلة الأولى، ولا على موسى، والذي لم يعد يذكر من قبل التوراة بعد أسفار الخروج، بل حل مكانه داود وسليمان كمرجع عاطفي وتأريخي.

أما المرجعية في المرحلة الراهنة، والتي تبنتها الصهيونية فتعتمد على أن يهود العالم في القرن العشرين، هم أحفاد الأسباط الاثني عشر أبناء يعقوب (إسرائيل)، وبالتالي فهم أحفاد أبناء مملكة داود الموحدة (مملكة إسرائيل الموحدة)، وبالتالي فإن ليهود القرن العشرين، على اعتبارهم متحدرين من الأسباط الاثني عشر، الأسبقية التاريخية في تشكيل أول كيان وطني سياسي عسكري مستقل ذي سيادة في فلسطين (بلاد كنعان) في مرحلة الملكين داود - سليمان، وحدود مملكة داود تمتد من حدود سيناء جنوبا، مرورا بفلسطين، وشرقي الأردن غربا، وجنوب لبنان، وجنوب سوريا، وصولا إلى قادش (جبل النبي مند) على نهر العاصي شمالا، وهذه الأسبقية التاريخية لملكة داود تبرر طلب اليهود في أي مكان من العالم، للعودة إلى أرض كنعان، وإعادة تشكيل مملكة داود التوراتية في الوقت الراهن.

وقد تبنت الصهيونية، والفكر القومي الغربي الأوربي المسيحي التوراة كمرجع، أو وثيقة تاريخية لحل المسألة اليهودية التي تشكلت إبان المد القومي الأوربي، وما تلاه من رفض وكره لوجود الجماعات اليهودية التي كانت تقلق القومية الأوربية على أراضيها، وقد تقاطعت مصالح الصهيونية مع مصالح القومية الأوربية، والإمبريالية الغربية لحل المسألة اليهودية على حساب شعوب لم تكن قد سمعت بعد بتلك المسألة.

وقد تمت حياكة مؤامرة كبرى لاستيلاء الصهيونية (الجناح السياسي لليهودية العالمية) على فلسطين، وعلى هذا اندلع الصراع بين قوة البهتان الصهيوني، وضعف الحق العربي، ولم تسمح الصهيونية بوجود قاض واحد يشكل مرجعية ثابتة للفصل في هذا الصراع، فحينا تعتمد الصهيونية على هيئة الأمم المتحدة كونها قاضيا، ولكنها لا تتبنى من قراراته سوى ما يحقق لها مصالحها، وحينا على الرأي العام العالمي الخفي أو الضمني أو المعلن، وحينا على القوى العظمى كما كان عليه الحال في مباحثات السلام بين دولة إسرائيل والدول العربية، وفي النهاية فإن القاضي الرئيسي والثابت لها هو مصالحها وتطلعاتها الذاتية أو قناعاتها الخاصة، أما المدعى عليه فتحرص الصهيونية على تغييبه، وبذلك تدين تغيبه من جهة، ومن جهة ثانية تقوم بتشويهه، وتشويه خطابه الخافت، ليكون خطابها هو السائد على كل المنابر لتملي على العالم مقولتها وبالتالي تطلعاتها.

وبدل أن يُعَدّ القاضي أن التوراة هي أقوال المدعي، اعتبرها القاضي شاهدا على صحة الادعاءات الصهيونية التاريخية، وعلى افتراض أن التوراة اعتبرت شاهدا، فمن اليسر بالنسبة للمدعى عليه إثبات أنها شهادة غير نزيهة، لا لأنها طرف، بل من خلال تحليل تلك الشهادة المتناقضة، والمتراكبة، والمفككة، والتي تفتقد إلى أبسط درجات المصداقية، وهي إضافة

إلى ذلك غير واعية وغير متوجهة للزمكان، فجغرافيا التوراة مشوشة، وأزمانها مركبة بشكل فسيفسائي، وعلى الرغم من ذلك فالقاضي الأوربي المسيحي قَبل بها شهادة منزهة لا يرقى إليها الشك.

كما أن القاضي قَبل بصك ملكية بلاد كنعان لبني إسرائيل الذي جاء في التوراة، دون أن يكون موقعا عليه بخط الرب يهوه الذي منحهم إياها، حسب ادعائهم، أو ممهورا ببصمة إبهام يده اليسرى، وحتى لو أتوا بصك وادعوا أنه موقّع بخط الرب، وأنهم وجدوا هذا الصك في سيناء، أو في بلاد كنعان، وادعوا أنها النسخة الأصلية التي كان قد أعطاها الرب يهوه لموسى على جبل سيناء، وحتى لو كان لهم ذلك، فكيف يستطيعون إحضار الرب إلى المحكمة كي يتم التحقق من تطابق التوقيع أو البصمة ما بين الصك، وما بين خط الرب، أو بصمة يده اليسرى، ولكن، وللطرفة، وتمشيا مع ما ذهبت إليه من أن الرب يهوه لم يكن سوى الفرعون المصري إخناتون، فقد يمكنهم البحث الآثاري من العثور على محنطته، أو على بقايا من عظامه، في سيناء، وقد تمكنهم الأبحاث الاستنساخية من استنساخ الرب يهوه، وإعادته إلى الوجود، وتقديمه إلى المحكمة لتتأكد من صحة صك الملكية، وحتى لو استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فإن الرب يهوه حينها سيصبح تحت المسؤولية القضائية، وهكذا سيصبح الأمر فانتازيا، إذ كيف ستتم محاكمة السماء على الأرض، في الوقت الذي كانت الأرض، وما زالت، ستحاكم في السماء، وفيما لو تم هذا الافتراض الفانتازي فإن ذلك من شأنه أن يثلج صدر الباحث جورجي كنعان صاحب كتاب (من سيجرؤ على محاكمة الإله).

ولكن الصهيونية، إضافة إلى اعتمادها على التوراة كشاهد يثبت أن الجماعات اليهودية شكّلت مملكة داود، فإنها تفترض أيضا أن أول جماعة أو شعب يستطيع تشكيل كيان سياسي وطني جغرافي يكون له الحق الأبدي في هذه الأرض لإعادة تشكيل هذا الكيان في كل الأزمان، وبذلك يكون الحاضر إعادة تشكيل الماضي وتصريفه عبر الزمان (تحضير الماضي)، وقد ادعت الصهيونية من خلال التوراة أن لا تاريخ سياسي اعتباري لفلسطين (بلاد كنعان) قبيل القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وأن اليهود هم من قاموا بتشكيل أول كيان سياسي له هوية يمكن اعتبارها عالمية في زمكانها، وأن مملكة إسرائيل الموحدة على عهد الملك داود كانت تمثيلاً سياسياً تاريخياً يكاتف أو يقف ندا أمام الممالك والإمبراطوريات في وسطها الزمكاني، وأن هذه المملكة استمرت في تواجدها الحضاري، بين تمدد، وتقلص، وارتفاع، ودنو، ولكن دون أي انقطاع حتى تم طرد اليهود منها قسرا، وظلما، وعدوانا في القرن الميلادي الأول، وأن الأوان قد آن لعودتهم إلى أرضهم التاريخية، لإعادة تشكيل كيانهم السياسي الحضاري.

كما ذكرنا عندما يحصل نزاع قائم على التاريخ، فإن الوثائق المقدمة لمنصب معروف ومتفق عليه أنه هو القاضي، تُعَدّ ادعاء، وعلى مدعيها إظهار البينات، والأدلة، والبراهين، كشهود غير مشكوك في صحة مقولاتهم، شريطة ألا يكونوا طرفا في النزاع، وكي تكون المحكمة نزيهة أيضا، ستعطي للمدعى عليه الحق في الدفاع عن نفسه ضمن الأصول والتقاليد المتبعة، كما أعطت الحق للمدعي مسبقا أن يرفع نصه الادعائي كما هو يرتئي، ويطرح وجهة نظره في حق مغتصب منه، ولكن في الصراع العربي الإسرائيلي - ولا سيما بعد قرار التقسيم - كان فيه المعتدي هو المدعي (ضربني وبكى، سبقني واشتكى)، والقاضي (الرأي العام العالمي - الغربي) يشكل طرفاً عاطفياً - دينياً - سياسياً لمصلحة الادعاء الصهيوني التوراتي، والذي قَبل بينات وأدلة مزورة، وملفقة من المدعي - المعتدي، والذي يريد بذلك التكتيك (أي رفع شكوى إلى الرأي العام وما يمثله من منظمات عالمية) الهروب إلى الأمام، وتظليل القاضي، والرأي العام العالمي، وإفهام العالم أن دولة إسرائيل مع الشرعية الدولية، وأن العرب هم من يقفون ضدها، وفي الوقت نفسه فقد حرم القاضي بالتآمر مع المدعي حق المدعى عليه - وهو المعتدى عليه أيضا - من الدفاع عن نفسه، ولمزيد من التآمر فقد حاول الأوربيون توظيف نتائج البحوث الأركيولوجية كشواهد إضافية لتأكيد الادعاء التوراتي.

ونظرا لخصوصية قضية الشرق الأوسط، وارتباط الغرب من خلال انتماءاته الدينية المسيحية، والقومية الاستعمارية الإمبريالية، ومن هذا الغرب المسيحي الإمبريالي، جاء البحث العلمي الأركيولوجي لينقب في أرض التوراة، لاكتشاف مملكة داود، وإخراجها، أو بعثها من تحت التراب (الماضي)، إلى شمس الواقع (الحاضر).

وإذا ما كان من الصعب فصل ذاتية الباحث الاجتماعية والدينية والسياسية (بطريقة واعية أو غير واعية) عن البحث العلمي المعرفي الإنساني على اختلاف أشكاله، مهما حاول الباحث أن يكون موضوعيا، فكيف يمكن أن تبرأ ساحة أي باحث مسيحي غربي من تأثير انتمائه الديني حتى لو كان ملحدا، ومن تأثير انتمائه إلى الغرب الذي ينظر إلى الشرق من خلال مصالحه الاقتصادية، وحتى لو افترضنا جدلا وجود باحث موضوعي، ومنزه إلى أبعد درجة، فإن هذا الباحث سرعان ما يدخل المجال الكهرمغناطيسي السياسي، بحيث لا يجد مناصا من التخلي عن حياديته، ويصبح مستقطبا إلى أحد جهتي طرفي الصراع، وفي هذا السياق يقول د. أحمد يوسف داود في كتابه (تاريخ سوريا القديم) قائلا {إن من يدعي الوقوف في التاريخ على «الحياد» لا يكون «مؤرخا» بلا قضية فحسب، بل ومفتقرا إلى أدنى

درجات الفهم للتاريخ، وإنه شاء أم أبى، اعترف أم لم يعترف، لا بد من أن يجد نفسه ملتزما أحد طرفي الصراع في العملية السياسية لهذا الشعب أو ذاك، سواء تجلت تلك السياسية عملا عسكريا أو اقتصاديا أو فكريا محضا}.

ويمكن أن نأخذ مثالا على ذلك، الباحث المسيحي كمال الصليبي اللبناني الأصل، الأمريكي الجنسية، عربي الانتماء الروحي، وعربي الانتماء السياسي بالنسبة للصراع العربي الصهيوني، فعلى الرغم من تخليه عن انتمائه إلى التطلعات الأمريكية الغربية الإمبريالية، على اعتباره يحمل الجنسية الأمريكية، فإنه لم يستطع التخلي عن مسيحيته من خلال تنزيهه للنص التوراتي، واعتباره أن الخلل يعود إلى قراءة متحيزة للتوراة فرضتها يهودية السبي البابلي، وبذلك فإن الباحث كمال الصليبي لم يتخل عما فرضه عليه انتماؤه إلى مسيحيته، واعتبر التوراة نصا دينيا تاريخيا مقدسا، وأن اللبس يكمن في قراءة، وتفسير المتحول لهذا النص الثابت، كما أنه، بانتمائه لعروبته، فنّد المقولة اليهودية الصهيونية التاريخية التي تدعي أن أرض فلسطين هي المكان الذي تمسرح عليه التأريخ التوراتي.

لكل باحث هدف ما يسعى إليه، فهو، إما إنه يبحث عن الحقيقة، أو أنه باحث مرتزق، أي بمعنى أنه يقوم بعمل وظيفي ليتقاضى أجرا عليه من قبل طرف ما، أو أنه باحث ينتمي إلى أحد الأطراف المتنازعة، وذو موقع ديني أو سياسي أو وطني أو اجتماعي أو اقتصادي أو ثقافي.

ثم من جهة أخرى، إن أي بحث تاريخي يحتاج إلى وجود بنية تحتية للبحث تتضمن التمويل، والرخصة بإجراء البحث، بما يتضمنه من حفريات في مواقع جغرافية تعود إلى طرف سياسي عسكري في الصراع، وكل قطب سياسي يريد ويأمل من الباحث أن يوظف اكتشافاته لمصلحة ادعاءاته، مع العلم أنه في هذه الحالة الخاصة فإن قوة القطبين المغناطيسيين، المتنافرين، المتنافسين، غير متعادلتين، بل إن الشحنة الكامنة في القطب الإسرائيلي لا يمكن مقارنتها من حيث القوة بالقطب العربي الضعيف جدا.

إن قوة الادعاء التوراتي كانت تهيمن على أي باحث آثاري يأتي إلى المنطقة، بحيث لا يستطيع أن يخلع عن حالته الذهنية المقولات التوراتية الإسرائيلية، فيخفق قلبه عند الدنو أو توقع اكتشاف أثري ما، قد يثبت، أو ينفي، أو يحتاد عن المقولات التوراتية، وإذا أضفنا أن ما من باحث قَدِم إلى المنطقة إلا وكان منضويا تحت جناح حماة الفكر التوراتي، نستطيع تفسير، وتعليل لماذا قام البحث التاريخي بالتركيز على المنطقة الجغرافية التي ادعت التوراة أنها قامت عليها مملكة إسرائيل التوراتية، أما زمانيا فعلى العصر البرونزي - الحديدي، وهو

الزمان الذي ادعت التوراة أن مملكة إسرائيل الموحدة تشكلت فيه، وبمعنى آخر تم لوي رقبة الآثار لمصلحة التأريخ التوراتي الذي يُعَدّ منزهاً ومقدساً من حيث حقيقته التاريخية، وغاية البحث التاريخي هو إيجاد أيقونات لتوضع على جدران أوراق التوراة المقدسة.

لم تكن النتائج الأركيولوجية محط اهتمام نقاد التاريخ التوراتي، الذين كانوا يتخذون من النص التوراتي المادة التي يدرسون من خلالها التاريخ، وقلما كانوا يأخذون من النتائج الأركيولوجية مادة بحثية لهم، لا سيما بعد أن بدأت النتائج تتعارض مع المقولة التوراتية، وبينما أدار الكثير ظهورهم لها، كان البعض يشككون فيها، يقول درايفر {إن شهادة الأركيولوجي تكون أحياناً هي الشهادة الحاسمة في الموضوع.. ولكن كثيراً ما يساء فهمها وهذا أمر غريب}.

أما البعض الآخر فكانوا يرون ويؤكدون على أن الدراسات الأركيولوجية هي التي ستؤكد على صحة التاريخ التوراتي، وأن أي اكتشاف أثري يتعارض مع المقولة التوراتية هو مرفوض حتما، ولا يمكن قبوله على الإطلاق، وسيجدون من الحجج قصيرة النظر ما يكفي للتشكك فيه.

ويقول درايفر في كتابه (السلطان الأركيولوجي) {متى كانت شهادة الآثار شهادة مباشرة واضحة، فلا بد أن يكون لها أعلى مكانة في الحكم على الأمور حكماً حاسماً، وحتى لو كانت شهادة الآثار شهادة غير مباشرة ولكن فيها ما يكفي من الحقائق الموجزة، فهذا يجعل من شهادة الآثار أيضاً شهادة لها قيمتها}.

أما زينون كاسيدوفسكي فيقول في كتابه الواقع والأسطورة في التوراة {تكمن روعة الأرخولوجيا في أنها تجعل فجأة من رواية تاريخية ما، حقيقة علمية ثابتة، مبددة بذلك شكوكنا بصدد اعتبارها حقيقة أم أسطورة. وهذا ما حدث بالنسبة لرواية اغتصاب داوود مدينة أورشليم. فبفضل أحد الاكتشافات المثيرة أصبحنا الآن واثقين الثقة كلها من أن داوود قد احتل حصن اليبوسيين الحصين بل وغدونا نعرف كيف تسنى له ذلك وبأي أعجوبة.

ونحن نقول بالأعجوبة هنا عن سابق قصد لأن قلعة اليبوسيين تلك كانت تقوم على قمة منحدر صعب المنال وقد استطاعت أن تصد هجمات أعدائها على مدى أربعمائة عام. وتُعدُّ رواية التوراة عن احتلالها موجزة ومبهمة. فهي تفيد بأن يوآب استطاع أن يأخذ القلعة الجبلية: تسلل إلى داخلها عبر قناة سرية وهاجم اليبوسيين من الخلف}.

وهذا التبرير، والتفسير الساذج، الذي لا يحترم العقل، والذي يزاوج ما بين النص التوراتي، وما بين نتائج البحوث الأثرية الأركيولوجية التاريخية التي دائما يلوى عنقها لمصلحة

التوراة، والتي يستنطقونها أحيانا حسب ما تصر عليه مقولات البحث الأركيولوجي، كثيرا ما يسوقه الباحثون الذين يتخذون من التوراة مرجعية تاريخية، ويتابع زينون هذا التفسير الساذج في كتابه سابق الذكر {كما واكتشفت أنقاض بيت شان حيث تهكم الفلسطينيون على جثة شاول وهزؤوا بها. فحسب التوراة علق رأس ذاك الملك التاعس في معبد داجون ووضعت عدته الحربية في معبد عشترتا وعلق جسده على سور المدينة. لقد بلغ ارتفاع الأنقاض ثلاثة وعشرين متراً. وكانت تتوزع على ثماني عشرة طبقة تنتسب إلى عصور مختلفة، ويعود تاريخ أُولى تلك الطبقات إلى الألف الرابعة قبل الميلاد. وهذا يعني أن بيت شان كانت واحدة من أقدم مدن كنعان. ولكن ما يثير اهتمامنا بشكل خاص أنه أكتشف في الطبقة التي تعود إلى عصر شاول أنقاض معبدين متجاورين هما معبد داجون ومعبد عشترتا اللذان تحدثت التوراة عنهما.

ولقد غدت حجارة هذين المعبدين شاهدة على آخر صدام وقع بين الإسرائيليين والفلسطينيين سقط فيه شاول وأولاده الثلاثة قتلى في أرض المعركة. ثم اكتشف الأركيولوجيين من جملة ما اكتشفوا تفصيلا تاريخيا مهما أغفلت التوراة الإشارة إليه. فطبقة الرماد السميكة والحجارة المحروقة وأصنام الآلهة المتكسرة تدل كلها دلالة قاطعة أن المدينة راحت ضحية عدوان مفاجئ وحريق هائل، وهذا يعني أن داوود أباد بيت شان وثأر من أهلها الذين هزؤوا بجثة شاول وازدروها}.

وحول تناقض بعض روايات التوراة فيما بينها، يقول زينون كاسيدوفسكي {{لقد حاول علماء التوراة غير مرة أن يشرحوا هذا التناقض أو يخلقوا فيه شيئا من التوافق، ففيما يخص حادثة جليات ظهر اكتشاف وضع يد العلماء فجأة على أثر. فقد تبين أننا لا نعرف وريث شاول على العرش. لأن الاسم «داوود» ليس اسما من أسماء الأفراد بل هو لقب من الألقاب التي تعني قائدا أو مولى. وهذا ما تؤكده نصوص ماري التي ورد اسم «داوودوم» بالمعنى المذكور. ومن هنا توصل العلماء إلى نتيجة مؤداها أن داوود والخانان هما شخص واحد.

إذا افترضنا أن الذي قتل جليات هو الراعي إلخانان الذي من بيت لحم وأن الإسرائيليين أسموه داوود تعبيرا عن شكرهم له، لزال التناقض فورا}}.

ومن الأمثلة على ذلك أيضا، تفسير النقش الذي اكتشف في بتري (تل اليهودية) في منطقة الدلتا، والذي يبين استقبال المصريين لـ (أمراء البدو)، حيث اعتبر - وبطريقة مطلقة ونهائية - أنه يمثل استقبال الفراعنة (الهكسوس) للآباء الأوائل (يعقوب والأسباط الاثني عشر).

أما ما جاء في إحدى رسائل تل العمارنة، والتي كان قد بعث بها ملك أورشليم عبدي خيبا والتي يقول فيها {ما الذي اقترفته بحق مولاي الملك؟ إنهم يلومونني عند مولاي قائلين بأن عبدي هيبة قد تألب على سيده الملك. ولكني أقول بأن أبي لم يبوئني هذا المنصب ولا أمي، بل أسلحة مولاي القوي هي التي فعلت. فلماذا أتمرد على مولاي الملك؟... ليعلم مولاي بأننا نفتقد إلى قوات حماية ترعى أراضيه، فهلا وجه المليك عناية نحو أراضيه التي تمردت هنا بتحريض من إيلي ميلكو}. وفي تفسير ذلك، جاء في دائرة المعارف الكتابية {فيما يتعلق بملكي صادق الذي كان «بلا أب وبلا أم» (عب ٧: ٣)، فإن خطابات تل العمارنة - مع أنها لم تقدم كل المعلومات اللازمة - قد بددت الكثير من تخيلات قدامى المفسرين، وأشارت إلى موقع ملكي صادق من سلسلة ملوك في أورشليم ذوي لقب فريد، ينكرون على أنفسهم فيه أي حقوق وراثية في العرش: «إنه لم يكن أبي ولا أمي هما اللذان وضعاني في هذا المركز، لكنها الذراع المقتدرة للملك نفسه الذي جعلني سيداً على أراضي وممتلكات أبي». هذا اللقب الذي دار حول ترجمته الصحيحة الكثير من الجدل لم يذكر في هذه الخطابات مرة واحدة فقط، بل يبدو أن تكراره كان ضرورياً عند كل ذكر رسمي لسيادة الملك}، وبذلك اعتبر عبدي خيبا الذي ورد اسمه في حوليات تل العمارنة، هو ملكي صادق الذي ورد ذكره في التوراة، وأنه كان بلا أب، ولا أم حسب ما جاء في التوراة، وحسب رأيهم ما يؤكد ذلك هي الجملة التي تقول {ولكني أقول بأن أبي لم يبوئني هذا المنصب ولا أمي}.

وما يجب التنويه إليه هو أن ملكي صادق هو لقب كهنوتي حسب ما أتى في سفر المزامير «قال الرب لربي اجلس على يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك. يرسل الرب قضيب عزك من صهيون. تسلط في وسط أعدائك. شعبك منتدب في يوم قوتك في زينة مقدسة من رحم الفجر لك طل حداثتك

أقسم الرب ولن يندم. أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق. الرب عن يمينك يحطم في يوم رجزه ملوكه. يدين بين الأمم. ملأ جثثاً أرضاً واسعة سحق رؤوسها. من النهر يشرب في الطريق لذلك يرفع الرأس» مزمور ١١٠.

كما حاول التوراتيون، بسوء نية، إيجاد تبرير للرواية التوراتية التي تزامن، وتماكن بين مملكة سبأ اليمنية، وبين مملكة سليمان في بلاد كنعان، والتي من المفترض أنها تشكلت في بداية الألف الأولى قبل الميلاد، فذهبوا إلى أن القبائل السبئية كانت تحط برحالها إلى الشرق من خليج العقبة، ومن وادي عربة (بلاد العريبي كما أتت تسميتها في الحوليات الآشورية)، في مرحلة تتزامن مع مرحلة مملكة سليمان، وقد حكم على تلك

المملكة عدة ملكات، كانت إحداهن الملكة بلقيس، وأيضا الملكة زبيبة التي ذكرت في بعض النقوش، والتي يعتقد أنها الملكة الزباء التي تحدث عنها الإخباريون العرب، والملكة شمسي التي حكمت نحو سنة ٧٣٨ قبل الميلاد ، وملكة تدعى تبوءة أو تبوعة والتي عاصرت الملك الأشوري سنحاريب، ويرى البعض أن العرب الشماليين حافظوا على المجتمع الأمومي حيث بقيت القبيلة تترأسها المرأة - الأم لمرحلة متأخرة.

وقد انتقلت تلك، أو بعض من، القبائل إلى اليمن وشكلت في مرحلة لاحقة مملكة سبأ الشهيرة، وهو الأمر الذي يفسر، حسب ما يذهب إليه أصحاب هذا الرأي، كيف أن حضارة عرب الجنوب التي ظهرت فيما بين ٩٠٠ - ٨٠٠ق.م، كانت متطورة في زمانها، ومكانها، أي بمعنى أن تلك الحضارة قد قدمت من الخارج بشكل ناضج، ولم تكن نتيجة لتطور محلي، ويذهب فرتز هومل أن تلك الحضارة قد جاءت محمولة مع قبائل عربية كانت تعيش في منطقة مديان في شمال الجزيرة العربية ، وهو الذي اكتشف في مدين آثاراً لحضارة العرب الجنوبيين، وقد ذكر هومل أنه {ورد مرة لفظ سبأ في نقش معيني، وكان هذا النص يشير إلى أن هذا اللفظ يدل على قبيلة بدوية كانت تسطو على الطريق التجاري الممتد بين بلاد العرب الجنوبية وبين معان الواقعة في شمال بلاد العرب، وكانت تسطو أيضا على القوافل المعينية القادمة إلى مصر. ثم نقرأ القصة التي تحدثنا عن زيارة ملكة سبأ لسليمان، فهذه القصة لا يمكن فهمها جيدا إلا إذا قدرنا أن السبأيين كانوا يقطنون في شمال بلاد العرب، وليس الإنسان في حاجة هنا إلى تأويل، ونستطيع أن نعتقد أن هناك نواة تاريخية لهذه القصة. كذلك مما يؤيد وجود وطن للسبأيين أصلي في شمال بلاد العرب، وورود لفظ سبأ مصحوبا بلفظ دادان في العهد القديم} ، وممن يؤيدون ذلك رينيه ديسو أيضا، وسترابو، أما ألبرايت فيذهب إلى أن السبأيين هاجروا من مديان إلى الجنوب بُعيد القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، أما من تبنى - أو استشهد - بهذه المقولة هو د. سيد قمني، والذي يرى أن السبأيين كانوا أصلا في العربية الجنوبية، وقد رحلوا إلى العربية الشمالية، وأسسوا هناك عدة ممالك، ولكن ولسبب ما، عادوا إلى العربية الجنوبية ثانية ، ومعهم حضارتهم المتقدمة في القرن الثامن قبل الميلاد ، وقد ذهب سيد القمني بعيدا في اعتماده على التوراة كنص تاريخي {ثم تستوقفنا لفظة (بوريكة أو بوليكة) لنجد لها صدى في لسان العرب إذ يقول تحت مادة أيك:

في التهذيب: في قوله تعالى: كذب أصحاب الأيكة المرسلين، وقرئ أصحاب ليكة، وجاء في التفسير أن اسم مدينتهم كان ليكة.

ولو صرفنا الاسم (بو- ليكة) بإضافة US، فتصبح (بوليكيس) أو (بلقيس)، ذلك الاسم الذي تواتر في المأثور الإخباري العربي بحسبانه اسم ملكة سبأ زمن الملك سليمان} ، ومن ثم يقترح سيد القمني أن الزباء، وهي الملكة العربية التي توارد ذكرها في التراث العربي، هي ملكة سبأ التي زارت الملك سليمان، والتي لم تأت التوراة على ذكر اسمها، وأن (الملكة الزباء) قد تحولت بالترجمة إلى (ملكة سبأ).

وبشكل مباشر، وغير مباشر جهد د. سيد القمني بالتأكيد على أن بلقيس هي ملكة سبأية عاشت في منطقة أدوم، ثم انتقلت تلك المملكة نحو جنوب الجزيرة العربية بعد طرد الهكسوس على اعتبار أن المديانيين كانوا من الأحلاف الهكسوس، وقد تم طردهم من هناك على يد شاول، وقد استشهد على مقولته بما جاء في سفر صموئيل «وضرب شاول عماليق من حويلة حتى مجيئك إلى شور التي مقابل مصر» صموئيل أول ١ ، وبذلك فقد ذهب سيد القمني إلى أن العماليق الذين قام شاؤل بطردهم، هم الذين انتقلوا إلى جنوب العربية، وشكلوا مملكة سبأ.

والجدير ذكره أن من بين الملوك الذين حكموا سبأ ما بين ٨١٠ - ٥١٠ قبل الميلاد: أنمارم يهو أمين - نشمي كرب يهو أمين - كرب إيل وتر يهونعم، فإذا أخذنا بما ذهب إليه القمني، فكيف يمكن أن نفسر كيف يَعبد من هُجِّروا إله من هجَّرهم؟!

كما أن سيد القمني حاول أن يفسر - بطريقة لا تخلو من غرائبية - ذكر (المقدس) التوراتي للفلسطينيين في عهد الأباء الأوائل في بلاد كنعان، فذهب إلى أن الفراعنة والهكسوس من بعدهم الذين كانوا قد اجتاحوا الجزر والشواطئ المتوسطية قاموا بنقل (كما فعل بعدهم الآشوريون والبابليون) الطبقة المفيدة (الحدادين منهم على سبيل المثال) من الشعب المقهور، ومنهم بعض جماعات البيلست التي وطنتهم على ساحل بلاد كنعان، ولكن سيد قمني الذي قاد حجته دون أي دليل، وبصيغة لم يدس إلا مرة واحدة بين كلماتها ما يشير إلى أن ما يذهب إليه هو اعتقاد، وكانت حجته على اعتقاده الذي لا يرقى إليها الشك هو (هكذا قال المقدس التوراتي)، ويعتقد د. سيد قمني أن إبراهيم قد دخل مصر في زمن الهكسوس، وهذا ما يفسر أن الملك المصري منح إبراهيم جارية مصرية، ولو كان في زمن الفراعنة المصريين لما أعطى الفرعون إبراهيم جارية مصرية، وتابع حديثه قائلا {وهكذا فإن الهجمة التي حدثت في زمن مرنبتاح، وتلاها هجوم أعظم زمن رمسيس الثالث لم تكن هجمة الفلسطينيين من كريت التي احتلوا بموجبها ساحل فلسطين، إنما مجموعة خرجت من الجزر اليونانية حملت أسماء شعوب عديدة كالشاكوشا والثكر والدانونا والواشاشا والبلست وهم

الذين عرفهم التاريخ باسم الشعوب الآخية، وهي الهجمة الكبرى التي أسقطت الحضارة الحيثية وأزالتها من التاريخ. وكان الخلط يتم دوما بين حركة الآخيين الكبرى وبين وجود البلست على الساحل الفلسطيني بدمج مبتسر ومتكلف لإيجاد تفسير لظهور الكريتيين البيلست على الساحل فلسطين، في زمن كانت فيه مصر قد أصبحت إمبراطورية قوية لن تسمح بهذا الاستقرار لمهزومين - كما يقولون - في أرض تابعة لها - وكان هذا الاستيطان المبكر للفلسطينيين أمرا غامضا لم يأت بشأنه مدون واضح يحدد موعد بدئه، لأنه ببساطة حدث زمن الهكسوس الذي لم يترك لنا شيئا مدونا يعول عليه. وهو الزمن الذي أسدل عليه المصريون ستارا من النسيان فلم يدونوا عنه وقرروا نسيانه ولم يعودوا يذكرونه كأنه لم يكن}.

وهذه السذاجة والعماء من قبل الباحثين التوراتيين، ومن يذهب مذهبهم، لا تستغرب على من يُعَدّ أن المقولة التوراتية مقولة مطلقة، وأن أي اكتشاف أركيولوجي يجب البحث عن موقعه في التوراة، كما يجب تفسيره من خلال التوراة أيضا.

إن البحث الأركيولوجي في فلسطين جاء من العالم الغربي المسيحي مرتبطا بعدة حيثيات، على رأسها الوضع السياسي الراهن المؤسس أصلا على المعطيات التأريخية التوراتية، ويليها في الأهمية الحالة النفسية الخاضعة للحالة العاطفية الدينية للغرب المسيحي (البروتستانتي بشكل خاص)، ومن بعدها الضغط السياسي الصهيوني، وهذا ما جعل البحث التاريخي ذا نمط عصابي وغير سوي من ناحيته النفسية، فبدل البحث في الجغرافيا عن التاريخ، أو البحث في المكان عن الزمان، تم البحث عن التاريخ في الجغرافيا، أو البحث عن الزمان في المكان، وهذا أيضا ما جعل البحث الأركيولوجي مركّزا في متنه على التاريخ اليهودي كما جاء في التوراة، مع تهميش تاريخ الأمم المتنوعة التي مرت على المنطقة، وبذلك فإن هذا التاريخ تنقصه مقومات كونه علميا.

لقد حاول الغرب من وجهة نظر ذاتية، ومن نزعة قومية، أن يؤرخ للشرق الأدنى، مستلبا - بقصد، ومن غير قصد - الحقيقة التاريخية، محاولا الربط بين (المعجزة الأغريقية)، (والمعجزة التوراتية)، وكان أول من اعتزم القيام بالبحث الأركيولوجي في الشرق الأدنى القديم هو الباحث الفرنسي إيرنست رينان سنة ١٨٦٠م، وقد استعر مجيء القادمين إلى المنطقة للبحث عن التوراة تحت الأرض، وأصبح البحث الأركيولوجي في الشرق الأدنى هوسيا، خاصة بعد أن تم اكتشاف طروادة هوميروس سنة ١٨٦٨م على يد العالم هنريش شلايمن، وتم إنشاء صندوق الاكتشاف الفلسطيني سنة ١٨٦٥م برعاية ملكة إنجلترا

فكتوريا، وكان تشارلز ويلسون قد شد رحاله إلى القدس وأجرى مسحا شاملا للمدينة مع رسم خريطة لها، وكان أول تصريح هز الأوساط أدلى به العالم الأمريكي وليم ألبرايت بمقولة مفادها أن إسرائيل هيمنت على أرض فلسطين في نحو سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد.

وكان البحث الأركيولوجي في بدايته ذا نمط عصابي يتعلق بذاتية الباحثين المسيحيين وانتماءاتهم الدينية الطائفية، وكان من أكثر الأمثلة تدليلا على ذاتية البحث الإرباكات التي حصلت - وما زالت - مع اللجنة الدولية التي انكبت على ترجمة وقراءة مخطوطات البحر الميت، التي يعتقد أنها تعود إلى الطائفة الأسنية، والتي دوّنت في محيط الميلاد، وعلى ما يبدو فإن هذه المخطوطات لديها الكثير من الحقائق التي تخالف المقولات الكنسية، وكذلك الأمر بالنسبة للبرديات التي فقدت - وما زالت سرا إلى يومنا هذا - والتي تم العثور عليها في مقبرة توت عنخ آمون كما أتينا على ذكرها سابقا، وكان هوارد كارتر مكتشف المقبرة قد هدد بنشر هذه البرديات، والتي من شأنها - حسب ما جاء في رسالة بعث بها هوارد كارتر إلى أصدقائه - أن تغيّر الكثير من اعتقادات العالم المسيحي واليهودي، ويعتقد كل من أندرو كولينز وكريس هيرالد أن هذه البرديات كانت تتحدث عن جماعات الخروج بطريقة مخالفة تماما لما أتى في التوراة، وهنا لنا أن نربط بين مخطوطات البحر الميت، وبرديات مقبرة توت عنخ آمون، كما يمكن أن نربطها أيضا مع الاعتقادات الجديد التي تربط بين السيد المسيح، وتوت عنخ آمون.

إن الأركيولوجيين - المسيحيين الذين تربوا على قدسية المقولات التوراتية - كانوا يصطدمون في البداية بالحقائق التي تأتي على خلاف ما يتمنونه، وكانوا يأملون أن يكتشفوا من الأدلة التاريخية ما من شأنه أن يعيد للمقولات الدينية قدسيتها.

وكان الباحثون في بداية أي اكتشاف يلوذون بالصمت، فقليل منهم كان بإمكانه امتلاك القوة والجرأة ليصرّح بنتائج الأبحاث التي تتعارض مع المقولات الدينية، أو لا تتفق، على الأقل، مع المقولات التوراتية، ولكن الباحثين في النهاية - وبعد استعادة التوازن النفسي والذاتي لبحثهم الموضوعي - كانوا يتحلقون حول الموضوعية بعد تخليهم عن ذاتيتهم الدينية.

وفي مرحلة لاحقة، وبشكل متدرج بدأ البحث يأخذ صفته الموضوعية، وكان الباحث الأركيولوجي ليمك أول من أوصل مقولته التي مفادها أن نتائج البحث الأركيولوجي لم تأت بما يؤكد المقولة التوراتية، ومن ثم بدأ الباحثون يعلنون بجرأة عن عيوب خطابهم الذاتي.

وبشكل عام كان الخطاب الغربي في البداية ذو طبيعة ذاتية راديكالية، ومن ثم، وبعد أن أضاءت البحوث الأركيولوجية عتمة التاريخ، تحول الخطاب شيئا فشيئا نحو

الموضوعية، ولم يبق سوى القليل من المنابر والزوايا القليلة الضيقة للخطاب الذاتي الراديكالي.

وكانت أكثر الخطابات الأركيولوجية في البداية متوافقة مع الواقع المعاصر ومعطياته الأيديولوجية، وكتابات آلت تحديدا جاءت متوافقة مع الفكر الصهيوني، وشكلت له قاعدة ومرجعية تاريخية، وجاءت لتوحي للغرب أن الفلسطينيين هم نسخة أخرى (وليس ورثة) عن الكنعانيين الذين لم يستطيعوا تشكيل كيان سياسي خاص بهم في التاريخ القديم، وبذلك فإن الفلسطينيين العرب أيضا غير قادرين على تشكيل كيان يستطيع أن يضطلع بمسؤولياته، وتبعيته لبريطانيا بعد أن تنهي انتدابها له، ويقول ألبريت آلت {إن إسرائيل تمكّنت من هزيمة الحكم الفلسطيني المستبد، ومن إنشاء دولة قومية هي أول دول قومية موحدة عرفتها الأرض}، كما كان لألبرايت تأثير واسع على الفكر الغربي، ولا سيما على القطاع الأكاديمي، وهو الذي قال {فمن حسن طالع التوحيد ومستقبله أن الغزاة الإسرائيليين كانوا غلاظا أجلافا وأصحاب إرادة لا ترحم ليحلوا محل الكنعانيين الوثنيين، عبدة الخصوبة، ليعيدوا إلى الحياة صفاءها عبر ممارستهم البسيطة للرعي، وبواسطة التزامهم بتعاليم موسى.. ليمهدوا بذلك الطريق للرومان العظام كي يسحقوا هؤلاء الكنعانيين الأفارقة أو القرطاجيين، كما يسمون أنفسهم، فالرومان بقوانينهم الصارمة ووثنيتهم المهذبة يذكروننا من عدة أوجه بإسرائيل الأولى}، وبذلك فقد قام بإسقاط الماضي على الحاضر من خلال إحلال واستبدال الفلسطينيين العرب بالكنعانيين، والإنكليز بالرومان، أما الإسرائيليون فما هم سوى اليهود.

ويقول ألبرايت أيضا {الاتصال المباشر بين الماضي والحاضر هو الذي يسوغ حق إسرائيل في هذه الأرض}.

وهكذا قام الغرب الأوربي الثقافي الاستشراقي يدفع الدراسات التاريخية، والأركيولوجية في ساحة المعركة على الحاضر، بحيث أصبح ذهاب اليهود إلى فلسطين، هو فعل عودة ورجوع أو إياب، وغزو واحتلال فلسطين هو تحرير واستقلال لإسرائيل، وقد كشف هذا التوجه، وبشكل صارخ، المفكر اليهودي الأمريكي يعقوب بتوتشوفسكي حين قال {إن البحث والتنقيب في خرائب الماضي، وفي أساسات المباني التي شيدها الأجداد يهدف إلى العثور على رابطة ثقافية مشتركة بين الأجداد القدماء وبين المتحدرين من سلالاتهم في هذا العصر، وفي الوقت ذاته يجري استحلاب الأرض واستنزاف ما فيها من شواهد تاريخية بهدف حقن اليهود والآخرين بأن الأمة التي تقيم في صهيون الآن تتألف من ذلك الشعب نفسه

الذي سكن هذه البقعة في الزمن التوراتي، وهكذا يتم اجتياز آلاف السنين الممتدة بين ذلك الماضي البعيد والعصر الحاضر، بمرح وجهل يبعث منتهى السعادة}

وعلى الرغم من تخلص الكثير من علماء الآثار من هيمنة النص التوراتي على قراءة التاريخ، إلا أنهم لم يستطيعوا التحرر تماما من هيمنة الضغط الصهيوني بقبول التوراة على أنها وثيقة تاريخية يجب الأخذ بأقوالها، وما زال الباحثون التوراتيون يتحدثون عن أرض فلسطين الجغرافية على أنها أرض إسرائيل (إيرتس إسرائيل)، ولكنهم لا يتحدثون مطلقا ولا يوردون (الكنعانيين والفلستيين) على أنهم شعوب تنتمي وتنتسب لمنطقة جغرافية محددة، بل يذكرون الشعوب التي مرت بفلسطين على أنها شعوب عابرة لم تستطع أن تؤسس كياناً سياسياً مستقلاً على الإطلاق، وأنها شعوب تنتمي إلى فترة ما قبل التاريخ الفلسطيني على اعتبار أن تاريخ فلسطين لا وجود له قبل دخول القبائل العبرية إليه،

وفي هذا السياق يقول المؤرخ التوراتي نوت مقصيا أي معنى تاريخي، أو اجتماعي، وأي هوية لسكان الأرض الأصليين في بلاد كنعان قبل دخول (بني إسرائيل) إليها {إن الأرض جرداء وخالية من العنصر البشري، أما السكان الموجودون فهم مجهولون لا اسم لهم}.

أما الحاخام زهابي فيقول {إن السماح لكنعان بالبقاء كان على أساس المنّة، ولكي يصون الكنعانيون هذه الأرض إلى حين مجيء بني إسرائيل لاستلامها}.

وقد جهد الباحثون التوراتيون في التأكيد على أن أول كيان سياسي مستقل (وطني) تشكّل على أرض فلسطين هو الكيان الإسرائيلي ضمن المفهوم القومي، وبالوقت نفسه قامت الصهيونية بتفتيت المفهوم القومي العربي، ووجهت خطابها الإعلامي، بل وتعاملت مع الشعب العربي على أساس عدة شعوب طائفية (سنية، شيعية، علوية، درزية، كاثوليكية، أرثوذكسية، موارنة.. وغيرها)، وكذلك الأمر بالنسبة للجغرافيا، حيث فتت جغرافيا الوطن العربي، وبالتالي البعد القومي إلى مجموعات إقليمية (الشرق الأوسط وشمال أفريقية) وأجبرت الجميع على التعامل معها - ومنهم العرب أنفسهم - والتي تحمل ثلاث قوميات على الأقل هي العربية والفارسية والتركية (والكردية)، ويحمل أكثر من جغرافيا واحدة، وإقليم طبيعي واحد، كما قامت بتفتيت الأراضي العربية التي احتلتها سنة ١٩٦٧م، إلى وحدات إدارية متفرقة.

لقد قام الخطاب التوراتي على تغيب الوجود التاريخي لشعوب المنطقة الأصليين، وكانوا، عندما لا يجدون بدا من ذكر أن التأريخ الإسرائيلي القديم قام على احتلال بلاد كنعان (فلسطين)، يجيبون أنه حتى يبدأ التاريخ (التاريخ المحوري للبشرية) لا بد من وجود

جغرافيا محددة يتمثل عليها تاريخ الشعب (المختار)، وهذا يبيح بعض أشكال الظلم، والقتل وربما الإبادة من أجل أن يحافظ الشعب التاريخي على هويته العرقية، يقول دوثان {إن الإسرائيليين المجموعة الأثنية الوحيدة التي نجحت في تكوين دولة على هذه الأرض، ومن دون أن تكون تابعة لإمبراطورية عظمى، أو منتمية إلى مزيج من الدول - المدن، ذلك النمط الذي ساد الفترة الكنعانية، فإسرائيل القديمة تمثل ذروة التطور السياسي والحضاري الذي حل محل البدائية}.

ولمزيد من إمحاء التاريخ الكنعاني، وانتزاع الفكر الحضاري منه يقول رايت: {ونحن نعرف الآن.. أن الحضارة والديانة الكنعانية كانت من أضعف الديانات والحضارات والأكثر اهتراء، والثقافة الأكثر لا أخلاقية في العالم المتمدن يومها. ولذا فإنه يقال إن إسرائيل هي وكيلة الرب في التدمير ضد الحضارة الخاطئة، لأن الحضارات الآثمة ذات الشرور وفق نظام الرب الأخلاقي يجب أن تدمر، ومن جهة أخرى إن للرب غاية من اختيار إسرائيل وإعطائها الأرض، غاية جاءت في وعوده لآباء إسرائيل في سفر التكوين}.

أما ألبرايت فيقول: {ولقد كان من حسن الحظ لمستقبل التوحيد أن إسرائيليي الغزو قد كانوا همجا، مزودين بطاقة بدائية وإرادة في البقاء لا تلين، حيث إن إفناء الكنعانيين قد منع الخلط الكامل بين القومين القريبين، الأمر الذي كان سيحط من المستوى اليهوي إلى درجة يصبح معها إصلاح الأمر مستحيلا..}.

ويتابع: {لا يتحقق الارتقاء الروحي الحقيقي إلا من خلال الفاجعة والمعاناة للوصول إلى مراتب جديدة بعد التطهير الذي يرافق الاضطرابات الكبرى. وكل فترة من هذا النوع من الغم العقلي والجسدي، وفيما القديم يزول والجديد لم يولد بعد، تنجم نماذج اجتماعية مختلفة ورؤى روحية أعمق}، أما في دائرة المعارف الكتابية فقد جاء فيها {يمكن تبرير ما حدث في المعارك المدونة في السفر - سفر يشوع - من إبادة وتدمير، بأنها كانت حربا مقدسة. فقد كان بنو إسرائيل أداة في يد الله لعقاب الشعوب الكنعانية، لأنهم كانوا قد أوغلوا في الشر، ولكي لا يكونوا شركا لبني إسرائيل علاوة على أن المبادرة بالقتال كانت تأتي دائما من جانب الشعوب الكنعانية، وكان على بني إسرائيل أن يوجهوا أولا دعوة للمسالمة، ولكنها كانت تواجه بالرفض، ويبادرهم الكنعانيون بالحرب، وكان الذنب هو ذنب ملوكهم ورؤسائهم، ولكن كل ما حدث كان دليلا على هيمنة الله على أحداث التاريخ}، وهذا التبرير العنصري للجرائم العبرية ينطبق على جرائم الإبادة التي يقوم بها الإسرائيليون الصهيونيون (سلطة وشعبا) في الوقت الحاضر.

إن المكتشفات الآثارية تشير إلى أنه تم تدمير مجهول الهوية في القرن الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد للمدن والقرى الكنعانية، ويعتقد علماء الآثار التوراتيون أنه تم على يد الغزاة العبرانيين، ولكنهم يسوغون ذلك التدمير على اعتبار أن القبائل العبرية قامت به بناء على أمر إلهي، يقول برايت: {إن الذبح الجماعي لم يكن يطبق إلا في حالات محددة، فالسكان الكنعانيون كانوا قد أبيدوا نهائيا} على الرغم من أن النظريات الحديثة بيّنت أن هذا التدمير قامت به أقدام الجفاف الميسيني الثقيلة، والتي كانت قد قامت بتهديم كامل للكثير من القرى لا سيما الفقيرة زراعيا، وتركت بعضها آيلاً إلى السقوط، والقليل منها استطاعت أن تقاوم هذا الجفاف لا سيما التي تمتلك بيئة زراعية جيدة، وقد شاركت ولحقت بالجفاف الميسني الغزوات الفرعونية، واجتياحات شعوب البحر، والقبائل العبرية لتهدم القرى الآيلة إلى السقوط فقط، ولكن محررو التوراة أرادوا أن يعيدوا إلى القبائل العبرية هذا الفعل التدميري لتعزيز مقولتهم بأن شعب الله المختار كان يمتلك إرادة مستمدة ومدعومة من قبل رب الجنود (يهوه)، وقد أتى من بعدهم، وعلى نفس خطاهم علماء الآثار التوراتيون الراديكاليون، ليحرروا الخطاب الأركيولوجي كما كان رجال الدين اليهودي قد قاموا بتحرير التوراة.

أما رايت، وهو كاتب يمثل الرأي السائد في الولايات المتحدة الأمريكية التي قَبِل العرب بها قاضيا أو وسيطا بينهم وبين دولة إسرائيل الصهيونية، فيقول: {إلا أن شعوبا أخرى كانت لها أحداث في خلفيتها ليست بعيدة عن ذلك، فنحن في الولايات المتحدة الأمريكية لدينا آباؤنا المؤسسون و (خروجنا) من الاضطهاد الأوربي، وعهدنا المتمثل في الدستور ومرسوم الحقوق، وفتحنا لأمريكا، وسلسلة من الرجال العظماء الذين كانوا آباء بلادنا ابتداء من جورج واشنطن طبعا، وبمعنى آخر إن الحدث الكتابي بوصفه حدثا تاريخيا ليس مثيرا كثيرا للعاطفة من حيث فرادته}.

ولكن رايت الذي عدد التشابه بين استيطان الرجل الأبيض، واستيطان القبائل العبرية، لم يذكر أبدا التشابه الحقيقي الآخر للشعبين الذين تم الاعتداء التاريخي الحضاري عليهما، وهم الهنود الحمر، والكنعانيون أصحاب الأرض الأصليون والمجازر التي نفذت بهم، والتهميش الذي قام به كلا الاستيطانيين لتاريخ كلا الشعبين، وغاية هذا الخطاب الأمريكي أن يستحوذ على تشكيل حالة عاطفية، وتعاطفية من قِبل الرجل الأبيض الأمريكي تجاه الاستيطان الإسرائيلي في التاريخ القديم (وفي التاريخ الحديث أيضا) على اعتبار أن التوراة وثيقة تاريخية غير مشكوك فيها، وما القصد من استبعاد ذكر التشابه في

هذه النقطة من قبل رايت إلا تهميش الصوت الإنساني للمعتدى عليهم، وهذا التهميش في الخطاب الإعلامي مترافق ومتزامن مع التهميش البحثي الآثاري أيضا.

فقد كان تصور الرجل الأبيض يذهب إلى أن الهندي الجيد هو الهندي الميت، فالهنود (المنحطين أخلاقيا، وحضاريا، ودينيا أي المدنسين) يجب أن تتم إبادتهم، لأنهم لا يمكن أن ينسجموا مع الرجل الأبيض (الرجل الأسمى، أو الأمة الأمريكية المختارة تحديدا) على أرض أمريكا التي تفيض بذهبها (أورشليم الجديدة)، وإبادة الهندي الأحمر هو عمل مقدس بصفته شعبا لا يؤمن بما يؤمن به الرجل الأبيض، وهذا كفيل بالتربيت على الضمير الفردي كي ينام أثناء أعمال الإبادة المقدسة، أو أي عمل من شأنه استبعاد هذا الرجل الأحمر والذي يمكن أن يكون من خلال الفصل، أو الإبعاد، أو السيطرة، وما سواه من أعمال الإقصاء.

وقد تواطأ البحث العلمي الأوربي بدافع لاهوتي من جهة، وسياسي من جهة أخرى في إقصاء التاريخ الكنعاني، والتركيز البحثي عن إسرائيل التوراتية، وعلى الرغم من اليأس الذي تسرب إلى نفوس الباحثين فإن الضغط والخناق الإسرائيلي الصهيوني بقي مسيطرا على قيادة وتوجيه دفة البحث العلمي، يقول مانهايم: {يمكن للجماعات المتحكمة أن تصير في تفكيرها شديدة التركز على مصلحتها ببساطة، إلى الحد الذي لا تعود فيه قادرة على رؤية بعض الحقائق التي تدمر إحساسها بالسيطرة}.

وعلى مثل هذه المقولات التي استخدمت في تهميش التاريخ الكنعاني القديم، عاد واستخدمها اليهود ثانية في العصر الحديث تحت مقولة: (فلسطين أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض)، وهذا ما أرادوا أن يثبتوه من خلال البحث الأركيولوجي لمرحلة القرن الثالث عشر قبل الميلاد، فالمؤرخ التوراتي دوثان يرى أنه من المتوجب عدم استخدام كلمة فلسطين، لأن هذا الاسم {لم يكن الاسم الرسمي للبلد إلا لمدة لم تتجاوز الثلاثين عاما أثناء الانتداب البريطاني، وفي القرن الخامس قبل الميلاد كان هذا الاسم مقصورا على الساحل الجنوبي فقط}.

ولكن النتائج الأثرية كانت قد خيبت آمال المؤرخين التوراتيين بشكل عام، بل على العكس فقد بدأت تشككهم بالمقولات التوراتية، والتأريخ التوراتي الذهني، يقول وليم فوكسيل ألبرايت: {ومع أن عشرين عاما قد مرت منذ أن وصلت دراسة الآثار الفلسطينية إلى مرحلة مستقرة بما فيه الكفاية لتبرير استخدام معطياتها من قبل المؤرخين المتزنين، إلا أنه ما يزال من الصعب على غير المتخصص أن يرى طريقه وسط التواريخ واستنتاجات علماء الآثار المتناقضة}.

ولكنه يعود فينكص عن اندفاعه وحماسه: {ووسط حماس المرء للبحث الآثاري يواجه إهمال السبب الدائم والداعي لأي اهتمام خاص بفلسطين، ويكاد يكون العهد القديم العبري كله نتاج التربة الفلسطينية، والكتاب الإسرائيليين}.

والتوراتيون يقرّون بحدوث التطهير العرقي الذي قامت به العصابات العبرية ليؤكدوا أن السكان المحليين (الكنعانيين - الفلستيين) قد أبيدوا عن بكرة أبيهم، أو أنهم تلاشوا في المجتمع والدين العبري، وبذلك لم يتركوا لهم وريثا يطالب بحقهم التاريخي، أو بدمهم، وبذلك يكون اليهود المعاصرين هم الورثة الوحيدون الحقيقيون والتاريخيون لفلسطين، وأن الفلسطينيين العرب الحاليين هم دخلاء يعودون إلى عروق ومجتمعات متعددة دخلت إلى فلسطين في مراحل متعددة لاحقة على الوجود العبري، وعلى رأسها العرق العربي الذي دخل مع الإسلام في القرن السادس بعد الميلاد، وبذلك يبقى للعبريين الحق التاريخي في فلسطين حتى في حالة استثناء أو استبعاد حجة ألهية الربانية والحق الميثولوجي الديني لأرض فلسطين كما وعدهم ربهم بذلك.

وقد حاول البعض الدفاع عن هذه النقطة، أو التخفيف منها بادعائهم أن المجازر التي وقعت في بلاد كنعان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد لم تكن جميعها على أيدي العصابات العبرية، بل كان الكثير منها قد حصل بين السكان المحليين، ويعزون ذلك إلى حالة الفوضى والاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي عمّت المنطقة بسبب الغزو العبري، ولكن دون أن يقدموا أي برهان على هذا الادعاء الذي يسوقونه حين يريدون التخفيف من تهمة الهمجية التي يُنعت بها الغزو العبري لبلاد كنعان، أما حين يريدون أن يؤكدوا أن الكنعانيين لم يبق لهم وجود فإنهم يؤكدون على أن الغزو العبري قام بإبادة أصحاب الأرض الأصليين نهائيا تحت تبرير الإبادة المقدسة بأمر إلهي، وبغض النظر فكلا وجهتي النظر ينتهيان إلى أن القبائل العبرية استطاعت أن تمتلك الأرض على الصعيدين السياسي - العسكري، والإداري التملكي، وهذا تماما ما حصل، ويحصل الآن من امتلاك للأراضي الفلسطينية من قبل الاحتلال الإسرائيلي، حيث استولت الجماعات الصهيونية على الأراضي الفلسطينية، من خلال التطهير العرقي لبعض القرى، والمجازر المشهورة التي أفرغت القرى من سكانها، وأذاعت الرعب في القرى الأخرى الآمنة، الأمر الذي جعل المواطنين الفلسطينيين يهربون فزعين من قراهم، وبذلك إفراغها تماما من سكانها الفلسطينيين، ومن ثم تم الاستيلاء عليها من قبل المستوطنين، وقد أكدت الحفريات التاريخية أيضا على حصول مثل هذه المجازر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد بُعيد تدمير المدنيات الكنعانية، وأنه قد تم

إنشاء تجمعات قروية استيطانية أجنبية فقيرة وبسيطة، كما أوضحت الحفريات الأثرية ويعتقد أنها كانت للغزاة العبريين.

أما بالنسبة لمملكة داود الموحدة التوراتية، فقد دأبت الدراسات التوراتية التاريخية في التركيز على ضعف الهيمنة والتواجد الإمبراطوري العسكري في منطقة الشرق الأدنى القديم في سياق انتقال الألفية الثانية قبل الميلاد، نحو الألفية الأولى قبل الميلاد، كي تعطي منطقاً تبريرياً، وتفسيرياً لقيام الإمبراطورية الداودية المزعومة، لا سيما بعد أن فشلت محاولات معاول الباحثين الأركيولوجيين في إيجاد أي دلالة أركيولوجية تؤكد صحة المقولة التوراتية التي يستمد الخطاب الغربي منها مفرادته، وقد كان لاكتشاف (نقش دان)، وهو نقش آرامي على بلاطة أثرية جاء فيه ذكر (بيت داود)، أثر صارخ لدى الباحثين أو اللاهثين وراء إي ذكر مهما كان بسيطا (خارج التوراة) على ما تدّعيه التوراة من ذكر للإمبراطورية الداودية العظمى، وقد اعتبر هذا الذكر بمثابة دليل ثابت ودامغ لصحة الرواية التوراتية على الوجود التاريخي للمملكة الداودية العظمى، وهذا يدلنا على مدى الخواء الأثري الذي يتخبط فيه التاريخيون التوراتيون في بحثهم عن أي دليل مهما صغر شأنه، وعلى الرغم من أن هذا النقش ربما يعني أو يشير إلى موقع جغرافي، أو إلى اسم أي عائلة كنعانية كانت تعيش على جبال فلسطين، إضافة إلى نقش الفرعون مرنفتاح الذي ورد فيه ذكر كلمة إسرائيل، التي أتت في معرض حديث مرنفتاح عن الأمم والدول التي انتصر عليها عسكريا وأخضعها لسلطته، دون تحديد واضح للمعنى إن كان يعني شعبا أو موقعا جغرافيا، ومن الجدير ذكره أن نقش مرنفتاح يعود إلى زمن سابق على تشكيل مملكة إسرائيل التوراتية، إذ إنه يعود إلى دولة أو مملكة إسرائيل الكنعانية التي تشكلت في محيط القرن الرابع، أو الثالث عشر قبل الميلاد، والتي قام مرنفتاح بإبادتها.

أما بالنسبة لبناء الهيكل فلا شك من أنه لم يكن له أي وجود حقيقي كما صوّر على أوراق التوراة، فلم يرد ذكره على لسان أي وثيقة تاريخية، وحتى التوراة لم تذكر حدوث أي نشاط ديني فيه، ولم تذكر التوراة أن أي نبي أو قاضٍ قد أتخذ منه مركزا أو مقرا لممارسة نشاطاته، وإن كان له وجود فعلي، فلم يتم بناؤه قبل القرن الثامن قبل الميلاد، وهو أيضا ليس أكثر من بناء بسيط قام محررو التوراة بصياغة مخططه المعماري اللغوي، على نمط المعابد البعلية الكنعانية، وتحديدا معبد بعل الذي تم اكتشافه في أوغاريت، وزادوا من ضخامته بعد أن رأوا أبهة المعابد والقصور في بلاد الرافدين، التي كانوا قد ذهلوا برؤيتها أثناء السبي، وما لهاث الحملات التبشيرية الآثارية في بحثها عن هيكل سليمان المزعوم إلا استجرار الظمأ وراء السراب.

وعلى الرغم من ذلك فإن المؤرخين التوراتيين دأبوا في الحديث عن مملكة داود، وسليمان التوراتية، كما لو أن وجودها التاريخي قضية لا تحتاج إلى أي أدلة لإثبات حقيقتها التاريخية، وفي هذا السياق يقول سوغن {مع تكوين مملكة متحدة تحت حكم داود، خرج تاريخ إسرائيل من مجال ما قبل التاريخ، أي التاريخ الميثيولوجي، ودخل ميدان التاريخ الحق، فالمملكة التي حكمها داود وسليمان هي الواقعة الأساسية التي نستطيع الانطلاق منها للبدء في البحث عن تاريخ إسرائيل بشكل صحيح}.

أما برايت فيقول {إن إسرائيل تحوّلت بشكل مفاجئ إلى أكبر قوة في فلسطين وسوريا، وربما كانت إسرائيل في تلك الفترة لا تقل جبروتا عن أي قوة عظمى في العالم القديم.. كان داود سيدا على إمبراطورية مترامية الأطراف تضم عمون وسوريا في الشمال، وأدوم ومؤاب في الشرق.. إمبراطورية امتدت حدودها من خليج العقبة إلى البحر المتوسط، ومن وادي العريش إلى قادش على العاصي}.

أما نوت فيقول {أصبحت المملكة بنية سياسية شديدة التعقيد، وامتدت إلى حدود أبعد كثيرا من حدود الدولة الإسرائيلية، لقد أصبحت إمبراطورية فلسطينية - سورية اتحدت بشخص الملك، وضمت شعوبا عديدة ومختلفة.. إن نظام داود السياسي كان أول قوة عظيمة مستقلة في الأرض الفلسطينية السورية كما نعرفها، وقد ضمّت معظم فلسطين وسوريا، وكانت ظاهرة هائلة من وجهة نظر التاريخ العالمي، والطريف أنها كانت إنجاز شخص واحد ذكي وناجح بشكل غير عادي، وكان الوضع التاريخي العام في الشرق، في مصر وفي ما بين النهرين في مصلحة داود، إذ لم يكن هناك قوة أخرى أكبر منها تستطيع أن تعتدي على فلسطين وسوريا، وتفرض هيمنتها عليها}.

أما فون راد فيقول {إن المملكة الإسرائيلية كانت العصر الذهبي الذي أنتج أعمالا تاريخية، لم يكن بمقدور أي حضارة في الشرق الأدنى القديم الإتيان بمثلها}

إن الخطاب الإعلامي الأركيولوجي الذي تبناه الغرب المسيحي (البروتستانتي على وجه الخصوص) والذي كان ذاتيا في بدايته، تبدل قليلا في مرحلة وسيطة نحو الموضوعية، لا سيما بالنسبة لنتائج البحث الأركيولوجي المتعلقة بمرحلتي الدخول العبري، والمملكة المتحدة التي لم يرد لها أي ذكر في حوليات الحضارات التي تزامنت معها، لا سيما وأن نتائج البحث لم تسعف المتعطشين إلى ما يضيء تلك الفترة بشكل واضح، ولذا فقد بقيت معطيات البحث الأثري العلمي تتنازعه وتتجاذبه صراعات سياسية معقدة، تزيد من تعقيد كتابة التاريخ بصورة علمية نزيهة، وهي النقطة الأهم التي لا يمكن تجنيب أو تحرير كتابة التاريخ من قوة ضغط هذا المفهوم السياسي.

يقول الباحث البريطاني فيليب دايفز منتقدا الخطاب الذاتي للدراسات التاريخية التوراتية البحثية {- إنها - مجرد إعادة لصياغة التفسير التقليدي اليهودي لقصص التوراة، مع تغليفها بقشرة براقة من العقلانية. ولا تعدو انعكاسا للتجربة المعاصرة فحسب}.

وفي موقع آخر يقول {إن الدوافع اللاهوتية تكمن وراء الفشل حتى الآن في تنسيق النص التوراتي في كل مترابط.. إن قيمة الروايات التوراتية بالنسبة - إليها - تكمن في كونها شاهدا على الفعل المقدس في التاريخ،.. إن الإصرار على ربط إسرائيل التوراتية بإسرائيل التي نعرفها من التاريخ، قد ربطها بالمجال المعرفي لعلم الآثار، وترك الكتاب المقدس هشا أمام النقد، فإذا ما تهاوى البرهان الأركيولوجي تهاوى معه اللاهوت الذي ربط نفسه بالأركيولوجيا} {على أن الباحثين الراديكاليين الذين عملوا على التفريق الواضح بين إسرائيل التوراتية وإسرائيل التاريخية، قد جعلوا الفرصة متاحة من أجل إعادة القيمة الدينية للنص التوراتي.. فالغاية الحقيقية للمرويات التوراتية، والحالة هذه، تكمن في شكلها الأدبي والفلسفي واللاهوتي، لا في مدى تطابقها أو تعارضها مع التاريخ} {إن إسرائيل التوراتية هي تصور أدبي خيالي، ولكنها مع ذلك تتمتع بإطار مكاني جغرافي واقعي}.

أما الباحث توماس طمسن فقد نوه، بعد فشل الأبحاث الأركيولوجية في إيجاد التوراة تحت التراب، إلى أن خطاب الماضي، إضافة إلى خطاب التراث والفلكلور، لا همَّ له سوى إبلاغ الحكمة، وتمتين الروابط الاجتماعية ضمن الأنا الجمعية، وهو لا يأخذ باعتباراته الزمكان الذي يشكل القاعدة الأساسية للتاريخ، وقد أكد أن الحقائق الآثارية كشفت لاتاريخية التوراة، وذلك لا يعني زيف الكتاب كما أن ذلك لا يقلل من قيمته اللاهوتية.

ولكن نتائج البحوث الأركيولوجية فندت مقولات من كان يتخذ من التوراة وثيقة تاريخية ليمرر من خلالها خطابه الاستعماري، وأظهرت أن العالم الغربي كان مضللا حين كان يعتقد أن العهد القديم هو الممثل الوحيد لتراث الشرق الأدنى القديم، يقول توماس طمسن في نقده للخطاب الذاتي: {إننا فقط نعيد اكتشاف ما نحن قادرون على الاعتراف به. إن قبولنا لأنفسنا بوصفنا أسياد التاريخ يأتي بثمن: إنه ثمن هوية الماضي. هذا المنظور المستغرق في الذات، الذي يميز النزعة التاريخية الأوربية، ينعكس اليوم في أفكار التطور المتدرج التي اضطلعت بدور مركزي في رؤية الدراسات الأوربية اللانقدية للماضي بوصفه تحضيرا لأجل أوربة المسيحية}، وبشكل عام فهو يرى أن إسرائيل التوراتية (المملكة المتحدة) ما هي سوى {صرح ذهني بُني على قراءة خاطئة متحيزة للتراث التوراتي، ومنفصلة تماما عن الحقيقة التاريخية}.

يقول شانكس حول نتائج البحث الأركيولوجي لمرحلة الدخول والاستيطان العبري في أرض كنعان {إن للتوطن في مرتفعات كنعان في العصر الحديدي الأول أهمية خاصة لأن أماكن التوطن هذه قد اعتبرت إسرائيلية، والناس يريدون أن يعرفوا ماذا حدث هنا؟، وماذا يعني كونها إسرائيلية؟ وحتى لو لم يكن هؤلاء إسرائيليين فإن لهم أهمية كبيرة بالنسبة إلينا، مثلما هي أقوام العصر البرونزي الرابع، ولا يعني ذلك أننا غير مهتمين، ولكنه لا يعني أننا سنكون أقل اهتماما فيما لو كانوا إسرائيليين، وباختصار نحن نريد أن نعرف ما الذي تستطيع تلك الأدلة كلها - وهناك كمية كبيرة منها - أن تخبرنا عن إسرائيل؟}.

أما كاثلين كينيون فتقول مفندة المقولة التوراتية لمرحلة يشوع التوراتية (مرحلة الدخول العبري) دون أن تكون حاسمة في تكذيب الادعاء التوراتي بشكل جلي {إن إحدى الصعوبات الرئيسية في تحديد توقيت دقيق لدخول الإسرائيليين إلى فلسطين هي عدم وجود أي إشارة أثرية تسمح لنا بالقول بأن هناك برهانا ماديا عن وصول شعب جديد}.

وتتابع {لا بد من التسليم بأن المجموعات الإسرائيلية التي كانت تصل إلى فلسطين هي من البدو الرحل.. ولقد اقتبسوا لدى تمركزهم كل ما لدي سابقيهم في هذه الأرض من أدوات ووسائل}.

ويؤكد جيمس ريتشارد {إن التناقضات الواضحة التي كشف عنها نتائج التنقيب الأثري في أريحا وغيرها من المواقع التي تحدث عنها سفر يشوع تدل على أننا نسير في طريق مسدود في محاولة العثور على شواهد أثرية لإثبات الروايات التقليدية عن الفتوحات الإسرائيلية}.

أما ليتش فيقول مزاوجا بين نتائج البحث الأركيولوجي الموضوعي، وبين ذاتيته المسيحية حول مرحلة المملكة المتحدة، وحول الملكين داود، وسليمان {أنا شخصيا أرى ذلك غير قابل أبدا للتصديق، ليس هناك أي دليل أثري على وجود هذين البطلين أو على وقوع أي من الأحداث التي ارتبطت بهما. ولولا قداسة هذه القصص لكان وجودهما التاريخي مرفوضا بالتأكيد}.

أما الباحث الإسرائيلي أميحاي مزار فيقول {مما يدعو إلى السخرية أنه ليس لدينا إلا القليل جدا من البقايا الآثارية عن الفترة الداودية، ليست هناك معالم أثرية يمكن اعتبارها بصدق معالم داودية}.

أما كينيون فتقول من وجهة نظر توراتية متوازنة تقريبا {إن مملكة إسرائيل الموحدة لم يكن لها من الزمن أكثر من ثلاثة أرباع القرن، وكانت تلك هي المرة الأولى التي كان

فيها اليهود في موقع قوة سياسية ذي أهمية في آسيا الغربية، وأمجادها مسجلة باعتزاز في التوراة، وقد أثر استذكار ذلك، بعمق في الفكر اليهودي، إلا أن الأدلة الآثارية عن هذه الفترة ضئيلة إلى أقصى الحدود}.

أما توماس طمسن فيقول متهكما: {من المؤكد أن ملكنا الفيلسوف سليمان ما هو إلا إسكندر ناطق بالعبرانية}.

ويتابع {تعكس قصص العصر الذهبي للملكية المتحدة خيال وطموحات أورشليم الميكابيين. ومن الصعب أن تعود صورة هذه المملكة الوحيدة المحكومة من أورشليم في التاريخ إلى زمن أسبق من هذه الفترة}.

أما الباحث الفرنسي بيير روسي فيقول {إن علينا أن نعرف قبل كل شيء أن التاريخ المصنوع للعبرانيين خارج النصوص التوراتية هو الصمت الكلي المطبق، فلا العمارة ولا الكتابات المنقوشة على الآثار، ولا القوانين والدساتير تكشف أثرا قليلا للعبرانيين، فعلى آلاف النصوص المسمارية أو المصرية التي تؤلف المكتبة المصرية أو مكتبة رأس شمرا أو نينوى.. في ذلك تذكر كلمة (عبرية)، وأشهر ملوك التوراة وهما داود وسليمان لم يصبحا قط موضوع وقائع تاريخية، وليس هناك أبدا ذكر للملحمة وللوقائع الحربية المعزوة لعبور العبرانيين، وليس هناك أي انقطاع حضاري ثبت بالحفريات التي تمت في فلسطين منذ عام ١٨٩٠ - ١٩٢٥م، فالعدم كامل مثلما هو قطعي جازم}.

تقول عميدة اللاهوت البروتستانتية فرانسوا سميث سنة ١٩٨٤ {إن البحث التاريخي قد رد إلى مجرد الوهم، تلك التصورات التقليدية عن الخروج من مصر، وغزو بلاد كنعان، والوحدة القومية الإسرائيلية قبل المنفى، والحدود الدقيقة، إن الوصف التاريخي التوراتي لا يعلمنا عما يرويه شيئا، ولكن يعلمنا أشياء وأشياء عن الذين صنعوه}.

وقد تعالت احتجاجات بعض أصوات المؤرخين الغربيين الذين أدركوا مقدار التعسف الذي يمارسه الباحثون والمؤرخون التوراتيون في ربطهم ما بين الحاضر، والماضي، ومن هؤلاء المفكر الإنكليزي جيفرز الذي يقول {لقد استوطن الكنعانيون فلسطين منذ عصور ما قبل التاريخ. وكنعانيو فلسطين والساحل السوري كانوا في الأساس إحدى الموجات التي تدفقت من الصحراء العربية. وعندما جاء العرب المسلمون في الموجة الأخيرة انصهروا مع سكان فلسطين الأقدمين. ومن الطبيعي أن عرب فلسطين اليوم هم أحفاد تلك الأقوام أو المجتمعات التي عمرت فلسطين تاريخيا وحضارة من بداية التاريخ. ومن الجلي لكل ذي بصيرة أن جذورهم في هذه الأرض هي الجذور عينها التي نشأ منها التاريخ في حد ذاته}.

ويضيف جيفرز {أن امتلاك الكنعانيين والفلسطينيين لهذه الرقعة من الأرض قد بدأ قبل خمسة آلاف سنة، ولم ينقطع عنها في يوم من الأيام حتى يومنا هذا، إنه أقدم امتلاك على ظهر الأرض، أشده رسوخا في التربة، في حين أن الدولة اليهودية المزعومة قامت وتألقت وطنطنت بمقدار عمر برغشة، ثم تلاشت، فكيف يكون امتلاك سريع الزوال، مقطع الأوصال، كامتلاك الإسرائيليين لبعض مرتفعات فلسطين، ملزما لنا بأن نعطيهم حقا مشروعا في أن يزيحوا العرب من ديارهم، بعد تسعة عشر قرنا مرّت على اختفاء آخر ظل لشعلة السلطة الذاوية}.

ويضيف أيضا {إن الصهاينة بدؤوا بإعادة بناء وطنهم القومي في مكان لم تطأ أقدام أجدادهم معظم أجزائه، فصهاينة إسرائيل يملكون السهول بمؤازرة بريطانيا الحاضن وأمريكا المرضع، وقد أصبحت أهم مستعمراتهم وأكبرها في سهول وأغوار لم تطأها أقدام أسلافهم، الغزاة القدماء، حتى داود في أوج حكمه ومجده لم يستطع الوصول إليها، فأرض تل أبيب الحاضرة وسهول عكا وحيفا الكنعانية، وغزة وأشقلون وأشدود ويافا الفلسطينية، لم يصل إليها الغزاة اليهود في يوم من الأيام}

ويضيف جيفرز {إذا كان اضطهاد اليهود في أوربا عارا صارخا وسبة في جبين الأوربيين، فإن فرضهم على الفلسطينيين، ومساعدتهم في استيطانهم أرض فلسطين، أقذر من عار وأشنع من سبّة}

أما الكاتب الإنكليزي ويلز فيقول {إذا كان من الصائب إعادة تأسيس دولة يهودية لم تكن موجودة لمدة ألفي عام، فلماذا لا نعود ألفاً آخر إلى الوراء، ونعيد تأسيس دولة كنعانية؟ فالكنعانيون، بخلاف اليهود، استمروا مترسخين في تربة فلسطين عبر التاريخ}.

ويقول السير جيمس فريزر {إن الفلسطينيين المعاصرين الناطقين بالعربية هم أحفاد الأقوام أو المجتمعات التي امتلكت فلسطين منذ بداية التاريخ، وظلت أقدامهم ثابتة في التربة منذ تلك العصور، وقد توالت عليهم موجات الغزو المتعاقبة التي طغت على بلادهم، ولكنها لم تنجح في القضاء عليهم}.

ويقول السير ريتشارد تمبل {إن فلاحي فلسطين الناطقين بالعربية، هم الأحفاد الأصلاء للكنعانيين، يبدو أنهم لم يتحولوا إلى المسيحية في أيامها الأولى بأعداد كبيرة، بل أقاموا على عباداتهم القديمة حتى جاء محمد فتحولوا إلى الإسلام بحد السيف، وظلوا على هذا الدين إلى يومنا هذا}.

ويقول اليهودي موشيه منوحن {نعرف من خلال التوراة أن الكنعانيين استوطنوا فلسطين منذ ما يزيد على أربعة آلاف سنة، وأن أغلب العرب الفلسطينيين الذين يعيشون اليوم في الخيام

والأكواخ في مخيمات خارج حدود وطنهم، يتحدرون من هؤلاء الكنعانيين.. وقد مر على هؤلاء الكنعانيين، أي عرب فلسطين غزاة كثيرون تحكموا ببلادهم إلى حين، ثم ارتحلوا عنها، أما الكنعانيون فظلوا متجذرين في أرضهم، وكان اليهود بين الغزاة الذين دخلوا فلسطين وأقاموا فيها مملكتين، ثم ارتحلوا عنها.. وقد اعتنق بعض الكنعانيين في فلسطين الدين المسيحي، وعندما بدأت الفتوحات الإسلامية، آثر عرب فلسطين الدخول في الدين الجديد، ومنذ ذلك العهد البعيد ظل عرب فلسطين هم الأكثرية الساحقة في البلاد، وأصحابها الشرعيين}

ويقول منوحن أيضا {لماذا نضطهد وننفي ونستولي على بيوت وأراضي الناس الذين كانوا يحسنون معاملتنا؟، وكانوا طوال السنوات الألف والخمسمائة الأخيرة من التاريخ هم وحدهم الذين احتضنوا اليهود بين أبنائهم، ورحبوا بهم بين ظهرانيهم، في وقت كان اليهود يفرّون من الاضطهاد من ديار إلى أخرى}.

وكفقرة أخيرة يمكن أن نستشهد بما قاله المؤرخ الشهير ول ديورانت في موسوعته (قصة الحضارة) {إن التعصب الإقليمي الذي ساد كتاباتنا التقليدية للتاريخ، التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان وتلخص آسيا كلها في سطر واحد، لم يعد مجرد غلطة علمية، بل ربما كان إخفاقا ذريعا في تصوير الواقع، ونقصا فاضحا في ذكائنا}.

وبما قاله كيث وايتلام في كتابه المهم (اختلاق إسرائيل التوراتية) {يتحول الصراع على الماضي إلى صراع على الحاضر، من خلال ابتكارات خيالية لماض يعاد بناؤه بشكل تعسفي}، ولكن السياسة الصهيونية الإسرائيلية القائمة على إعادة تشكيل الماضي المتخيل الافتراضي، غير متنبهة، أو أن لديها عمهاً منطقياً استقرائياً، لأنها ستتعرض إلى نفس النهاية المأساوية للماضي المتخيل في مرحلة الملوك المؤسسين، وللماضي المتحقق في مرحلتي انقسام المملكة التي انتهت بالسبي البابلي، والمرحلة الرومانية والتي انتهت بالشتات اليهودي في أرجاء العالم، لأن السياسة الإسرائيلية الصهيونية لم تأخذ بالحسبان حركية الروح المفترضة للماضي المتخيل، والتي تمضي إلى نهايتها دون أن تقوم السياسة الراهنة بمعالجتها كي تضمن لنفسها أن لا تسير إلى نفس النهاية في الماضي المتخيل الافتراضي.

وفي النهاية، وبعد أن بدأت أصوات عالمية متعددة تدعوا لتحرير التاريخ من إسار الفكر الديني الأسطوري للتوراة، لا سيما بعد أن بدأ البحث الآثاري يشكك في الكثير من المقولات التوراتية، بل ويرفضها، يتوجب على القطب العربي الإسلامي أن يواكب، وأن يقدم لتلك الأصوات كل ما يمكنه أن يمدها بالقوة، ويجعلها تعتلي أعلى المنابر الخطابية الموازية ارتفاعا للمنابر الصهيونية.

وعلى الإعلام العربي أن يتنبه تماما، إلى الخطاب الغربي وإلى تحولاته، وأن يدرس الأسباب التي تؤدي إلى نقص الحماس عند الباحثين عن الحقيقة، وإيجاد المعالجة المناسبة التي تفعّل هذا الحماس، بالنسبة للمؤرخ الباحث عن الحقيقة، والخارج عن هيمنة اللاهوتيين الذين يُعَدّون أن التوراة هي النواة المركزية للتاريخ الإنساني، وذلك لأن اليهود هم الذين شكلوا الوعي الأساسي الإنساني، ولذلك يبدأ التاريخ الإنساني بهم، وكل ما كان قبلهم هو ما قبل التاريخ، أو المرحلة الجاهلية للتاريخ.

وبما أن إحدى ركائز الصهيونية هو إعادة تشكيل التاريخ الماضي الوهمي، فيجب أن ترتكز النظرية العربية للوقوف في وجه الصهيونية على دك هذه الركيزة، بمقدار ما تسعى إلى المشاركة في صناعة، وصياغة التاريخ السياسي العسكري الحضاري الحاضر.

خاتمة

إن زمن التأريخ التوراتي كما سبق وذكرنا متقطع بشكل لافقاري إلى أكثر من ثلاث مراحل، أو عصور:

- الأول: عصر الآباء الأوائل (إبراهيم - إسحاق - يعقوب):

حيث يدّعي اليهود أنهم أحفاد النبي الحنيف إبراهيم الذي يعيده المؤرخون إلى القرن التاسع عشر (ويزمن له ١٩٠٠ - ١٨٥٠ قبل الميلاد، والذي هاجر من مدينة أور الواقعة جنوب بلاد الرافدين، شمالا باتجاه حاران، ثم من هناك تغرّب إلى بلاد كنعان، فمصر ثم بلاد كنعان ثانية، حيث مات فيها، وورث عنه قيادة الرحلة ابنه إسحاق، ثم حفيده يعقوب الذي هاجر إلى حاران، ثم عاد إلى بلاد كنعان ثانية، ومن هناك، وبسبب الجفاف، انتقل يعقوب مع أولاده، وبرعاية يوسف إلى مصر، المحطة الأخيرة في رحلة الآباء الأوائل.

- الثاني: عصر موسى:

تدعي التوراة أن أبناء يعقوب الاثني عشر، ومن تحدّر منهم، استوطنوا في منطقة الدلتا في مصر العليا، وبعد قرابة أربع مائة سنة أعاد موسى تاريخ الأسباط إلى الجريان ثانية، حيث استطاع النبي موسى الخروج من عبودية مصر إلى سيناء مع قرابة ثلاثة ملايين إنسان من أتباعه من بني إسرائيل، مع بعض (اللفيف)، في نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وفي سيناء - التي بقي فيها قوم موسى تائهين لمدة أربعين عاما - استقبل النبي موسى الشريعة من الرب يهوه، وينتهي هذا العصر بوصول النبي موسى إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن، وموته هناك، والذي تبعه مباشرة تأريخ دخول القبائل العبرية بقيادة يشوع إلى بلاد كنعان، والسيطرة عليها، وهناك وبعد موت يشوع تفرقت كلمة القبائل العبرية الذين كانوا يُحكمون قبليا من قبل القضاة العبرانيين، أما مدنيا فيحكمون من قبل شعوب المنطقة.

- الثالث: عصر المملكة المتحدة، وانقسامها، وانتهاؤها:

يأتي هذا العصر، بعد مرحلة من التمزق العبري بين شعوب بلاد كنعان، حيث استطاع شاول الملك الأول أن يوحد القبائل العبرية، وجاء من بعده داود الذي استطاع أن يشكل حدودا جغرافية للملكة، أما سليمان فقد استطاع أن يوجد اعترافا سياسيا، حضاريا لها، وبعد موت الملك سليمان انقسمت المملكة الموحدة إلى مملكتين: شمالية، هي مملكة السامرة (إسرائيل)، وجنوبية، هي مملكة يهوذا، وقد انتهت مملكة إسرائيل إلى الزوال سنة ٧٢١ قبل الميلاد على يد الآشوريين، أما مملكة يهوذا فانتهت سنة ٥٨٦ قبل الميلاد على يد الكلدانيين، وينتهي التأريخ التوراتي بعودة المسبيين على يد الفرس إلى بلاد كنعان مرة أخرى.

عصر اليهود بين السبي، والشتات:

وهذا العصر، غير توراتي، بل هو عصر تاريخي، ويبتدئ هذا العصر بعد أن تم سبي اليهود من بلاد كنعان في سنة ٥٨٦ قبل الميلاد، إلى بابل ومحيطها، ثم يستمر من خلال عودتهم على يد الفرس في سياق القرن الخامس قبل الميلاد، حيث خضعوا لمراحل سياسية سيادية متداخلة، ما بين الاستقلال الكامل، وما بين الحكم العسكري المباشر من قبل الفرس، ثم اليونان، ثم البطالسة، ثم السلوقيين، ثم الرومان والذين أنهوا هذه المرحلة سنة ٧٠ ميلادي بتشتيت اليهود في كل إنحاء العالم، حيث يبدأ العصر اليهودي الأطول من بين العصور، وهو الذي يمتد ما بين الشتات اليهودي، والعودة الصهيونية إلى بلاد كنعان (فلسطين).

بدأ اليهود بتدوين التوراة في مرحلة السبي البابلي، حيث قام الكهنة بكتابة الماضي اليهودي الذاتي تحت ضغط عدة نزعات نفسية جمعية، أهمها النزعة العنصرية الشوفينية التي تتكامل، وتشكل الوجه الآخر لعقدة النقص التاريخية اليهودية الجمعية، فبينما كان حضورهم يتمسرح في الظل على هامش التاريخ، حاول الكهنة والقادة الذين يمثلون ضمير اليهود الجمعي، أن يقنعوا، وأن يقدموا أنفسهم على أن تاريخهم كان يتموضع في مركز التاريخ الإنساني، بل ومركز الوجود، وبتعبير آخر حاولوا أن يكتبوا تاريخهم كما كانوا يحلمون، أو يتمنون أن يكون ماضيهم التاريخي، وبتعبير آخر كتبوا أحلامهم، وأمانيهم على شكل ذكريات، كما قام الأنبياء بدور نفسي مهم في قيادة المسبيين من خلال تبرير، وإلصاق هزيمتهم التاريخية بالإرادة الإلهية البحتة، وهذه

الإرادة هي نفسها (من خلال نبوءاتهم المستقبلية) التي ستقوم أيضا ليس بإرجاعهم إلى يهوذا فحسب، بل وستجعلهم يقودون العالم بأسره تحت قيادة المسيح المنتظر بعد أن يعيدهم إلى الأرض المقدسة، وعلى اليهود في منافيهم أن يتماسكوا، وينتظروا، دون أن يساورهم أدنى شك، قدوم هذا المسيح، الذي سيكون رئيسا أو ملكا أو ممثلا لله على مملكة الأرض.

لقد ذكرت، وأكدت في غير موقع على أن النص التوراتي لا يمكن اعتباره نصا تاريخيا لما يتضمنه من عمه زماني، ومكاني، ومن مبالغات، وبذلك فإن البحث عن تاريخ فلسطين سيكون مظللا حين يأخذ من التوراة مرجعا له، في الوقت الذي يمكن أن تكون مقاربة وتشخيص هذا التاريخ أكثر موضوعية، وأقرب إلى الحقيقة فيما لو اعتمدت في ذلك على النتائج التي يدلي بها البحث الأثري أولا، مع قراءة التاريخ العام للمنطقة ثانيا، مع الاستئناس بالنصوص التوراتية بعد الغوص في المعرفة العميقة للآلية النفسية والعقلية لمحرريها بدرجة ثالثة، ووضع نقاط ارتكاز من كل الحيثيات، يتم من خلالها مقاربة هذا التاريخ.

والمرحلة التوراتية الأكثر أهمية، والأكثر جدلا في التوراة، هي المرحلة الكنعانية، لأنها المرحلة التي يؤمن اليهود بحدوثها في الماضي، والتي تشكل مرجعية أساسية للأيديولوجية الصهيونية، والتي تسعى إلى إحياء الماضي في الحاضر، وتُعَدّ المرحلة الكنعانية هي المرحلة الجغراسياسية في التاريخ التوراتي، والتي تبتدئ بدخول القبائل العبرية إلى بلاد كنعان بنهاية العصر البرونزي، وبداية العصر الحديدي في فلسطين، بقيادة يشوع حيث، حسب ما جاء في المقولة التوراتية، قامت القبائل العبرية بتدمير المدنية الكنعانية، وأبادت الشعب الكنعاني على اختلاف مسمياته بشكل نهائي، ولكن الأبحاث العلمية المطلعة أو المستأنسة بمقولة التوراة طرحت مقولاتها كما يلي:

في نهاية العصر البرونزي الثالث أو الحديث (١٦٠٠ - ١٢٠٠ق.م)، وبداية العصر الحديدي الأول أو المبكر (١٢٠٠ق.م - ١٠٠٠ق.م)، وبعد انتهاء مرحلة من الجفاف الذي كان قد أضعف الحياة في المنطقة، ومع بداية عودة المناخ المطري الذي أعاد التوزيع الديمغرافي الداخلي لبلاد كنعان، بالتشارك مع بعض الحركات الشعوبية، والعسكرية، أهمها الحملة التأديبية التي قام بها مرنفتاح، بعد قدوم شعوب البحر، واستيطان الجماعات البيلستية على السهول الساحلية الجنوبية لبلاد كنعان، كما

تزامن أيضا مع حركة استيطان تسللي وتدريجي لجماعات بشرية ذات طابع شبه بدوي لبلاد كنعان، قدمت من الجنوب عبر صحراء النقب ووادي عربة، ومن الشرق عبر نهر الأردن، وقد انتشرت في بلاد كنعان بدءا بالمنطقة الشمالية من الهضاب المركزية، مع امتداد بطيء ومتدرج نحو الجنوب، وأخذت تفرض تغييرات ديمغرافية استيطانية جديدة، وقد اتخذت تلك الجماعات البشرية البدوية من قمم الجبال، ومن المناطق والأراضي المشاع، مكانا لنصب خيامهم، ومن ثم استيطانهم عليها، إضافة إلى استيطانهم على محيط بعض القرى والمدن الكنعانية والعبرية القديمة المتكنعنة، ويُعتقد أن هذه الجماعات البشرية هي القبائل العبرية التي ورد ذكرها في التوراة، والتي لا تحمل أي طابع حضاري أو ثقافي محدد مشترك فيما بينها، بحيث لم يتمكن البحث الأثري من تمييزها عن القرى الكنعانية الوطنية التي كانت متواجدة، وقد استطاعت هذه القبائل أن تتحالف فيما بينها ضد المواطنين وقراهم الزراعية، وأن تشكل كياناً قبلياً عشائرياً بدوياً.

والمنطق التاريخي يفترض نشوب صراع بين الجماعات البدوية من جهة، والزراعية من جهة ثانية، وهو صراع نسقي متكرر في كل زمان ومكان ما بين البدو الرحل الدخلاء، أو الوافدين - الذين يشكلون قوة قبلية أثنية ليس لها بنية جغراسياسية محددة - وما بين المزارعين الذين يشكلون كياناً جغراسياسياً، وهذا الصراع ينشب غالبا نتيجة اعتداء البدو على الفلاحين من خلال رعي أغنام، ومواشي البدو، على الأراضي الزراعية للفلاحين، أو من خلال قيام القبائل البدوية بغزو القرى الزراعية ونهبها تحت جنح الظلام، مع استغلالها لعنصر المفاجأة أيضا، ثم انتقال هذه القبائل إلى أماكن أخرى، الأمر الذي يحرم القرى من إمكانية الرد على هذه الغزوات، وآخر هذه الصراعات تمت في منطقة حوران جنوب سوريا سنة ٢٠٠٠ للميلاد، حيث نشب صراع نسقي بين العشائر البدوية (القبائل الشنابلة) المستوطنين في جبل حوران، وبين فلاحي المنطقة، وقد استخدمت فيه بعض الأسلحة النارية الفردية، وراح ضحية هذا الصراع بضع عشرات من القتلى من الطرفين، وتم إحراق وتدمير بعض البيوت البدوية التي كانت مبنية على أطراف المدن، والقرى الحضرية، ولكن وبوجود دولة ونظام سياسي عسكري مركزي تم قمع هذا الصراع في مراحله الأولى، وأعيدت الأمور إلى ما كانت عليه بعد مدة قصيرة من الزمن، ولكن الوضع الإقليمي الدولي في مرحلة البرونز المتأخر والحديدي الأول، كان يفتقد إلى قوى مهيمنة تستطيع أن تشكل شرطي في المنطقة،

وهذا ما جعل الصراع يستمر لمدة طويلة، وقد تفكك هذا الصراع إلى مجموعة من الصراعات المحلية كانت تشتعل، وتنتهي ثانية بين الجماعات القبلية (العبرية) والقرى الوطنية (الكنعانية) حسب إمكانية هيمنة قوى محلية (الفلستيين - الفينيقيين - الأموريين - القبائل العربية).

والجدير ذكره أن الباحث فرج الله ديب قد ذكر أن عدم ذكر الكنعانيين من قبل هوميروس، وحتى هيرودس ٤٧٤ قبل الميلاد، الذي زار منطقة الشرق الأدنى، وتحدث عن شعوبها ومدنها، يعود لا لأن الكنعانيين كانوا قد انتهوا، ودفن اسمهم في التاريخ، دون أن يترك لهم التاريخ شاهدة أو بقية من الشعب يذكّروا باسمهم، بل لأن كلمة كنعاني هي تعبير أو حالة وصفية للمُزارع (الكانع هو المستقر)، أما كلمة عبراني فتشكل حالة وصفية للبدوي الجوال المتنقل (العابر هو البدوي الجوال)، وإن كان هذا التوصيف قد استخدم كاسم في بعض الحالات، كما أن هيرودوس أيضا لم يأت على ذكر اليهود في فلسطين، ومن المفترض أن زيارة هيرودوس للمنطقة كانت تتزامن مع عودة الجماعات اليهودية من السبي البابلي.

أما أصحاب كمال الصليبي، ومن اتبع مذهبه، فهم يعتقدون أن الكنعانيين أصلا لم يكونوا في جنوب سوريا أي في ما يدعى ببلاد كنعان (فلسطين) بل كانوا في الجنوب الغربي من شبه جزيرة العرب.

ويمكن الافتراض أن هذا الصراع البدوي - الحضري في بلاد كنعان في المرحلة الانتقالية ما بين العصر البرونزي الثالث، والحديدي الأول، كان ضعيفا ومحليا وليس له أي قيمة في حسابات الدول، والممالك، والإمبراطوريات المحيطة، ولا سيما القوة المصرية التي كانت تحرص على إبقاء بلاد كنعان تحت هيمنتها، والتي كانت تعاني حالة ضعف وانكماش في تلك المرحلة، ولكن، ومع مرور الزمان، تم تفكيك الصراع إلى عدة صراعات ضعيفة، ما فتئت أن اختفت في النهاية، من خلال اندماج الأقلية البدوية في الأماكن الزراعية (الكنعانية) ذات الكثافة الديموغرافية العالية، واستيطان، واستقرار بعض القبائل البدوية على الأراضي التي تمتاز بانخفاض الكثافة السكانية.

ويبدو أن القبائل التي حطّت ونصبت خيامها في المنطقة الشمالية من الهضاب المركزية (السامرة، ومحيطها) استطاعت آن تحقق اندماجا (كنعنة)، لا سيما وأن النصوص التاريخية بينت أن جماعات عبرية كانت قد سيطرت، واستوطنت عليها في سياق القرن الخامس عشر قبل الميلاد - أكثر من المنطقة الجنوبية التي غلب عليها الطابع البدوي القبلي.

وبذلك فقد بدأت الجماعات القبلية البدوية تتحول إلى جماعات استيطانية بدائية فقيرة وشبه حضرية (حسب المعطيات الأركيولوجية)، وشيئا فشيئا بدأت عمليات الاندماج (الكنعنة) الاجتماعية والدينية، وقد كَنعت القبائل العبرية - حتى المتزمتة منها - الإله (يهوه)، بعد أن كانت قد تعرفت عليه، وتبنته في منطقة سعير وسيناء، وقامت بتطويره بما يتلاءم مع نمطهما الحياتي الجديد.

وقد بينت الدراسات التاريخية أن عبادة الإله يهوه كانت منتشرة على نطاق ما، في الألف الأول قبل الميلاد من إيبلا شمالا، وحتى سيناء جنوبا، ويعتقد أن موطنه الأصلي - أو انه كان الإله الرئيسي - في منطقة مديان وأدوم ومنها انتشر شمالا، وكانت بلاد كنعان بشكل خاص، والشرق الأدنى بشكل عام في تلك الفترة، تدين بالدين الحنيف الذي كان يدين به إبراهيم، بينما كان العبريون منقسمين بين من يدينون بالديانات الكنعانية، وبين من يدينون باليهوية، حيث اتخذوا من الإله يهوه إلها واحدا خاصا بهم، وهو الدين الذي تمسكت به القبائل التي انتشرت في المنطقة الجنوبية من بلاد كنعان، وحاولت أن يكون إلها، ودينا مركزيا وقاومت كنعنته، ولكنها من المؤكد لم تستطع أن تقاوم كنعنة لسانها، وبالتالي أيضا قلمها.

وبينما كان الانتماء في البداية أثنياً قبلياً لدى القبائل المستوطنة، تحول بعد امتلاك الجماعات البدوية بنية جغرافية، إلى انتماء وطني، وبينما كانت تلك القبائل معزولة نسبيا عن محيطها السياسي والديموغرافي، بدأت بالانخراط والاندماج، بل والانصهار ضمن محيطها الكنعاني، لا سيما بالنسبة لقبائل الضفة الغربية الشمالية (السامرة)، والتي أخذت اللغة والدين الكنعاني، وهذا أدى إلى تشيكل خليط بشري كنعاني - عبري، على عكس القبائل الجنوبية على جبال أورشليم والخليل، والتي كانت تنتشر وتتوزع ضمن محيط كنعاني ضعيف، الأمر الذي ساهم في أن تبقى تلك القبائل البدوية متزمتة في انتمائها الأثني القبلي.

وإذا، استطعنا أن نعتقد أن النص التوراتي في معرض حديثه عن مرحلة الدخول، والاستيطان، والمملكة المتحدة، هو نص أدبي شعري أسطوري لحالة تاريخية حقيقية بسيطة، فيمكن أن نستنتج، أو نفترض أن بعض القبائل العبرية قد تجمعت، أو اتحدت في تنظيم إداري أو سياسي كحالة دفاعية لتحدي المحيط السكاني، ولا سيما تحدي جماعات البيلست التي حطّت على الشريط الساحلي الجنوبي للبحر المتوسط متزامنة مع الاستيطان العبري على الضفة الغربية لنهر الأردن، وقد التفت تلك الجماعات العبرية حول

قبيلة يهوذا، والتي ربما استطاعت أن تفرض نفوذها، وسيادتها في بعض الأحيان بقيادة رجال مميزين كان من بينهم داود، ومن ثم ابنه سليمان، على القرى الحضرية المحيطة الضعيفة، ولكن هذا التشكيل القبلي كان صغيرا وضعيفا وقصيرا إلى درجة أنه لم يترك له أي أثر يشهد عليه، والمنطق البحثي يفترض أن هذا الكيان السياسي لم يكن أكثر من تحالف قبلي لمجموعة من المشيخات، يترأس عليها شيخ الشيوخ، أو قاضي القضاة، كما هو عليه الحال في النظام العشائري القبلي في كل مكان، وزمان، ويبدو أن بعض الشيوخ المميزين (داود وسليمان) قد حققوا بعض السيطرة على القبائل العبرية الشمالية التي كانت قد زاوجت بين النظام القبلي العشائري، والنظام الكنعاني (المدينة - الدولة) الذي كان سائدا في المنطقة.

إن البنية الاقتصادية للضفة الغربية، كما تظهرها البحوث الأثرية، كانت فقيرة، وتعتمد على رعي الماشية، وعلى بعض الأعمال الزراعية للأراضي الضيقة على الجبال القابلة للزراعة، ومثل هكذا بنية اقتصادية لا يمكن لها أن تشكل بنية تحتية ديمغرافية سكانية وعمرانية واقتصادية يمكّنها من بناء جيوش منظمة، وهذا يدحض ما أتى في التوراة في معرض حديثها عن قوة، واتساع مملكة داود، وعن عظمة، وازدهار مملكة سليمان، في الوقت الذي يفترض فيها أن القبائل البدوية العبرية كانت تمر في طور الانتقال ما بين مرحلة البداوة، وبين مرحلة والاستيطان، والتحضر.

وقد أظهرت الأبحاث الأركيولوجية أن تحسن الحالة البيئية العامة، بعد تزايد الكميات المطرية، أدى إلى حراكية اقتصادية محلية في المنطقة في سياق العصر الحديدي الأول، وانتقاله نحو الحديدي الثاني، والذي فيه استطاعت البنية الاقتصادية أن تقدم تبرعاتها أو فائضها لتأسيس بنية عمرانية، وأن تموّل أيضا نظاما سياسيا عسكريا يمكنه أن يثبت تواجده تاريخيا، وهو النظام الذي أتت على ذكره الحوليات الآشورية، باسم مملكة عمري، كما أن الأبحاث الأركيولوجية أكدت على حصول تطور معماري سكني، ودفاعي عسكري، حيث اكتشف العديد من الأبنية الدفاعية والتحصينات حول المدن والقرى، وبالذات في المنطقة الشمالية من الضفة الغربية، التي استطاعت في سياق القرن التاسع قبل الميلاد أن تحيي مملكة إسرائيل الكنعانية - التي كانت قد تشكلت في القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، والتي كان قد أنهى وجودها الفرعون مرنفتاح، وقد عادت تلك المملكة إلى الوجود باسم مملكة السامرة، أو بيت عمري كما جاءت تسميتها في الحوليات الآشورية في القرن التاسع قبل الميلاد، ولكن

هذا التحول في المنطقة الشمالية لم يكن قد حصل بالتوازي مع المنطقة الجنوبية (أورشليم ومحيطها)، التي كانت تعاني حالة من الفقر، ولكن، ومع مزيد من التحسن البيئي، استطاعت بعد تأخر قرنين من الزمان عن التطور الذي حصل في المنطقة الشمالية، أن تشكل كياناً عسكرياً باسم مملكة يهوذا القبلية، والتي انتهت على يد البابليين سنة ٥٨٦ قبل الميلاد، بعد أن كان الآشوريون قد أزالوا مملكة السامرة (إسرائيل) الشمالية سنة ٧٢١ قبل الميلاد.

المراجع

القرآن الكريم.

الكتاب المقدس - مجموعة محررين - دار الكتاب المقدس.

إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة - إبكار سكاف.

بروتوكولات حكماء صهيون - عجاج نويهض - مجموعة الأجزاء الأربعة - الطبعة الرابعة ١٩٩٦ - دار الاستقلال للدراسات والنشر - المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

فلسطين أرض الرسالات السماوية - روجيه غارودي - ت: قصي أتاسي - ميشيل واكيم - الطبعة الأولى ١٩٨٨ - دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية - روجيه غارودي - ت: حافظ الجمالي - صياح الجهيم - دار عطية للنشر.

إسرائيل (الصهيونية السياسية) - روجيه غارودي - ت: جبرائيل بيطار - مركز الدراسات العسكرية.

أوهام التاريخ اليهودي- جودت السعد - الطبعة الأولى ١٩٨٨ - الأهلية للنشر والتوزيع.

خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل - كمال الصليبي - الطبعة الرابعة ١٩٨٨ - دار الساقي.

البحث عن يسوع - كمال الصليبي - دار الشروق.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي - الياس شوفاني -الطبعة الثانية ١٩٨٨ - مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

صراعنا مع اليهودية بين الصلح المستحيل والمواجهة الحتمية - العقيد الركن محمد بن مهنا العلي - ط١ ١٩٩٣ - دار أمية للنشر والتوزيع.

موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - عبد الوهاب المسيري - دار الشروق.

من هو اليهودي - إسحق دوتشير - ت: نجاة قصاب حسن - دار العروبة للطباعة.

تاريخ أورشليم - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.

آرام دمشق وإسرائيل - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.
لغز عشتار - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.
الأسطورة والمعنى - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.
الرحمن والشيطان - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.
موسوعة تاريخ الأديان - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.
تاريخ نقد العهد القديم - زالمان شازار - ت: أحمد محمد هويدي - ٢٠٠٠ - المجلس الأعلى للثقافة.
أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق القديم - د. كارم محمود عزيز.
الماضي الخرافي: التوراة والتاريخ - توماس طمسن - ت: عدنان حسن.
الإيديولوجية الصهيونية - ج١ ج٢ - د. عبد الوهاب المسيري - ١٩٨٣ - سلسلة عالم المعرفة الكويتية.
أحجار على رقعة الشطرنج - وليام غاي كار - ت: سعيد جزائرلي - ط١٤ - ٢٠٠٠ - دار النفائس.
أهل الكهف - هالة العوري - ٢٠٠٠ - رياض الريس للكتب والنشر.
تاريخ اليهود - أحمد عثمان - مكتبة الشروق.
دائرة المعارف الكتابية.
تاريخ يَهْوَه - جورجي كنعان - الدار العربية للعلوم.
محمد واليهودية - جورجي كنعان - بيسان للنشر والتوزيع.
بثور في جلد التاريخ - جورجي كنعان - بيسان للنشر والتوزيع.
مملكة الصعايك - جورجي كنعان - دار الطليعة.
من يجرؤ على محاكمة الإله - جورجي كنعان - دار الطليعة.
الله هو القضية والمسيح هو المشكلة - جورجي كنعان.
الواقع والأسطورة في التوراة - زينون كاسيدوفسكي - ت: د. حسان إسحاق - الأبجدية للنشر.
العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود - د. أحمد يوسف داوود - إصدار خاص.
تاريخ سوريا الحضاري القديم (المركز) - د. أحمد يوسف داوود - إصدار خاص.
تاريخ سوريا القديم - تصحيح وتحرير: د. أحمد يوسف داوود - دار الصفدي.

جغرافية التوراة مصر وبنو إسرائيل في عسير - زياد منى - دار الريس للكتب والنشر.
الأسطورة والتراث - سيد القمني - المركز المصري لبحوث الحضارة.
النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة - د. سيد القمني - المركز المصري لبحوث الحضارة.
الإسرائيليات - د. سيد القمني - إصدار خاص.
النهايات: الهوس القيامي الألفي - ديتر تسمرلينغ - ت: ميشيل كيلو - دار قدمس للنشر والتوزيع.
ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق - د. أحمد سوسة - المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
الفرق والمذاهب اليهودية منذ البدايات - عبد المجيد همو - الأوائل.
ما بين موسى وعزرا كيف نشأت اليهودية - عبد المجيد همو - الأوائل.
الله أم يَهْوَه أيهما إله اليهود - عبد المجيد همو - الأوائل.
اليهودية بعد عزرا.. وكيف أقرت - عبد المجيد همو - الأوائل.
مفاهيم تلمودية.. نظرة اليهود إلى العالم - عبد المجيد همو - الأوائل.
الفرق والمذاهب اليهودية منذ البدايات - عبد المجيد همو - الأوائل.
نقد الدين اليهودي - جميل خرطبيل - الأوائل.
حقائق وأباطيل في تاريخ بني إسرائيل - فوزي محمد حميد - دار الصفدي
مصير إسرائيل في النبوءات - محمد عرب - الأوائل.
دراسات توراتية - حنا حنا - الأوائل.
إرم ذات العماد - فاضل الربيعي - رياض الريس للكتب والنشر.
العصور الحجرية، وما قبل الأسرات في مصر والشرق الأدنى القديم - د. أحمد أمين سليم - دار المعرفة الجامعية.
لبنان القديم - كارلهاينز - برنهردت - ت: ميشيل كيلو - قدمس للنشر والتوزيع.
الديانة الفرعونية - واليس بدج - ت: نهاد خياطة - دار علاء الدين للنشر.
الرومان - د. سيد أحمد علي الناصري - دار النهضة العربية.
تاريخ بلاد الرافدين - د. عيد مرعي - الأبجدية للنشر.
الأساطير - أحمد كمال زكي - مكتبة الأسرة.
العبادات في الأديان السماوية - عبد الرزاق رحيم صلال الموحي - الأوائل.
الخديعة الكبرى - د. محمد جمال طحان - الأوائل.

كيف صنع اليهود الهولوكوست - نورمان فنكلشتاين - ت: د. ماري شهرستان - الأوائل.

مناهضة السامية - برنار دي لازار - ت: د. ماري شهرستان - الأوائل.

الأثنولوجيا - محمد الخطيب - دار علاء الدين للنشر.

ديانة مصر القديمة - محمد الخطيب - دار علاء الدين للنشر.

الفهرس

الشتات اليهودي

الصهيونية

الإعلام الصهيوني

منشورات دار علاء الدين في مجال التاريخ والميثولوجيا

- السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية
  ـــــــــ جان كلود مارغرون
- الاقتباس والجنس في التوراة
  ـــــــــ خلاص مسور
- في أصل العرب ومواطنهم
  ـــــــــ د. ماجد عبد الله الشمس
- القاهرة وبيت المقدس ودمشق
  ـــــــــ دافيد صموئيل مارجليوث
- التشريعات البابلية
  ـــــــــ عبد الحكيم الذنون
- بدايات الحضارة
  ـــــــــ عبد الحكيم الذنون
- الأسطورة في بلاد الرافدين الخلق والتكوين
  ـــــــــ عبد الحميد محمد
- الحضارات القديمة ١-٢
  ـــــــــ ف. دياكوف / س. كوفاليف
- صراع بين الحرية والاستبداد
  ـــــــــ فارس الحناوي
- الأسطورة والمعنى
  ـــــــــ فراس السواح
- التاو تي تشينغ إنجيل الحكمة التاوية في الصين
  ـــــــــ فراس السواح
- الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم
  ـــــــــ فراس السواح
- الرحمن والشيطان
  ـــــــــ فراس السواح
- الوجه الآخر للمسيح
  ـــــــــ فراس السواح
- آرام دمشق وإسرائيل
  ـــــــــ فراس السواح
- تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود
  ـــــــــ فراس السواح
- جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة
  ـــــــــ فراس السواح
- دين الإنسان
  ـــــــــ فراس السواح
- لغز عشتار
  ـــــــــ فراس السواح
- مغامرة العقل الأولى
  ـــــــــ فراس السواح
- موسوعة تاريخ الأديان الكتاب الأول
  ـــــــــ فراس السواح
- موسوعة تاريخ الأديان الكتاب الثاني
  ـــــــــ فراس السواح
- شريعة حمورابي
  ـــــــــ مجموعة من المؤلفين
- الديانة الفرعونية
  ـــــــــ واليس بدج
- نقد النص التوراتي - التأريخ التوراتي المزيف بين إسرائيل الكنعانية وإسرائيل العبرية وإسرائيل الصهيونية الكتاب الأول
  ـــــــــ د. إسماعيل ناصر الصمادي
- التأريخ التوراتي.. والتاريخ - التأريخ التوراتي المزيف بين إسرائيل الكنعانية وإسرائيل العبرية وإسرائيل الصهيونية الكتاب الثاني
  ـــــــــ د. إسماعيل ناصر الصمادي